www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

نسخة معالجة
ومخفضة

ادواردو جاليانو

الشرايين المفتوحة لامريكا اللاتينية

تاريخ مضاد

www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

ترجمة
احمد حسان
بشير السباعي



www.ibtesama.com/vb

المعالجة وتخفيض الحجم
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

بقيادة
** معرفتي **

www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesama.com/vb

آدواردو جاليانو

الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية

(تاريخ مضاد)

ترجمة

أحمد حسان

بشير السباعي



النيل

www.ibtesama.com/vb

هذه ترجمة الطبعة الحادية والثلاثين من كتاب:

LAS VENAS ABIERTAS DE

AMÉRICA LATINA.

الصادرة عن دار نشر

SIGLO VEINTIUNO DE ESPAÑA

في ديسمبر عام ١٩٨١.

ترجم أحمد حسان المقدمة والباب الأول وبعد سبع سنوات.

وترجم بشير السباعي الباب الثاني عن الإنجليزية والفرنسية.

الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية

- تاريخ مضاد -

تأليف : ادواردو جاليانو

ترجمة : أحمد حسان ، بشير السباعي

نشر : دار النيل - إسكندرية

طباعة : مطبعة الجمهورية - إسكندرية

رقم الإيداع : ٩٤ / ٤٧٩٤

الترقيم الدولي : I - S - B - N: 977 - 5360 - 05 - 6

تصميم الغلاف: للفنان علي عاشور - إسكندرية

جمع وترتيب : طارق حسانين - إسكندرية

www.ibtesama.com/vb

ماكان لهذا الكتاب أن يتم بدون المعاونة التي قدمها ، بصورة أو بأخرى، سيرخيو باجو، ولويس كارلوس بنبينوتو، وفرناندو كارمونا ، وأليثيا كاستييو، وألبرتو كوريل، وأندريه جوندر فرانك، وروخيليو جارثيا لوبو، وميجيل لاباركا ، وكارلوس ليسا ، وصامويل ليشتنشتاين، وخوان أ. أودوني، وأدولفو بيريلمان، وأرتور بويرنر، وخرمان راما ، ودارسي ريبيرو، وأورلاندو روخاس، وخوليو روسييو، وپاولو شيلينج، وكارل - هاينز ستانزيك، وبيبيان ترياس، ودانييل بيدارت.

فإليهم، وإلى الأصدقاء العديدين الذين شجعوني على العمل خلال هذه السنوات الأخيرة، أهدي النتيجة، التي ليسوا مسئولين عنها ، بالطبع.

مونتفيديو، أواخر عام ١٩٧٠

www.ibtesama.com/vb

الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية

إدواردو جاليانو

المحتويات

صفحة

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

الفاتحين - الولايات المتحدة تحمي مدخراتها الداخلية، لكنها تتصرف في مدّخرات الآخرين بأريحية: غزو البنوك - إمبراطورية تستورد رؤوس الأموال - التكنوقراطيون أبرع من مشاة البحرية في قطع الطريق - التصنيع لايغيِّر من تنظيم عدم التكافؤ في السوق العالمية - الرية تكنولوجيا لاتتكلم بالإسبانية - تهميش البشر والأقاليم - تكامل أمريكا اللاتينية في ظل العلم ذي الخطوط والنجوم - "أبداً لن نكون سعداء ، أبداً" هذا ما تنبأ به سيمون بوليفار.



www.ibtesama.com/vb

"... لقد التزمنا صمتاً شديد الشبه بالحُمق ...."

(إعلان العصيان الذى أصدرته عصبة الدفاع فى
مدينة لاباز، فى ١٦ يوليو عام ١٨٠٩)

www.ibtesama.com/vb

من الزمان. والآن، نجد أن أمريكا، بالنسبة للعالم، لاتعني سوى الولايات المتحدة: والنتيجة، أننا نسكن أمريكا فرعية، أمريكا من الدرجة الثانية، ذات هوية غائمة.

إن أمريكا اللاتينية هي الإقليم ذو الشرايين المفتوحة. فمنذ الإكتشاف وحتى أيامنا، ظل كل شيء يتحول على الدوام إلى رأسمال أوربي، وبعدها إلى رأسمال أمريكي شمالي، وبهذه الصفة، ظل يتراكم، ومازال، في مراكز السلطة البعيدة. كل شيء: الأرض، بثمارها وأعماقها الغنية بالمعادن، والبشر، وقدرتهم على العمل وعلى الاستهلاك، الموارد الطبيعية والموارد البشرية. وبالتالي، فإن نمط الإنتاج وبنية الطبقات في كل موقع، تحدّدا من الخارج، على أساس تكاملهما في العجلة العالمية للرأسمالية. تحدّدت لكل واحد وظيفة، هي دائماً في صالح تطور المتروبول الأجنبي السائد، وأصبحت سلسلة التبعية المتتالية لا نهائية، فلها أكثر من حلقتين بكثير، ومن المؤكد أنها تتضمن، داخل أمريكا اللاتينية، اضطهاد البلدان الصغيرة من جانب جاراتها الأكبر، وفي داخل كل بلد، الاستغلال الذي تمارسه المدن الكبيرة والموانئ ضدّ المصادر الداخلية لإمدادها بالمؤن وبالأيدي العاملة. (منذ أربعة قرون، كانت قد وُلدت بالفعل ست عشرة من المدن العشرين الأكثر إزدحاماً بالسكان اليوم في أمريكا اللاتينية).

وبالنسبة لمن يفهمون التاريخ بإعتباره منافسة، فإن تأخر وبؤس أمريكا اللاتينية ليسا سوى نتيجة فشلها. لقد خسرنا؛ وكسب آخرون. لكن تصادف أن من كسبوا، قد كسبوا لأننا خسرنا: فتاريخ تخلف أمريكا اللاتينية يتضمن، كما ذكرنا، تاريخ تطوّر الرأسمالية العالمية. كانت هزيمتنا دائماً متضمَّنة في الإنتصار الأجنبي؛ وكانت ثروتنا تولّد دائماً فقرنا من أجل أن تغذّيَ رفاهية آخرين: هم الإمبراطوريات ومديروها المحليّون. ففي سيمياء الاستعمار والإستعمار الجديد، يتحوّل الذهب إلى خردة، والغذاء إلى سمّ. تعفّنت بوتوسي، وثاكاتيكاس، وأورو بريتو وسقطت من قمة بهاء المعادن النفيسة إلى الثقب العميق لسراديب المناجم الخاوية، وكان الخراب مصير سهول البامبا التشيلية حيث النترات والغابة الأمازونية حيث المطاط؛ أما الشمال الشرقي المنتج للسكر في البرازيل، أو الغابات الأرجنتينية التي تنتج خشب الكبراتشو*، أو بعض القرى المنتجة للبترول على بحيرة ماراكايبو، فلديها جميعاً أسباب مؤلمة للإعتقاد في فناء الثروات التي تقدمها الطبيعة وتغتصبها الامبريالية. إن المطر الذي يروي مراكز السلطة الامبريالية

---

* خشب الكبراتشو: خشب أمريكي لاتيني صلب على نوعين: الكبراتشو الأحمر، ويعد أهم مصدر لصبغة الدباغة، والأبيض ويستخدم في أغراض طبية – م.

www.ibtesama.com/vb

يقتل غرقاً الأطراف المترامية للنظام، وبنفس الطريقة، وبالتناظر، فإن رفاهية طبقاتنا المسيطرة - المسيطرة إلى الداخل والخاضعة نحو الخارج - هي لعنة جماهيرنا المحكوم عليها بحياة حيوانات الجرّ.

وتتسع الهوة الفاصلة. فعند منتصف القرن الماضي، كان مستوى المعيشة في بلدان العالم الغنية يفوق مستوى المعيشة في البلدان الفقيرة بنسبة خمسين بالمائة. لكن التنمية تنمّي التفاوت: فقد أعلن ريتشارد نيكسون Richard Nixon، في أبريل عام ١٩٦٩، في خطابه أمام منظمة الدول الأمريكية، أنه مع نهاية القرن العشرين سيكون دخل الفرد في الولايات المتحدة أعلى بمقدار خمس عشرة مرة من الدخل في أمريكا اللاتينية. إن قوة مجموع النظام الامبريالي تقوم على أساس التفاوت الضروري بين الأجزاء التي تكوّنه، ويكتسب هذا التفاوت أبعاداً تزداد درامية باستمرار. فالبلدان المضطهِدة تصبح بالتدريج أغنى بشكل مطلق، لكنها تصبح أغنى بكثير بشكل نسبي، وذلك بسبب آلية التفاوت المتزايد. بإمكان الرأسمالية المركزية أن تتمتع بترف خلق وتصديق خرافاتها الخاصة عن الإزدهار، لكن الخرافات لاتؤكل، وهذا ماتعرفه جيداً البلدان الفقيرة التي تشكل الرأسمالية الطرفية الواسعة. إن متوسط دخل المواطن الأمريكي الشمالي يفوق سبع مرات متوسط دخل الأمريكي اللاتيني ويتزايد بمعدل أسرع عشر مرات. والمتوسطات خادعة، بسبب الهُوى التي تنفتح بلا قرار، جنوبي الريو برافو*، بين الفقراء العديدين والقلة من أغنياء الإقليم. وبالفعل، فعند القمة، وفق ماتقوله الأمم المتحدة، يحتكر ستة ملايين أمريكي لاتيني نفس الدخل الذي يناله مائة وأربعون مليوناً يحتلون قاعدة الهرم الاجتماعي. وهناك ستون مليوناً من الفلاحين تبلغ ثروتهم خمسة وعشرين سنتاً من الدولار يومياً؛ وعلى الطرف المقابل، يمنح وسطاء الشقاء أنفسهم ترف تكويم خمسة آلاف مليون دولار في حساباتهم الخاصة في سويسرا أو الولايات المتحدة، ويغدقون على المظاهر والترف العقيم - المستفزّ والمتحدي - وعلى الاستثمارات غير المنتجة، التي تمثل مالايقل عن نصف الاستثمار الكلي، رؤوس الأموال التي كان يمكن لأمريكا اللاتينية أن توجهها إلى تجديد، وتوسيع، وخلق مصادر للإنتاج والعمل. إن طبقاتنا الحاكمة، نظراً لإرتباطها منذ البداية بمنظومة السلطة الامبريالية، ليس لديها أدنى إهتمام بالتحقق مما إذا كانت الوطنية يمكن أن تكون مربحة أكثر من الخيانة، أو ما إذا كان التسول هو الشكل الوحيد الممكن للسياسة الدولية. يتم ارتهان

* الريو برافو: النهر الفاصل بين الولايات المتحدة والمكسيك، ويعتبر الحد الشمالي لأمريكا اللاتينية - م.

www.ibtesama.com/vb

السيادة لأنه "ليس هناك سبيل آخر"؛ وتخلط الأعذار التي تقدمها الأوليجاركية عن عمد بين عجز طبقة إجتماعية بعينها وبين الفراغ المزعوم في مصير كل أمة.

لقد أعلن جوزويه دي كاسترو: "إنني، أنا الذي تلقيت جائزة" دولية للسلام، أعتقد، لسوء الحظ، أنه ما من حل لأمريكا اللاتينية سوى العنف". وهناك مائة وعشرون مليون طفل يضطربون في قلب هذه العاصفة. فسكان أمريكا اللاتينية يتزايدون أكثر من غيرهم؛ وقد تضاعفوا أكثر من ثلاث مرات خلال نصف قرن. وفي كل دقيقة يموت طفل من المرض أو الجوع. لكن في عام ٢٠٠٠ سيكون هناك ستمائة وخمسون مليوناً من الأمريكيين اللاتين، سيكون عمر نصفهم أقل من خمسة عشر عاماً: إنها قنبلة زمنية. أما المائتان وثمانون مليوناً من الأمريكيين اللاتين الموجودون في نهاية عام ١٩٧٠، فبينهم خمسون مليوناً من العاطلين أو الذين يعملون بعض الوقت وحوالي مائة مليون من الأميين؛ ويعيش نصف الأمريكيين اللاتين مكوّمين في مساكن غير صحية. وأكبر ثلاثة أسواق في أمريكا اللاتينية – وهي الأرجنتين، والبرازيل، والمكسيك – لاتستطيع في مجموعها أن تعادل القدرة الاستهلاكية لفرنسا أو ألمانيا الغربية، رغم أن مجموع سكان بلداننا الثلاثة الكبار يفوق بكثير سكان أي بلد أوربي. وتنتج أمريكا اللاتينية اليوم، بالنسبة للسكان، أغذية" أقل مما كانت قبل الحرب العالمية الأخيرة، وقد إنخفضت صادراتها بالنسبة للفرد ثلاث مرات، بالأسعار الثابتة، منذ عشية أزمة عام ١٩٢٩. إن النظام عقلاني جداً من وجهة نظر سادته الأجانب وبرجوازيتنا من الوسطاء، التي باعت روحها للشيطان بثمن كان يمكن أن يُخجل فاوست. لكن النظام لاعقلاني بالنسبة لجميع الآخرين بحيث أنه كلما تطوّر كلما زاد من حدّة إضطراباته، وتوتراته، وتناقضاته الملتهبة. وحتى التصنيع، التابع والمتأخر، الذي يتعايش بإرتياح مع اللاتيفونديا ومع بنيات التفاوت، فإنه يسهم في بذر بذور البطالة بدل أن يساعد على حلها: إذ يتسع الفقر وتتركز الثروة في هذا الإقليم الذي يملك فيالق ضخمة من الأذرع العاطلة تتضاعف دون توقف. وتقام مصانع جديدة في الأقطاب المحظوظة التنمية – ساو باولو، وبوينوس آيريس، ومدينة المكسيك – لكن الحاجة إلى الأيدي العاملة تقل بإستمرار. لم يحسب النظام حساب هذه المشكلة الصغيرة: مشكلة أن البشر هم مايفيض من الحاجة. والبشر يتجنّدون. يمارسون الحب بحماس ودون إحتياطات. وباستمرار، يتزايد الناس على قارعة الطريق، بلاعمل في الريف، حيث تسود اللاتيفونديا بأراضيها الشاسعة غير المزروعة، وبلاعمل في المدينة، حيث تسود الآلات: إن النظام يتقيأ بشراً. وتقوم البعثات

www.ibtesama.com/vb

الأمريكية الشمالية بتعقيم النساء على نطاق واسع وتبذر حبوباً، وأغشية، ولوالب، وعوازل مطاطية، وتقاويم تحمل علامات، لكنها تحصد أطفالاً: بإصرار، يواصل أطفال أمريكا اللاتينية توالدهم، مطالبين بحقهم الطبيعي في الحصول على مكان تحت الشمس في هذه الأرجاء الرائعة التي يمكنها أن تقدّم للجميع ماينكرونه على الجميع تقريباً.

في أوائل نوفمبر عام ١٩٦٨، أكد ريتشارد نيكسون Richard Nixon بصوت عالٍ أن "التحالف من أجل التقدم" قد أكمل سبع سنوات من عمره، ورغم ذلك، كان سوء التغذية وندرة الغذاء، قد تفاقما في أمريكا اللاتينية. وقبلها ببضعة أشهر، في أبريل، كتب جورج و. بول George W. Ball في مجلة لايف يقول: "خلال العقود القادمة، على الأقل، لن يعني سخط الأمم الأشد فقرا تهديداً بتدمير العالم. ومهما كان ذلك مُخجلاً، فقد عاش العالم، خلال أجيال، وثلثاه فقراء وثلثه غني. ومهما كان ذلك جائراً، فإن سلطة البلدان الفقيرة محدودة". كان بول قد ترأس وفد الولايات المتحدة إلى المؤتمر الأول للتجارة والتنمية في جنيف، وصوّت ضد تسعة من المبادئ العامة الإثني عشر التي صدّق عليها المؤتمر بهدف تخفيف المظالم الواقعة على البلدان المتخلفة في التجارة الدولية. إن مذابح البؤس في أمريكا اللاتينية سرّية؛ فكل عام تنفجر، في صمت، وبلا ضجة، ثلاث من قنابل هيروشيما فوق رؤوس هذه الشعوب التي تعوّدت أن تقاسي وهي تجزّ على أسنانها. هذا العنف المنهجي، الواقعي رغم أنه غير ظاهر، يأخذ في الازدياد: وجرائمه لاتنشر في التقويم الأحمر، بل في إحصائيات منظمة الأغذية والزراعة (FAO). يقول بول أن الإفلات من العقاب مازال ممكناً، لأن الفقراء لايمكنهم إشعال فتيل الحرب العالمية. لكن الإمبراطورية القلقة؛ ولأنها غير قادرة على مضاعفة الخبز، فإنها تفعل كل مايمكن لتقليل عدد الجالسين على المائدة. "حارب الفقر، إقتل شحاذاً!" هكذا خربش أحد أساتذة الدعابة السوداء على أحد جدران مدينة لاباز. ماذا يقترح ورثة مالتوس سوى قتل كل الشحاذين المقبلين قبل أن يولدوا؟ إن روبرت مكنمارا Robert McNamara، رئيس البنك الدولي الذي كان رئيساً لمؤسسة فورد ووزيراً للدفاع، يؤكد أن الإنفجار السكاني يمثل العقبة الرئيسية أمام تقدم أمريكا اللاتينية. ويعلن أن البنك الدولي سيولي أولوية، في قروضه، البلدان التي تطبّق خططاً لتحديد النسل. ويبين مكنمارا بأسى أن أمخاخ الفقراء تفكر بدرجة أقل بنسبة خمسة وعشرين بالمائة، ويقوم تكنوقراطيو البنك الدولي (الذين وُلدوا بالفعل) بجعل أجهزة الكمبيوتر تدق وتخرج ألغازاً بالغة التعقيد حول مزايا إلاّ يولد المرء: "إذا استطاع بلد على طريق النمو متوسط دخل الفرد فيه من

١٥٠ إلى ٢٠٠ دولار سنوياً أن يقلل خصوبته بنسبة ٥٠ بالمائة خلال فترة ٢٥ عاماً، فإن متوسط دخل الفرد فيه بعد ٣٠ عاماً سيكون أعلى بنسبة ٤٠ في المائة على الأقل من المستوى الذي يكون قد بلغه بدون ذلك، وسيكون أعلى مرتين بعد ٦٠ عاماً". هكذا تؤكد إحدى وثائق البنك الدولي. وقد اشتهرت عبارة ليندون جونسون Lyndon Johnson التي يقول فيها: "إن خمسة دولارات مستثمرة ضد النمو السكاني أكثر فعالية من مائة دولار مستثمرة في النمو الاقتصادي" وقد تنبأ دوايت أيزنهاور Dwight Eisenhower بأن سكان الأرض إذا استمروا في التضاعف بنفس المعدّل فلن تزداد فقط حدّة خطر الثورة، بل سينتج كذلك "تدهور في مستوى معيشة كل الشعوب، بما في ذلك شعبنا".

لاتعاني الولايات المتحدة، داخل حدودها، من مشكلة الانفجار السكاني، لكنها أكثر الدول إهتماماً بنشر وفرض تنظيم الأسرة، في أركان الأرض الأربعة. ولاتهتم بذلك الحكومة وحدها، فإن روكفللر ومؤسسة فورد بدورهما يعانيان من كوابيس يتقدم فيها ملايين الأطفال، مثل الجراد، من آفاق العالم الثالث. وقد إنشغل أفلاطون وأرسطو بالمشكلة قبل مالتوس ومكنمارا؛ إلاّ أن كل هذا الهجوم، في أيامنا، يحقق مهمة محددة جيداً: إنه يطرح تبرير التوزيع الشديد التفاوت للدخل بين البلدان وبين الطبقات الاجتماعية، وإقناع الفقراء بأن الفقر هو نتيجة الأطفال الذين لايتم تجنبهم، ووضع حائل أمام تقدم سخط الجماهير بالحركة وبالتمرّد. إن موانع الحمل التي توضع داخل الرحم تتنافس مع القنابل ومع الرشاشات، في جنوب شرق أسيا، في محاولة إعاقة النمو السكاني في فيتنام. أما في أمريكا اللاتينية، فإن قتل مقاتلي العصابات في الأرحام يكون أكثر صحيةً وفعالية من قتلهم في الجبال أو في الشوارع. وقد قامت عدة بعثات أمريكية شمالية بتعقيم آلاف النساء في إقليم الأمازون، رغم أن هذه المنطقة هي أقل مناطق كوكبنا القابلة للسكنى إزدحاماً بالسكان. وفي غالبية بلدان أمريكا اللاتينية لايزيد السكان عن الحاجة؛ بل ينقصون. ففي البرازيل، يقلّ عدد السكان لكل كيلو متر مربع ٣٨ مرة عن بلجيكا؛ وفي الباراجواي، يقلّون ٤٩ مرّة عن إنجلترا؛ وفي البيرو، يقلّون ٣٢ مرة عن اليابان. أما هايتي والسلفادور، وهما أعشاش النمل البشرية لأمريكا اللاتينية، فإن كثافة السكان فيهما أقل منها في إيطاليا. والحجج المثارة تحتقر الذكاء، أما النوايا الحقيقية فتشعل الإحساس بالمهانة. وفي نهاية المطاف فإن مالا يقل عن نصف أراضي بوليفيا، والبرازيل، وتشيلي، وإكوادور، والباراجواي، وفنزويلا لايسكنها أحد. وما من شعب أمريكي لاتيني يتزايد بمعدل أقل من أورجواي، بلد العجائز، ورغم

www.ibtesama.com/vb

ذلك، لم تعان أمة أخرى، خلال السنوات الأخيرة، مثلما عانت أوروجواى من الأزمة التي يبدو أنها تجذبها إلى الدرك الأسفل من الجحيم. فأوروجواي خاوية بينما تستطيع مراعيها الخصبة أن تقدم الطعام لسكان أكثر بكثير من الذين يعانون اليوم، على أرضها، من كل هذه الحرمانات.

منذ أكثر من قرن من الزمان، قال أحد مستشارى جواتيمالا بصورة تنبؤية: "سيكون غريباً أن يولد الدواء أيضاً من حيث يأتينا الداء، من نفس صدر الولايات المتحدة". والآن، بعد أن مات ودفن "التحالف من أجل التقدم"، تعرض الإمبراطورية، برعبٍ أكثر من كونه كرماً، حل مشاكل أمريكا اللاتينية بإبادة الأمريكيين اللاتين مقدّماً. ففى واشنطن أصبحت لديهم الآن دوافع الشك فى أن الشعوب الفقيرة لا تفضّل أن تكون فقيرة. لكن لايمكن للمرء أن يريد الغاية دون أن يريد الوسائل: فمن ينكرون تحرير أمريكا اللاتينية، ينكرون كذلك تجددنا الوحيد الممكن، ويغفرون، أثناء ذلك، الهياكل القائمة. إن الشباب يتضاعفون، وينهضون، وينصتون: فماذا يقدم لهم صوت النظام؟ إن النظام يتحدث لغةً سوريالية: يطرح تجنب النسل فى هذه الأراضى الخاوية؛ يعتقد أن هناك نقصاً فى رؤوس الأموال فى بلدان تفيض فيها رؤوس الأموال عن الحاجة لكنها تُبدّد، يطلق إسم المساعدة على جراحة تشويه العظام التى تمارسها القروض وعلى استنزاف الثروات الذى تمارسه الاستثمارات الأجنبية؛ يدعو اللاتيفونديين إلى إنجاز الإصلاح الزراعى ويدعو الأوليجاركية إلى ممارسة العدالة الاجتماعية. وبمرسوم، يتقرر ألاّ وجود للصراع الطبقى إلاّ بجريرة العملاء الأجانب الذين يشعلون ناره، لكن الطبقات الاجتماعية موجودة، بالمقابل، واضطهاد بعضها من جانب البعض الآخر يسمى نمط الحياة الغربى. والحملات الإجرامية لجنود المارينز* هدفها هو إرساء النظام والسلام الاجتماعى، والدكتاتوريات الوفية لواشنطن تؤسس فى السجون الحالة الامتثالية وتحظر الاضرابات وتصفى النقابيين من أجل حماية حرية العمل.

هل كل شئ محظور علينا بإستثناء أن نظل مكتوفى الأيدى؟ ليس الفقر مسطوراً فى النجوم؛ وليس التخلف ثمرة مخطط غامض وضعه الرب. إذ تمر سنوات ثورة، وأوقات خلاص. إن الطبقات الحاكمة تتنفس حتى آذانها فى الترف، وفى نفس الوقت تعلن الجحيم للجميع. وبمعنى من المعانى، فإن اليمين على حق حين يوحّد بين نفسه وبين الهدوء والنظام: فإنه بالفعل نظام الإذلال اليومى للأغلبيات، لكنه نظام فى النهاية: وهدوء

---

* مشاة بحرية الولايات المتحدة – م.

أن يظل الجور ظالماً والجوع مُجوِّعاً. وإذا تحول المستقبل إلى صندوق مفاجآت، فإن الشخص المحافظ يصرخ، وله كل الحق: "لقد خانوني". ومنظرو العجز، العبيد الذين ينظرون إلى أنفسهم بعيون السيد، لايتوانون عن إطلاق صيحاتهم. إن تسر مين* Maine البرونزي، الذي أسقط يوم إنتصار الثورة الكوبية، يرقد الآن مهجوراً، وجناحاه محطمان، تحت إحدى بوابات الحي القديم في هافانا. ومنذ كوبا فصاعداً، بدأت بلدان أخرى بدورها تجربة التغيير بطرق مختلفة ووسائل مختلفة: فاستمرار النظام الحالي للأمور هو إستمرار للجريمة.

إن أشباح كل الثورات التي خُنقت أو تمت خيانتها على طول التاريخ الأمريكي اللاتيني المعذَّب تظهر في التجارب الجديدة، مثلما أنذرت تناقضات الماضي بالعصر الحاضر وولّدته. إن التاريخ نبيٌ يوجِّه بصره إلى الوراء: ومن أجل ما كان، وضد ماكان، يعلن ما سيكون. لذا، ففي هذا الكتاب، الذي يود أن يقدم تاريخاً للنهب وأن يقص في نفس الوقت كيف تعمل آليات الاستنزاف الحالية، يظهر الغزاة في سفنهم الشراعية، وعلى مقربة منهم، التكنوقراطيون في طائراتهم النفاثة، هرنان كورتيس ومشاة البحرية، مفوّضو المَلكة وبعثات صندوق النقد الدولي، أرباح تجار العبيد وأرباح جنرال موتورز. كذلك يظهر الأبطال المهزومون وثورات أيامنا، الفضائح والآمال الميتة والمنبعثة: التضحيات الخصبة. حين درس الكسندرفون همبولت عادات السكان الأصليين القدماء لهضبة بوجوتا، عرف أن الهنود يسمّون ضحايا الإحتفالات الطقسية بإسم كيهيكا quihica، وكلمة كيهيكا تعني بوابة: فموت كل شخص مختار يفتح دورة جديدة من مائة وخمسة وثمانين قمراً.



* شمال الولايات المتحدة الأمريكية – م.

www.ibtesama.com/vb

الباب الأول

فقر الإنسان كنتيجة لثـــراء الأرض

www.ibtesama.com/vb

حُمّى الذهب ، حُمّى الفضة

■ علامة الصليب على مقابض السيوف

حين إنطلق كريستوفر كولومبس ليعبر الأبعاد المترامية الخاوية غربي المسكونة، كان قد قبِل تحدّي الأساطير. الأعاصير الرهيبة التي ستتلاعب بسفنه، كأنها قشور بندق، وتقذفها إلى أفواه الوحوش الخرافية؛ وأفاعي بحار الظلمات الضخمة، التي ستكون مترصّدة، وجائعة لّحم البشري. لم يكن باقياً سوى ألف سنة قبل أن تُسوّي نيران يوم الحساب المطهّرة العالم بالتراب، كما كان يعتقد أناس القرن الخامس عشر، وكان العالم حينئذ هو البحر المتوسط بشواطئه ذات الإمتداد الغامض صوب إفريقيا والشرق. كان البّحارة البرتغاليون يؤكدون أن ريح الغرب تجلب جثثاً غريبة وتقذف أحياناً كتلاً خشبية ذات نقوش عجيبة، لكن أحداً لم يظن أن العالم سرعان ما سيتضاعف بصورة مذهلة.

لم تكن أمريكا تفتقر إلى مجرد الإسم، فلم يعرف النرويجيون أنهم كانوا قد إكتشفوها منذ زمن طويل، وقد مات كولومبس نفسه، بعد رحلاته، وهو مقتنع بأنه قد وصل إلى آسيا من الخلف. وفي عام ١٤٩٢، حين ألقى الأسطول الإسباني مراسيه للمرة الأولى في رمال جزر الباهاما، إعتقد الأدميرال أن هذه الجزر هي مشارف اليابان. كان كولومبس يحمل معه نسخة من كتاب ماركو بولو، تمتلئ بالحواشي على هوامش الصفحات. كان سكان سيبانجو*، كما قال ماركو بولو، "يملكون ذهباً بكميات هائلة والمناجم التي يجدونه فيها لاتنضب أبداً ... كما توجد في هذه الجزيرة لآلئ لها ألق بريق بكمية كبيرة، وهي وردية، ومستديرة، وكبيرة الحجم وتتجاوز في قيمتها اللآلئ البيضاء". كان ثراء سيبانجو قد بلغ مسامع قبلاي خان** العظيم، وأشعل في صدره الرغبة في فتحها، لكنه أخفق. من صفحات ماركو بولو البراقة أخذت تحلّق كل خيرات الخليقة؛ فقد كان هناك نحو ثلاث عشرة ألف جزيرة في بحر الهند جبالها من الذهب

---

* سيبانجو: هي التسمية التي أطلقها ماركو بولو على الجزيرة أو الجزر المدهشة التي تقع شرقي آسيا وكان كولومبس يبحث عنها، وهي اليابان - م.

** قبلاي خان (١٢١٥ - ١٢٩٤): إمبراطور مغولي، حفيد جنكيزخان، فتح الصين وأخضع كوريا وبورما - م.

www.ibtesama.com/vb

واللآلئ، وإثني عشر نوعاً من التوابل بكميات ضخمة، علاوة على الفلفل الأبيض والأسود.

كان الفلفل، والزنجبيل، والقرنفل الفوّاح، وجوزة الطيب، والقرفة مُشتهاةً مثل الملح لحفظ اللحم في الشتاء دون أن يتعفّن أو يفقد طعمه. وقرّر ملكا إسبانيا الكاثوليكيان تمويل مغامرة الوصول مباشرةً إلى المنابع، حتى يتخلصا من السلسلة المرهقة من الوسطاء والسماسرة الذين كانوا يحتكرون تجارة التوابل والنباتات الاستوائية، والموسلين والأسلحة البيضاء القادمة من أقاليم الشرق الغامضة. كما أن الشغف بالمعادن النفيسة، التي هي وسيلة الدفع في التبادل التجاري، حفز بدوره عبور البحار الملعونة. كانت أوربا بأكملها بحاجة إلى الفضة؛ فقد كانت مناجم بوهيميا، وسكسونيا، والتيرول على وشك النضوب.

كانت إسبانيا تعيش عصر إجلاء العرب*. ولم يكن عام ١٤٩٢ مجرد عام إكتشاف أمريكا، ذلك العالم الجديد الذي ولد من ذلك الخطأ ذي النتائج الضخمة. فقد كان كذلك عام استعادة غرناطة. إذ أن فرناندو ملك أراجون وإسابل ملكة قشتالة، اللذين كانا قد تجاوزا بزواجهما تمزّق ممالكهما، نجحا في أوائل عام ١٤٩٢ في إخضاع آخر معقل للدين الإسلامي على أرض اسبانيا. إستغرقت إستعادة ما فقد في سبع سنوات نحو ثمانية قرون[1]، وكانت حرب إجلاء العرب قد أفرغت الخزانة الملكية. لكن هذه الحرب كانت حرباً مقدسة، الحرب المسيحية ضد الإسلام، كذلك ليس من قبيل الصدفة أنه في نفس هذه السنة ١٤٩٢، تم طرد مئة وخمسين ألف يهودي من البلاد. كانت إسبانيا تكتسب واقعاً بوصفها أمة وهي تشهر السيوف التي تحمل مقابضها علامة الصليب. بينما جعلت الملكة إيسابل من نفسها راعيةً لمحاكم التفتيش المقدسة. إن حدث إكتشاف أمريكا لايمكن تفسيره بدون التقاليد العسكرية لحرب الحملات الصليبية التي سادت في قشتالة في العصر الوسيط، بينما لم تتباطأ الكنيسة في إضفاء طابع القداسة على غزو الأراضي المجهولة على الجانب الآخر من البحر. وقد جعل البابا الكسندر السادس، الذي كان من بلنسية، الملكة إيسابل مالكة وسيدة للعالم الجديد. كان توسّع مملكة قشتالة يوسّع مملكة الرب على الأرض.

بعد ثلاثة أعوام من الإكتشاف، قاد كريستوفر كولومبس بنفسه الحملة العسكرية

---

* إجلاء العرب أو إعادة الفتح reconquiste: تنطبق على الأندلس على الفترة من معركة كوبا دونغا عام ٧١٨ وحتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ – م.

www.ibtesama.com/vb

ضد سكان الدومينيكان الأصليين. قامت حفنة من الفرسان، ومئتان من المشاة، وبعض الكلاب المدربة خصيصاً على الهجوم بتمزيق الهنود إرباً. وأرسل إلى إسبانيا أكثر من خمسمئة منهم، بيعوا كالعبيد في أشبيلية وماتوا بائسين[٢]. لكن بعض اللاهوتيين احتجوا وحُظر إستعباد الهنود رسمياً مع مولد القرن السادس عشر. وفي الواقع، فإنه لم يُحظر بل بورك: فقبل كل حملة عسكرية، كان يجب على قواد الغزو أن يقرأوا على الهنود، أمام كاتب عمومي، إنذاراً مسهباً وبليغاً يستحثهم على إعتناق العقيدة الكاثوليكية المقدسة: و "إذا لم تفعلوا، أو أبديتم في ذلك إبطاءً بسوء طوية، فإنني أشهدكم على أنني بعون الرب سأحمل عليكم بسطوة وسأشن عليكم الحرب في كل مكان وبكل طريقة أستطيعها، وسأخضعكم لنير وطاعة الكنيسة وصاحبة الجلالة وسآخذ نساءكم وأبناءكم وأجعلهم عبيداً، وعبيداً سأبيعهم، وسأتصرف فيهم كما تأمر جلالتها، وسآخذ أملاككم وأوقع بكم كل ما أستطيع من شرور وأذى" ... [٣].

كانت أمريكا هي إمبراطورية الشيطان الشاسعة، وخلاصها مستحيل أو مشكوك فيه، لكن الحملة المتعصبة ضد هرطقة السكان المحليين كانت تختلط بالحمى التي أطلق عنانها، بين حشود الغزو، بريق كنوز العالم الجديد. يكتب برنال دياث دل كستييو، الرفيق الوفي لهرنان كورتيس في غزو المكسيك، أنهم قد جاءوا إلى أمريكا " لخدمة الرب وصاحبة الجلالة وكذلك لنيل الثروات".

حين بلغ كولومبس مرسى سان سلفادور، أذهلته شفافية الكاريبي الزاهية، والمشهد الأخضر، وعذوبة ونقاء الهواء، والطيور الرائعة، والفتية "ذوي القوام الممشوق، قوم بالغو الجمال" و "شديدو الوداعة" الذين يعيشون هناك. وأهدى الهنود "بعض القبّعات الملونة وبعض قطع الزجاج التي توضع حول العنق، وكثيراً من الأشياء الأخرى القليلة القيمة التي جعلتهم سعداء جداً وأصبحوا رجالنا مما يعد أعجوبة". أراهم السيوف. لم يكونوا يعرفونها، فتناولوها من حدّها، وجرحوا أنفسهم. وفي هذه الأثناء، كما يحكي الأميرال في يوميات الإبحار، "كنت منتبهاً وحاولت معرفة ما إذا كان ثمة ذهب، ورأيت أن بعضهم يحملون قطعة معلقة من ثقب في أنوفهم، وبالإشارة فهمت أنه بالسير جنوباً أو بالدوران حول الجزيرة من ناحية الجنوب، فإن هناك ملك لديه أواني كبيرة منه، ولديه الكثير جداً" لأنه "من الذهب يُصنع الكنز، وبه يفعل من يملكه كل ما يشاء في الدنيا ويبلغ حد إدخال الأرواح إلى الفردوس". وفي رحلته الثالثة ظل كولومبس على إعتقاده أنه يتجول في بحر الصين حين دخل شواطئ فنزويلا؛ ولم يمنعه ذلك من

www.ibtesama.com/vb

أن يفكر أنه من هناك كانت تمتد يابسة لامتناهية تصعد نحو الفردوس الأرضي. كذلك فإن أمريكو فسبوتشي، مستكشف ساحل البرازيل عند مولد القرن السادس عشر، يقص على لورنزو دي ميديتشي أن: "الأشجار يبلغ من جمالها ورقتها أننا أحسسنا أننا في الفردوس الأرضي ..."[٤]. وقد كتب كولومبس، حانقاً، للملكين الكاثوليكيين، من جامايكا، عام ١٥٠٣ يقول: "حين اكتشفت جزر الهند، قلت أنها أعظم مملكة غنية توجد على الأرض. وقد تحدثت عن الذهب، واللآلئ، والأحجار الكريمة، وأنواع التوابل ...".

كان كيس واحد من الفلفل، في العصر الوسيط، يساوي أكثر من حياة رجل، لكن الذهب والفضة كانا المفتاحين اللذين استخدمتهما النهضة لفتح أبواب الفردوس في السماء، وأبواب المركنتيلية الرأسمالية على الأرض. وقد إختلط في ملحمة الإسبان والبرتغاليين في أمريكا نشر الديانة المسيحية بإغتصاب ونهب الثروات المحلية. كانت سلطة أوربا تمتد لتطوّق العالم. وكانت الأراضي البكر، التي تعج بالغابات والمخاطر، تلهب جشع القواد، والفرسان النبلاء، والجنود ذوي الأسمال المنطلقين لكسب غنائم الحرب المدهشة: كانوا يؤمنون بالمجد، "شمس الموتى"، وبالجسارة. كان كورتيس يقول: "الحظ يساعد الجسورين". وكان كورتيس نفسه قد رهن كل ممتلكاته الشخصية حتى يجهز حملة المكسيك. فقيما عدا إستثناءات محدودة مثلما في حالة كولومبس أو ماجلان، لم تكن تكاليف المغامرات تُقدم من الدولة، بل يقدمها الغزاة أنفسهم، أو التجار والمصرفيون الذين يموّلونهم[٥].

ولدت إسطورة إلدورادو*، الحاكم الذي يسبح في الذهب، والتي إخترعها الهنود لإبعاد الدخلاء: ومن جونثالو بيثارّو Gonzalo Pizarro وحتى والتر رالي Walter Raleigh، إقتفى الكثيرون أثره عبثاً عبر غابات ومياه نهري الأمازون والأورينوكو. وقد أصبح سراب "النبع الذي يفيض فضة" حقيقة عام ١٥٤٥، مع إكتشاف بوتوسي Potosí، لكن كان قد مات قبل ذلك، من الجوع أو المرض أو بسهام الهنود التي إخترقتهم، الكثيرون من أعضاء الحملات الذين حاولوا، دون جدوى، أن يبلغوا نبع الفضة مصعّدين في نهر البارانا Paraná.

حقاً، كان هناك ذهب وفضة بكميات ضخمة، متراكمين في هضبة المكسيك وفي هضبة الألتيبلانو الأنديزية. وقد كشف هرنان كورتيس لإسبانيا، عام ١٥١٩، الحجم الخرافي لكنز موكتزوما الأزتيكي، وبعد خمسة عشر عاماً وصلت إلى أشبيلية الغنيمة

---

* تعني حرفياً الرجل الذهبي – م.

الهائلة، غرفة مملوءة بالذهب وغرفتان مملوءتان بالفضة، جعل فرنثيسكو بيثارّو Francis-co Pizarro الإنكا أتاهوالپا Atahualpa يدفعها قبل شنقه. وقبل ذلك بسنوات، كان التاج قد دفع أجور البحارة الذين صاحبوا كولومبس في رحلته الأولى بالذهب المنتزع من جزر الأنتيل[6]. وفي النهاية، كف سكان جزر الكاريبي عن دفع الجزية، لأنهم إختفوا من الوجود: كان الهنود قد أبيدوا تماماً في مصافي الذهب، في الكدّ الفظيع لتقليب الرمال المحتوية على الذهب وأجسامهم مغمورة في الماء حتى خصرهم، أو وهم يحرثون الحقول وقد تجاوزوا آخر حدود الإجهاد، وظهورهم محنية على أدوات الفلاحة الثقيلة التي جُلبت من إسبانيا.

وقد إستبق كثيرون من هنود الدومينيكان القدر الذي فرضه عليهم المضطهدون البيض الجدد: إذ قتلوا أطفالهم وإنتحروا جميعاً. وقد فسّر المؤرخ الرسمي فرناندث دي أوبييدو Fernández de Oviedo، مذبحة الأنتيليين، في منتصف القرن السادس عشر، على النحو التالي: "كثيرون منهم، من أجل تسليتهم، قتلوا أنفسهم بالسم حتى لايعملوا، بينما خنق آخرون أنفسهم بأيديهم"[7].

■ عاد الآلهة بالأسلحة السرّية

عند مروره بجزيرة تنريف، خلال رحلته الأولى، شهد كولومبس إنفجاراً بركانياً هائلاً. وكان ذلك بمثابة نبوءة عن كل ما سوف يجري بعدها في الأراضي الجديدة الشاسعة التي ستعترض الطريق الغربي نحو آسيا. كانت أمريكا موجودة هناك، تتبئ بذلك سواحلها اللانهائية؛ واتسع نطاق الفتح، في موجات، مثل مد هائج. كان المقدّمون يتبعون الأدميرالات وتحولت أطقم البحارة إلى حشود غازية. كانت المراسيم البابوية قد قدمت تنازلاً بابوياً من إفريقيا للتاج البرتغالي، كما منحت تاج قشتالة الأراضي "المجهولة مثل تلك التي إكتشفها مبعوثوكم حتى الآن وتلك التي ستكتشف في المستقبل...". كانت أمريكا قد أهديت إلى الملكة إيسابل. وفي عام ١٥٠٨، منح مرسوم جديد التاج الإسباني، بصفة دائمة، كل العشور التي تُجبى في أمريكا: كانت الوصاية الشاملة المرتقبة على كنيسة العالم الجديد تتضمن حق تقديم التاج لكل المزايا الكنسية[8].

وسمحت إتفاقية تورديسيّاس Tordesillas، المبرمة عام ١٤٩٤، للبرتغال بإحتلال أراضٍ أمريكية فيما وراء الخط الفاصل الذي رسمه البابا، وفي عام ١٥٣٠، أقام مارتيم

www.ibtesama.com/vb

ألفونسو دى سوسا Martim Alfonso de Sousa القرى البرتغالية الأولى فى البرازيل، طارداً الفرنسيين. وفى ذلك الوقت، كان الإسبان قد تقدّموا كثيراً فى عملية الاستكشاف والفتح، عابرين غابات جهنمية وصحراوات لانهائية. ففى عام ١٥١٣ توهج المحيط الهادى تحت بصر باسكو نونييث دى بالبوا Basco Núnezde Balboa؛ وفى خريف عام ١٥٢٢، عاد إلى أسبانيا من بقوا أحياء من بعثة إرناندو دى ماجلان Heman do de Magallanes، الذين عبروا كلا المحيطين للمرة الأولى وأثبتوا أن العالم كروى بالدوران حوله دورة كاملة؛ وقبلها بثلاث سنوات، كانت سفن هرنان كورتيس العشر قد غادرت جزيرة كوبا، متجهةً إلى المكسيك، وفى عام ١٥٢٣، إنطلق بدرو دى ألبارادو Pedro de Alvarado ليفتح أمريكا الوسطى؛ وفى عام ١٥٣٣، دخل فرنثيسكو بيثارّو Francisco Pizarro كوثكو Cuzco منتصراً، وسيطر بذلك على قلب إمبراطورية هنود الإنكا؛ وفى عام ١٥٤٠، عبر بدرو دى بالديبيا Pedro de Valdivia صحراء أتاكاما Atacama وأنشأ مدينة سانتياجو دى تشيلى، واخترق الفاتحون التشاكو Chaco وكشفوا العالم الجديد من البيرو حتى مصب أكثر أنهار الكوكب تدفقاً.

كان سكان أمريكا الأصليون من كل صنف: فبينهم فلكيون وآكلة لحوم بشر، مهندسون وبدائيون من العصر الحجرى. لكن لم تعرف أى واحدة من الثقافات المحلية لا الحديد ولا المحراث، ولا الزجاج ولا البارود، ولم تكن أى منها تستخدم العجلة. وكانت الحضارة التى إنقضّت على تلك الأراضى من الجانب الآخر للبحر تحيا الإنفجار الخلاّق لعصر النهضة؛ بدت أمريكا وكأنها اختراع آخر، واندرجت، مع البارود، والطباعة، والورق، والبوصلة، فى الميلاد الصاخب للعصر الحديث. ويوضّح عدم التكافؤ فى تطور كلٍ من العالمين، بدرجة كبيرة، السهولة النسبية التى خضعت بها الحضارات المحلية. فقد رسى هرنان كورتيس فى فيراكروث وليس بصحبته سوى ما لايزيد عن مائة بحار و٥٠٨ جنود؛ وكان لديه ١٦ حصاناً، و٣٢ منجنيقاً، وعشر مدافع برونزية، وبضع قربينات، وبنادق وغدّارات. ورغم ذلك، كانت عاصمة هنود الأزتيك، تينوتشتيتلان Tenochtitlán، حينذاك أكبر من مدريد خمس مرات، وسكانها ضعف سكان أشبيلية، أكبر مدن إسبانيا. كما دخل فرنثيسكو بيثارّو كاخاماركا Cajamarca ومعه ١٨٠ جندياً و٣٧ حصاناً.

فى البداية، هُزم الهنود نتيجة الذهول. وتلقى الإمبراطور موكتزوما Moctezuma، فى قصره، الأنباء الأولى: كان تلٌ ضخم يمخر عباب البحر. بعدها وصل رُسلٌ آخرون: "سبّب له خوفاً شديداً سماع كيف ينطلق المدفع، كيف يرعد دويّه، وكيف يتهاوى المرء

www.ibtesama.com/vb

كيف تُصمّ آذانه. وحين تسقط القذيفة، يخرج من أحشائه شئ كأنه كرة من الحجر: تمطر لهباً ...". كان الأجانب قد جلبوا "أيائل" تبقيهم "عالياً مثل السقوف". ومن كل الأرجاء جاءوا وأجسامهم مُسربلة، "لاتظهر سوى وجوههم. وهي بيضاء، كأنها من جير. وشعرهم أصفر، رغم أن شعر بعضهم أسود. وذقنهم طويلة ..."[٩]. إعتقد موكتزوما أن من عاد هو الإله كتزالكواتل Quetzalcóatl. وكان ثمانية عَرّافين قد أعلنوا عودته، قبلها بقليل. وكان الصيادون قد أحضروا إليه طائراً في رأسه إكليل مستدير على هيئة مرآة، تنعكس عليها السماء والشمس في المغيب. في هذه المرآة رأى موكتزوما أسراب المحاربين تزحف على المكسيك. جاء الإله كتزالكواتل من الشرق وكان قد مضى باتجاه الشرق: كان أبيض وملتحياً. كذلك كان ويراكوتشا Huiracocha، الإله الخنثي للإنكا، أبيض وملتحياً. وكان الشرق هو مهد الأسلاف البطوليين لهنود المايا[١٠].

كانت الآلهة المنتقمة التي تعود الآن لتصفية الحسابات مع شعوبها تجلب معها دروعاً وزروداً، وأغطية سروج مزركشة تصد الحراب والحجارة؛ وكانت أسلحتها تطلق بروقاً قاتلة وتحيل الجو ظلاماً بأدخنة لا يمكن تنفسها. كذلك مارس الفاتحون، ببراعة سياسية، أسلوب الخيانة والتآمر. فقد عرفوا، على سبيل المثال، كيف يستغلون سخط الشعوب الخاضعة لسيطرة الأزتيك الإمبراطورية والانقسامات التي تمزق سلطة الإنكا. فكان هنود التلاكسكالتيكا tlaxcaltecas حلفاءً لكورتيس، واستغلّ بيثارّو لصالحه الحرب بين وريثي إمبراطورية الإنكا، هواسكار Huáscar وأتاهوالبا Atahualpa، الشقيقين العدوين. وكسب الفاتحون أعواناً من بين الطوائف السائدة الوسطى، من كهنة، وموظفين، وعسكريين، حين أسقطت، بالجريمة، القيادات الهندية الأعلى. لكنهم استخدموا، علاوة على ذلك، أسلحة أخرى، أو بالأحرى، عملت عوامل أخرى بصورة موضوعية على إنتصار الغزاة. والخيول والبكتيريا، مثالان على ذلك.

كان مصدر الخيول، مثلها مثل الجمال، من أمريكا[١١]. لكنها إنقرضت في هذه البلاد. وبعد إدخالها إلى أوربا بواسطة الفرسان العرب، قدمت للعالم القديم نفعاً عسكرياً وإقتصادياً ضخماً. وحين عاودت الظهور في أمريكا من خلال الفتح، فإنها أسهمت في إضفاء قوى سحرية على الغزاة أمام أعين الهنود الذاهلة. وطبقاً لإحدى الروايات، فإن الإنكا أتاهوالبا حين رأى الجنود الأسبان الأوائل، وهم يمتطون خيولاً متوثبة مزيّنة بالأجراس والريش، تجري فتثير الرعود والغبار بحوافرها السريعة، سقط على ظهره[١٢]. أما الزعيم تيكوم Tecum، الذي كان على رأس ورثة المايا، فقد قطع

www.ibtesama.com/vb

بحربته رأس حصان بدرو دي ألفارادو، مقتنعاً أنه يشكل جزءاً من الفاتح: لكن ألفارادو نهض وقتله[١٣]. قامت خيول مدوية، مكسوة بعدة الحرب، بتفريق الحشود الهندية وبثرت الرعب والموت. "نشر القساوسة والمبشرون أمال الخيال العامّ". خلال عملية الاستعمار، "أن الخيول من أصل مقدس، حيث أن سانتياجو، راعي إسبانيا، كان يمتطي صهوة مهر أبيض، كسب معارك ثمينة ضد العرب واليهود، بعون العناية الإلهية"[١٤].

أما البكتيريا والفيروسات فكانت أشد الحلفاء فعالية. فقد جلب الأوربيون معهم، بمثابة الأوبئة الانجيلية، الجدري والتيتانوس، وعدة أمراض رئوية، ومعوية، وتناسلية، والتراكوما، والتيفوس، والجذام، والحمى الصفراء، وتسوس الأسنان الذي يجعل الأفواه تتعفن. كان الجدري أسبقها في الظهور. ألا يُعدّ عقاباً إلهياً ذلك الوباء المجهول والمقرف الذي يشعل نار الحمى ويفتت اللحم؟ يقول أحد الشهود الهنود: "ذهبوا ليستقروا في تلاكسكالا. عندئذ إنتشر الوباء: سعال، دمامل ملتهبة، تحرق". ويقول آخر: "مات الكثيرون بسبب داء الدمامل الوبيل، اللزج، الثقيل"[١٥]. أخذ الهنود يموتون مثل الذباب؛ فلم تكن أجهزتهم تملك دفاعاً ضد الأمراض الجديدة. وأصبح من نجوا ضعافاً وغير نافعين. ويقدّر الأنثروبولوجي البرازيلي دارسي ريبيرو أن أكثر من نصف السكان الأصليين لأمريكا، وأستراليا، وجزر المحيط ماتوا نتيجة العدوى بعد أول إتصال بالرجال البيض[١٦].

■ «مثل خنازير جائعة كانوا يتلهّفون على الذهب»

بطلقات القربينة، وضربات السيوف، ولفحات الوباء، تقدم فاتحو أمريكا القلائل الذين لايلينون. هذا ماتحكيه أصوات المهزومين. بعد مذبحة تشولولا Cholula، أرسل موكتزوما رسلاً جدد للقاء هرنان كورتيس، الذي كان يتقدم باتجاه وادي المكسيك، وأهدى المبعوثون إلى الأسبان عقوداً ذهبية ورايات من ريش الكتزال*. كان الأسبان "مبتهجين، كأنهم قرود، كانوا يرفعون الذهب، كأنهم يشعرون بأنهم في غمرة النشوة، فكأنه ينعشهم وينير قلبهم. كأنهم، وهذا مؤكد، يتلهفون عليه بعطش بالغ. تتمدد أجسامهم بسببه، لديهم جوع ضارٍ له. مثل خنازير جائعة كانوا يتلهّفون على الذهب". هذا ما يقوله النص بلغة الناهواتل Náhuatl المحفوظ في المخطوطات الفلورنسية. وفيما

* الكتزال Quetzal: طائر مقدس بين هنود الأزتيك القدماء، ذو ريش ملون جميل وجناحاه طويلان وريشات الذيل بالغة الطول وله عرف من ريش أخضر، وهو الآن الطائر القومي في جواتيمالا – م.

www.ibtesama.com/vb

بعد، حين وصل كورتيس إلى تينوتشتيتلان، عاصمة الأزتيك الرائعة، دخل الإسبان دار الخزانة، "ثم صنعوا كرة ضخمة من الذهب، وأشعلوا، أحرقوا، أضرموا النار في كل ماتبقى، مهما بلغت قيمته: وهكذا إحترق كل شئ. أما بالنسبة للذهب، فقد حوّله الأسبان إلى قضبان ...".

دارت الحرب، وأخيراً أعاد كورتيس فتح تينوتشتيتلان عام ١٥٢١، بعد أن كان قد فقدها. "ولم تعد لدينا دروع، ولم تعد لدينا هراوات، ولم يعد لدينا ما نأكله، فلم نأكل شيئاً". سقطت المدينة المدمّرة، المشتعلة، المغطاة بالجثث. لم تكن المشنقة والتعذيب كافيين: فلم تكن الكنوز المنهوبة تشبع أبداً متطلبات الخيال، وخلال سنوات طويلة، ظل الإسبان يحفرون قاع بحيرة المكسيك بحثاً عن الذهب والأشياء النفيسة التي يُفترض أن الهنود قد أخفوها.

إنقض بدرو دي ألفارادو ورجاله على جواتيمالا "وبلغ من كثرة الهنود الذين قتلوهم، أن تكوّن نهر من الدم، أصبح هو نهر الأوليمتبيك Olimtepeque". وكذلك "أصبح النهار ملوناً بسبب الدم الغزير الذي سال في ذلك اليوم". وقبل المعركة الفاصلة، "حين نظر الهنود المعذبون إلى أنفسهم، قالوا للإسبان ألاّ يعذبوهم أكثر من ذلك، وأن أمامهم الكثير من الذهب والفضة، واللآلئ، والزمرد كانت لدى القواد نيهاييب إكسكين Nehaib Ixquin، نيهاييب النسر والأسد. ثم أعطوها للإسبان وبقوا معهم..."[١٧].

وقبل أن يقطع فرنثيسكو بيثارو عنق الإنكا أتاهوالبا، إنتزع منه فدية من "ألواح الذهب والفضة فاق وزنها عشرين ألف مارك* من الفضة الخاصة، ومليوناً وثلاثمائة وستة وعشرين ألف إسكودو* من الذهب البالغ النقاء...". بعدها إنقض على كوزكو. إعتقد جنوده أنهم يدخلون مدينة القياصرة، فقد كانت عاصمة إمبراطورية الإنكا فائقة البهاء، لكنهم سرعان ماخرجوا عن ذهولهم وشرعوا في نهب معبد الشمس: "وهم يتصارعون، ويتقاتلون فيما بينهم، وكل واحد يحاول أن يخرج من الكنز بنصيب الأسد، كان الجنود، ذوي الزرد، يدوسون الجواهر والصور، ويدقون الأدوات الذهبية أو يطرقونها بالمطارق ليقلصوها إلى حجم أسهل وأيسر حملاً ... وألقوا كل كنز المعبد في البوتقة، ليحولوا المعدن إلى قضبان: الرقائق التي كانت تغطي الجدران والأشجار المسبوكة الرائعة، والطيور ومختلف أشياء الحديقة"[١٨].

---

* المارك هو وحدة وزن لقيمة الذهب والفضة تعادل حوالي ثماني أوقيات، والاسكودو وحدة ذهبية – م.

www.ibtesama.com/vb

واليوم، في الثوكالو*، الميدان الضخم العاري في قلب عاصمة المكسيك، ترتفع الكاتدرائية الكاثوليكية فوق أطلال أهم معابد تينوتشتيتلان، ويقع قصر الحكومة فوق مقر كواوهتيموك Cuauhtémoc، الزعيم الأزتيكي الذي شنقه كورتيس. أحرقت تينوتشتيتلان. ولقيت كوثكو، في البيرو، مصيراً مماثلاً، لكن الفاتحين لم يستطيعوا هدم جدرانها الضخمة تماماً. واليوم، يمكن أن يشاهد، عند أقدام المباني الاستعمارية، البرهان الحجري على عمارة الإنكا الشامخة.

■ أمجاد پوتوسي: دورة الفضة

يقال أنه حتى حوافر الخيل كانت من الفضة في زمن قمة إزدهار مدينة پوتوسي[١٩]. ومن فضة كانت مذابح الكنائس وأجنحة الملائكة في المواكب الدينية: وفي عام ١٦٥٨، بمناسبة الاحتفال بعيد القربان، أزيل الحصى من شوارع المدينة، من قلب المدينة حتى كنيسة ريكوليتوس، وكسيت بكاملها بقضبان من الفضة. في پوتوسي شيدت الفضة معابداً وقصوراً، وأديرة وبيوت قمار، وكانت سبباً للمأساة وللعيد، أسالت الدم والنبيذ، وأشعلت الجشع وأطلقت العنان للتبذير والمغامرة. وسار السيف والصليب متلازمين خلال الفتح والاستنزاف الاستعماري، من أجل انتزاع فضة أمريكا، تواعد في پوتوسي القوّاد والنُسّاك، فرسان مصارعة الثيران والرُسُل، الجنود والرهبان. وأخذت أحشاء التلّ الثري، بعد تحولها إلى مخروطات وسبائك، تغذي تطوّر أوربا أساساً. كان أسمى مديح للأشخاص أو الأشياء منذ أصبح بيثارو سيد كوثكو هو عبارة "يساوي بيرو"، لكن بدءاً من إكتشاف التلّ، تحدث دون كيخوته دي لامانشا حديثاً آخر، إذ نبّه سانشو قائلاً "يساوي پوتوسي". ولأن پوتوسي هي الشريان الرئيسي لأراضي نائب الملك، وينبوع فضة أمريكا، فقد بلغ سكانها ١٢٠ ألفاً حسب تعداد عام ١٥٧٣. لم تكن قد مضت سوى ثماني عشرة سنة منذ أن بدأت تتفتح في براري الإنديز وكان سكانها قد بلغوا، وكأنما بفعل سحر، نفس تعداد سكان لندن وتجاوزوا سكان أشبيلية، أو مدريد، أو روما، أو باريس. وحوالي عام ١٦٥٠، قدّر تعدادٌ جديد سكان پوتوسي بـ ١٦٠ ألفاً. كانت واحدةً من أكبر وأغنى مدن العالم، سكانها عشرة أضعاف سكان بوسطن، في وقت لم تكن فيه نيويورك قد بدأت في حمل هذا الإسم.

---

* الثوكالو Zócalo: تطلق في مدن المكسيك على قلب الميدان العام وبالتالي على الميدان بأكمله – م.

www.ibtesama.com/vb

لم يكن تاريخ بوتوسى قد وُلد مع الأسبان. فقبل الفتح بزمن، كان الإنكا هواينا كاباك Huayna Cápac قد سمع معاونيه يتحدثون عن السوماخ أوركو Sumaj Orcko، أي التل الجميل، وأخيراً استطاع رؤيته حين جعلهم يحملونه، مريضاً، إلى عيون تاراپايا Tarapaya الساخنة، من أعشاش الغاب في قرية كانتوماركا Cantumarca. تأملت عين الإنكا للمرة الأولى ذلك المخروط البالغ حد الكمال والذي يعلو، شامخاً، بين القمم العالية لسلاسل الجبال. وقف ذاهلاً، وظلت درجات الألوان اللانهائية الضاربة إلى الحمرة، والشكل المشوق، والحجم الهائل للتل باعثاً على الإعجاب والدهشة خلال الأزمنة التالية. لكن الإنكا توقع أن يضم التل في أحشائه أحجاراً كريمة ومعادن ثمينة، وأراد أن يضيف زينة جديدة إلى معبد الشمس في كوثكو. فالذهب والفضة اللذان كان الإنكا يستخلصونهما من مناجم كولكي پوركو Colque Porco وأنداكابا Andacaba لم يكونا يتخطيان حدود المملكة: لم يكونا يستخدمان في التجارة، بل في تمجيد الآلهة. ولم يكد الهنود يضربون بمعاولهم في عروق فضة التل الجميل، حتى أفزعهم صوت مدوٍ. كان صوتاً قوياً كالرعد، يخرج من أعماق تلك التجاويف ويقول، بلغة الكتشوا: "هذا ليس لكم؛ فالرب يختص بهذه الثروات من يأتون من بعيد". هرب الهنود فزعين وغادر الإنكا التل. لكنه غير إسمه أولاً. وأصبح التل يُسمى باسم پوتوخسي Potojsi، التي تعني: "يرعد، ينفجر، يُحدث إنفجاراً".

لم يتأخر "من يأتون من بعيد" كثيراً في الظهور. فقد شق قواد الفتح طريقاً لأنفسهم. وكان هواينا كاباك قد مات عندما وصلوا. وفي عام ١٥٤٥، كان الهندي هوالپا يقتفي آثار حيوان لاما هارب واضطر لقضاء الليل في التل. وأشعل ناراً حتى لا يموت من البرد. فأضاءت النار عرقاً أبيض براقاً. كان من الفضة الخالصة. واندفع السيل الأسباني.

تدفقت الثروة. وسرعان ما أظهر الامبراطور كارلوس الخامس إمتنانه بأن منح بوتوسى لقب المدينة الإمبراطورية وشعاراً يحمل النقش التالي: "أنا پوتوسى الغنية، أنا كنز العالم، أنا ملكة الجبال وموضع حسد الملوك". ولم تكد تمضي إحدى عشرة سنة بعد إكتشاف هوالپا، حتى كانت المدينة الإمبراطورية الحديثة المولد تحتفل بتتويج فيليب الثاني بإحتفالات دامت أربعة وعشرين يوماً وتكلفت ثمانية ملايين پيسو ذهبي. وتهافت الباحثون عن الكنوز على هذا الإقليم القاحل. كان التل، الذي يقع على ارتفاع ما يقرب من خمسة آلاف متر، بمثابة مغناطيس فائق القوة، لكن الحياة أسفله قاسية، لاترحم:

www.ibtesama.com/vb

كان البرد يقرص كأنه ضريبة مفروضة وفي غمضة عين إزدهر مجتمع غني وغير منظم في بوتوسي، بجانب الفضة. إنها فترة قمة إزدهار وفوران المعدن: أصبحت بوتوسي "عصب المملكة الرئيسي"، كما عرّفها نائب الملك أورتادو دي مندوثا Hurtado de Mendoza. وفي أوائل القرن السابع عشر، كان بالمدينة ست وثلاثون كنيسة ذات زينة رائعة، وعدة بيوت للقمار، وأربع عشرة مدرسة للرقص. وكانت الصالونات، والمسارح، وصالات الرقص في الأعياد تتألق بسجاجيد فاخرة، وستائر، وأسلحة، وحلّي؛ ومن شرفات البيوت تتدلى أقمشة الدمقس الملونة، والأنسجة الذهبية والفضية. كانت أصناف الحرير والمنسوجات تأتي من غرناطة، والفلاندر، وكالابريا؛ والقبعات من باريس ولندن، والماس من سيلان، والأحجار الكريمة من الهند، واللآلئ من بنما؛ والجوارب من نابولي؛ والكريستال من فينيسيا؛ والسجاجيد من بلاد فارس؛ والعطور من بلاد العرب، والخزف من الصين. كانت النبيلات تتألقن بالأحجار الكريمة، والماس، والياقوت، والجواهر، والنبلاء يستعرضون ألبسة فاخرة مشغولة من هولندا. وكانت تعقب مصارعة الثيران ألعاب القمار ولم يكن الجو يخلو أبداً من المبارزات على طريقة العصور الوسطى، أمور الحب والكبرياء تلك، بخوذات من الحديد مطعمة بالزمرد وبالريشات الزاهية، ومقاعد ومناضد بتطريز ذهبي، وسيوف من طليطلة ومهور تشيلية مطهمة بمنتهى الفخامة.

وفي عام ١٥٧٩ إشتكي القاضي ماتيينثو قائلاً: "هناك دائماً إبتكارات، وتبجّحات، وقلة حياء". حينئذ كان في بوتوسي ثمانمئة مقامر محترف ومائة وعشرون عاهرة شهيرة، يتوافد على صالوناتهن المتألقة أصحاب المناجم الأغنياء. وفي عام ١٦٠٨، إحتفلت بوتوسي بأعياد القربان المقدس بستة أيام من الكوميديات وست ليال من الاحتفالات التنكرية، وثمانية أيام من مصارعة الثيران، وثلاثة أيام من الحفلات الراقصة، وإثنان من المباريات إلى آخر هذه الاحتفالات.

www.ibtesama.com/vb

■ كانت إسبانيا تملك البقرة، لكن آخرين يأخذون اللبن

فيما بين عامي ١٥٤٥ و١٥٥٨ تم إكتشاف مناجم الفضة الغنية في بوتوسي، في بوليفيا الحالية، وكذلك مناجم ثاكاتيكاس Zacatecas وجواناخواتو Guanajuato في المكسيك؛ وفي نفس هذه الفترة تم تطبيق أسلوب الدمج مع الزئبق، الذي أتاح استغلال أدنى درجات الفضة. وسرعان ما إنتزع "التهافت" على الفضة مكان الصدارة من استخراج الذهب. وعند أواسط القرن السابع عشر شكلت الفضة أكثر من ٩٩ في المائة من الصادرات التعدينية لأمريكا الإسبانية[٢٠].

كانت أمريكا، في ذلك الحين، عبارة عن فتحة منجم مركزها في بوتوسي، بالدرجة الأولى. ويؤكد بعض الكتاب البوليفيين، وقد ألهبهم الحماس الزائد، أنه خلال ثلاثة قرون تلقت أسبانيا من بوتوسي معدناً يكفي لمدّ جسر من الفضة يربط بين قمة التل وبين بوابة القصر الملكي على الجانب الآخر من المحيط. وهذه الصورة من عمل الخيال، بلا شك، لكنها على أية حال تشير إلى واقع يبدو خيالياً بالفعل: هو أن تدفق الفضة قد بلغ أبعاداً مهولة. ولاتظهر الصادرات السرية الكبيرة من الفضة الأمريكية، التي خرجت مهرّبة باتجاه الفلبين، والصين، وإسبانيا ذاتها، لاتظهر في حسابات إيرل. ج. هاملتون[٢١]، الذي يقدم، على أساس البيانات المسجلة في الغرفة التجارية، أرقاماً مذهلة، على أية حال، وذلك في كتابه المعروف حول هذا الموضوع. ففيما بين عامي ١٥٠٣ و١٦٦٠، وصل إلى ميناء أشبيلية ١٨٥ ألف كيلو جرام من الذهب و١٦ مليون كيلو جرام من الفضة. لقد تجاوزت كميات الفضة المنقولة إلى أسبانيا فيما لايتجاوز كثيراً قرناً ونصف من الزمن، تجاوزت ثلاث مرات إجمالي الاحتياطيات الأوربية. وهذه الأرقام، الموجزة، لاتتضمن التهريب.

لقد حفزت المعادن المنتزعة من المستعمرات الجديدة النمو الإقتصادي الأوربي ويمكن حتى القول بأنها قد جعلته ممكناً. فحتى آثار الإستيلاء على الكنوز الفارسية التي صبها الإسكندر الأكبر على العالم الهلليني لايمكن أن تقارن بحجم هذا الإسهام الأمريكي الضخم في تقدم الغير. ليس تقدم إسبانيا، بالتأكيد، رغم أن أسبانيا كانت تملك مصادر الفضة الأمريكية. وكما كان يقال في القرن السابع عشر، فإن "إسبانيا مثل الفم الذي يتلقى الغذاء، فيمضغه، ويطحنه، ليرسله على التو إلى الأجهزة الأخرى، ولايحتفظ لنفسه منه سوى بطعم عابر أو بالجزيئات التي تعلق بالصدفة بأسنانه"[٢٢].

www.ibtesama.com/vb

كان الإسبان يملكون البقرة، لكن آخرين كانوا هم من يشربون اللبن. كان مقرضو المملكة، وأغلبهم أجانب، يقرضون بصورة منتظمة خزائن الغرفة التجارية بإشبيلية، المخصصة لحفظ كنوز أمريكا، تحت ثلاثة أقفال، يحمل مفاتيحها ثلاثة أشخاص مختلفين.

كان التاج مرهوناً. وكان يتنازل مقدماً عن كل شحنات الفضة تقريباً للمصرفيين من ألمانيا، وجنوا، وبلاد الفلمنك وإسبانيا[٢٢]. كذلك كانت الضرائب المتحصلة داخل إسبانيا تلقى نفس المصير، بدرجة كبيرة: ففي عام ١٥٤٣، خصّص ٦٥ في المائة من إجمالي العائدات الملكية لدفع أقساط الديون السنوية. ولم تندرج الفضة الأمريكية في الاقتصاد الأسباني إلاّ بأدنى درجة: ورغم كونها مسجلة رسمياً في إشبيلية، فإنها كانت تنتهي إلى أيدي عائلة فوجر Függer، وهم المصرفيون الأقوياء الذين أقرضوا البابا المبالغ اللازمة لإنهاء كنيسة القديس بطرس، وإلى أيدي كبار المقرضين الآخرين لتلك الفترة، من قبيل آل والزر Welser، وآل شتس Shetz وآل جريمالدي Grimaldi. كذلك كانت الفضة تُوجّه إلى دفع ثمن صادرات سلع غير إسبانية متجهة إلى العالم الجديد.

كان لهذا العالم الغنى عاصمة متروبوليتانية فقيرة، رغم أن وهم الرخاء فيها كان يطلق فقاعات تزداد إنتفاخاً باستمرار: فقد كان التاج يفتح جبهات الحرب في كل مكان بينما كرست الاوستقراطية نفسها للتبذير وتضاعفت، على الأرض الإسبانية، أعداد القساوسة والمحاربين، والنبلاء والشحاذين، بنفس المعدل المحموم الذى كانت ترتفع به أسعار الأشياء وأسعار الفائدة. ماتت الصناعة لحظة مولدها في تلك المملكة ذات اللاتيفونديات* الواسعة العقيمة، ولم يستطع الاقتصاد الأسباني المريض أن يقاوم التأثير الحاد لارتفاع الطلب على الأغذية والسلع الذى كان نتيجة حتمية للتوسع الاستعماري. كان الازدياد الكبير للإنفاق العام والضغط الخانق للضروريات الاستهلاكية في ممتلكات ماوراء البحار يزيدان من حدة العجز التجاري ويطلقان العنان للتضخم المتسارع. كتب كولبير Colbert يقول: "كلما زادت تجارة إحدى الدول مع الأسبان، كلما زادت الفضة التي تملكها". دار صراع حاد بين دول أوربا على غزو السوق الإسبانية التي كانت تتضمن سوق وفضة أمريكا. ويتيح لنا كتاب أثري فرنسي من أواخر القرن

* اللاتيفونديا: هي المزرعة الكبيرة المتخلفة. وقد فضلنا استخدام الكلمة بصياغتها اللاتينية لأن هذا الشكل الإنتاجي استمر في كل النظم الاقتصادية من الرومان وحتى الرأسمالية المتأخرة فلا يصح إذن إطلاق كلمة إقطاعية عليها. وقد شجعنا على ذلك أن بعض الأساتذة قد استخدموها مثل طه حسين – م.

www.ibtesama.com/vb

السابع عشر معرفة أن إسبانيا لم تكن تسيطر، في ذلك الحين، إلاّ على خمسة بالمائة من التجارة مع "ممتلكاتها" الاستعمارية وراء المحيط، رغم وهم الاحتكار القانوني: فقد كان نحو ثلث مجموع هذه التجارة في أيدي الهولنديين والفلمنكيين، وربعها في أيدي الفرنسيين، وكان أهل جنوا يسيطرون على أكثر من عشرين بالمائة، والإنجليز على عشرة بالمائة والألمان على أقل من ذلك[٢٤]. كانت أمريكا عملاً تجارياً أوربياً.

كان كارلوس الخامس، وريث القياصرة على عرش الإمبراطورية المقدسة بإنتخاب مدفوع الثمن، قد قضى في إسبانيا ما لايزيد عن ستة عشر عاماً من أعوام ملكه الأربعين. هذا العاهل ذو الذقن المدببة والنظرة الحمقاء، الذي كان قد ارتقى العرش وهو لايعرف كلمة واحدة من اللغة القشتالية، كان يحكم محاطاً بحاشية من الفلمنكيين الجشعين ظل يمنحهم تصاريح يخرجون بها من إسبانيا بغالاً وخيولاً محملة بالذهب والجواهر، كذلك كان يكافئهم بمنحهم مناصب الأساقفة وكبار الأساقفة، وهي مناصب بيروقراطية، كما منحهم أول ترخيص لجلب العبيد السود إلى المستعمرات الأمريكية. وفي إندفاعه لمطاردة الشيطان في كل أوربا، أفرغ كنز أمريكا في حروبه الدينية. ولم تنقطع سلالة الهابسبورغ بموته: فقد كان على أسبانيا أن تعاني في ظل مملكة سلالة أوستريا خلال نحو قرنين من الزمان. وكان ابنه فيليب الثاني هو بطل الإصلاح المضاد. ومن القصر – الدير الضخم الذي كان يسكنه في الاسكوريال، عند سفوح جبل جوادارّاما، أدار فيليب الثاني، على نطاق شامل، العجلة الرهيبة لمحاكم التفتيش، وأطلق جيوشه على مراكز الهرطقة. كان مذهب كالفن قد إنتزع هولندا، وإنجلترا، وفرنسا، وكان الأتراك يجسّدون خطر عودة الدين الإسلامي. كانت الخلاصية باهظة التكاليف والأشياء الذهبية والفضية الثقيلة، من أعاجيب الفن الأمريكي، والتي لم تصل مصبوبة جاهزة من المكسيك والبيرو، إنتزعت بسرعة من الغرفة التجارية بإشبيلية وألقيت في أفواه الأفران.

كذلك التهمت النيران الهراطقة والمشكوك في هرطقتهم، أحرقتهم ألسنة اللهب المطهّرة لمحاكم التفتيش: أحرق توركيمادا Torquemada الكتب بينما كان ذيل الشيطان يظهر في كل الأركان: كذلك كانت الحرب ضد البروتستانتية حرباً ضد الرأسمالية الصاعدة في أوربا. يقول إليوت في كتابه المذكور آنفاً "كان استمرار الحرب الصليبية يتضمن استمرار التنظيم الاجتماعي العتيق لأمة من المحاربين الصليبيين". وقدمت معادن أمريكا، بهجة ودمار إسبانيا، وسائل القتال ضد القوى الوليدة للإقتصاد الحديث. كان كارلوس الخامس قد سحق البرجوازية القشتالية بالفعل في الحرب ضد

www.ibtesama.com/vb

رجال الكوميونة، التى تحولت إلى ثورة إجتماعية ضد النبلاء، وممتلكاتهم، وامتيازاتهم. وتمت هزيمة الانتفاضة بدءاً من خيانة مدينة بورجوس Burges، التى ستصبح عاصمة الجنرال فرنثيسكو فرنكو بعد ذلك بأربعة قرون؛ وبعد أن أخمدت آخر شرارات التمرد، عاد كارلوس الخامس إلى إسبانيا وبصحبته أربعة آلاف جندى ألمانى. وفى نفس الوقت، أغرقت فى الدم الانتفاضة الشديدة الراديكالية التى قام بها النساجون، والغزالون، والحرفيون الذين استولوا على السلطة فى مدينة بلنسيه ومدوا سيطرتهم إلى مجمل الإقليم.

كان الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية قناعاً للنضال ضد التاريخ. كان طرد اليهود – الإسبان ذوى الديانة اليهودية – قد حرم إسبانيا، فى زمن الملكين الكاثوليكيين، من كثير من الحرفيين المهرة ومن رؤوس أموال لاغنى عنها. ويعد أقل أهمية من ذلك طرد العرب – وهم، فى الحقيقة، أسبان من أصحاب الدين الإسلامى – رغم أنه فى عام ١٦٠٩ سيق ما لايقل عن ٢٧٥ ألفاً منهم إلى الحدود مما كان له آثار مدمرة على إقتصاد بلنسيه، ودُمِّرت الحقول الخصبة جلوبى نهر الإبرو، فى أراجون. وقبل ذلك، كان فيليب الثانى قد طرد، لأسباب دينية، آلافاً من الحرفيين الفلمنكيين الذين يعتنقون أو المشكوك فى إعتناقهم البروتستانتية: إحتضنتهم إنجلترا على أرضها، وهناك أعطوا دفعة هامة للصناعات البريطانية.

وكما يتضح، لم تكن المسافات الهائلة ولا الاتصالات الصعبة هى العقبات الأساسية التى إعترضت التقدم الصناعى لإسبانيا. فالرأسماليون الأسبان تحولوا إلى أصحاب ريع، من خلال شراء ديون التاج، ولم يستثمروا أموالهم فى التنمية الصناعية وتحولت العائدات الاقتصادية إلى مجالات غير منتجة: كان الأثرياء القدامى، أرباب المشنقة والسكين*، وملاك الأرض وألقاب النبالة، يشيدون القصور ويكومون الجواهر؛ وكان الأثرياء الجدد، المضاربون والتجار، يشترون الأراضى وألقاب النبالة. وكان هؤلاء وأولئك لايدفعون ضرائب تقريبا، ولايمكن سجنهم وفاء لديونهم. وكان من يشتغل بنشاط صناعى يفقد تلقائياً لقب النبالة[٢٥].

وضمنت إتفاقيات تجارية متتالية، موقعة بدءاً من هزائم الأسبان العسكرية فى أوربا، ضمنت إمتيازات نشطت حركة التجارة البحرية بين ميناء قادس، الذى يوصل إلى أشبيلية، وبين الموانئ الفرنسية، والإنجليزية، والهولندية، وموانئ إتحادات المدن التجارية

* تعبير يقال لوصف النبلاء الذين يتمتعون بالسلطة المدنية والقضائية – م.

www.ibtesama.com/vb

الألمانية. وفي كل عام، كانت ما بين ثمانمائة وألف سفينة تفرغ في أسبانيا المنتجات التي صنَّعها الآخرون، وكانت تحمل فضة أمريكا والصوف الأسباني، الذي كان يتجه إلى مصانع النسيج الأجنبية ليعود وقد نسجته الصناعة الأوربية الآخذة في التوسع. واكتفى محتكاريُّو قادس بإعادة دمغ المنتجات الصناعية الأجنبية التي يرسلونها إلى العالم الجديد: إذا كانت المانيفاكتورة الأسبانية لاتستطيع حتى كفاية السوق الداخلي، فكيف يمكنها إشباع احتياجات المستعمرات؟

كانت الشرائط من ليل وأرَّاز، والمنسوجات الهولندية، والسجاجيد من بروكسل، والمشغولات المطرزة من فلورنسا، والكريستال من فينيسيا، والأسلحة من ميلانو، والخمور والكتان من فرنسا[٢٦]، كانت تغرق السوق الأسبانية، على حساب الإنتاج المحلي، من أجل إشباع نهم التباهي ومتطلبات استهلاك الأغنياء الطفيليين الذين يزدادون عدداً وقوة في بلد يزداد فقراً. ماتت الصناعة في مهدها، وفعلت سلالة هابسبورج كل ما يمكن من أجل التعجيل بموتها. وفي منتصف القرن السادس عشر بلغوا حد التصريح باستيراد منسوجات أجنبية في حين حظروا كل تصدير للأقمشة القشتالية ما لم يكن موجهاً لأمريكا[٢٧]. وعلى العكس من ذلك، وكما لوضح راموس، فإن توجهات هنري الثامن واليزابث الأولى في إنجلترا كانت مختلفة تماماً. فقد حظرا في هذه الأمة الصاعدة خروج الذهب والفضة، واحتكرا السندات، وعرقلا استخراج الصوف، وطردا من الموانئ البريطانية بضائع رابطة اتحاد المدن التجارية الألمانية لبحر الشمال. كذلك كانت الجمهوريات الإيطالية تحمي تجارتها الخارجية وصناعتها من خلال الرسوم الجمركية، والامتيازات، وأشكال الحظر الصارمة: فلم يكن الصناع يستطيعون تغيير وطنهم دون أن يتعرضوا لعقوبة الموت.

شمل الخراب كل شيء. فمن بين الـ ١٦ ألف معمل نسيج التي بقيت في أشبيلية عام ١٥٥٨، عند وفاة كارلوس الخامس، لم يتبق سوى أربعمائة عند وفاة فيليب الثاني، بعدها بأربعين سنة. والسبعة ملايين من الماعز التي كانت ترعى في الأندلس تقلصت إلى مليونين. وقد صور ثربانتس في روايته دون كيخوته دي لامانشا – وهي رواية واسعة الانتشار في أمريكا – مجتمع عصره. لكن مرسوماً صدر في أواسط القرن السادس عشر جعل من المستحيل استيراد الكتب الأجنبية ومنع الطلاب من الدراسة خارج إسبانيا؛ وتقلص عدد طلاب سلمنكا إلى النصف خلال عقود قليلة؛ كان ثمة تسعة آلاف دير وتضاعف الكهنة بنفس سرعة تضاعف النبلاء ذوي العباءة والسيف تقريباً؛ كان

www.ibtesama.com/vb

١٦٠ ألفاً من الأجانب يحتكرون التجارة الخارجية وحكمت مظاهر ترف الأرستقراطية على إسبانيا بالعجز الاقتصادي. وحوالى عام ١٦٣٠، كان ما يزيد قليلاً على مائة وخمسين من الدوقات، والماركيزات، والكونتات، والفيسكونتات يحصلون على ريع سنوي قيمته خمسة ملايين دوكادو، كانت تشبع بإسراف بريق ألقابهم الطنانة. كان لدى دوق مديناثيلي سبعمائة خادم وكان خدم دوق أوسونا ثلاثمائة، وكان، سخريةً من قيصر روسيا، يلبسهم معاطف جلدية[٢٨]. كان القرن السابع عشر عصر التشرد، والجوع، والأوبئة. كان عدد المتسولين الأسبان لانهائياً، مما لم يمنع أن يتدفق عليها كذلك المتسولون الأجانب من كل أركان أوربا. وبحلول عام ١٧٠٠ كان في أسبانيا ٦٢٥ ألف نبيل، من سادة الحرب، رغم أن البلد كان يفرغ من السكان: فقد تقلص سكانه إلى النصف خلال مايزيد قليلاً على قرنين من الزمان، وكان تعداده مساوياً لتعداد إنجلترا، التي كانت قد ضاعفت سكانها خلال نفس الفترة. وبعد عام ١٧٠٠ علامةً على نهاية نظام سلالة هابسبورج. كان الإفلاس شاملاً. بطالة مزمنة، وإقطاعيات ضخمة مقفرة، وعملة تعاني من الفوضى، وصناعة مُدمَّرة، وحروب ضائعة، وخزائن خاوية، وسلطة مركزية غير معروفة في الأقاليم: كانت إسبانيا التي واجهها فيليب الخامس "أقل موتاً بقليل من سيدها الميت"[٢٩].

ومنحت سلالة البوربون البلاد مظهراً أكثر عصرية، لكن عند نهاية القرن الثامن عشر كانت الكنيسة الأسبانية تضم ما لايقل عن مائتي ألف عضو ولم يكن بقية السكان غير المنتجين بقادرين على إعاقة نموهم الساحق، على حساب تخلف البلاد. وفي ذلك الحين، كان بإسبانيا أكثر من عشرة آلاف قرية ومدينة خاضعة للسلطة القضائية للنبلاء، وخارجة بذلك عن السيطرة المباشرة للملك. كانت الإقطاعيات ومؤسسة الأبناء البكر* سليمتان لم تمسا. واستمرت النيبية والقدرية. لم تكن فترة حكم فيليب الرابع قد تم تجاوزها بعد: ففي عصره، اجتمع مجلس من اللاهوتيين لفحص مشروع إنشاء قناة تربط نهري المنثانارس والتاخو وانتهى بإعلان أنه إذا كانت الرب يريد أن يتيح الملاحة في النهرين، لكان قد خلقهما كذلك بنفسه.

* بمقتضى نظام الابن البكر كان أكبر الأبناء الذكور يرث إقطاعيات أبيه ويعمل فارساً مهنته القتال – م.

www.ibtesama.com/vb

■ توزيع المهام بين الحصان والفارس

في المجلد الأول من رأس المال، كتب كارل ماركس: "إن إكتشاف منابع أمريكا من الذهب والفضة، وحملة الإبادة، والاستعباد، والدفن في المناجم للسكان الأصليين، وبدء فتح ونهب جزر الهند الشرقية، وتحويل القارة الإفريقية إلى ساحة لصيد العبيد السود: كلها وقائع تشير إلى بدايات عصر الإنتاج الرأسمالي. فهذه العمليات الملحمية تمثل عوامل أساسية أخرى في حركة التراكم البدائي".

كان النهب، الداخلي والخارجي، هو أهم وسيلة لتحقيق التراكم البدائي لرؤوس الأموال الذي أتاح، منذ العصر الوسيط، ظهور مرحلة تاريخية جديدة في التطور الإقتصادي العالمي. فبقدر ماكان الإقتصاد النقدي ينتشر، بقدر ما كان التبادل غير المتكافئ يتسع ليضم شرائح اجتماعية أكثر وأقاليم أكثر من العالم. وقد أحصى إرنست ماندل قيمة الذهب والفضة المنتزعان من أمريكا حتى عام ١٦٦٠، والغنيمة المستخلصة من إندونيسيا من جانب الشركة الهولندية لجزر الهند الشرقية من ١٦٥٠ حتى عام ١٧٨٠، وأرباح رأس المال الفرنسي من تجارة العبيد خلال القرن الثامن عشر، والأرباح المتحصلة من عمل العبيد في جزر الأنتيل البريطانية والنهب الإنجليزي للهند خلال نصف قرن: والمحصلة تفوق قيمة كل رأس المال المستثمَر في كل الصناعات الأوربية عام ١٨٠٠ (٣٠). ويلفت ماندل الانتباه إلى أن هذه الحصيلة الضخمة من رؤوس الأموال خلقت مناخاً مواتياً للإستثمارات في أوربا، وحفزت "روح المشروع" وموّلت بشكل مباشر إنشاء صناعات أعطت دفعة قوية للثورة الصناعية. لكن، وفي نفس الوقت، فإن التركيز العالمي الضخم للثروة لصالح أوربا، قد أعاق، في الأقاليم المنهوبة، الإنتقال إلى تراكم رأس المال الصناعي. إن "المأساة المزدوجة للبلدان النامية تكمن في أنها لم تقع فقط ضحية لعملية التركز العالمي هذه، بل كذلك في أنها اضطرت فيما بعد إلى محاولة تعويض تأخرها الصناعي، أي تحقيق التراكم الأولي لرأس المال الصناعي، في عالم تغرقه الأدوات المصنّعة من جانب صناعة أصبحت ناضجة، هي الصناعة الغربية" (٣١).

وقد إكتشفت المستعمرات الأمريكية، وفتحت، واستعمرت ضمن إطار عملية توسع رأس المال التجاري، مدّت أوربا ذراعيها لتبلغ العالم بأسره. ولم تنل إسبانيا ولا البرتغال فوائد التقدم الكاسح للمركنتيلية الرأسمالية، برغم أن مستعمراتهما هي التي قدمت، بقدر أساسي، الذهب والفضة اللذين غذّيا ذلك التوسع. وكما رأينا، فإن معادن

www.ibtesama.com/vb

أمريكا النفيسة إذا كانت قد اضاءت الحظ الخادع لنبلاء إسبانية كانت تعيش عصرها الوسيط بصورة متأخرة وضد التاريخ، فإنها في نفس الآن قد سببت خراب أسبانيا في القرون التالية، وكانت أقطار أخرى من أوربا هي التي إستطاعت حضانة الرأسمالية الحديثة مستفيدة، بدرجة كبيرة، من نزع ملكية شعوب أمريكا البدائية. فبعد سرقة الكنوز المكوّمة جاء الاستغلال المنهجي، في المناجم والمنابع، لعمل السخرة للهنود والعبيد الزنوج المنتزعين من إفريقيا من قبل تجار العبيد.

كانت أوربا بحاجة إلى الذهب والفضة. تضاعفت دون توقف وسائل دفع القيمة التبادلية وكان من الضروري تغذية حركات الرأسمالية في لحظة الميلاد: سيطر البورجوازيون على المدن وأقاموا المصارف، وأنتجوا وتبادلوا السلع، وفتحوا أسواقاً جديدة. بالذهب، والفضة، والسكر: تشكّل الاقتصاد الاستعماري، الذي يقدم من المواد أكثر مما يستهلك، لتلبية متطلبات السوق الأوربية، وفي خدمتها وظلت قيمة الصادرات الأمريكية اللاتينية من المعادن النفيسة، خلال فترات طويلة من القرن السادس عشر، تفوق أربع مرات قيمة الواردات ، التي تتكون في المقام الأول من العبيد، والملح، والنبيذ والزيت، والأسلحة، والأقمشة والأدوات الفاخرة. وتدفقت الموارد لتراكمها الأمم الأوربية الصاعدة. كانت هذه هي المهمة الأساسية التي حملها الرواد الأوائل، رغم أنهم استخدموا بالإضافة إليها الإنجيل، بنفس تواتر استخدامهم للسوط، ضد الهنود المحليين. ولدت البنية الاقتصادية للمستعمرات الأيبيرية خاضعةً للسوق الخارجية، وبالتالي، متمحورةً حول قطاع التصدير، الذي ركز الدخل والسلطة.

وطوال هذه العملية، منذ مرحلة المعادن وحتى الإمداد بالأغذية فيما بعد، توحّد كل إقليم مع ما ينتجه، وأنتج ما كان ينتظر منه في أوربا: كل منتج، محمّل في أقبية السفن التي تعبر المحيط، تحوّل إلى مهنة وإلى مصير. إن تقسيم العمل، كما نشأ مع الرأسمالية، كان يبدو وكأنه توزيع المهام بين الفارس والحصان، كما يقول بول باران Paul Baran(٢١). نمت أسواق العالم الاستعماري وكأنها مجرد ملحقات السوق الداخلية الرأسمالية الوليدة.

يوضح سلسو فورتادو Celso Furtado أن السادة الاقطاعيين الأوربيين كانوا يحصلون على عائد اقتصادي من السكان الذين يسيطرون عليهم، ويستخدمونه، بطريقة أو بأخرى، في نفس أقاليمهم، بينما كان الهدف الرئيسي للإسبان الذين تلقوا من الملك مناجم، وأراضي، وهنود في أمريكا، يتلخص في استخلاص عائد لكي ينقلوه إلى أوربا.

www.ibtesama.com/vb

هذه الملاحظة تساهم في توضيح الهدف النهائي للاقتصاد الاستعماري الأمريكي، منذ تطبيقه؛ فرغم أنه كان يُظهر شكلياً بعض الملامح الاقطاعية، فقد كان يعمل في خدمة الرأسمالية الوليدة في أقطار أخرى. وفي نهاية المطاف، فإنه حتى في عصرنا، لايمكن شرح وجود المراكز الغنية الرأسمالية بدون وجود الأطراف الفقيرة والخاضعة: فهؤلاء وأولئك يتكاملون في نفس المنظومة.

لكن لم يكن العائد كله يهرب نحو أوربا. كان الاقتصاد الإستعماري محكوماً بالتجار، وأصحاب المناجم، وكبار ملاك الأراضي، الذين كانوا يقتسمون حق الانتفاع بالأيدي العاملة الهندية والزنجية تحت النظرة الغيورة والكلية القوة للتاج وحليفته الأساسية، الكنيسة. كانت السلطة مركزّة في أيدٍ قليلة، ترسل إلى أوربا معادن وأغذية، وتتلقى من أوربا الأدوات التّرفية التي يكرسون للاستمتاع بها ثرواتهم النامية. ولم يكن لدى الطبقات الحاكمة أدنى إهتمام بتنويع الاقتصاديات الداخلية ولابرفع المستويات التقنية والثقافية للسكان: كانت وظيفتهم داخل الإطار الدولي الذي يعملون لصالحه وظيفة مختلفة، وكان البؤس الشعبي الساحق، المُربح جداً من وجهة نظر المصالح السائدة، يعوق نمو سوق استهلاك داخلية.

تؤكد اقتصادية فرنسية[٢٤] أن أسوأ ميراث استعماري لأمريكا اللاتينية، يفسر تأخرها الملحوظ الحالي، هو نقص رؤوس الأموال. إلاّ أن كل المعلومات التاريخية توضح أن الاقتصاد الاستعماري قد أنتج، في الماضي، ثروة ضخمة للطبقات المرتبطة، داخل الإقليم، بنظام السيطرة الاستعمارى. فالأيدي العاملة المتوفرة، والتي كانت مجانية أو شبه مجانية، والطلب الأوربي الكبير على المنتجات الأمريكية، أتاحا، كما يقول سيرخيو باجو[٢٥] "تراكماً مبكراً ووفيراً لرؤوس الأموال في المستعمرات الايبيرية. وأخذت نواة المنتفعين، بدل أن تتسع، تتقلص بالنسبة لمجمل السكان، كما يُستنتج من الحقيقة المؤكدة في أن عدد الأوربيين والكريول العاطلين كان يتزايد باستمرار". إن رأس المال الذي كان يبقى في أمريكا بعد خصم نصيب الأسد الذي يصب في عملية التراكم البدائي للرأسمالية الأوروبية، لم يكن يولّد، في هذه البلاد، عملية مماثلة لما يجري في أوربا، من أجل إرساء قواعد التنمية الصناعية، بل كان يتحول إلى إقامة قصور ضخمة ومعابد متباهية، إلى شراء جواهر وملابس وأثاثات فاخرة، إلى الحصول على عدد كبير من العبيد، وإلى التبذير في الاحتفالات. وبدرجة كبيرة، كذلك، ظل هذا العائد راكداً في شراء أراضٍ جديدة أو واصل دورته في الأنشطة التجارية وأنشطة المضاربة.

www.ibtesama.com/vb

منذ أفول العصر الاستعماري، سيصادف موميوات فى المكسيك "كتلة ضخمة من رؤوس الأموال مكوّمة فى أيدى ملاك المناجم، وفى أيدى التجار الذين انسحبوا من التجارة". وكان ما لايقل عن نصف الأصول والرأسمال الإجمالى للمكسيك يخص، حسب شهادته، الكنيسة، التى كانت، علاوة على ذلك، تسيطر على جزء كبير من الأراضى الباقية من خلال الرهونات[٢٦]. وكان أصحاب المناجم المكسيكيين يستثمرون عوائدهم فى شراء اللاتيفونديات، وفى قروض الرهونات، مثلهم فى ذلك مثل كبار مصدرى فيراكروث وأكابولكو وكانت الهيراركية الكنَسية تمد ممتلكاتها فى نفس الاتجاه. كانت دور الإقامة القادرة على تحويل الشخص العامى إلى أمير والمعابد الشامخة تنبت مثل الفطريات بعد المطر.

وفى البيرو، منذ أواسط القرن السابع عشر، كانت رؤوس الأموال التى يملكها الولاة، وأصحاب المناجم، وأعضاء محاكم التفتيش، وموظفو الإدارة الامبراطورية تصب فى التجارة، وكانت الثروات الوليدة فى فنزويلا من زراعة الكاكاو التى بدأت عند نهاية القرن السادس عشر، بالسوط، وعلى أكتاف فيالق من العبيد السود، تستثمر "فى مزارع جديدة وزراعات تجارية أخرى، وكذلك فى المناجم، والأصول العقارية الحضرية، والعبيد، وقطعان الماشية"[٢٧].

■ أطلال پوتوسى: دورة الفضة

بتحليل طبيعة العلاقات بين «المتروپول» و "البلد التابع" على طول تاريخ أمريكا اللاتينية بإعتبارها سلسلة إخضاع متتالية، أبرز أندريه جوندر فرانك André Gunder Frank، فى أحد كتبه[٢٨]، أن أكثر الأقاليم اليوم حملاً لعلامات التخلف والفقر هى تلك الأقاليم التى كانت لها فى الماضى روابط أوثق بالمتروپول وتمتعت بفترات إزدهار. إنها الأقاليم التى كانت أكبر المنتجين للبضائع المصدّرة إلى أوربا، أو إلى الولايات المتحدة، فيما بعد، والتى كانت أكثر منابع رأس المال تدفقا: وهى الأقاليم التى هجرتها المتروپول حين تدهورت الأعمال لسبب أو لآخر. وتمثل پوتوسى أوضح الأمثلة على هذا السقوط فى الفراغ.

عاشت مناجم الفضة فى جواناخواتو وثاكاتيكاس، بالمكسيك، فترة إزدهارها فى وقت لاحق. لكن فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، كان تل پوتوسى الغنى مركز الحياة الاستعمارية الأمريكية: كان المركز الذى يدور حوله، بطريقة أو بأخرى، الاقتصاد

www.ibtesama.com/vb

التشيلي، الذي كان يقدم إليه القمح، واللحوم المجففة، والجلود، والخمور؛ وتربية الماشية والصناعات الحرفية في كوردوبا وتوكومان، إذ تزوّدانه بحيوانات الجر وبالمنسوجات؛ ومناجم زئبق هوانكابيليكا Huancavélica وإقليم آريكا Arica حيث كانت تشحن الفضة إلى ليما، المركز الإداري الرئيسي لتلك الحقبة. وبعد القرن الثامن عشر علامةً على بداية النهاية بالنسبة لإقتصاد الفضة الذي كان مركزه في بوتوسي، ورغم ذلك ففي فترة الإستقلال، كان تعداد سكان الإقليم الذي يشكل اليوم بوليفيا مايزال يفوق تعداد السكان الذين كانوا يسكنون ما يمثل اليوم الأرجنتين. وبعد ذلك بقرن ونصف، نجد أن سكان بوليفيا أقل ست مرات تقريباً من سكان الأرجنتين.

مجتمع بوتوسي هذا، المريض بالبذخ والتبذير، لم يترك لبوليفيا إلاّ الذكرى الضبابية لأمجاده، وأطلال كنائسه وقصوره، وثمانية ملايين جثة من جثث الهنود. كانت أي واحدة من الماسات التي تزين درع فارس غني تساوي، في نهاية المطاف، أكثر مما يستطيع هندي أن يكسبه طول حياته من العمل بنظام السخرة*، لكن الفارس هرب بالماسات. واليوم، تستطيع بوليفيا، التي هي واحدة من أفقر بلدان العالم، أن تتباهى – إذا لم يكن ذلك عبثاً يبعث الشجن – بأنها غذت ثروة البلدان الأغنى. وفي أيامنا، فإن بوتوسي مدينة فقيرة في بوليفيا الفقيرة: "أكثر المدن عطاءً للعالم وأقلها فيما تملك"، كما قالت لي سيدة عجوز من بوتوسي، ملتفة بشال لاينتهي من صوف الألباكا، ونحن نتحدث تجاه البهو الأندلسي لبيتها الذي يرجع لقرنين من الزمن. هذه المدينة التي حكِم عليها بالحنين، ويعذبها البؤس والبرد، مازالت جرحاً مفتوحاً للنظام الاستعماري في أمريكا: مازالت إتهاماً. وعلى العالم أن يبدأ في طلب غفرانها.

وهي تحيا على الحطام. في عام ١٦٤٠، نشر الأب ألبارو ألونسو – باربا Alvaro Alonso - Barba في مدريد، في مطبعة المملكة، مبحثه الممتاز عن فن المعادن. كتب باربا أن القصدير "سم"[٣٩] وذكر تلالاً يوجد فيها "قصدير كثير، رغم أن قليلين يعرفونه، ولأنهم لايجدون الفضة التي يبحث عنها الجميع، فإنه يلقونه هناك". وفي بوتوسي يتم الآن استغلال القصدير الذي ألقاه الإسبان جانباً وكأنه نفاية. وتباع جدران البيوت القديمة على أنها قصدير ذي نقاوة جيدة. من أفواه الخمسة آلاف نفق التي فتحها

* طوال العصر الاستعماري في أمريكا، كان نظام الميتا Mita هو النظام الاساسي والأوسع إنتشاراً لتنظيم إستغلال قوة عمل الهنود. إذ كان الهنود يتبادلون العمل كخدمة للإسبان فيعمل كل منهم ١٠ يوماً في العام في منازل الاسبان وثلاثة او أربعة شهور في الرعي، او عشرة شهور في المناجم – والكلمة المستخدمة هنا هي Mitayo نسبة لهذا النظام – م.

www.ibtesama.com/vb

الإسبان في التل الغني تدفقت الثروة على طول القرون. وأخذ لون التل يتغير بقدر ما أخذت تفرغه إنفجارات الديناميت وتخفض من مستوى قمته. وأكوام الصخر المتراكمة حول الثقوب اللانهائية تحتوي على كل الألوان: فهي وردية، وبنفسجية، وقرمزية، وصفراء، ورمادية، وذهبية، وبنّية. ملأى من البقايا. يكسر مستخرجو الخام llamperos الصخر بينما تقوم القرّازات palliris الهنديات، ذوات الأيدي المدربة على الوزن والتقلوة، بالتنقيب، مثل العصافير، في البقايا المعدنية بحثاً عن القصدير. ومازال عمال المناجم يدخلون في الأنفاق التي لم تغمرها المياه، ومصباح الكربون في يد، وأجسامهم متشابكة، لإنتزاع مايمكن إنتزاعه. ليس ثمة فضة. ولاحتى بريقها؛ فقد كنس الإسبان عروق الفضة بالمكانس. يحفر القرّازة pallacos بالمعول والجاروف أنفاقاً صغيرة ليستخرجوا عروقاً من الفتات. أخبرني أحد العاطلين دون دهشة وهو يغربل الأرض بأصابعه "التل مازال غنياً. لابد أن الله موجود، تخيّل: المعدن ينمو كأنه نبتة، تماماً".
وأمام التل الغني لبوتوسي، يرتفع الشاهد على الخراب. إنه جبل يحمل إسم هواكاخشي Huakajchi، الذي يعني بلغة الكتشوا: "التل الذي بكى". من جوانبه تسيل ينابيع كثيرة من الماء النقي، هي "عيون الماء" التي تقدم الماء لعمال المناجم.

في فترات إزدهارها، عند إنتصاف القرن السابع عشر، جمعت المدينة الكثيرين من الرسامين والحرفيين الإسبان أو الكريول أو ذوي الخيال الهنود الذين تركوا ميسمهم على الفن الاستعماري الأمريكي. وقد خلّف ملتشور بيريث دي هولجين Melchor Pérez de Holguín، إلجريكو أمريكا، مجموعة ضخمة من الأعمال الدينية تشي في آن واحد بموهبة مبدعها وبالنفحة الوثنية لهذه البلاد: ومن الصعب، على سبيل المثال، تسيان العذراء مريم الرائعة، ذات الذراعين المفتوحتين، التي ترضع الطفل يسوع من أحد ثدييها وترضع بالآخر القديس يوسف. قام الصاغة، ونقاشو الفضة، وأساتذة الحفر البارز، وصناع الأثاث الخشبي، الصناع المهرة للمعدن، والخشب الثمين، والمصيص، والعاج الراقي، بتزويد الكنائس والأديرة العديدة في بوتوسي بأشغال الحفر والمذابح ذات النقوش اللانهائية، والمصابيح الفضية، والمنابر والمحاريب النفيسة. وقد قاومت الواجهات الباروكية للمعابد، والمشغولة في الحجر، عوادي القرون، لكن نفس الشئ لم يحدث بالنسبة للوحات، التي أتلفتها في أحيان كثيرة وخزات الرطوبة، كذلك لم يحدث مع صورة الأشخاص ومع الأشياء خفيفة الوزن. فقد أفرغ السياح والقساوسة الكنائس من كل ما استطاعوا حمله: من الكئوس والأجراس إلى لوحات الحفر التي يبدو فيها القديس

www.ibtesama.com/vb

فرنثيسكو والمسيح بلون الخوخ أو الرماد.

هذه الكنائس المنهوبة، والتي أغلق معظمها، تتهدم بفعل السنين. وإنها لحسرة، لأنها مازالت تشكل، رغم نهبها، كنوزاً ثمينة من فن استعماري يصهر ويلهب كل الأساليب، فن ثمين في عبقريته وفي هرطقته: فالعلامة المدَّرجة لتياهواناكو Tiahuanacu في مكان الصليب، والصليب بجانب الشمس المقدسة والقمر المقدس، والعذارى والقديسون بشعر طبيعي، والكروم والسنابل تلتف على الأعمدة، حتى تيجانها، بجانب الكانتوتا Kantuta، الزهرة الامبراطورية لهنود الإنكا؛ والحوريات، وباخوس والإحتفال بالحياة تتناوب جميعها مع الزهد الروماني، والوجوه السمراء لبعض القديسين والكرتيدات* ذوات الملامح الهندية. وثمة كنائس أعيد تجهيزها للتقدم، وقد خلت من المؤمنين، خدمات أخرى. فقد تحولت كنيسة سان أمبروزيو إلى سينما أوميستي؛ وفي فبراير عام ١٩٧٠، وفوق النقوش الباروكية الفاترة للواجهة كان هناك اعلان عن العرض القادم: "عالم مجنون، مجنون، مجنون". كذلك تحول معبد فرقة يسوع إلى دار سينما، ثم إلى مخزن لبضائع شركة جراس، وأخيراً إلى متجر أغذية خيري. إلاّ أن بضع كنائس قليلة مازالت، رغم حالتها السيئة، تقوم بعملها: وقد مضى قرن ونصف على الأقل منذ كف سكان بوتوسي عن إشعال الشموع بسبب قلة النقود. ومثالها كنيسة سان فرنثيسكو. ويقال أن صليب هذه الكنيسة ينمو بمقدار بضع سنتيمترات كل عام، وأن لحية السيد المسيح سيد بيرا كروث تنمو كذلك. وهو مسيح مهيب من الفضة والحرير ظهر في بوتوسي، دون أن يحضره أحد، منذ أربعة قرون. ولا ينفي القساوسة أنهم يحلقون لحيته كل فترة معينة، وينسبون إليه، كتابةً كذلك، كل المعجزات: التعويذات المتتالية للجفاف والأوبئة، والحروب دفاعاً عن المدينة المطاردة.

ورغم ذلك، لم يستطع سيد بيراكروث أن يصنع شيئاً لوقف تدهور بوتوسي. وكان نضوب الفضة قد فُسِّر على أنه عقاب إلهي على فظاعات وخطايا أصحاب المناجم. غابت القدّاسات الفاخرة؛ مثلها مثل المآدب ومصارعات الثيران، وحفلات الرقص والألعاب النارية. كانت العقيدة الدينية بكل بهائها هي الأخرى، في نهاية الأمر، ناتجاً ثانوياً للعمل المستعبد للهنود. كان أصحاب المناجم، في عصر البهاء، يقدمون هبات رائعة للكنائس والأديرة، ويقيمون طقوساً جنائزية متباهية. مفاتيح من الفضة الخالصة لبوابات السماء: وقد أمر الباروبيخارانو في وصيته عام ١٥٥٩، أن يصاحب نعشه "كل

* الكرتيد cariátide وبالانجليزية Caryatid: تمثال إمرأة يقوم مقام العمود في العمارة القديمة – م.

www.ibtesama.com/vb

قسس وكهنة بوتوسي". كانت الشعوذة والسحر قد إختلطا بالديانة الرسمية، في غيبوبة حماس ومخاوف المجتمع الإستعماري. كان تلقي البركة الأخيرة في طقوس باذخة، مثلما في التعميد، قادراً على شفاء المحتضر، رغم أنه كان من الأكيد كتابة وصية سخية بإقامة معبد أو مذبح من الفضة. كانت الحمى تحارب بالأناجيل؛ والتراتيل في أحد الأديرة ترطب الجسم؛ وفي غيره، تعطي حرارة. "كان قانون الإيمان المسيحي منعشاً مثل التمر الهندي أو ملح النترات الحلو وكانت صلاة السلام لك يامريم دافئة مثل ماء الزهر أو نؤابة الذرة الحلوة.."[40].

في شارع تشوكيساكا يستطيع المرء أن يعجب بالواجهة، التي أبلتها القرون، لقصر كونتات كارما وكايارا، لكن القصر الآن عيادة لطبيب وجرّاح أسنان؛ وشعار القائد العسكري دون أنطونيو لوبث دي كيروجا، في شارع لانثا، يزين الآن مدرسة صغيرة؛ أما شعار المركيز دي أوتابي، بأسوده النافرة، فيلمع على بوابة البنك القومي. "في أي أماكن سيحيون الآن. لابد أنهم قد مضوا بعيداً ...". تحكي لي العجوز البوتوسية، المقيدة إلى مدينتها، أن الأغنياء مضوا في البداية، ثم مضى الفقراء بعدهم: وسكان بوتوسي الآن يقلون ثلاث مرات عنهم منذ أربعة قرون. أتأمل التل من فوق أحد أسطح شارع أوربني، وهو حارة كولونيالية ضيقة وملتوية، حيث تبرز من المنازل شرفات ضخمة من الخشب تلتصق ببعضها من رصيف إلى الآخر بحيث يمكن للجيران أن يتعانقوا أو يتشاجروا دون حاجة إلى النزول إلى الشارع. وقد بقيت هنا، مثلما في كل المدينة، المصابيح القديمة ذات الضوء الشاحب وتحتها، إذا إقتبسنا عبارات خايمي مولينس". كانت تسوّى خلافات الحب وينساب، مثل الأشباح، فرسان ملثمون، وسيدات أنيقات، ومقامرون". وبالمدينة نور كهربائي الآن، لكنه لا يُلاحظ جيداً. وفي الميادين المظلمة، على ضوء المصابيح العتيقة، يجرى اللعب على اليانصيب في الليالي: ولقد شهدت سحباً على قطعة فطير وسط جمع من الناس.

ومع بوتوسي، سقطت سوكري. هذه المدينة السهلية، ذات المناخ المعتدل التي سُمّيت من قبل تشاركاس، ولايلاتا، وتشوكيساكا على التوالي، تمتعت بنصيب كبير من الثروة التي نقلتها من عروق تل بوتوسي الغني. كان جونثالوبيثاروّ، شقيق فرنثيسكو، قد أقام بلاطه فيها، باذخاً مثل بلاط الملك الذي أراد أن يكونه ولم يستطع؛ تفتحت الكنائس والنور، والحدائق وأركان التسلية باستمرار مع إزدهار القضاة، والصوفيين، والشعراء البليغين الذين منحوا المدينة طابعها، قرناً بعد قرن. "صمتاً. إنها سوكري. صمتاً لا

www.ibtesama.com/vb

أكثر، إذن. لكن قبل ذلك ...". قبل ذلك، كانت هذه هي العاصمة الثقافية لنوّاب الملك، والمقر الرئيسي لكبار أساقفة أمريكا ومقرّ أعلى محكمة في المستعمرة، أكثر المدن تيهاً وعلماً في أمريكا الجنوبية. كانت الدونيا ثيثيليا كونتريراس دى توريّس والدونيا ماريّا دى لاس مرثيديس تورالبادى جراماخو، سيدتا أوبينا وكولكتشاكا، تقيمان مآدب السمر الطيور: إنهما تتنافسان على تبديد الريع المذهل الذي تدره مناجمهما في بوتوسي، وحين تنتهي الاحتفالات البائخة كانتا تلقيان من الشرفات الأطباق الفضية وحتى الأدوات الذهبية، حتى يلتقطها المارّة المحظوظون.

ومازال في سوكرى برج مثل برج إيفل وأقواس نصر، ويقال أن جواهر السيدة العذراء بها يمكن أن تسدد كل الدين الخارجي الضخم لبوليفيا. لكن أجراس الكنائس الشهيرة التي دقت بفرح عام ١٨٠٩ إحتفالاً بتحرر أمريكا، تصدر الآن دقات جنائزية. وجرس سان فرنثيسكو الأجش، الذي طالما أعلن عن تمردات وإنتفاضات، يدق اليوم لسكون الموت الذي أصاب سوكرى. ولايهم كثيراً أنها مازالت العاصمة القضائية لبوليفيا، وأن فيها المحكمة العليا مازال. ففي شوارعها يمر عدد لايحصى من صغار المحامين، سقيمين وذوي جلود صفراء شهود أحياء على التدهور: دكاترة من أولئك الذين يستخدمون العوينات، والشريط الأسود وكل شئ. ومن القصور الضخمة الخاوية، يبعث سادة سوكرى البطريركيين خدمهم ليبيعوا الفطائر عند شبابيك تذاكر السكك الحديدية. لكن كان ثمة من استطاع أن يشترى، في أوقات سعيدة أخرى، حتى لقب أمير.

في بوتوسي وفي سوكرى لم يبق حياً سوى أشباح الثروة الميتة. وفي هوانتشاكا Huanchaca، وهي مأساة بوليفية أخرى، استنفدت رؤوس الأموال الأنجلو - تشيلية، خلال القرن الماضي، عروق فضة عرضها أكثر من مترين، وذات نقاوة عالية جداً؛ والآن لا يتبقى سوى الأطلال التي يتصاعد منها الغبار. تظل هوانتشاكا على الخرائط، كأنها مازالت موجودة، وتحدّ بعلامة الهاروف والمعول المتقاطعين، كأنها مركز تعدين مازال حياً. فهل كان حظ المناجم المكسيكية في جواناخواتو وثاكاتيكاس أفضل؟ على أساس المعلومات التي يقدمها الكسندرفون همبولت، قدر بنحو خمسة آلاف مليون دولار حالى حجم الفائض الاقتصادي الذي خرج من المكسيك فيما بين عامي ١٧٦٠ و ١٨٠٩، أي قرن بالكاد، وذلك من خلال صادرات الفضة والذهب[٤١]. وفي ذلك الوقت كانت المناجم المكسيكية أهم مناجم في أمريكا. وقد قارن العالم الألماني الكبير منجم بالنثيانا، في

www.ibtesama.com/vb

جواناخواتو، بمنجم هيملز فوريست في سكسونيا، الذي كان أغنى مناجم أوربا: كان منجم بالنثيانا ينتج ٣٦ ضعفاً من الفضة، عند بداية القرن، ويحقق لمساهميه أرباحاً أعلى بمقدار ٣٢ ضعفاً. وقد غلبت الكونت سانتياجو دي لااجاوتا مشاعره وهو يصف، عام ١٧٣٢، مقاطعة تاكاتيكاس المنجمية و"الكنوز النفيسة التي تخفيها أحشاؤها العميقة"، في التلال "التي تزدان بأكثر من أربعة آلاف فتحة، حتى تقدم بثمرة أحشائها خدمة أفضل لصاحبي الجلالة"، الرب والملك، و"حتى يهرع الجميع إلى الشراب وإلى المشاركة فيما هو عظيم، وثري، ومُفوّه، ومُتحضّر، ونبيل"، لأنه "نبعٌ للحكمة، والشرطة، والسلاح، والنبالة ..."[١٢]. وقد وصف القس ماريموليخو فيما بعد، مدينة جواناخواتو التي تتخللها القناطر، والحدائق التي تشبه كثيراً حدائق سميراميس في بابل، والمعابد البهية، والمسرح، وساحة مصارعة الثيران، وساحات مصارعة الديكة، والأبراج والقباب السامقة على منحدرات الجبال الخضراء. لكن كان ذلك هو "بلد عدم التكافؤ" وقد إستطاع همبولت أن يكتب عن المكسيك: "ربما لم يكن عدم التكافؤ مفزعاً في أي مكان بقدر ماهو مفزع هنا ... فعمارة الأبنية العامة والخاصة، وجمال جهاز العرائس، وجو المجتمع؛ كلها تنم عن غاية العناية التي تتناقض بصورة غير مألوفة مع عري، وجهل، وريفية العامة". كانت أنفاق المناجم تبتلع الرجال والبغال في مرتفعات الجبال؛ وكان الهنود، "الذين يعيشون فقط لمجرد الخروج من ضوء النهار"، يعانون من جوع وبائي وكانت الأوبئة تقتلهم مثل الذباب. وفي سنة واحدة، هي ١٧٨٤، فإن موجة من الأمراض أثارها نقص الأغذية نتيجة برد ساحق، حصدت أكثر من ثمانية آلاف شخص في جواناخواتو.

لم تكن رؤوس الأموال تتراكم، بل كان يجري تبديدها. كانت تطبق تلك الحكمة القديمة "أبٌ تاجر، إبن فارس، حفيد شحاذ". وفي مذكرة موجهة إلى الحكومة، عام ١٨٤٣، وجّه لوكاس آلامان Lucas Alamán تحذيراً خطيراً، بينما أكد على ضرورة الدفاع عن الصناعة القومية من خلال نظام محظورات وضرائب فادحة ضد المنافسة الأجنبية، قال: "من الضروري اللجوء إلى تنشيط الصناعة، بإعتبارها مصدراً وحيداً للرفاهية الشاملة. ولن تفيد بوبيلا ثروة تاكاتيكاس، مالم يكن بسبب الاستهلاك الذي تقدمه لصناعاتها، وإذا تدهورت تلك الأخيرة مرة أخرى كما حدث من قبل، فسوف يشمل الخراب هذه المنطقة المزدهرة الآن، دون أن يكون بإمكان ثروة تلك المناجم أن تنقذها من البؤس". وقد إتضح أن النبوءة صائبة. ففي أيامنا، ليست تاكاتيكاس ولاجواناخواتو

حتى أهم مدن مقاطعاتها. وكلتاهما تتمدان محاطتان بهياكل معسكرات إزدهار المناجم، وتحيا تاكاتيكاس، الجرداء المرتفعة، على الزراعة وتصدّر الأيدي العاملة إلى الولايات الأخرى؛ ودرجة نقاوة مستخرجاتها الحالية من الذهب والفضة منخفضة جداً، بالنسبة للأوقات الطيبة الماضية. ومن بين الخمسين منجم التي كانت مستغلة في مقاطعة جواناخواتو، لايكاد يتبقى الآن سوى إثنين. ولا يتزايد سكان المدينة الجميلة، بل يتدفق السياح لتأمل البهاء الباذخ للأوقات الماضية، والتجوال في الحواري ذات الأسماء الرومانسية الفنية بالأساطير، والإحساس بالرعب لرؤية المومياوات المائة التي حفظتها أملاح الأرض سليمة لم تمس. أما عائلات ولاية جواناخواتو، ومتوسط أفرادها أكثر من خمسة، فتحيا حالياً في عشش ذات غرفة واحدة.

■ سفك الدم والدموع: ورغم ذلك، كان البابا قد قرر أن للهنود روحاً.

في سنة ١٥٨١، أكد فيليب الثاني، أمام محكمة* جوادالاخارا، أن ثلث هنود أمريكا قد أبيدوا، وأن الأحياء منهم يجدون أنفسهم ملزمين بدفع الجزية عن الأموات. كذلك قال العاهل أن الهنود يباعون ويشترون، وأنهم ينامون في العراء، وأن الأمهات يقتلن أبناءهن لإنقاذهم من عذاب المناجم[٤٢]. لكن حدود نفاق التاج كانت أوسع من حدود الإمبراطورية: فقد كان التاج يتلقى خمس قيمة المعادن التي ينتزعها رعاياه في كل أرجاء العالم الأسباني الجديد، بالإضافة إلى غير ذلك من الضرائب، وحدث نفس الشيء، في القرن الثامن عشر، بالنسبة للتاج البرتغالي في أراضي البرازيل. لقد نفذ ذهب وفضة أمريكا، إذا أوردنا عبارة إنجلز، خلال كل مسام المجتمع الإقطاعي المريض في أوربا، وفي خدمة المركنتيلية الرأسمالية الوليدة حوّل أرباب المناجم الهنود والعبيد السود إلى "بروليتاريا خارجية" هائلة العدد لدى الاقتصاد الأوربي. وانبعثت العبودية الاغريقية الرومانية فعلياً، في عالم مختلف؛ ويجب أن نضيف إلى تعاسة هنود الامبراطوريات التي صفّيت في أمريكا الهسبانية المصير المرعب للزنوج المنتزعين من القرى الإفريقية ليعملوا في البرازيل وفي جزر الأنتيل. كان لدى الإقتصاد الاستعماري

* الكلمة المستخدمة هي audiencia، وكانت جهازاً قضائياً وإدارياً واستشارياً. وفي المكسيك كانت عبارة عن محكمة عليا للإدارة والقضاء - م.

www.ibtesama.com/vb

الأمريكي اللاتيني أكبر تركز لقوة عمل عُرف حتى ذلك الحين، من أجل إتاحة أكبر تركيز للثروة لم تمتلكه أي حضارة على الإطلاق في تاريخ العالم.

هذا المدّ العارم من الجشع، والرعب، والإقدام لم يسقط على هذه الأنحاء إلاّ بإبادة السكان المحليين: فقد قدّرت الأبحاث الحديثة ذات المصادر الموثوقة تعداد سكان المكسيك قبل كولومبس بعدد يتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين مليوناً، ويقدر أنه كان هناك عدد مماثل من الهنود في منطقة الإنديز؛ وكانت أمريكا الوسطى وجزر الأنتيل تضم مابين عشرة وثلاث عشرة مليوناً من السكان. كان مجموع هنود الأمريكتين لايقل عن سبعين مليوناً، وربما أكثر من ذلك حين ظهر الفاتحون الأجانب في الأفق؛ وبعدها بقرن ونصف من الزمن تقلص عددهم، في مجموعه، إلى ثلاثة ملايين ونصف فقط[٤٤].

وحسب رواية الماركيز دي باردياس، لم يتبق في عام ١٦٨٥، فيما بين ليما وپايتا، أكثر من أربعة آلاف أسرة هندية، حيث كان يعيش أكثر من مليونين من الهنود. لكن كبير الأساقفة ليناين إي ثيسنيروس أنكر إبادة الهنود: "إنهم يختبئون - كما يقول - حتى لايدفعوا الجزية، مسيئين استخدام الحرية التي يتمتعون بها والتي لم تكن لديهم في عصر الإنكا"[٤٥].

كان يجرى إفراغ معدن المناجم الأمريكية دون توقف، وكانت تصل من البلاط الأسباني، دون توقف أيضاً، أوامر تضمن حماية وكرامة على الورق للهنود، الذين كان عملهم المرهق يلبي أود المملكة. كانت خرافة الشرعية تحمي الهندي؛ وكان الإستغلال الواقعي يدميه. من العبودية إلى التكليف بأداء خدمات، ومن هذا الأخير إلى التكليف بجزية وإلى نظام الأجور، نجد أن المتغيرات في الأوضاع القانونية لقوة العمل الهندية لم تغيّر وضعها الفعلي إلاّ بصورة سطحية. إعتبر التاج أن الإستغلال غير الإنساني لقوة العمل الهندية ضروري جداً، لدرجة أن فيليب الثالث أصدر، عام ١٦٠١، قواعد تحظر العمل الإجباري في المناجم، وفي نفس الوقت، بعث بتعليمات سرية أخرى تأمر بمواصلته "في حالة ما إذا كان هذا الإجراء سيقلل الإنتاج"[٤٦]. وبنفس الطريقة، قام الزائر والحاكم خوان دي سولورثانو بتحقيق حول ظروف العمل في مناجم الزئبق في هوانكابيليكا، وأبلغ مجلس جزر الهند والملك بأن: "... السم ينفذ في النخاع ذاته، ويضعف كل الأعضاء ويسبب رجفة دائمة، بحيث يموت العمال، بوجه عام، خلال فترة أربع سنوات". إلاّ أن فيليب الرابع أمر، عام ١٦٣٦، بالاستمرار في نفس النظام، وجدد خليفته، كارلوس الثاني، المرسوم بعدها بقليل. كانت مناجم الزئبق هذه تستغل مباشرة

www.ibtesama.com/vb

من قبل التاج، بخلاف مناجم الفضة، التي كانت في أيدي مستثمرين أفراد.

خلال ثلاثة قرون، أحرق التل الغني في بوتوسي، حسب مايقوله خوسيًا كوندر Josiah Conder ثمانية ملايين آدمي. كان الهنود ينتزعون من التجمعات الزراعية ويساقون، مع زوجاتهم وأولادهم، بإتجاه التل. ومن بين كل عشرة يمضون بإتجاه القفار العالية المثلجة، لم يكن سبعة يعودون على الإطلاق. وقد وصف لويس كابوتشي، الذي كان صاحب مناجم ومهندس، أن "الطرق كانت مغطاة بحيث يبدو أن المملكة تنتقل من مكانها". وفي التجمعات، كان الهنود قد رأوا "نساء كثيرات مكلومات يعدن دون أزواجهن وأطفالاً كثيرين يتامى دون آبائهم" وعرفوا أن "ألف موت وكارثة" بإنتظارهم في المنجم. كان الإسبان يجوبون مئات الأميال فيما حولهم بحثاً عن أيدي عاملة. وكان كثيرون من الهنود يموتون في الطريق، قبل بلوغ بوتوسي. لكن ظروف العمل الرهيبة في المنجم هي التي تقتل أغلبهم. وقد أبلغ القس الدومينيكاني دومينجو دي سانتو توماس Domingo de Santo Tomás مجلس جزر الهند، عام ١٥٥٠، بعد برهة وجيزة من مولد المنجم، أن بوتوسي كانت "فوهة الجحيم" الذي يلتهم الهنود كل عام بالآلاف والآلاف وأن أصحاب المناجم المتوحشين كانوا يعاملون السكان الأصليين "مثلما يعاملون حيوانات بلا مالك". وسوف يقول القس رودريجو دي لوايسا Rodrigo de Loaysa فيما بعد: "هؤلاء الهنود المساكين يشبهون السردين في البحر. وكما تطارد الأسماك الأخرى السردين للإمساك به والتهامه، فإن الجميع في هذه البلاد يطاردون الهنود البؤساء ..."[٤٧]. وكان زعماء تجمعات الهنود ملزمين بأن يحلّوا محل الميتايو* الذي يموتون، رجالاً جدد من سن الثامنة عشرة إلى سن الخمسين. وحظيرة التوزيع، حيث كان الهنود يُهدون إلى أصحاب المناجم والمصانع، وهي ساحة ضخمة ذات جدران حجرية، تستخدم الآن ليلعب فيها العمال كرة القدم؛ أما سجن الميتايو، وهو ركام من الأطلال لا شكل له، فيمكن رؤيته اليوم عند مدخل بوتوسي.

في مجموعة قوانين جزر الهند الغربية لاتنقصنا مراسيم من ذلك العصر تؤسس المساواة في الحقوق بين الهنود والأسبان من أجل استغلال المناجم وتحرّم صراحةً التعدّي على حقوق السكان الأصليين. إن التاريخ الرسمي - تلك الحروف الميتة التي تستعيد في عصرنا الحروف الميتة للعصور الماضية - ليس لديه ما يشكو منه. لكن بينما كان يجري الجدل في أكوام لانهائية من الورق حول تشريع العمل الهندي وتتفجر في

* الهنود الذين يقومون بالعمل الاجباري في المناجم - انظر، ملاحظة سابقة عن Metayo - م.

www.ibtesama.com/vb

حبر عبقرية المشرعين الأسبان، كان القانون في أمريكا "يُحترم لكنه لايُطبّق". في الأعمال، كان "الهندي البائس عملة - إذا أوردنا كلام لويس كابوتشي - يمكن بها تحقيق كل ما هو ضروري، مثلما بالذهب والفضة، وأفضل بكثير". وكان أفراد عديدون يطالبون أمام المحاكم بإقرار وضعهم كخلاسيين حتى لايرسلوهم إلى المناجم، ولايبيعوهم في السوق المرة تلو المرة.

وعند أواخر القرن الثامن عشر، تبرأ كونكولوركوربو Concolorcorvo، الذي كان يجري في عروقه الدم الهندي، من ذويه على النحو التالي: "لاننكر أن المناجم تستهلك عدداً كبيراً من الهنود، لكن ذلك ليس بسبب العمل الذي يقومون به في مناجم الفضة والزئبق، بل بسبب الإنحلال الذي يعيشون فيه". أما شهادة كابوتشي، الذي كان في خدمته كثير من الهنود، فتعد نموذجية في هذا المقام. فقد كانت درجات الحرارة الثلجية في العراء تتناوب مع الحرارة الأشد جهنمية في أعماق التل. كان الهنود يدخلون الأعماق، "وعادة ما يسحبونهم موتى والآخرون مهشمّي الرؤوس أو السيقان، وفي المصانع يجرحون أنفسهم كل يوم". كان الميتايو يفصلون المعدن بحد المعاول ثم يصعدون به حامليه فوق ظهورهم، على درجات، على ضوء شمعة. وخارج المناجم، كانوا يحركون المحاور الخشبية الطويلة في المصانع أو يسبكون الفضة على النار، بعد طحنها وغسلها.

كان نظام "الميتا" آلة لسحق الهنود. وكان استخدام الزئبق لاستخلاص الفضة بالاتحاد الكيميائي يسمم بنفس درجة الغازات السامة في أحشاء الأرض أو أكثر. كان يُسقط الشعر والأسنان ويبعث ارتجافات لايمكن السيطرة عليها. وكان من يسمّمهم الزئبق يتمددون في الشوارع طالبين الإحسان. كانت ست آلاف وخمسمائة شعلة تشتعل في الليل على منحدرات التل الغني، وعلى ضوئها يجري تشغيل الفضة بالاستفادة بالريح التي يبعثها "سان أغوسطين المجيد" من السماء. وبسبب دخان الأفران لم يعد ثمة زرع ولا بذار في مساحة نصف قطرها ستة فراسخ حول بوتوسي، ولم تكن الأبخرة أقل قسوة على أجساد الرجال.

وكانت التبريرات الايديولوجية متوفرة. تحولت مذبحة العالم الجديد إلى عمل من أعمال البرّ أو إلى سبب للإيمان. مع الذنب وُلِد نسق كامل من الأكاذيب من أجل الضمائر المذنبة. حُوِّل الهنود إلى حيوانات جرّ، لأنهم يتحملون أثقالاً أكبر مما يتحمل ظهر حيوان اللاما الضعيف، وبالمناسبة، جرت البرهنة على أن الهنود هم، فعلاً، حيوانات جر. وإعتبر نائب الملك على المكسيك أنه لاعلاج أفضل من العمل في المناجم من أجل

www.ibtesama.com/vb

شفاء "الشر الطبيعي" لدى الهنود. وأصر خوان خينس دي سيبولبدا Juan Ginés de Sepúlveda، ذو النزعة الإنسانية، على أن الهنود يستحقون المعاملة التي ينالونها لأن خطاياهم ووثنيتهم تمثل إهانة للرب. أما الكونت دي بورفون de Buffon فقد أكدّ أنه لم يُلاحظ في الهنود، تلك الحيوانات الباردة والضعيفة، "أي نشاط روحي". أما رئيس الرهبان دي بو De Paw فقد إخترع أمريكا يتبادل فيها الهنود المنحطون مع الكلاب التي لاتعرف النباح، والبقرات التي لاتؤكل، والجمال العنّينة. وكانت أمريكا فولتير Votaire، التي يقطنها هنود كسالى وحمقى، تملك خنازير صرّتها على ظهرها وأسوداً صلعاء وجبانة. أما بيكون Bacon، ودي ميستر De Maistre، ومونتسكيو Montesquieu، وهيوم Hume، وبودان Bodin، فقد رفضوا أن يتعرفوا على أشباه لهم في "البشر المنحطين" للعالم الجديد. وتحدث هيجل عن العجز الفيزيقي والروحي لأمريكا وقال أن الهنود قد ماتوا بنفخة من أوربا(١٨).

وفي القرن السابع عشر، أكد الأب جريجوريو جارثيا Gregorio García أن الهنود ينحدرون من سلالة يهودية، لأنهم مثل اليهود "كسالى، لايؤمنون بمعجزات يسوع المسيح وليسوا ممتنّين للإسبان من أجل كل ما فعلوه لهم من خير". على الأقل، فإن هذا الكاهن لم ينكر أن الهنود من نسل آدم وحواء؛ إذ كان هناك عديد من اللاهوتيين والمفكرين الذين لم يقتنعوا بمرسوم البابا بولس الثالث، الصادر عام ١٥٣٧، والذي أعلن فيه أن الهنود "بشر حقيقيون". وقد أثار الأب بارتولومي دي لاس كاساس Bartolomé de las Casas البلاط الأسباني بإحتجاجاته ضد قسوة فاتحي أمريكا: وفي ١٥٥٧، أجابه أحد أعضاء المجلس الملكي بأن الهنود بالغي التدني في سلم البشرية بحيث لايمكنهم تلقي الإيمان(١٩). وقد كرس لاس كاساس حياته المحمومة للدفاع عن الهنود في وجه تجاوزات أصحاب المناجم والإقطاعيين". وكان يقول أن الهنود يفضلون الذهاب إلى الجحيم حتى لايصادفوا المسيحيين.

كان الفاتحون والمستعمرون "يُقطِعُون"* هنوداً حتى يتزعموهم، لكن لما كان الهنود ملزمين بتقديم خدمات شخصية وجزية إقتصادية لـ "الاقطاعي"*، لم يكن الوقت الباقي كافياً لإنشغالهم إلى طريق الخلاص المسيحي. وقد تلقى هرنان كورتيس ثلاثة

* الإقطاعي هنا ترجمة لكلمة encomendero، وكانت الاقطاعات encomiendas تمنح للمستوطنين الإسبان في العصر الإستعماري، وكان الهنود الذين يعيشون على أراضي الاقطاعيات يرغمون في خدمة الاقطاعي ويدفعون له الضرائب، وكان يفترض فيه مقابل ذلك أن يرعى مصالحهم في أرضه ويدخلهم إلى المسيحية – م.

www.ibtesama.com/vb

وعشرين ألف تابع، مقابل خدماته؛ وكان يتم توزيع الهنود في نفس الوقت الذي تمنح فيه الأراضي من خلال تعطفات ملكية أو من خلال الانتزاع المباشر. ومنذ عام ١٥٣٦ كان الهنود يُسلَّمون في الإقطاعات، مع نسلهم، لفترة عمرين: عمر الاقطاعي وعمر وريثه المباشر؛ ومنذ عام ١٦٢٩، أخذ العمل بالنظام يمتد، في الممارسة. كانت الأراضي تباع بما عليها من هنود[٥٠]. وفي القرن الثامن عشر، كان الهنود، من بقوا منهم على قيد الحياة، يضمنون حياة مريحة لأجيال كثيرة قادمة. ولما كان الآلهة المهزومون باقين في ذاكرتهم، فقد توفرت الأكاذيب المقدسة من أجل الانتفاع بقوة عملهم من جانب المتنصرين: كان الهنود وثنيين، لايستحقون حياة أخرى. هل هذه عصور خلت؟ بعد أربعمائة وعشرين عاماً من مرسوم البابا بولس الثالث، في سبتمبر عام ١٩٥٧، أصدرت محكمة العدل العليا في الباراجواي تعميماً يبلغ كل قضاة البلاد بأن "الهنود مخلوقات بشرية تماماً مثل بقية سكان الجمهورية ..." وفيما بعد قام مركز الدراسات الأنثروبولوجية بجامعة أسونثيون الكاثوليكية باستطلاع رأي ملهم في العاصمة وفي داخل البلاد: والنتيجة أنه من بين كل عشرة باراجويين، يعتقد ثمانية أن "الهنود مثل الحيوانات". وفي كاجواثو Caaguazú، وفي البارانا العليا Alto Paraná، وفي التشاكو Chaco، يُصاد الهنود مثل الوحوش، ويُباعون بسعر رخيص و يُستغلون بنظام يماثل العبودية. ورغم ذلك، فإن كل الباراجويين تقريباً يجري في عروقهم دم هندي، ولا تملّ الباراجواي من وضع الأغاني، والقصائد، والخُطب في تكريم "روح الجواراني".

■ الحنين المقاتل لدى توباك أمارو

حين إندفع الإسبان إلى أمريكا، كانت إمبراطورية الإنكا الثيوقراطية في قمة إزدهارها، وكانت سلطتها تمتد فيما يعرف اليوم بالبيرو، وبوليفيا، والإكوادور، وتغطي جزءاً من كولومبيا وتشيلي وتصل حتى الشمال الأرجنتيني والغابات البرازيلية؛ وكان إتحاد الأزتيك قد بلغ مستوى راقياً من الكفاءة في وادي المكسيك، وفي يوكاتان وأمريكا الوسطى كانت حضارة المايا الرائعة متصلة في الشعوب التي ورثتها، والمنظمة من أجل العمل ومن أجل الحرب.

وقد خلّفت هذه المجتمعات شواهد عديدة على عظمتها، رغم كل هذه الفترة الطويلة من التدمير: آثاراً دينية مشيّدة بحكمة تفوق حكمة الأهرام المصرية، وإبداعات

www.ibtesama.com/vb

تقنية فعّالة للصراع ضد الطبيعة، وأعمالاً فنية تشي بعبقرية لاتلين. وفي متحف ليما يمكن مشاهدة مئات من الجماجم التي أجريت لها عمليات تربنة وعلاج بشرائح من الذهب والفضة من جانب الجراحين الإنكا. وكان هنود المايا فلكيين عظماء، قاسوا الزمن والمسافة بدقة مدهشة، واكتشفوا قيمة الرقم صفر قبل أي شعب آخر في التاريخ. وقد أذهلت قنوات الري والجزر الصناعية التي خلفها الأزتيك هرنان كورتيس، رغم أنها لم تكن من ذهب.

دمّر الفتح أسس تلك الحضارات. وكان لتطبيق الإقتصاد المنجمي نتائج أسوأ من الدم والنار في الحرب. فقد كانت المناجم تتطلب نقل السكان بأعداد ضخمة وتفكك الوحدات الزراعية الجمعية؛ فلم تبد حيوات لاتحصى من خلال العمل الإجباري فحسب، بل إنها بالإضافة إلى ذلك، وبصورة غير مباشرة، حطمت نظام الزراعة الجماعي. سيق الهنود إلى المناجم، وأخضعوا لعبودية الإقطاعيين، وأجبروا على تسليم الأراضي التي تركوها أو أهملوها قسراً وذلك دون مقابل. وعلى شاطئ المحيط الهادي دمر الاسبان أو تركوا للخراب الزراعات الضخمة من الذرة، والمنيهوت، واللوبيا، والفاصوليا، والفول السوداني، والبطاطا؛ وسرعان ما إلتهمت الصحراء إمتدادات واسعة من الأرض التي كانت تتلقى الحياة من خلال شبكة ري الإنكا. وبعد أربعة قرون ونصف من الفتح لم تتبق سوى الأحجار والأجمات مكان أغلب الطرق التي كانت تربط الامبراطورية. ورغم أن الأشغال العامة الضخمة للإنكا قد محاها الزمن، في غالبيتها، أو محتها أيدي المغتصبين، فمازالت باقية، منقوشة على سلاسل جبال الانديز، تل المصاطب اللانهائية التي كانت ومازالت تتيح زراعة جوانب الجبال. ويقدر خبير تقني أمريكي شمالي[٥١]، عام ١٩٣٦، أن هذه المصاطب لو أنشئت في ذلك العام، بالطرق الحديثة، لتكلّفت نحو ثلاثين ألف دولار للفدان. لقد أمكن عمل هذه المصاطب وقنوات الري، في تلك الامبراطورية التي لم تكن تعرف العجلة، ولا الحصان، ولا الحديد، بفضل التنظيم البارع والكمال التقني المتحقق من خلال تقسيم حكيم للعمل، لكن كذلك بفضل قوة الدين الذي يحكم علاقة الإنسان بالأرض - التي كانت مقدسة، وبالتالي، حية دائماً.

كذلك كانت استجابات الأزتيك لتحدي الطبيعة مدهشة. وفي أيامنا، يعرف السياح بإسم "الحدائق الطافية" تلك الجزر القليلة الباقية في البحيرة المجففة حيث ترتفع الآن، فوق الأطلال الهندية، عاصمة المكسيك. وقد خلقت هذه الجزر بواسطة الأزتيك كحلّ لمشكلة نقص الأراضي في الموقع المختار لإقامة مدينة تينوتشتيتلان. نقل الهنود كميات

www.ibtesama.com/vb

كبيرة من الطين من ضفاف الأنهار وبصموا الجزر الجديدة بالجير بين جدران رقيقة من القاب، حتى صلّبتها جذور الأشجار. وبين مساحات الأرض الجديدة إنسابت قنوات المياه. وفوق هذه الجزر الخصبة بصورة غير عادية نمت عاصمة الأزتيك القوية، بشوارعها وقصورها ذات الجمال المتقشّف وأهراماتها المدرّجة؛ وبعد أن تفتحت بصورة سحرية من البحيرة، قُدّر لها أن تختفي تحت ضربات الفتح الأجنبي. وسوف تظل المكسيك تنتظر أربعة قرون قبل أن يبلغ سكانها نفس العدد الذي كان موجوداً في تلك العصور.

كان الهنود، كما يقول دارسي ريبيرو Darcy Ribeiro، هم وقود النظام الإنتاجي الاستعماري. "من الأمور شبه المؤكدة - هكذا يكتب سيرخيو باجو - أنه قد ألقي في المناجم الأسبانية مئات من الهنود النحاتين، والمعماريين، والمهندسين، والفلكيين المختلطين بحشود العبيد، ليقوموا بعمل خشن ومنهك في استخراج المعادن. لم تكن المهارة التقنية لهؤلاء الأفراد تهم الإقتصاد الإستعماري. كانوا يعدّون فقط بإعتبارهم عمالاً غير مؤهلين". لكن لم تضع كل شذرات تلك الثقافات المدمّرة. فقد أشعل الأمل في إعادة بعث الكبرياء المفقود إنتفاضات هندية عديدة. وفي عام ١٧٨١ ضرب توپاك أمارو Túpac Amaru حصاراً حول كوثكو Cuzco.

تزعم هذا الزعيم الخلاسي، السليل المباشر للأباطرة الإنكا، أوسع حركة خلاصية وثورية. إندلع التمرد الكبير في مقاطعة تينتا Tinta. ودخل توپاك أمارو على صهوة حصانه الأبيض، ميدان تونجا سوكا وعلى صوت دق الطبول والنفخ في الأبواق المصنوعة من قرون الحيوانات، أعلن أنه قد حكم بالشنق على العمدة الملكي أنطونيو خوان دي آرّياجا Antonio Juan de Arriaga، ومنع نظام الميتا في بوتوسي. وكانت مقاطعة تينتا قد خلت من السكان بسبب الخدمة الإجبارية في مناجم فضة التل الغني. وبعد أيام قلائل، أصدر توپاك أمارو تعميماً جديداً يأمر فيه بتحرير العبيد. وألغى كل الضرائب كما ألغى "إقتسام" الأيدي العاملة الهندية بكل أشكاله. وانضم الهنود، بالآلاف تلو الآلاف، إلى قوات "والد جميع الفقراء وجميع البؤساء وجميع المنكوبين". وعلى رأس محاربيه، إندفع الزعيم صوب كوثكو. سار وهو يلقي الخطب: كل من يموتون تحت إمرته في هذه الحرب سوف يبعثون لكي يتمتعوا بضروب السعادة والثروة التي جرّدهم منها الغزاة. وجرت إنتصارات وهزائم؛ وفي النهاية، ونتيجة لخيانته والقبض عليه من قبل أحد قواده، تم تسليم توپاك أمارو مكبلاً بالسلاسل إلى الملكيين. وزاره في سجنه المفتش

www.ibtesama.com/vb

أريتشى Areche ليطلب منه، مقابل وعود كثيرة، أسماء المتواطئين معه في التمرد. فأجابه توباك أمارو باحتقار: "لايوجد هنا متواطئون سوانا أنت وأنا؛ أنت لكونك مضطهداً، وأنا لكوني محرراً، وكلانا يستحق الموت"[٥٢].

وعُذِّب توباك، مع زوجته، وأبنائه، وأنصاره الرئيسيين، في ميدان واكاييباتا، في كوثكو. قطعوا لسانه. وربطوا ذراعيه وساقيه إلى أربعة خيول، لكي يمزقوه إلى أربعة أشلاء، لكن الجسد لم يتمزق. قطعوا رأسه عند حافة المشنقة. وبعثوا بالرأس إلى تينتا. وأرسل أحد ذراعيه إلى تونجا سوكا والآخر إلى كارابايا. وأرسلوا إحدى ساقيه إلى سانتاروسا والأخرى إلى ليبيتاكا. وحرقوا جذعه ونثروا الرماد فوق نهر وطناي. وأوصوا بإبادة سلالته، حتى الدرجة الرابعة.

وفي عام ١٨٠٢، استقبل زعيم آخر من نسل الإنكا، هو أستوربيلكو Astorpilco، زيارة همبولت. تم ذلك في كاخاماركا، في نفس المكان الذي رأى فيه سلفه، أتاهوالپا، لأول مرة الفاتح بيثارّو. صحب إبن الزعيم العالم الألماني لجولة بين أطلال القرية وبين حطام قصر الإنكا العتيق، وحدثه وهما يسيران عن الكنوز الرائعة المخبوءة تحت التراب والرماد. سأله همبولت "ألا تشعر أحياناً بالرغبة في التنقيب بحثاً عن الكنوز لسدّ احتياجاتك؟". فأجاب الشاب: "الرغبة لاتأتينا. يقول أبي أن ذلك سيكون خطيئة. فلو إمتلكنا الأغصان الذهبية بكل الثمار الذهبية، فسوف يكرهنا الجيران البيض ويوقعون بنا الأذى"[٥٣]. كان الزعيم يزرع حقلاً صغيراً بالقمح. لكن ذلك لم يكن كافياً لجعله في مأمن من الجشع الأجنبي. فالمغتصبون المتلهفون على الذهب والفضة وكذلك على أذرع العبيد للعمل في المناجم، لم يكونوا يتوانون في الانقضاض على الأراضي حين تقدم الزراعات ربحاً مغرياً. واستمر السلب على طول الزمن، وفي ١٩٦٩، حين أعلن الإصلاح الزراعي في البيرو، ظلت الصحف تورد تقارير، متواترة، عن أن هنود التجمعات الجبلية المدمَّرة كانوا يغزون بين حين وآخر، ناشرين أعلامهم، الأراضي التي سرقت منهم ومن أسلافهم، وكان الجيش يصدهم بإطلاق النيران. وكان لابد من الانتظار قرنين تقريباً منذ توباك أمارو حتى يلتقط الجنرال الوطني خوان بيلاسكو ألبارادو Juan Velasco Alvarado ويطبق عبارة الزعيم تلك، ذات الصدى الخالد: "أيها الفلاّح! لن يأكل المالك فقرك بعد الآن!".

وهناك بطلان آخران أنقذهما الزمن من الهزيمة هما المكسيكيان هيدالجو وموريلوس. ميجيل هيدالجو Miguel Hidalgo، الذي ظل حتى سن الخمسين قساً ريفياً

www.ibtesama.com/vb

ونبيماً، وذات صباح جميل أطلق العنان لأجراس كنيسة دولورس داعيا الهنود للنضال من أجل حريتهم، "هل تريدون الإنخراط فى عناء إستعادة الأراضى التى سرقها الأسبان البغيضون من أسلافكم منذ ثلاثمائة سنة؟" ورفع لواء عذراء جواد الوبى الهندية، وقبل مرور ستة أسابيع تبعه ثمانون ألف رجل، مسلحين بالسكاكين، والرماح، والمقاليع، والأقواس والسهام. ووضع القس الثورى نهاية للجزية ووزع أراضى جوادلاخارا؛ وأمر بتحرير العبيد؛ وقذف بقواته على مدينة المكسيك. لكنه أعدم فى النهاية، فى نهاية هزيمة عسكرية، وعند موته، كما يقولون، ترك شهادة قوية مؤثرة[٥٤]. ولم تتأخر الثورة فى العثور على زعيم جديد، هو الكاهن خوسيه ماريا موريلوس José María Morelos: "يجب أن تعتبروا أن أعداءكم هم كل الأغنياء والنبلاء، والمستخدمين من الطبقة الأولى ...". وبلغت حركته - وهى حركة عصيان هندية وثورة إجتماعية - حد السيطرة على رقعة واسعة من اراضى المكسيك حتى هزم موريلوس بدوره وأعدم رمياً بالرصاص. أما استقلال المكسيك، بعدها بست سنوات، فقد "اتضح أنه صفقة هسبانية تماماً، بين أوربيين وقوم ولدوا فى أمريكا ... صراع سياسى داخل نفس الطبقة المسيطرة"[٥٥]. أصبح القنّ عاملاً أجيراً وأصبح الإقطاعى مالك أراضى[٥٦].

■ أسبوع الآلام الهندى ينتهى دون قيامة

فى بدايات القرن الحالى، كان ملاك البونجو Pongos، وهم الهنود المكرّسون للخدمة المنزلية، مازالوا يعرضونهم للإيجار عبر صحف لاپاز. وحتى ثورة ١٩٥٢، التى أعادت للهنود حق المساواة المُداس بالأقدام، كان البونجو يأكلون بقايا طعام الكلب، الذى ينامون إلى جواره، وينحنون حين يخاطبون أى شخص ذى جلد أبيض. كان الهنود حيوانات جر يحملون على ظهورهم أمتعة الفاتحين: فقد كانت الدواب قليلة. لكن في أيامنا يمكننا، على طول هضبة الإلتيبلانو الإنديزية، أن نري حمالين من هنود الأيمارا والكتشوا يحملون أحمالاً حتي بأسنانهم مقابل رغيف جاف. كان تغبُّر الرئة* أول مرض مهني في أمريكا؛ وفي الوقت الحاضر، حين يكمل عمال المناجم البوليفيون سن الخامسة والثلاثين، ترفض رئاتهم الاستمرار في العمل: إذ يتخلل غبار السيليكا الذي لايرحم جلد

---

* تغبُّر الرئة: neumoconiosis: مرض رئوي مزمن نتيجة الافراط في استنشاق الأتربة المحملة بدقائق معدنية - م.

www.ibtesama.com/vb

عامل المنجم، ويشلق وجهه ويديه، ويقضي على حاستي الشم والذوق، ويهزم رئتيه، بأن يصلبهما ويقتلهما.

ويعشق السياح تصوير هنود الألتيبلانو وهم يرتدون أزياءهم التقليدية. لكنهم يجهلون أن الزي الهندي الراهن فرضه عليهم كارلوس الثالث في أواخر القرن الثامن عشر. والأردية النسائية التي أجبر الأسبان الهنديات على إستخدامها كانت منسوخة من الأزياء الإقليمية للفلاحات الأسبانيات في أقاليم اكستريما دورا، والأندلس، وبلاد الباسك، ونفس الشئ جرى مع تصفيفة شعر الهنديات، ذات الفرق في المنتصف، والتي فرضها نائب الملك توليدو. لكن، وفي المقابل، لم يحدث نفس الشئ بالنسبة لاستهلاك الكوكه*، الذي لم يبدأ مع الأسبان: فقد كان موجوداً في عصور الإنكا. إلاّ أن الكوكه كانت توزع بحرص: كانت إمبراطورية الإنكا تحتكرها ولاتسمح بتوزيعها إلاّ لأغراض طقسية أو من أجل العمل الشاق في المناجم. وقد نشط الإسبان بصورة حادة استهلاك الكوكه. فقد كانت تجارة رائعة. وفي القرن السادس عشر كان يجري إنفاق الكثير، في بوتوسي، على الثياب الأوربية من أجل المضطهدين وكذلك من أجل الكوكه للمضطهَدين. وكان أربعمائة تاجر إسباني يعيشون، في كوزكو، على ترويج الكوكه؛ وفي مناجم فضة بوتوسي كانت تدخل سنوياً مائة ألف سلّة، بها مليون كيلو جرام من أوراق الكوكه. وكانت الكنيسة تُحصّل ضرائب على هذا المخدّر. ويخبرنا الإنكا جارثيلاسو دي لابيجا Garci-laso de la Vega، في "شروحه الملكية"، بأن الجزء الأكبر من دخل الأسقف والرهبان وغيرهم من مسئولي الكنيسة في كوزكو كان يأتي من ضريبة العشور على الكوكه، وبأن نقل وبيع هذا المنتج أثريا إسباناً كثيرين. بالنقود القليلة التي كانوا يحصلون عليها مقابل عملهم، كان الهنود يشترون أوراق الكوكه بدل الغذاء: إذ أنهم بمضغها يمكنهم أن يتحملوا أكثر تلك المهام القاتلة المفروضة عليهم، وذلك مقابل تقصير أعمارهم بأيديهم. وبالإضافة إلى الكوكه، كان الهنود يستهلكون الروم، بينما يشكوا مالكوهم من إنتشار "الرذائل المشئومة". وفي هذا الوقت من القرن العشرين، مازال هنود بوتوسي يواصلون مضغ الكوكه ليقتلوا الجوع ويقتلوا أنفسهم ومازالوا يحرقون أمعاءهم بالكحول الخالص. أنه الانتقام العقيم للمحكوم عليهم. وفي المناجم البوليفية، مازال العمال يسمون أجرهم بإسم ميتا**.

* الكوكه: coca: نبات أمريكي يستخرج منه الكوكايين ويمضغ الهنود أوراقه لمقاومة التعب – م.

** راجع هامش ميتا: العمل الاجباري للهنود – م.

www.ibtesama.com/vb

لأنهم منفيون في أرضهم، ومحكوم عليهم بالشتات الأبدي، فقد ظل هنود أمريكا اللاتينية يُدفعون نحو أفقر المناطق، نحو الجبال الجرداء أو أعماق الصحراوات، بقدر ما كانت تتسع حدود الحضارة السائدة. لقد عاني الهنود ومازالوا يعانون من لعنة ثروتهم هم - وهذا هو مركب دراما كل أمريكا الجنوبية. فحين تم اكتشاف المتع الذهبية لنهر بلوفيلدز Bluefields، في نيكاراجوا، أزيح هنود الكاركا بسرعة بعيداً عن أراضيهم على الضفاف، وهذا أيضاً، هو تاريخ هنود كل الوديان الخصبة وأعماق الأرض الثرية من نهر الريوبرافو* وحتي الجنوب. فلم تتوقف أبداً مذابح الهنود التي بدأت مع كولومبس. وفي أوروجواي وفي باتاجونيا الارجنتينية، أبيد الهنود، في القرن الماضي، من قبل الجنود الذين كانوا يبحثون عنهم ويحصدونهم في الغابات أو في الصحراء، حتي لايعوقوا التقدم المنظم لإقطاعيات تربية الماشية(٥٧). وقد تعرض هنود الياكي، في ولاية سونورا المكسيكية، لحمام دم حتي يمكن لأراضيهم، الغنية بالموارد التعدينية والخصبة للزراعة، أن تباع دون مضايقات لمختلف الرأسماليين الأمريكيين الشماليين. ونُقل من بقوا منهم أحياء إلي مزارع يوكاتان. وهكذا، لم تتحول شبه جزيرة يوكاتان إلي مقبرة للهنود المايا الذين كانوا هم أصحابها فحسب، بل تحولت كذلك إلي مقبرة لهنود الياكي، الذين قدموا من بعيد: في أوائل القرن، كان ملوك الهينا* الخمسون يملكون أكثر من مائة ألف عبد هندي في مزارعهم. ورغم صلابتهم البدنية الاستثنائية، فهم جنس من العمالقة الجميلين، مات ثلثا هنود الياكي خلال العام الأول من العمل العبودي(٥٨). وفي أيامنا، لاتستطيع ألياف الهينا أن تنافس بدائلها الصناعية إلاّ بفضل مستوى الحياة البالغ الإنخفاض الذى يحياه عمالها. لقد تغيرت الأمور، بالتأكيد، لكن ليس كثيراً كما يُعتقد، على الأقل بالنسبة للهنود في يوكاتان: "أن شروط حياة هؤلاء العمال تشبه كثيراً العمل العبودي". هذا مايقوله البروفسور آرتورو بونيا سانتشيث(٥٩) Arturo Bonilla Sánchez. وفي المنحدرات الإنديزية القريبة من بوجوتا، نجد أن الأجير الهندى مُلزم بالعمل أياماً بالمجان حتى يسمح له صاحب المزرعة بأن يزرع أرضه هو، في الليالي التى يطلع فيها القمر: "كان أسلاف هذا الهندى يزرعون بحرية، دون أن يستدينوا، أرض السهل الخصيبة، التى لم تكن تخص أحداً. وهو يعمل بالمجان حتي يضمن حق زراعة الجبل المجدب!"(٦٠).

* الريو برافو: هو النهر الفاصل بين الولايات المتحدة والمكسيك حالياً ويعد نهاية حدود امريكا اللاتينية التي تضم أمريكا الوسطى - م.

www.ibtesama.com/vb

ولاينجو، في أيامنا، حتى الهنود الذين يعيشون معزولين في أعماق الغابات. ففي أوائل هذا القرن، كان لايزال على قيد الحياة مئتان وثلاثون قبيلة في البرازيل، ومنذ ذلك الحين إختفت تسعون منها، مُحيت من على ظهر الكوكب بفعل وبفضل الأسلحة النارية والميكروبات. العنف والمرض، هما الطلائع المتقدمة للحضارة: ومازال الاتصال بالرجل الأبيض، بالنسبة للهنود، هو اتصال بالموت. والمراسيم القانونية التي تحمي هنود البرازيل منذ عام ١٥٣٧ قد ارتدت ضدهم. فوفق نص كل الدساتير البرازيلية، فإنهم "السادة الأول والطبيعيون" للأراضي التي يشغلونها. لكن يحدث أنه كلما كانت هذه الأراضي البكر أكثر ثراءً كلما أصبح الخطر الذي يتهدد حياتهم أكثر حدة؛ وسخاء الطبيعة يحكم عليهم بالسلب والجريمة. وقد انفلت زمام مذبحة الهنود، في السنين الأخيرة، بقسوة عاتية؛ لأن أكبر غابات العالم، المجال الاستوائي الشاسع المفتوح للأسطورة والمغامرة، قد تحول بغتةً، إلى مشهد لحلم أمريكي جديد. وفي سياق الفتح، إنقض رجال وشركات من الولايات المتحدة على إقليم الأمازون كما لو كان غرباً بعيداً جديداً. وقد أشعل هذا الغزو الأمريكي الشمالي بصورة غير مسبوقة جشع المغامرين البرازيليين. يموت الهنود دون أن يتركوا اثراً وتباع الأراضي بالدولارات للمشترين الجدد. ويظهر الذهب والمعادن الوفيرة الأخرى، والخشب، والمطاط، هذه الثروات التي يجهل الهنود قيمتها التجارية، تظهر مرتبطة بنتائج كل واحد من التحقيقات القليلة التي أجريت. والمعروف أن الهنود قد تعرضوا لنيران المدافع الرشاشة من طائرات الهليكوبتر والطائرات الصغيرة، وأنهم قد عُرِّضوا لفيروس الجدري، وألقي الديناميت فوق قراهم وأهدي إليهم السكر الممزوج بالاستركنين والملح بالزرنيخ. أما نفس مدير إدارة حماية الهنود، الذي عيَّنه الدكتاتور كاستيلو برانكو لتقويم الإدارة، فقد إتُّهِم، بالأدلة، بإرتكاب إثنين وأربعين نوعاً مختلفاً من الجرائم ضد الهنود. وقد تفجرت هذه الفضيحة عام ١٩٦٨.

إن مجتمع الهنود، في عصرنا، لايوجد في الفراغ، خارج الإطار العام للاقتصاد الأمريكي اللاتيني. حقيقة أن هناك قبائل برازيلية مازالت حبيسة الغابة، وتجمعات في الألتيبلانو معزولة تماماً عن العالم، وجيوب الهمجية عند حدود فنزويلا، لكن الهنود، بشكل عام، مندمجون في نظام الإنتاج وفي سوق الاستهلاك، ولو بصورة غير مباشرة. إنهم يشاركون، بوصفهم ضحايا، في نظام اقتصادي وإجتماعي يقومون فيه بدور شاق هو دور أكثر من يقع عليهم الاستغلال بين المستغلين. يشترون ويبيعون جزءاً كبيراً من

www.ibtesama.com/vb

الأشياء القليلة التي يستهلكونها وينتجونها، عن طريق وسطاء أقوياء وجشعين يتقاضون الكثير ويدفعون القليل؛ وهم أجراء في المزارع الضخمة، وأرخص الأيدي العاملة، وجنود في الجبال يقضون أيامهم وهم ينتجون للسوق العالمية أو يصارعون مُخضعيهم. وفي بلدان مثل جواتيمالا، على سبيل المثال، يشكلون عصب الحياة الاقتصادية القومية: تماماً إثر عام، وبشكل دوري، يهجرون أراضيهم المقدسة، الأراضي المرتفعة، المزارع الضئيلة بحجم جثة، ليقدّموا مائتي ألف يد عاملة في حصاد البن، والقطن، والسكر في الأراضي المنخفضة. ينقلهم المقاولون في سيارات نقل، مثل المواشي، وليست الحاجة هي التي تقرر دائماً: فأحياناً يقرّر الروم. يدفع المقاولون أجر فرقة موسيقية من عازفي الاكسيلوفون ويديرون الكحول القوي؛ وحين يفيق الهندي من سكرته، تكون الديون في صحبته. وسوف يدفعها بالعمل في الأراضي الحارة التي لايعرفها، من حيث يعود في ختام بضعة شهور، ربما ببعض الدريهمات في جيبه، وربما مصاباً بالسل أو الملاريا. ويتعاون الجيش بكفاءة في مهمة إقناع المتوانين[61]. إن نزع ملكية الهنود – أي إغتصاب أراضيهم وقوة عملهم – قد نتج ومازال ينتج موازياً للإحتقار العرقي، الذي يتغذى بدوره على الانحطاط الموضوعي للحضارات التي دمرها الفتح، وقد أحالت نتائج الفتح وكل الزمن الطويل من الإذلال التالي له الهوية الثقافية والاجتماعية التي كان الهنود قد بلغوها إلى أشلاء. ورغم ذلك فإن هذه الهوية المسحوقة هي الوحيدة الباقية في جواتيمالا[62]. وهي باقية في المأساة. ففي أسبوع الآلام، تفسح مواكب خلفاء المايا المجال لتبنّيات مفزعة للماسوكية الجماعية، فهم يجرجرون الصلبان الثقيلة، ويشاركون في ضرب المسيح بالسياط خطوة خطوة خلال الصعود الذي لاينتهي إلى الجلجلة؛ مع مواءات الألم، يتحول موت المسيح ودفنه إلى عقيدة الموت الذاتي والدفن الذاتي، فناء الحياة الجميلة البعيدة المنال. وينتهي أسبوع الآم هنود جواتيمالا دون بعث.

■ ڤيلاريكا دى أورو بريتو: بوتوسي الذهب

إن حمى الذهب، التي تواصل فرض الموت أو العبودية على هنود الأمازون، ليست جديدة في البرازيل، كذلك ليس جديداً الدمار الذي تحدثه.

خلال قرنين من الزمان بدءاً من اكتشاف أمريكا، ظلت تربة البرازيل تضن، بعناد،

www.ibtesama.com/vb

بالمعادن على ملاكها البرتغاليين. وغطى إستغلال الخشب، "الپاوبرازيل"*، الفترة الأولى من استعمار السواحل، وسرعان ما أقيمت مزارع ضخمة للسكر في الشمال الشرقي. لكن بخلاف أمريكا الأسبانية، بدت البرازيل خالياً من الذهب والفضة. لم يكن البرتغاليون قد وجدوا هناك حضارات متدية ذات مستوىً راقٍ من التطور، بل وجدوا قبائل همجية ومتفرقة. كان الهنود يجهلون المعادن؛ وكان على البرتغاليين أن يكتشفوا، لحسابهم الخاص، المواقع التي ترسّبت فيها رواسب الذهب في الأراضي الشاسعة التي أخذت تنفتح أمام الفتح، عبر هزيمة وإبادة الهنود.

كان الروّاد bandeirantes في إقليم ساو پاولو قد عبروا المنطقة الشاسعة بين السيرا دي مانتيكيرا ومصب نهر ساو فرنسيسكو ولاحظوا أن مجاري وضفاف مختلف الأنهار والجداول التي تجري هناك تحتوي على آثار ذهب رسوبي بكميات صغيرة مرئية. كان المطر المتساقط منذ آلاف السنين قد برى عروق الذهب من الصخور ورسّبه في الأنهار، وفي قيعان الوديان، وفي منخفضات الجبال. وتحت طبقات الرمل، أو الطين، أو الطمي، كان بطن التربة الصخري يقدم شذرات من الذهب من السهل استخراجها من حصى cascalho الكوارتز؛ وأخذت طرق الاستخراج تأخذ في التعقد بقدر ماتستنفد الكميات الأكثر سطحية. هكذا دخل التاريخ، فجأة، إقليم ميناش جيرايش: واستخرجت أكبر كمية ذهب اكتشفت حتى ذلك الحين في العالم في أقل مدى زمني.

"هنا كان الذهب غابة"، هكذا يقول الشحاذ، الآن، ونظرته تمسح أبراج الكنائس. "كان هناك ذهب في الطرقات، وكان ينمو مثل الغاب". إنه الآن في الخامسة والسبعين من عمره ويعتبر نفسه من تقاليد ماريانا (ريبيراو دوكارمو)، تلك المدينة المنجمية الصغيرة القريبة من أورو بريتو، التي تبقى، مثل أورو بريتو، خارج الزمن. يقول لي الشحاذ: "الموت أكيد، لكن ساعته غير مؤكدة. ولكل واحد زمنه المرقوم"، يبصق فوق الدرج الحجري ويرفع رأسه: "كانت النقود تزيد عن حاجتهم"، يحكي وكأنه قد رآهم. "لم يعرفوا أين يضعون النقود ولهذا كانوا يقيمون كنيسة بجوار أخرى".

في زمن آخر، كانت هذه المنطقة أهم مناطق البرازيل. والآن ... "والآن لا"، يقول لي العجوز. "الآن لاتوجد هنا أي حياة. هنا لايوجد شباب. فالشباب يمضون". يسير حافياً، إلى جواري، بخطوات بطيئة تحت شمس الغروب الدافئة: "أترى؟ هناك، في واجهة الكنيسة، يوجد الشمس والقمر. هذا يعني أن العبيد كانوا يعملون نهاراً وليلاً. هذا

* الپاوبرازيل: خشب صلب داكن اشتهرت به البرازيل ويستخرج منه أصباغ حمراء وأرجوانية – م.

www.ibtesama.com/vb

المعبد أقامه الزنوج؛ وذاك أقامه البيض. وتلك دار المونسنيور أليهوى، الذى مات فى سن التاسعة والتسعين تماماً".

خلال القرن الثامن عشر، فاق إنتاج البرازيل من المعدن المرغوب الحجم الكلى للذهب الذى استخرجته إسبانيا من مستعمراتها خلال القرنين السابقين(٦٤). وتقاطر المغامرون والباحثون عن الثروة. كان سكان البرازيل عام ١٧٠٠ ثلاثمائة ألف؛ وبعد ذلك بقرن من الزمن، فى ذروة سنوات الذهب، كان السكان قد تضاعفوا إحدى عشرة مرة. وهاجر إلى البرازيل ما لايقل عن ثلاثمائة ألف برتغالى خلال القرن الثامن عشر. "عدد من السكان ... أكبر من العدد الذى جلبته إسبانيا إلى كل مستعمراتها الأمريكية"(٦٥). ويُقدَّر إجمالى عدد العبيد السود المجلوبين من إفريقيا، منذ إكتشاف البرازيل وحتى إلغاء العبودية بنحو عشرة ملايين: وإذا كانت الأرقام الدقيقة للقرن الثامن عشر غير متاحة، فلابد من الأخذ فى الاعتبار أن دورة الذهب كانت تمتص أيدٍ عاملة من العبيد بكميات ضخمة.

كانت سلفادور دى باهيا Salvador de Bahia هى العاصمة البرازيلية خلال دورة السكر المزدهرة فى الشمال الشرقى، لكن "العصر الذهبى"، لميناس جيرايش نقل المحور الإقتصادى والسياسى للبلاد إلى الجنوب وحوّل ريو دى جانيرو Río de Janeiro، ميناء الإقليم، إلى العاصمة الجديدة للبرازيل إبتداءً من عام ١٧٦٣. وفى المركز الدينامى للإقتصاد المنجمى الصاخب، نبتت المدن، تلك المعسكرات التى ولدت فى "الرواج" ونمت بغتةً فى دوار الثروة السهلة، "ملاجئ المجرمين، والصعاليك، والأشرار" – حسب الكلمات المهذبة لأحد المسئولين الاستعماريين فى تلك الفترة. كانت فيلا ريكا دى أورو بريتو* قد بلغت مرتبة المدينة عام ١٧١١؛ ولأنها ولدت وسط شلال أصحاب المناجم، فقد كانت زبدة حضارة الذهب. وقد وصفها سيماو فيرّيرا ماتشادو Simão Ferreira Machado، بعد ثلاث وعشرين سنة، فقال أن سلطة تجار أورو بريتو فاقت بما لايقاس سلطة أكثر التجار ازدهاراً فى لشبونة: "إلى هنا، مثلما صوب ميناء، تتجه وتوضع فى دار النقود كميات الذهب الضخمة لكل المناجم. وهنا يعيش أفضل الناس ثقافة، سواء العلمانيون أو الدينيون. هذا هو مقر كل النبالة ومقر قوة العسكريين. إنها، بفضل موقعها الطبيعى، رأس أمريكا بأسرها؛ وبفضل قوة ثرواتها، فإنها الجوهرة الثمينة للبرازيل". وفى عام

* فيلاريكادى أو روبريتو: تعنى حرفياً المدينة الغنية ذات الذهب الأسود، وذلك لأن الذهب المستخرج منها يتحول لونه إلى اللون الأسود لدى تعرضه للهواء الرطب، بسبب وجود الفضة مختلطة مع الذهب – م.

www.ibtesama.com/vb

١٧٣٢ ، عرف كاتب آخر لتلك الفترة، هو فرتسيسكو تافاريش دي بريتو، أورو بريتو بأنها "بوتوسي الذهب"(٦١).

وكانت تصل إلى لشبونه باستمرار شكاوى واحتجاجات على الحياة الخاطئة في أورو بريتو، وسابارا Sabará، وساو جواو ديل ريي São Joãod'El Rei، وريبيراو دو كارمو Ribeirão do Carmo، وكل مقاطعة المناجم المائجة. كانت الثروات تأتي وتضيع في غمضة عين. وقد اشتكى الأب أنتونيل من أن هناك الكثيرين من أصحاب المناجم على استعداد لدفع ثروة مقابل زنجي جيد العزف على البوق ولدفع ضعف ذلك من أجل عاهرة خلاسية، "ليغرق معها في الخطايا المتصلة والمخزية"، لكن ذوي المهابة الدينية لم يكونوا يتصرفون بطريقة أفضل: إذ يمكن أن نستخلص من المراسلات الرسمية لتلك الفترة شواهد عديدة ضد "اللاهوتيين المتعلّين" الذي يشوّهون الإقليم. وكانوا يتهمون باستخدام حصانتهم لتهريب الذهب داخل الأيقونات الخشبية الصغيرة للقديسين. وفي عام ١٧٠٥، كان يتم التأكيد على أنه ليس في ميناش جيرايش قس واحد مستعد للاهتمام بالدين المسيحي للناس، وبعدها بست سنوات بلغ الأمر بالتاج إلى حد منع إقامة أي فرقة دينية في المقاطعة المنجمية.

وانتشرت، على أية حال، الكنائس الجميلة المشيّدة والمزينة على الطراز الباروكي الأصلي الذي يميز الإقليم. فقد جذبت ميناش جيرايش أفضل حرفيّي العصر. من الخارج كانت المعابد تبدو هادئة، صافية؛ لكن الداخل، رمز الروح القدس، كان يتلألأ بالذهب الخالص في المذابح، ورواقدها، وفي الأعمدة، وفي الصور المرسومة بالنقش الغائر؛ لم يكن الناس يضنّون بالمعادن النفيسة، حتى تبلغ الكنائس "أيضاً ثروات السماء"، كما نصح الراهب ميجيل دي ساو فرتسيسكو عام ١٧١٥. كانت الخدمات الدينية باهظة الثمن جداً، لكن كل شيء كان غالياً بصورة خيالية في المناجم، ومثلما حدث في بوتوسي، فقد اندفعت أورو بريتو لتبديد ثروتها المفاجئة. وأتاحت المواكب والعروض استعراض الملابس والحلي ذات الفخامة البائخة. وفي عام ١٧٣٣، دام أحد الأعياد الدينية أكثر من أسبوع. ولم تكن المواكب تجري فقط على الأقدام، وعلى صهوة الخيول، أو في عربات مزنهية بالعاج، والعرائر والذهب، في حلل تفوق الخيال والتصور، بل كانت تقام كذلك مسابقات في المبارزة، ومصارعات ثيران، ورقص في الشوارع على أنغام الصفارات، وموسيقى القرب، والجيتارات(٦٢).

كان أصحاب المناجم يحتقرون زراعة الأرض وقد عاني الإقليم من نوبات المجاعة

www.ibtesama.com/vb

في قلب الرفاهية، حوالي عامي ١٧٠٠ و ١٧١٣؛ واضطر أصحاب الملايين لأكل القطط، والكلاب، والفئران، والنمل، والصقور. كان العبيد يستنفدون قواهم وأيامهم في مصافي الذهب. كتب لويس جومش فيريّرا[٦٨]: "هناك يعملون، وهناك يأكلون، وهناك عادةً ينامون؛ ولما كان يتصببون عرقاً حين يعملون، وأرجلهم دائما على الأرض الباردة، على الأحجار أو في الماء، وحين يستريحون أو يأكلون، تنغلق مسامهم ويتجمدون بحيث يكونون عرضةً لكثير من الأمراض الخطيرة، مثل الأمراض الحادة للجنب، والسكتة، والرعشة، والشلل والالتهاب الرئوي، وكثير غيرها". كان المرض بركةً من السماء تعجل بالموت. وكان ضباط العصا capitães do mato في ميناس جيرايش يتقاضون مكافآت ذهبية مقابل الرؤوس المقطوعة للعبيد الهاربين.

كان يطلق على العبيد اسم "قطع خزف الهند" حين يقاسون، ويوزنون، ويعدّون على السفن في لواندا؛ ومن يبقونَ على قيد الحياة بعد عبور المحيط، يتحولون في البرازيل إلى "أيدي وأقدام" السيد الأبيض. كانت أنجولا تصدّر العبيد وصن الفيل مقابل الثياب، والمشروبات، والأسلحة النارية؛ لكن أصحاب مناجم أورو بريتو كانوا يفضلون الزنوج القادمين من ساحل ويدا Whydah الصغير، على شاطئ غينيا، لأنهم كانوا أنشط، ويتحملون لفترة أكثر قليلاً، ولديهم قوى سحرية لإكتشاف الذهب. وكان كل صاحب منجم يحتاج، بالإضافة إلى ذلك، إلى عشيقة سوداء على الأقل من ويدا حتى يحالفه الحظ في الاستكشافات[٦٩]. ولم يزد انفجار الذهب استيراد العبيد فحسب، بل إنه كذلك امتص جزءاً كبيراً من اليد العاملة السوداء المشغولة في مزارع السكر والتبغ في أقاليم البرازيل الأخرى، بحيث بقيت دون يد عاملة. وقد حظر مرسوم لعام ١٧١١ بيع العبيد الذين يعملون في أعمال زراعية بهدف خدمة المناجم، باستثناء أولئك الذين يبدون "شذوذاً في الطبع". كان جوع أورو بريتو للعبيد لا يشبع. وكان الزنوج يموتون بسرعة، وفي أحوال استثنائية فقط كانوا يتحملون سبع سنوات متصلة من العمل. حقاً: قبل عبور الأطلنطي، كان البرتغاليون يعمّدونهم جميعاً. وفي البرازيل، كانوا ملزمين بحضور القداس، رغم أنه كان من المحظور عليهم دخول المحراب أو الجلوس على المقاعد.

وعند منتصف القرن الثامن عشر كان كثير من أصحاب المناجم قد إنتقلوا إلى سيرّا دو فريو Serra do Frio بحثاً عن الماس. كان قد إتضح أن الأحجار البللورية التي كان الباحثون عن الذهب يلقونها جانباً وهم يستكشفون مجاري الأنهار هي قطع ماس،

www.ibtesama.com/vb

قدمت ميناش جيرايش ذهباً وماساً متزاوجين، وبنسب متساوية، وتحول معسكر تيجوكو المزدهر إلى مركز مقاطعة الماس وفيه، مثلما في أورو بريتو، أخذ الأغنياء يلبسون وفق آخر موضة أوربية ويجلبون من ساحل المحيط الآخر الملابس، والأسلحة، وأفخر الأثاث: إنها أوقات الدوار والإسراف. وهناك عبدة خلاسية، هي فرنسيسكا داسيلفا، نالت حريتها بالتحول إلى عشيقة المليونير جواو فرنانديس دي أوليفيرا، الحاكم الفعلي لتيجوكو، أما هي، التي كانت قبيحة وكان لديها طفلين، فقد تحولت إلى السيدة الأمر[٧٠]. laxica que manda. ولما كانت لم تر البحر أبداً وأرادت أن يكون بقربها، صنع لها فارسها بحيرة صناعية ضخمة وضع فيها سفينة بطاقم بحارة وكل ما يلزم، وفوق سفوح جبل ساو فرنسيسكو شيّد لها قلعة، بها حديقة تضم النباتات الغريبة والشلالات الصناعية؛ وعلى شرفها كان يقيم الولائم الباذخة التي تسيل فيها أفضل الخمور، ويدور الرقص الليلي الذي لاينتهي وتقدم العروض المسرحية وحفلات الموسيقى، وحتى في عام ١٨١٨، إحتفلت تيجوكو إحتفالاً رائعاً بزواج أمير البلاط البرتغالي. وقبل ذلك بعشر سنوات، دهش جون مو John Mawe، وهو إنجليزي زار أورو بريتو لفقرها، فقد وجد منازل خاوية وبلاقيمة، وعليها لافتات تعرضها للبيع عبثاً، وأكل طعاماً قذراً وقليلاً[٧١]. وقبل ذلك بزمن كانت قد إنفجرت حركة التمرد التي تصادفت مع الأزمة في مقاطعة الذهب. كان جوزيه جواكيم دا سيلفا اكسافيير José Joaquim da Silva Xavier، الشهير بلقب "تيرادنتس" Tiradentes، قد أُعدم ومُزّق إرباً، وكان المناضلون الآخرون من أجل الاستقلال قد رحلوا من أورو بريتو إلى السجن أو إلى المنفى.

■ مساهمة ذهب البرازيل في تقدم إنجلترا

بدأ تدفق الذهب في نفس لحظة توقيع البرتغال لإتفاقية ميثوين Methuen، مع إنجلترا، عام ١٧٠٣. وكانت هذه الاتفاقية تتويجاً لسلسلة طويلة من الامتيازات حققها التجار الإنجليز في البرتغال. ففي مقابل بعض الأفضليات للأنبذة البرتغالية في السوق الانجليزية، فتحت البرتغال سوقها، وسوق مستعمراتها، أمام المصنوعات البريطانية. وبإعتبار عدم التكافؤ في التطوّر الصناعي الذي كان قائماً عندئذ بالفعل، فإن هذا الإجراء كان يتضمن الحكم بالدمار على المصنوعات المحلية. ولم يكن ثمن المنسوجات الانجليزية يدفع بالخمور، بل بالذهب، بذهب البرازيل، وفي الطريق، بقيت معامل النسيج

www.ibtesama.com/vb

البرتغالية مشلولة. ولم تكتف البرتغال بقتل صناعتها الخاصة وهي لاتزال في البيضة، لكنها، بشكل عرضي، صفّت كذلك جراثيم أي نوع من التطور الصناعي في البرازيل. فقط حظرت المملكة تشغيل أي معامل لتكرير السكر عام ١٧١٥؛ وفي عام ١٧٢٩، إعتبرت شق طرق مواصلات جديدة في إقليم المناجم جريمة؛ وفي عام ١٧٨٥، أمرت بحرق معامل الغزل والنسيج البرازيلية.

أما إنجلترا وهولندا، بطلتا تهريب الذهب والعبيد، اللتان جمعتا ثروات ضخمة من التجارة غير المشروعة في اللحم الأسود، فقد إقتنصتا بطرق غير مشروعة، ما يُقدّر بأكثر من نصف الذهب الخاص بضريبة "الخُمس الملكي" التي يجب أن يتلقاها التاج البرتغالي من البرازيل. لكن إنجلترا لم تكتف باللجوء إلى التجارة الممنوعة لتحويل إتجاه الذهب البرازيلي إلى لندن. فقد جرت الطرق المشروعة كذلك. فقد إنطوى إزدهار الذهب، الذي تضمن تدفق أعداد كبيرة من السكان البرتغاليين إلى ميناس جيرايش، على تنشيط حاد للطلب الاستعماري على المنتجات الصناعية وأتاح، في نفس الوقت، وسائل دفع ثمنها. وبنفس الطريقة التي كانت فضة بوتوسي تتوقف بها على أرض إسبانيا، كان ذهب ميناس جيرايش يمر فقط بالبرتغال. وتحولت المتروبول إلى مجرد وسيط. وفي عام ١٧٥٥، حاول المركيز دي بومبال، رئيس الوزراء البرتغالي، إحياء سياسة حماية. لكن الوقت كان متأخراً: فاستنكر أن يكون الانجليز قد فتحوا البرتغال دون مضايقات الفتح، وأنهم يزودون البرتغال بثلثي إحتياجاتها وأن البريطانيين يمثلون مالكي كل التجارة البرتغالية. لم تكن البرتغال تنتج شيئاً من الناحية العملية وأصبحت ثروة الذهب خرافية إذ أنه حتى العبيد السود الذين يعملون في مناجم المستعمرة كانوا يرتدون ملابس يقدمها الانجليز[٧٢].

وقد أوضح سلسو فورتادو Celso Furtado[٧٣] أن انجلترا، التي كانت تنتهج سياسة واضحة بشأن التطور الصناعي، قد استخدمت ذهب البرازيل لدفع ثمن واردات أساسية من بلدان أخرى واستطاعت تركيز استثماراتها في القطاع التصنيعي. وقد أمكن تطبيق تجديدات تكنولوجية سريعة وفعالة بفضل هذه الأريحية التاريخية للبرتغال. إنتقل المركز المصرفي لأوربا من أمستردام إلى لندن. وحسب المصادر البريطانية، فإن شحنات الذهب البرازيلي إلى لندن بلغت خمسين ألف رطل أسبوعياً في بعض الفترات. وبدون هذا التراكم الهائل لإحتياطيات المعدن، لم تكن إنجلترا لتستطيع مواجهة نابليون، فيما بعد.

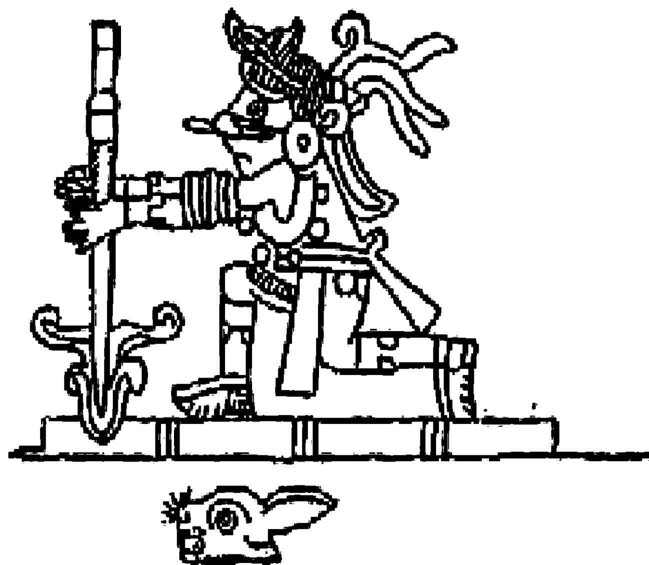
www.ibtesama.com/vb

لم يتبق، فوق التربة البرازيلية، شئ من الدافع الدينامي للذهب، باستثناء المعابد والأعمال الفنية، وفي أواخر القرن الثامن عشر، ورغم أن الماس لم يكن قد نضب بعد، كانت البلاد منهكة. فلم يكن دخل الفرد بالنسبة الثلاثة ملايين برازيلي يتعدى خمسين دولاراً سنوياً بالقدرة الشرائية الراهنة، وفق حسابات فورتادو، وكان هذا أدنى مستوى خلال كل الفترة الاستعمارية. سقطت ميناش جيرايش بعده في هاوية التحلل والخراب. وبشكل لايُصدّق، يعرب كاتب برازيلي عن الاعتراف بالجميل ويصر على أن رأس المال الانجليزي الذي خرج من ميناش جيرايش "خدم الشبكة المصرفية الضخمة التي حيّدت التجارة بين الأمم وجعلت من الممكن رفع مستوى معيشة الشعوب القادرة على التقدم[٧٤]". وبعد أن حكم عليها بصورة قاسية بالفقر لصالح تقدم الغير، ظلت الشعوب "غير القادرة" معزولة ووجب عليها أن تكتفي بانتزاع غذائها من الأراضي الفقيرة التي تم استنزافها من المعادن والأحجار الكريمة. إحتلت زراعة الكفاف محل الإقتصاد التعديني[٧٥]. وفي أيامنا، فإن حقول ميناش جيرايش، مثل حقول الشمال الشرقي، ممالك للاتيفونديا ولـ "كولونيلات الضياع"، وأوكار راكدة للتأخر. وبيع عمال المناجم إلى الضياع الضخمة للولايات أخرى شائع مثل تجارة العبيد التي يعاني منها أهالي الشمال الشرقي. وقد تجول فرنكلين دي أوليفيرا في ميناش جيرايش منذ زمن قريب. فوجد منازل متهاوية من الخشب، وقرى دون ماء أو كهرباء، وعاهرات متوسط عمرهن ثلاثة عشر عاماً في الطريق المؤدي إلى وادي جيكيتنهونيا، ومجانين وجوعى على جوانب الطرق. ويقص كل هذا في كتابة الحديث بعنوان Atragédia da renovacáo brasileira. وقد قال هنري جورسيكس Henri Gorceix، عن حق، أن ميناش جيرايش لها قلب من ذهب في صدر من حديد[٧٦]، لكن تصدير رابع أكسيد الحديد الرائع منها يجري، في أيامنا، لحساب شركتي هانا ماينينج كومباني .Hanna Mining Co وبيتلهم ستيل Bethlehem Steel، المتحدتان لهذا الغرض: وقد سلمت المناجم عام ١٩٦٤، في ختام حكاية شريرة. والحديد، في الأيدي الأجنبية، لن يخلّف أكثر مما خلّفه الذهب.

تفجرٌ الموهبة فقط هو الذي بقي كتذكار لدوار الذهب، إذا أغفلنا ثقوب الحفائر والمدن الصغيرة المهجورة. كذلك لم تستطع البرتغال أن تنقذ قوة أخرى سوى الثورة الجمالية. ودير مافرا Mafra، فخر الدوم جواو الخامس، قد أخرج البرتغال من الانحطاط الفني: فأبراجه ذات السبعة وثلاثين جرساً، وآنيته وشمعداناته المصنوعة من الذهب الخالص، لازالت شاهدة على ذهب ميناش جيرايش. أما كنائس ميناش التي تنهبت

بدرجة كبيرة حتى أن من النادر أن نجد أشياءً مقدسة، ذات حجم يمكن نقله، قد بقيت فيها، فإنها ستبقى دوماً، شامخة فوق الأطلال الاستعمارية، بأعمالها الباروكية العظيمة، وواجهاتها ومنابرها، ولوحاتها، ومتصّاتها، وشخوصها البشرية، التي صممها، وقطعها، ونحتها، أنطونيو فرنسيسكو لشبوا Antônio Francisco Lisboa، الشهير باسم "اليجادينيو"، و"توليديتو" "Tullidito" و "Aleijadinho"، الابن العبقري لإحدى العبيد من أحد الحرفيين. كان القرن الثامن عشر يحتضر حين بدأ "الأليجادينيو" في تشكيل مجموعة من الشخوص المقدسة الضخمة من الحجر، عند أقدام محراب يوم جيسوس دي ماتوسينيوس Bom Jesus de Matosinhos، في كونجانياس دو كامبو Congonhas do Campo. كانت نشوة الذهب من شئون الماضي، وسميت الأعمال باسم الأنبياء، لكن لم تعد هناك أية أمجاد للنبوة. كانت الخيلاء والبهجة قد إختفيا تماماً ولم يبق مكان لأي أمل. لكن الشهادة الأخيرة، العظيمة مثل موكب دفن لحضارة الذهب العابرة تلك، التي وأدت للموت، قد تركها القرون التالية أعظم فناني البرازيل موهبة في كل تاريخها. وقد أنجز "الأليجادينيو" عمله العظيم، وقد شوهه الجذام وأكل جسده، وهو يقبض على الإزميل والمطرقة بيدين دون أصابع ويزحف على ركبتيه، كل فجر، متوجهاً إلى محترفه.

وتؤكد الأسطورة أنه في كنيسة نوسا سنيورا داس مرسيش إي ميزيريكورديا Nossa Senbora des Mercêse Misericordia، في ميناش جيرايش، مازال أصحاب المناجم الميتون يحتفلون بالقداس في الليالي الباردة الممطرة. وحين يعود الكاهن، رافعاً يديه عند المحراب الكبير، تظهر عظام وجهة.



الهوامش

(1) J. H. Elliott, ***La Espána imperial***, Barcelona, 1955.

(2) L. Capitan y Henri Loin, ***El trabajo en América, antes y después de Colón***, Buenos Aires, 1948.

(3) Daniel Vidart, ***Ideología y rea lidad de América***, Montevideo, 1968.

(4) Luis Nicolau D'Olwer, ***Cronistas de las culturas precolombinas***, México, 1963.

وقد كرس المحامي أنطونيو دي ليون بينيلو مجلدين كاملين لتوضيح أن جنة عدن تقع في أمريكا. ففي كتاب الفردوس في العالم الجديد ***El Paraíso en el Nuevo Mundo*** (مدريد، ١٦٥٦)، أدرج خريطة لأمريكا الجنوبية يمكن أن تشاهد، في مركزها، جنة عدن يرويها نهر الأمازون، ونهر الريودي لابلاتا، ونهر الأورينوكو، ونهر المجدلينا. وكانت الفاكهة المحرمة هي الموز. وأوضحت الخريطة الموضع الدقيق الذي أبحرت منه سفينة نوح، حين حدث الطوفان العظيم.

(5) J. M. Ots Capdequí, ***El Estado espànol en las Indias***, México, 1941.

(6) Earl J. Hamilton, ***American Treasure and the Price Revolution in Spain*** (1501 - 1650), MAssachusetts, 1934.

(7) Gonzalo Fernández de Oviedo, ***Historia generaly natural de las Indias***, Madrid, 1959.

وقد أصبح هذا التفسير مدرسة. ويدهشني أن أقرأ في آخر كتب الفني الفرنسي رينيه ديمون René Dumon، وهو: كوبا، هل هي إشتراكية؟ باريس، ١٩٧٠، مايلي: "لم تتم إبادة الهنود تماماً. فجيناتهم مازالت باقية في كروموسومات الكوبيين. كانوا من العزوف عن الجهد الذي يتطلبه العمل المتواصل، حتى أن بعضهم إنتحروا قبل أن يقبلوا عمل السخرة ...".

(8) Guillermo Vàzquez Franco, ***La Conquista Justificada***, Montevideo, 1968, y J. H. Elliott, op. cit.

(٩) طبقاً لما تذكره الرواة الهنود للأب برناربينودي ساهاجون Bernardino de Sahagún في المخطوط الفلورنسي ***Códice Florentino***. إنظر

www.ibtesama.com/vb

Miguel León-Portilla, ***Visión de los vencidos***, México, 1967.

(١٠) أثارت هذه المصادفات المذهلة الافتراض بأن آلهة الديانات الهندية كانوا في الحقيقة أوربيين وصلوا إلى هذه البلاد قبل كولومبس بكثير. انظر

Manuel Pineda Yañez, ***La isla y colón***, Buenos Aires, 1955.

(11) Jacquetta Hawkes, ***Prehistoria, en la Historia de la Humanidad***, de la UNESCO, Buenos Aires, 1966.

(12) Miguel Leon-Portilla, ***El revereso de la conquista, Relationes aztecas, mayas e incas***, México, 1964.

(13) Mignel Leon-Portilla, op. cit.

(14) Gustavo Adolfo Otero, ***Vida Social en el coloniajo***, La Paz, 1958.

(١٥) مؤلفون مجهولون في تلاتيلولكو Tlatelolco ورواة ساهاجون، وردت في المؤلف المذكور آنفاً لميجيل ليون – بورتيا.

(16) Darcy Ribeiro, ***Las Américas y la civilización***, tomo I: La civilizacion occidental y nosotras. Los pueblos testimonio, Buenos Aires, 1969.

(17) Mignel León-Partilla, ***op. cit.***

(18) ***Ibid.***

(١٩) من أجل إعادة تصوير ثروة بوتوسي، راجع المؤلف شهادات شهود الماضي التاليين:

Pedro Vicente Cañete y Domínguez, Potosí colonial: guía histórica, geográfica, política, civil y legal del gobierno e intendencia de la provincia de Potosí, La Paz, 1939; Luis Capoche, Relación general de la Villa Imperial de Potosí, Madrid, 1959; y Nicolas de Martínez Arzanz y Vela, Historia de la Villa Imperial de Potosí, Buenos Aires 1943. Además, Las Crónicas potosinas, de Vicente G. Quesada, París, 1890, y La ciudad única, de Jaime Molins, Potosí, 1961.

(20) Earl J. Hamilton, ***op. cit.***

www.ibtesama.com/vb

(21) ***Ibid.***

(٢٢) فيينه جويستاير اوانش لوانيبيه، في العمل المذكور آنفاً.

(23) J. H., Elliott, ***op. cit.***, y Eart J. Hamilton, ***op. cit.***

(24) Roland Mousnier, ***Los siglos XVI y XVII***, volumen IV de ***la Historia general de las civilizaciones***, de Maurice Crouzet, Barcelona, 1967.

(25) J. Vicens Vives, director, ***Historia social y económica de España y America***, Volúmenes II y III, Barcelona, 1957.

(26) Jorge Abelards Ramos, ***Historia de la nación latinoamericana***. Buenos Aires, 1968.

(27) J. H. Elliott, ***op. cit.***

(٢٨) ولم تنقرض السلالة بعد. إذ افتتح إحدى مجلات مدريد في أواخر عام ١٩٦٩، لاقرأ: توفيت دونيا فيريسا برتران دي ليس إي بيدال جوردوسكي إي تشيكو دي جوثمان، دوقة البوكيرك ومركيزة الكانييس والباليباس، ويبكيها أرملها دوق البوكيرك، الدون بلتران ألونسو أوسوريو إي دييث دي ريبيرا مارتوس إي فيجيروا، مركيز الكانييس، والباليباس، وكاديريتا، وكوييار، وكويبرا، ومونتاوس، وكونت ليديسما دا انيا، وجراخال، ووبلما، وليديسما، ولا توريّ، وبيلانويبا دي كانييدو، ويبا اومبروسا، عظيم إسبانيا ثلاث مرات.

(29) John Lynch, ***Administación colonial española***, Buenos Aires, 1963.

(30) Ernest Mandel, ***Tratado de economía marxista***, México, 1969.

(31) Ernest Mandel, ***La teoría marxista de la acumulación primitive y la industrialización del Tercer Mundo***, revista Amaru, núm. 6. Lima, Abril-junio de 1968.

(32) Paul Baran, ***Economóa política del crecimiento***, México, 1959.

(33) Celso Furtado, ***La economía latinoamericana desde la conquista ibérica hasta la revolución, cubana***, Santiago de Chile, 1969, y México, 1969.

(34) J. Beaujeau- Garnier, ***L'Amérique Latine***, París, 1949.

www.ibtesama.com/vb

(35) Sergio Bagú, ***EConmía de la sociedad colonial***, Ensayo de histria comparada de América Latina, Buenos Aires, 1949.

(36) Alexander von Humboldt, ***Ensayo sobre el Reino de la nueva España***, México, 1944.

(37) Sergio Bagú, ***op. cit.***

(38) André Gunder Frank, ***Capitalism and Underdevelopment in Latin America***, Nueva York, 1967.

(39) Álvaro Alonso- Barba, ***Arte de los metales***, Potosí, 1967.

(40) Gustavo Adolfo Otero, ***op. cit.***

(41) Fernando Carmona, prólogo a Diego López Rosada, ***Historia y pensamiento económico de México***, 1968.

(42) D. Joseph Ribera Bernárdez, Conde Santiago dela Laguna, Descripción breve de la muy noble y léal ciudad de Zacatecas, en Gabriel Salinas de la Torre, Testimonios de Zacatecas, México, 1946.

وعلاوة على هذا العمل وعلى مثال صبيانه راجع المؤلف:

Luis Chávez Orozco, ***Revolución industrial - Revolución política***, Biblioteca del Obrero y Campesino, México, s. f.; Lucio Marmolejo, Efemérides ***guanajuatenses, o datos para formar la historia de la ciudad de Guanajuato, Guanajuato***, 1883; José María Luis Mora, ***México y sus revoluciones, México***, 1965; y para los datos de la actualidad, ***La economía del Estad de Zacatecas y La economía del Estado de Guanajuato***, de la serie de investigaciones del Sistema Bancos de Comercio, México, 1968.

(43) John Collier, ***The Indians of America***, Nueva York, 1947.

(44) Según Darcy Ribeiro, ***Op.Cit.***, Con datos de Henny F. Dobyns, Paul Thompson y otros.

(45) Emilio Romero, ***Historia económica del Perú***, Buenos Aires, 1949.

www.ibtesama.com/vb

(46) Enrique Finot, ***Nueva historia de Bolivia***, Buenos Aires, 1946.

(47) Obras Citadas.

(48) Antonello Gerbi, ***La disputa del Nuevo Mundo***, México, 1960, y Daniel Vidart, ***Op. Cit.***

(49) Lewis Hanke, ***Estudios sobre Fray Bartolomé de Las Casas y sobre la Lucha Por la Justicia en la Conquista española de América***, Caracas, 1968.

(50) J. M. Ots Capdequí, ***Op. Cit.***

(٥١) أحد أعضاء الإدارة الأمريكية الشمالية للحفاظ على التربة، حسب ما أورده جون كولير John Collier في العمل المذكور آنفاً.

(52) Daniel Valcárcel, ***la rebelión de Túpac Amaru***, México, 1947.

(53) Alexander von Humboldt, ***Ansichten der Natur***, tomo II. Citado en Adolf Meyer - Abich y otros, Alejandro de Humboldt (1769 - 1969), Bad Godesberg, 1969.

(54) Tullio Halperin Donghi, ***Historia contemporánea de América Latina***, Madrid, 1969.

(55) Ernest Gruening, ***Mexico and its Heritage***, Nueva York, 1928.

(56) Alonso Aguilar Monteverde, ***Dialéctica de la economía mexicana***, México, 1968.

(٥٧) كان آخر هنود التشاروا الذين بقوا على قيد الحياة حوالى عام ١٨٣٢، بالاستيلاء على الثيران في الريف البدائي في شمال أوروجواي، قد عانوا من خيانة الرئيس فركتوسو ريبيرا. فبعد أن ابتعدوا عن الأدغال التي كانت تحميهم، مترجلين ونازعي السلاح بفعل وعود الصداقة الكاذبة، سحقوا في موضع يسمى فم النمر. يحكي الكاتب إدواردو أثيبيدو دياث (صحيفة لا إيبوكا، عدد ١٩ أغسطس ١٨٩٠) فيقول: « دق النفير ثورة قطع الرؤوس. واستدارت القبيلة يائسة، وأخذ فتيانهم الشجعان يسقطون الواحد تلو الآخر، مثل ثيران جريحة في منبت الرقاب ». مات زعماء كثيرون. أما الهنود القلائل الذين استطاعوا كسر طوق النيران فقد انتقموا لأنفسهم بعد وقت قصير.

www.ibtesama.com/vb

فحين كان يطاردهم شقيق ريبيرا، نصبوا له كميناً ومزقوه بالرماح مع جنوده. وجعل الزعيم سيبي رجاله «يكسون بيمتص أعصاب الجثة طرف رمحه».

وفي الباتاجونيا الأرجنتينية، في أواخر القرن، كان الجنود يحصلون مكافآتهم عند تقديم كل خصيتين. وتستهل رواية سادة الأرض Losdueños de la tierra لدافيد بينياس David Vi´nas (بوتيوس أيرس، ١٩٥٩) بمذبحة الهنود :

« لأن القتل كان مثل اغتصاب شخص. شيئاً طيباً، وحتى شيئاً يروق المرء : فقد كان لابد من العدو، وبالإمكان الصراخ، ويعرق المرء وبعدها يحس بالجوع ... كانت الطلقات قد أخذت تتباعد. بالتأكيد لابد أن هناك جسداً مشنوقاً في واحد من هذه الأعشاش، جسد هندي مائل إلى التلف، وبقعة دامية بين الفخذين ... ».

(58) John Kenneth Turner, ***México bárbaro*** Mécico, 1967.

(59) Arturo Bonilla Sánchez, ***Unproblema que se agrava : la subocupación rural, en Neolatifundismo y explotación, De Emiliano Zapata a Anderson Clayton & Co.***, varios autores, México, 1968.

(60) René Dumont, ***Tierras Vivas***, Problemas dela reforma agraria en el mundo, México, 1963.

(61) Eduardo Galeano, ***Guatemala, País Ocupado***, México, 1967.

(٦٢) آمن هنود المايا – كيتشيه بإله واحد، ومارسوا الصيام، والتوبة، والامتناع، والاعتراف، آمنوا بالطوفان وبنهاية العالم : ولم تحمل إليهم المسيحية تجديدات كبيرة. وقد بدأ التحلل الديني مع الاستعمار، فلم تستوعب الديانة الكاثوليكية إلا بعض الجوانب السحرية والطوطمية من ديانة المايا، في جهد عبثي من أجل إخضاع العقيدة الهندية لإيديولوجية الفاتحين. وفتح سحق الثقافة الأصلية المجال أمام التوفيق بين العقائد، وهكذا تبدو في الوقت الحاضر، مثلاً، دلائل على الارتداد بشأن التطور الذي تم تحقيقه : « السيد فولكان يحتاج لحماً بشرياً محمصاً جيداً ».

Carlos Guzmán Bockler y Jean - Loup Herbert, ***Guatemala : una Interpretación histórico - social***, México, 1970.

(٦٣) كان رواد bandeiras [حرفياً حملة الراية] سان باولو جماعات جوالة ذات تنظيم شبه عسكري وقوة متباينة، وقد لعبت بعثاتهم داخل الغابات دوراً هاماً في استعمار حوض البرازيل.

www.ibtesama.com/vb

(64) Celso Furtado, ***Op. Cit.***

(65) Celso Furtado, ***Formación económica del Brasil.*** México, 1959.

(66) C. R. Boxer, ***The Golden Age Of Brazil*** (1695 - 1750). California, 1969.

(67) Augusto de Lima Júnior, ***Vila Rica de Ouro Preto,*** Sitese Histórica e descritiva, Belo Horizonte, 1957.

(68) C. R. Boxer, ***Op. Cit.***

(69) C. R. Boxer, ***Op. Cit.***

- في كوبا كانت تنسب للنساء العبيد صفات طبية. وحسب شهادة إستيبان مونتيخو، «كان ثمة نوع من المرض يصيب البيض. كان مرضاً في الشرايين وفي أعضاء الذكورة. وكان يزول بالزنجيات. كان من يصيبه ينام مع زنجية فيشفى. هكذا كانوا يشفون للتو»

Miguel Barnet, ***Biografía de un cimarrón***, Buenos Aires, 1968.

(70) Joaquim Felício dos Santos, ***Memórias do Distrito Diamantino,*** Rio de Janeiro, 1956.

(71) Augusto de Lima Júnior, ***Op. Cit.***

(72) Allan K. Manchester, ***British Preeminence in Brazil : its Rise and Fall,*** Chapel Hill, Carolina del Norte, 1933.

(73) Celso Furtado, ***Op. Cit.***

(74) Augusto de Lima Júnior, ***Op. Cit.***

- يحس المؤلف ببهجة غامرة بسبب «توسع الامبريالية الاستعمارية، التي يصفها جهلة اليوم، بتأثير من سادتهم الموسكوفيين، بأنها جريمة».

(75) Roberto G. Simonsen, ***Hisória económica do Brasil*** (1500 - 1820), São Paulo, 1962.

(76) Eponina Ruas, ***Ouro Preto. Sua história, seus templose monumentos,*** Río de Janeiro, 1950.

www.ibtesama.com/vb

الملك سكر وملوك زراعيون آخرون

■ المزارع ، واللاتيفونديات ، والقَدَر

كان البحث عن الذهب والفضة هو ، بلاشك، المحرِّك الأساسي للفتح، لكن كريستوفر كولومبس أحضر، في رحلته الثانية، أول جذور قصب السكر، من جزر الكناريا، وزرعها في الأراضي التي تمثل اليوم جمهورية الدومينيكان، وابتهج الادميرال، حين أورقت النباتات بسرعة، بعد أن زرعت [1]. كان السكر، الذي يزرع على نطاق ضيق في صقلية، وفي جزر ماديرا والرأس الاخضر، ويشترى في الشرق بأسعار مرتفعة، كان صنفاً مرغوباً فيه من جانب الأوربيين حتى أنه كان يمثل جزءاً من الدوطة في جهاز الملكات، كان يباع في الصيدليات، ويوزن بالجرام [2]. وخلال ما يقل قليلاً عن ثلاثة قرون بدءاً من اكتشاف امريكا، لم يكن ثمة، بالنسبة للتجارة الأوربية، ناتج زراعي أهم من السكر المزروع في تلك الاراضي، إمتدت مساحات القصب على طول المنطقة الساحلية الرطبة الدافئة في شمال شرقي البرازيل وامتدت، فيما بعد، في جزر الكاريبي - باربادوس، وجمايكا، وهايتي والدومينيكان، وجوادلوب، وكوبا، وبورتو ريكو - كما أصبحت فيراكروث وساحل بيرو مواقع مناسبة لاستغلال «الذهب الابيض» على نطاق واسع. وأتت فيالق ضخمة من العبيد من افريقيا لتقدم للملك سكر، قوة العمل الكبيرة والمجانية التي يتطلبها : هذا الوقود البشرى من أجل الاحتراق، وخُرِّبت الأراضي بسبب ذلك النبات الأناني الذى غزا العالم الجديد وأحرق الغابات، وأرهق الخصوبة الطبيعية وقضى على الرواسب العضوية التي راكمتها التربة، ونتج من دورة السكر، في أمريكا اللاتينية، أشكال من الرفاهية قاتلة مثل تلك التي نشأت في بوتوسي، وأورو بريتو ، وثاكاتيكاس، وجوانا خواتو نتيجة فورات الذهب والفضة؛ وفي نفس الوقت ، فقد دفعت بقوة حاسمة، مباشرة، أو غير مباشرة، التطور الصناعي لهولندا، وفرنسا، وانجلترا، والولايات المتحدة.

كانت المزرعة الكبيرة التي ولدت نتيجة الطلب على السكر فيما وراء المحيط، مشروعاً تحركه رغبة صاحبه في الكسب وموضوعة في خدمة السوق الذي أخذت أوربا تطوره على نطاق عالمي، الا أنها، في بنيتها الداخلية، كانت بعض سماتها السائدة إقطاعية، إذا أخذنا في الاعتبار أنها مكتفية بذاتها لدرجة كبيرة، ومن ناحية أخرى، كانت

www.ibtesama.com/vb

تستخدم يداً عاملة من العبيد ، هكذا إمتزجت ثلاثة عصور تاريخية متمايزة – هي المركنتيلية والإقطاعية والعبودية – في وحدة إقتصادية وإجتماعية واحدة، لكن السوق الدولية هي التي كانت في مركز تشكيلة السلطة التي تكاملت في نظام المزارع منذ وقت مبكر.

إن المزرعه الاستعمارية، الخاضعة للإحتياجات الاجنبية والممّولة من الخارج ، في حالات كثيرة، تؤدي في خط مستقيم الى لاتيفونديا عصرنا، وهذا واحد من الاختناقات التي تخنق التطور الاقتصادي لامريكا اللاتينية وأحد العوامل الاساسية في هامشية وفقر الجماهير الامريكية اللاتينية. واللاتيفونديا الحالية، التي تعمل بقدر يكفي لمضاعفة عائدات اليد العاملة، تتمتع بإحتياطيات واسعة من الايدي العاملة الرخيصة، ولم تعد تعتمد على إستيراد العبيد الافارقة ولا على «الإقطاعة» الهندية، اذ يكفي اللاتيفونديا دفع أجور مياومة تبعث على السخرية، أو اعطاء مقابل عيني للخدمات، أو العمل المجاني مقابل حق العامل في الانتفاع بقطعة أرض صغيرة؛ أنها تتغذى على انتشار قطع الارض الصغيرة ، الناتجة عن توسعها ذاته ، وعلى الهجرة الداخلية الدائمة لفيالق العمال التي تنتقل ، بفعل الجوع، على ايقاع الحصادات المتتالية.

لقد عملت البنية المختلطة للمزرعه، وكذلك تعمل اللاتيفونديا ، وكأنها مصفاة لتبديد الثروات الطبيعية، اذ أنه بالتكامل في السوق العالمية شهدت كل منطقة دورةً ديناميةً؛ ثم، وبفعل منافسة منتجات بديلة أخرى، أو بفعل انهاك التربة، أو بفعل ظهور مناطق أخرى ذات ظروف افضل ، يأتي التدهور، وتزرع الفقر، وإقتصاد الكفاف، والركود هي الثمن الذي يتقاضاه، بمضي السنين، الدافع الإنتاجي الأصلي. فقد كان الشمال الشرقي أغنى مناطق البرازيل، وهو اليوم افقرها؛ وفي باربادوس وهايتي تسكن أعشاش نمل بشرية محكوم عليها بالبؤس، وقد تحول السكر الى اهم مفاتيح سيطرة الولايات المتحدة على كوبا، وثمن ذلك هو الزراعه الاحادية و الافقار الذي لا يرحم التربة. وليس السكر فقط. فهذا ايضاً هو تاريخ الكاكاو، الذي ولدّ ثروة أوليجاركية كاراكاس؛ والقطن في مارانياو، ذي البهاء المباغت والسقوط المباغت. تاريخ مزارع المطاط في الامازون، التي تحولت إلى مدافن لعمال الشمال الشرقي البرازيلي الذين جُنّدوا مقابل دريهمات؛ تاريخ غابات الكيبراتشو المُدمَّرة في شمال الارجنتين وفي الباراجواي، تاريخ ضياع الهينا، في يوكاتان، حيث أرسل هنود الياكي ليلاقوا الابادة. وهو ايضاً تاريخ البن الذي يتقدم مخلفاً وراءه صحراوات ، وتاريخ مزارع الفاكهة في البرازيل، وفي كولومبيا ، وفي

www.ibtesama.com/vb

الاكوادور، وفي بلدان امريكا الوسطى السيئة الحظ. بقليل من الحظ أو بكثير منه، أخذ كل منتج يتحول الى قدر، إلى قدر عابر في أحيان كثيرة، البلدان، والاقاليم، والبشر. وقد إتبعت المناطق المنتجة للثروات التمبينية نفس المسارات، بالتأكيد. فبقدر ما يكون أحد المنتجات مطلوباً بدرجة أكبر في السوق الدولية ، بقدر ما يزيد الشقاء الذي يجلبه للشعب الامريكي اللاتيني الذي يخلقه بتضحيته. أما المنطقة الاقل تضرراً من هذا القانون الحديدي، وهي منطقة الريودي لا بلاتا، التي القت في تيارات السوق الدولية الجلود ثم اللحوم والصوف، فلم تستطع، رغم ذلك، أن تفلت من قفص التخلف.

■ إغتيال التربة في الشمال الشرقي البرازيلي

كانت المستعمرات الاسبانية تقدم المعادن، في المحل الاول، فقد اكتشفت فيها الكنوز والمناجم في وقت مبكر جداً. وكان السكر، الذي يحتل المرتبة الثانية، يزرع في سانتو دومينجو، ثم في فيراكروث، وبعد ذلك في ساحل البيرو وفي كوبا. وبالمقابل، كانت البرازيل هي اكبر منتج عالمي للسكر حتى أواسط القرن السابع عشر. وفي نفس الوقت، كانت مستعمرة البرتغال الامريكية هي السوق الاساسية للعبيد؛ فقد أبيدت اليد العاملة الهندية النادرة، بسرعة في الاعمال الاجبارية، بينما يتطلب السكر فيالق ضخمة من الايدي العاملة لتنظيف واعداد الارض، والزراعة، وحصد ونقل القصب، ثم أخيراً، عصره وتنقيته. وقد أزدهر المجتمع الاستعماري البرازيلي، الذي يعد نتاجاً جانبياً للسكر، في باهيا وبرناميوكو Bernambuco ، حتى نقل اكتشاف الذهب نواة هذا المجتمع المركزية الى ميناش جيرايش.

منح التاج البرتغالي حق الانتفاع بالاراضي الى كبار ملاك الاراضي الاوائل في البرازيل. فقد كان على مهمة الفتح أن تسير متوازية مع تنظيم الانتاج. تلقى إثنى عشر «نقيباً» فقط بمقتضى خطاب منح، كل أراضي المستعمرة الشاسعة التي لم تكتشف[٣]. ليستغلوها في خدمة الملك، إلا أن رؤوس الاموال الهولندية هي التي موّلت، لدرجة كبيرة، هذا الاستثمار الذي لصبح، في نهاية المطاف هولندياً أكثر من كونه برتغالياً. ولم تكتف الشركات الهولندية بالمشاركة في اقامة المعامل وفي استيراد العبيد؛ بل أنها، علاوة على ذلك، كانت تحصل على السكر الخام في لشبونه، وتكرره فتحصل بذلك على أرباح بلغت ثلث قيمة المنتج[٤]. وتبيعه في أوروبا. وفي عام ١٦٣٠، غزت شركة

www.ibtesama.com/vb

الهند الغربية الهولندية وفتحت الساحل الشمالي الشرقي للبرازيل، حتى تتولى السيطرة المباشرة على المنتج. وكان من الضروري مضاعفة مصادر السكر، من أجل مضاعفة الارباح، وإذا قدمت الشركة للانجليز في جزيرة باربادوس كل التسهيلات من أجل بدء الزراعه على نطاق واسع في جزر الأنتيل. جلبت الى البرازيل مستوطنين من الكاريبي حتى يكتسبوا، هناك في مستعمراتهم الجديدة، الخبرات التقنية اللازمه والقدرة على التنظيم. وحين طُرد الهولنديون أخيراً من الشمال الشرقي البرازيلي، في عام ١٦٥٤، كانوا قد وضعوا الأسس التي تمكّن باربادوس من الإندفاع في منافسة حامية ومدمرة. كانوا قد نقلوا زنوجاً وحلور قصب، وكانوا قد أقاموا معامل وزودوها بكل المستلزمات. وانخفضت الصادرات البرازيلية بمنف الى النصف، وانخفضت الى النصف اسعار السكر عند نهايات القرن السابع عشر. وفي هذه الأثناء ، وخلال عقدين من الزمن ، تضاعف عدد سكان باربادوس السود عشر مرات. كانت جزر الانتيل أقرب الى السوق الاوربية، وقدمت باربادوس أراضي لم تنْهك بعد، وكانت تنتج بمستوى تقني أرقى. وكانت الاراضي البرازيلية قد انهكت، وكان المدى الكبير لتمردات العبيد في البرازيل وظهور الذهب في الجنوب، الذي انتزع الايدي العاملة من المزارع، كاناً كذلك قد عجّلا بالازمة في الشمال الشرقي المنتج للسكر. وكانت أزمة حاسمة. ومازالت تمتد، زاحفة بشكل مؤلم من قرن الى قرن ، حتى أيامنا .

كان السكر قد دمّر الشمال الشرقي. كان الشريط الساحلي الرطب، الذي ترويه الامطار جيداً ، يتمتع بتربة ذات خصوبة عالية، وغنية بالرواسب العضوية والاملاح المعدنية، وتغطيها الغابات من باهيا وحتى شيارا Cear'a . هذا الاقليم ذو الغابات الاستوائية تحوّل، كما يقول جوزويه دي كاسترو، إلى اقليم من السافانا [٥]. هذا الاقليم الذي خلق طبيعياً لينتج الغذاء، أصبح اقليماً للجوع. حيث كان كل شئ ينبت بوفرة طاغية، خلفت لاتيفونديا السكر، المدمرة والكاسحة، صخوراً جدباء، وأراضي مكنوسة، وتربة متآكلة. في البداية، كانت قد اقيمت مزارع للبرتقال والمانجو «تركت لمصيرها وتقلصت الى حدائق صغيرة تحيط بمنزل مالك المعمل، مخصصة تماماً لاسرة المزارع الابيض» [٦]. كانت الحرائق التي تفسح الاراضي لزراعات القصب، تدمّر النباتات وتدمّر معها الكائنات الحية؛ فقد اختفت الغزلان ، والدببة ، وحيوانات التابير* و الارانب،

* التابير : حيوان أمريكي يشبه الدب إلا أن سيقانه طويله ورأسه كبير وله خطم قصير. ذيله بالغ القصر وجسمه مغطى بالشعر القصير. يعيش في الغابات شبه الاستوائية ويجيد السباحة ويأكل النباتات .

www.ibtesama.com/vb

وحيوان الباكا*، وحيوان التاتو**. تمت التضحية بالكساء النباتي، بالزرع وبالحيوانات، على مذبح الزراعه الاحادية لقصب السكر. وسرعان ما أنهك التربة الانتاج الكثيف.

وفي أواخر القرن السادس عشر، كان في البرازيل ما لايقل عن ١٢٠ معملاً يمثلون رأس مال يناهز المليونين من الجنيهات، لكن اصحابها، الذين كانوا يملكون افضل الاراضي، لم يكونوا يزرعون مواداً غذائية، بل كانوا يستوردونها، كما يستوردون تشكيلة واسعة من الأشياء الترفيهية تأتي من وراء المحيط، مع العبيد وأكياس الملح. كانت الوفرة والرفاهية، كما هي العادة، متاشرتان لبؤس أغلبية السكان، التي كانت تعيش في حالة مزمنه من سوء التغذية. إنتقلت تربية الماشية الى الصحراوات الداخلية، بعيداً عن شريط الساحل الرطب: أما السرتون Sertao ، فكان، برأسين من الماشية لكل كيلو متر مربع، يقدم (ومازال يقدم) اللحوم الصلبة عديمة المذاق، والنادرة دائماً.

من تلك العصور الاستعمارية ولدت العادة، التي مازالت سارية، في أكل الطين. إن نقص الحديد يولد فقر الدم؛ وتدفع الغريزة الاطفال في الشمال الشرقي الى التعويض بالطين عن الاملاح التي لايجدونها في غذائهم المعتاد، الذي يتلخص في دقيق المنيهوت والفاصوليا، و اللحم القديد اذا وإتاهم الحظ. وقديماً، كان الاطفال الذين يمارسون هذه «الرذيلة الافريقية» يعاقبون بأن توضع على أفواههم كمامة أو بأن يعلقوا في سلة من الخوص على إرتفاع كبير من الارض (٧).

إن الشمال الشرقي البرازيلي، في الوقت الحاضر، هو الاقليم الاكثر تخلفاً في نصف الكرة الغربي (٨). وبوصفة معسكر اعتقال ضخم لثلاثين مليون شخص، فإنه يعاني اليوم من تركة الزراعة الاحادية للسكر. بينما نبتت من أراضيه التجارة الاكثر ربحاً للاقتصاد الزراعي الاستعماري في امريكا اللاتينية. واليوم، نجد أن أقل من خمس المنطقة الرطبة في برنامبوكو مخصصة لزراعة قصب السكر، بينما لا يستخدم الباقي في أي شئ (٩): وأصحاب معامل التكرير المركزية الضخمة، الذين هم أكبر زارعي القصب، يسمحون لانفسهم بترف التبديد هذا، بإبقائهم لايتفونديانهم الشاسعه غير

---

* الباكا : حيوان بحجم الكلب، ذو ذيل وسيقان بالغة القصر، شعره غزير وضارب للحمرة ولفتاه صغيرتان ومستديرتان.

** التاتو : أحد ثدييات المدرع ، لرأسه وجسده صفائح عظمية صغيرة مثل الدرع يستطيع أن ينكمش فيها إذا هوجم — م.

www.ibtesama.com/vb

منتجة. وليست المناطق المجدبة وشبه المجدبة في داخل الشمال الشرقي هي التي يأكل فيها الناس بشكل أسوأ، كما يُعتقد خطأ. فالسرتون، صحراء الاحجار والشجيرات المتفرقة، والخضرة النادرة، يعاني من المجاعات الدورية : تضرب شمس الجفاف الحارقة الارض وتحولها الى مشهد من أرض القمر؛ وتجبر الناس على الهجرة وتبذر جوانب الطرق بصلبان الموتى، لكن الشريط الساحلي الرطب هو الذى يعاني من المجاعات الوبائية . فهناك حيث الوفرة اكثر ما تكون وفرة، نجد أن الشقاء . في أرض المتناقضات هذه، أكثر مايكون الشقاء: الاقليم الذى اصطفته الطبيعة لينتج كل الاغذية، ينكرها جميعاً : ومازال الشريط الساحلي يُعرف، وبالسخرية اللغة، باسم Zona da Mata، أى « منطقة الغابة » تكريماً للماضي البعيد والبقايا البائسة للغابات المتبقية من قرون السكر. ومازالت لا يتقونديات انتاج السكر، بنية التبديد هذه، مستمرة، مما يجبر على جلب الاغذية من مناطق أخرى ، وخصوصاً من اقليم الوسط - الجنوبي للبلاد، بأسعار متزايدة .

وتكاليف المعيشة في ريسيف هي أعلى تكاليف معيشة في البرازيل، وتفوق معدلها في ريودى جانيرو. والفاصوليا أغلى في الشمال الشرقي منها في إيبانيما Ipanema البلاج الفاخر على خليج كاريوكا، ونصف كيلو جرام من دقيق المنيهوت يساوى الاجر اليومي لعامل بالغ في إحدى مزارع السكر، مقابل يوم عمل من شروق الشمس إلى غروبها : وإذا احتج العامل، فإن رئيس العمال يأمر بإحضار التجار ليأخذ مقاسات جسمه. وبالنسبة للملاك أو مديريهم ، مازال سارياً، في مناطق واسعة، حق « الليلة الأولى» لكل فتاة. وثلث سكان ريسيف يحيا على هامش الحياة في عشش الصفيح : وفي أحد الاحياء، وهو كازا أماريلا Casa Amarela ، يموت اكثر من نصف الاطفال الذين يولدون قبل أن يبلغوا عاماً من العمر(١٠). ودعارة الاطفال، لطفلات في العاشرة أو الثانية عشرة يبيعهن أباؤهم، منتشرة في مدن الشمال الشرقي. واجر يوم العمل في بعض المزارع يقل عن أجور الهند المنخفضة. وقد أكد تقدير لمنظمة الاغذية والزراعة، وهي أحدى منظمات الامم المتحدة، في عام ١٩٥٧، أنه في ضاحية فيتوريا، بالقرب من ريسيف، بسبب نقص البروتينات « في الاطفال فقداناً للوزن اكثر بنسبة ٤٠٪ مما يلاحظ عموماً في أفريقيا». وفي عديد من المزارع ما زالت توجد السجون الخاصة، «لكن المسئولين عن جرائم الاغتيال بسبب سوء التغذية - كما يقول رينيه ديمون - لا يسجنون فيها، لانهم من يملكون المفاتيح»(١١).

www.ibtesama.com/vb

وتنتج برنامبوكو الان أقل من نصف السكر الذى تنتجة ولاية ساو باولو ، ويمحصول أقل لكل هكتار؛ ورغم ذلك ، تحيا برنامبوكو من انتاج السكر ويحيا عليه سكانها المتركزون فى المنطقة الرطبة، بينما تضم ولاية ساو باولو أقوى مركز صناعى فى أمريكا اللاتينية. فى الشمال الشرقى نجد أنه حتى التقدم ليس تقدمياً ، لأنه حتى التقدم فى أيدى قلة من الملاك. وغذاء الاقليات يتحول الى جوع الاغلبيات. ومنذ عام ١٨٧٠ ، جرى تحديث صناعة السكر بدرجة كبيرة، بإنشاء معامل التكرير المركزية الضخمة، ومن ثم «تقدم ابتلاع الارض من جانب اللاتيفونديات بصورة خطيرة، مما زاد من حدة البؤس الغذائى فى هذه المنطقة » [١٢]. وخلال عقد الخمسينات من القرن الحالى، زاد التصنيع الذى يجرى على قدم وساق، من استهلاك السكر فى البرازيل. ونال انتاج الشمال الشرقى دفعة كبيرة، لكن دون زيادة فى الانتاجية لكل هكتار. وجرى ضم أراض جديدة، ذات نوعية أقل، إلى مساحات قصب السكر، ومن جديد التهم السكر المساحات القليلة المكرسة لانتاج الاغذية. أما الفلاح الذى كان يزرع قطعة أرضه الصغيرة، والذى تحول الى عامل مأجور، فلم تتحسن أحواله بالوضع الجديد، اذ أنه لا يكسب نقوداً تكفى لشراء الاغذية التى كان ينتجها من قبل [١٣]. وكالعادة ، فإن التوسع وسّع من نطاق الجوع.

■ الهجوم بالخطوة السريعة فى جزر الكاريبى

كانت جزر الأنتيل هى جزر السكر Sugar Islands : فقد إندرجت فى السوق العالمية بوصفها جزراً منتجة للسكر، وظلت محكوماً عليها بإنتاج السكر، حتى أيامنا، وهى باربادوس، وجزر سوتابنتو، وترينيداد، وتوباجو، وجوادالوب، وبويرتوريكو، وسانتو دومينجو (الدومينيكان وهايتى). ولأنها سجينة الزراعه الأحادية لقصب السكر فى اللاتيفونديات ذات الاراضى الشاسعه المنهكة، فإن هذه الجزر تعانى من البطالة والفقر: فالسكر يزرع على نطاق واسع، وعلى نطاق واسع يبعث لعناته. كذلك لاتزال كوبا تعتمد، بدرجة حاسمة ، على مبيعاتها من السكر، لكنها بدءاً من الاصلاح الزراعى فى عام ١٩٥٩ بدأت عملية مكثفة لتنويع اقتصاد الجزيرة، مما وضع خاتمة للبطالة : فلم يعد الكوبيون يعملون خمسة أشهر بالكاد كل سنة، خلال الحصاد، بل يعملون بلا إنقطاع خلال البناء، المتصل والصعب بلاشك ، لمجتمع جديد.

www.ibtesama.com/vb

قال كارل ماركس عام ١٨٤٨ : «قد تظنون أيها السادة ، أن انتاج البن والسكر هو القدر الطبيعي لجزر الهند الغربية، لكن منذ قرنين لم تكن الطبيعة، التي لا علاقة لها بالتجارة، قد زرعت هناك لا شجرة البن ولا قصب السكر» [١٤]. أن التقسيم الدولي للعمل لم تقمه يد ونعمة الروح القدس، بل أقيم بفعل عمل البشر، أو بالادق، بسبب التطور العالمي الرأسمالية.

وفي الواقع، كانت باربادوس أول جزر الكاريبي التي زرع فيها السكر للتصدير بكميات ضخمة ، منذ ١٦٤١ ، رغم أن الإسبان كانوا قد زرعوا القصب قبل ذلك في الدومينيكان وفي كوبا. وكان الهولنديون ، كما رأينا ، هم الذين ادخلوا المزارع في الجزيرة البريطانية الصغيرة. وفي عام ١٦٦٦ كان في باربادوس بالفعل ثمانمائة مزرعة سكر وأكثر من ثمانين الف عبد، وباحتلالها رأسياً وأفقياً باللاتيفونديات الوليدة، لم يكن حظ باربادوس بأفضل من حظ الشمال الشرقي البرازيلي .

قبلها، كانت الجزيرة تستفيد من الزراعة المتنوعة؛ فقد كانت تنتج ، في إطار الملكيات الصغيرة، القطن والتبغ، والبرتقال، والابقار والخنازير. والتهمت مزارع القصب المحاصيل الزراعية ودمّرت الغابات الكثيفة، باسم ازدهار اتضح أنه مؤقت. وبسرعة، اكتشفت الجزيرة أن أراضيها قد انهكت، وأنه ليس لديها ما تطعم به سكانها، وأنها تنتج السكر بأسعار خارج المنافسة [١٥].

كان السكر قد إمتد الي جزر أخرى، نحو أرخبيل سوتافنتو Sotavento وجامايكا، وإلى جويانا، في التربة القارية. ومنذ أوائل القرن الثامن عشر، كان العبيد، في جامايكا، يفوقون عدد المستوطنين البيض بعشر مرات. وقد إنهكت أراضيها أيضاً خلال وقت قصير. وخلال النصف الثاني من القرن ، كان افضل سكر في العالم ينبت من التربة الإسفنجية لسهول ساحل هايتي، وهي مستعمرة فرنسية كانت تسمى حينئذ سان دومينج Saint Domingue . إلي الشمال وإلى الغرب، تحولت هايتي الي إسطبل للعبيد : فقد كان السكر يتطلب أيدي عاملة متزايدة. وفي عام ١٧٨٦ ، وصل الي المستعمرة سبعة وعشرون الف عبد، وفي العام التالي أربعون الفاً. وفي خريف عام ١٧٩١ إندلعت الثورة. وخلال شهر واحد ، هو سبتمبر، كانت مائتا مزرعة قصب قد أصبحت وقوداً للنيران. وتوالت الحرائق والمعارك دون توقف بينما مضى العبيد المتمردون يدفعون الجيوش الفرنسية نحو المحيط. وأخذت السفن تقلع محملة بفرنسيين يتزايدون بإطراد وسكر يقل باطراد. سفكت الحرب أنهاراً من الدم وخربت المزارع. وكانت حرباً

www.ibtesama.com/vb

طويلة. وبقيت البلاد، التي تحولت الى رماد، مشلولة؛ وفي أواخر القرن سقط الانتاج من حالق، يقول ليكوفسكي «في نوفمبر عام ١٨٠٢ أصبحت كل المستعمرة تقريباً، والتي كانت مزدهرة من قبل، مقبرة ضخمة من الرماد والعظام» (١٦). كانت ثورة هايتي قد تطابقت وليس في الزمن فقط، مع الثورة الفرنسية، وعانت هايتي كذلك، بنفسها، من مقاطعة التحالف الدولي ضد فرنسا : فقد كانت انجلترا تسيد البحار. لكنها فيما بعد عانت، بقدر ما أصبح استقلالها حتمياً، من مقاطعة فرنسا. فاستجابة للضغط الفرنسي، حظر كونجرس الولايات المتحدة التجارة مع هايتي، في عام ١٨٠٦. وفي عام ١٨٢٥ فقط، اعترفت فرنسا باستقلال مستعمرتها السابقة، لكن في مقابل تعويض ضخم بالفعل. وفي عام ١٨٠٢، قبل وقت قصير من سقوط الجنرال توسان - لوفرتور Tous-saint - Louverture أسيراً، وهو زعيم جيوش العبيد، كان الجنرال ليكلير Leclerc قد كتب الى زوج أخته نابوليون، من الجزيرة يقول: «هاك رأيي بشأن هذا البلد : يجب تصفية كل زنوج الجبال، رجالاً ونساءً، مبقين فقط على الاطفال الاقل من اثني عشر عاماً، ويجب ابادة نصف زنوج السهول والا نبقي على خلاسي واحد يحمل كتفية عسكرية» (١٧). وقد انتقم خط الاستواء من ليكلير، حيث مات «بمرزقة القيء الاسود» برغم الوصفات السحرية لبولين بونابرت (١٨)، دون أن يستطيع انجاز خطته، لكن التعويض النقدي اصبح صخرة ساحقة على ظهور أهل هايتي المستقلين الذين نجوا من حمامات الدم التي قامت بها البعثات العسكرية المتتالية التي أرسلت ضدهم، وبات البلد أطلالاً ولم يشف أبداً : وهو اليوم افقر بلدان امريكا اللاتينية.

وقد سببت أزمة هايتي ازدهار السكر في كوبا، التي تحولت بسرعة الى المورّد العالمي الاول له. كذلك نال الانتاج الكوبي من البن، وهو منتج آخر عليه طلب شديد فيما وراء المحيط، نال دفعة قوية بسقوط انتاج هايتي، لكن السكر كسب سباق الزراعة الاحادية : وفي عام ١٨٦٢ وجدت كوبا نفسها مضطرة لاستيراد البن من الخارج، وقد بلغ عضو حبيب من «السكروقراطية» * Sacarocracia الكوبية حد أن يكتب عن «المزايا الحقيقة التي يمكن الحصول عليها من شقاء الاخرين» (١٩). تلت الثورة في هايتي لشد الاسعار خيالية في تاريخ السكر في السوق الاوروبية، وفي عام ١٨٠٦ كانت كوبا قد ضاعفت، في آن واحد، معامل التكرير والانتاجية.

* Sacarocracia : أرستقراطية السكر.

www.ibtesama.com/vb

■ قلاع من السكر فوق أراضي كوبا المحروقة

سيطر الانجليز بصورة مؤقتة على هافانا عام ١٧٦٢، حينئذ، كانت المزارع الصغيرة التبغ وتربية الماشية هي أساس الاقتصاد الزراعي للجزيرة؛ وكانت هافانا، النقطة العسكرية القوية، تتمتع بتطور ملحوظ في الحرف، وكان بها معمل صهر مهم، يصنع المدافع، كما كان بها أول ترسانة في أمريكا اللاتينية تصنع سفناً تجارية وحربية على نطاق واسع. وكانت أحد عشر شهراً كافية للمحتلين البريطانيين ليدخلوا الى الجزيرة كمية من العبيد كان يمكن أن تدخلها في الظروف العادية في خمس عشرة سنة، ومنذ ذلك الوقت صيغ الاقتصاد الكوبي حسب احتياجات السكر الخارجية: فالعبيد سينتجون السلعة المطلوبة المتجهة الى السوق العالمية، أما عائدها السمين فسوف تتمتع به منذ ذلك الحين الاوليجاركية المحلية والمصالح الامبريالية.

ويصف مورينو فراخينالس Moreno Fraginals، بتفاصيل بليغة، الازدهار العنيف السكر خلال السنوات التالية للاحتلال البريطاني. كان الاحتكار التجاري الاسباني قد تحطم؛ وكانت قد تحطمت ايضاً المعوقات أمام دخول العبيد. وامتص معمل التكرير كل شيء، الرجال والاراضي. كان عمال الترسانة ومعمل الصهر والحرفيون الصغار الذين لا يحصون، والذين كان يمكن لإسهامهم أن يكون اساسياً لتقدم الصناعات، كانوا يمضون الى معامل التكرير؛ أما الفلاحون الصغار الذين يزرعون التبغ في السهول أو الفواكه في البساتين، فقد انضموا بدورهم الى انتاج السكر، بعد أن اصبحوا ضحايا لتمدد مساحات القصب الوحشي للتربة، وأخذ الانتاج الواسع يقلل من خصوبة التربة. تضاعفت في الحقول الكوبية ابراج معامل التكرير وكان كل معمل يتطلب أراض تتزايد باستمرار. التهم اللهب سهول التبغ والغابات ومَرّ المراعي. وفي عام ١٧٩٢، كان اللحم المقدّد، الذي كان قبلها بسنوات قليلة أحد مواد التصدير الكوبية، يأتي من الخارج بكميات كبيرة، وستظل كوبا تستورده فيما يأتي من أيام [٢٠]. أصاب الخمول الترسانة ومعمل الصهر، وسقط انتاج التبغ فجأة وكان يوم العمل لعبيد السكر يمتد الى عشرين ساعة. وفوق الاراضي التي يتصاعد منها الدخان تدعمت سلطة «أرستقراطية السكر».

وعند أواخر القرن الثامن عشر، وبينما الفرح العارم بالاسعار الدولية يبلغ السحاب، كانت المضاربة تبلغ عنان السماء: تضاعفت أسعار الاراضي عشرين مرة في جونيس Guines؛ وفي هافانا، كانت الفائدة الفعلية على النقود أعلى بثمانية اضعاف القيمة

الشرعية؛ وفي كل ارجاء كوبا كانت تعريفة احتفالات التعميد، والدفن، والقداسات تتزايد متناسبة مع إرتفاع الأسعار المنفلت الزمام للعبيد والثيران.

كان مؤرخو عصور أخرى يقولون أنه يمكن التجوال بطول كوبا، تحت ظلال النخيل الضخم والغابات الوارفة ، التي تتكاثر فيها اشجار الماهوجني والارز ، والابنوس والداجام*. ومازال بامكان المرء أن يُعجب بأخشاب كوبا الثمينة في موائد ونوافذ قصر الاسكوريال وفي ابواب القصر الملكي في مدريد، لكنّ غزو القصب أحرق، في كوبا، بنيران مختلفة متتالية، أفضل الغابات البكر التي كانت تغطي اراضيها من قبل. وفي نفس السنوات التي كانت كوبا تدمّر فيها غاباتها، تحولت الى المشتري الاساسي لاخشاب الولايات المتحدة. إن الزراعة المكثفة للقصب، هذا النهاب اللص ، لم تتضمن فقط موت الغابات، بل تضمنت كذلك، على المدى الطويل، «موت الخصوبة المدهشة للجزيرة»[٢١]. سلّمت الغابات للنيران ولم يتأخر التآكل من عض التربة العزلاء؛ وجفت آلاف الجداول. وفي الوقت الحاضر، نجد أن المحصول لكل هكتار في مزارع السكر الكوبية يقل اكثر من ثلاث مرات عنه في البيرو، ويقل اربع مرات ونصف عنه في هاواي[٢٢]. ويمثل الري وإخصاب التربة مهمات ذات أولوية بالنسبة للثورة الكوبية. فالسدود المائية تتضاعف، بين كبيرة وصغيرة، بينما تشق القنوات في الحقول وتنثر الأسمدة فوق الاراضي المرهقة.

تكونت الثروة الخادعة لـ «أرستقراطية السكر» في الوقت الذي كانت تكرس فيه تبعية كوبا، ذلك المجتمع المتميز الذي ظل اقتصاده مريضاً بمرض السكر. ومن بين من دمروا أخصب الاراضي بوسائل وحشية كان هناك شخصيات ذات ثقافة أوربية راقية، تعرف كيف تميز لوحة أصلية لبروجل Brueghel وتستطيع شراءها؛ وكانوا خلال رحلاتهم المتكررة الى باريس يجلبون فازات إتروسكية وأوان إغريقية ، وأباريق فرنسية، ولوحات ورقية صينية من عهد أسرة مينج، ومناظر طبيعية وصور اشخاص لاشهر الفنانين البريطانيين. ولقد أدهشني أن اكتشف، في مطبخ إحدى ضياع هافانا، خزانة ضخمة، ذات شفرة سرية، كانت إحدى الكونتيسات تستخدمها لحفظ الاطباق. وحتى عام ١٩٥٩ لم تقم أي مصانع، بل قلاع من السكر : كان السكر يعيّن الدكتاتورات ويعزلهم، ويقدم العمل او يحجبه عن العمال، ويحدّد ايقاع رقصات الملايين والأزمات المفزعة. إن مدينة ترينيداد هي، اليوم جثة متألقة. لكن عند منتصف القرن التاسع عشر،

* أحد أنواع الشجر التي تنبت في جزر الأنتيل – م.

www.ibtesama.com/vb

كان في ترينيداد خمسون معمل تكرير، تنتج ٧٠٠ ألف ربع * من السكر. وتم بالعنف إخراج الفلاحين الفقراء الذين كانوا يزرعون التبغ، وأصبحت المنطقة، التي كانت تربي الماشية كذلك، وكانت تصدر اللحوم، أصبحت تأكل اللحوم المجلوبة من الخارج. إزدهرت القصور الاستعمارية، ببواباتها ذات الظلال المتواطئة، وقاعاتها ذات الاسقف العالية والنجف المزين بأمطار من البلور، والسجاجيد الفارسية، والصمت المخملي وفي الجو موجات موسيقى الرقص، والمرايا في الصالونات تعكس صورة الفرسان ذوي خصلات الشعر والاحذية ذات المشبك. هنالك، الآن، شهادة الهياكل الضخمة من المرمر أو الحجر، وسمو أبراج الكنائس الصامتة، والعربات التي زحفت عليها الاعشاب. وتُسمى ترينيداد الآن باسم «مدينة آل كان»، لأن من بقوا على قيد الحياة من البيض يتحدثون دائماً عن سلف ما كان لديه السلطة والمجد. لكن أزمة ١٨٥٧ أتت، وتدهورت اسعار السكر وسقطت معها المدينة، كي لا تقوم لها قائمة بعدها ابداً (٢٣).

وبعد قرن من الزمن، حين وصل محاربو عصابات السييرا ما يسترا الى السلطة، استمرت كوبا في ممارسة قدرها المربوط بحصة السكر. « أن الشعب الذي يسلم بقاءة لمنتج واحد، ينتحر»، هكذا كان قد تنبأ البطل القومي، خوسيه مارتي Jose Marti. وفي عام ١٩٢٠، بينما سعر السكر عند ٢٢ سنتاً للرطل، حطمت كوبا الرقم القياسي العالمي للصادرات لكل فرد، متخطية انجلترا كذلك، وحققت اكبر دخل للفرد في أمريكا اللاتينية. لكن، في نفس ذلك العام، في ديسمبر، سقط سعر السكر الى اربع سنتات، وفي عام ١٩٢١، إنطلق اعصار الازمة: افلس العديد من معامل التكرير، اشترتها المصالح الامريكية الشمالية، كما افلست كل البنوك الكوبية أو الاسبانية، بما في ذلك البنك القومي ذاته، ولم ينج سوى فروع بنوك الولايات المتحدة (٢٤). هذا الاقتصاد التابع والقابل للأذى الذي كانه الاقتصاد الكوبي لم يكن باستطاعة الافلات، فيما بعد، من التاثير العنيف لأزمة عام ١٩٢٩ في الولايات المتحدة: فقد وصل سعر السكر الى حد الانخفاض الى ما يقل كثيراً عن سنت واحد في عام ١٩٣٢، وخلال ثلاث سنوات، انخفضت قيمة الصادرات الى الربع، أما نسبة البطالة في كوبا في تلك الأونة فيصعب أن نجد نظيرها في أي بلد آخر (٢٥). كانت كارثة عام ١٩٢١ قد نتجت عن تدهور سعر السكر في سوق الولايات المتحدة، ومن الولايات المتحدة سرعان ما وصل قرض قيمته

---

* : وحدة وزن وكيل . في الوزن تساوي ١١,٥ كيلو جراماً وفي المكاييل تساوي ١٦,١ لتراً من الخمر أو ١٢,٦ لتراً من الزيت. والكلمة عربية الأصل - م.

خمسون مليوناً من الدولارات : وفى أعقاب القرض ، وصل الجنرال كرودر Crowder أيضاً؛ وتحت ذريعة تنظيم استخدام الاموال ، حكم كرودر البلاد فعلياً. وبفضل جهوده الحميدة وصلت دكتاتورية ما تشادو Machado الى السلطة عام ١٩٢٤، لكن الكساد الكبير لسنوات الثلاثينات جرف أمامه نظام الدم والنار هذا ، بعد أن شل كوبا الإضراب العام.

وما حدث مع الاسعار، تكرر مع حجم الصادرات. فمنذ عام ١٩٤٨ ، استعادت كوبا حصتها لتغطية ثلث السوق الامريكى الشمالى من السكر، باسعار أقل من تلك التى كان يتقاضاها منتجو الولايات المتحدة ، لكنها أعلى وأكثر ثباتاً من أسعار السوق الدولية. وقبل ذلك كانت الولايات المتحدة قد خفضت الجمارك على واردات السكر الكوبى مقابل امتيازات مماثلة تمنح على دخول السلع الامريكية الشمالية الى كوبا. كل هذه الافضال دعمت التبعية . «الشعب الذى يشترى يأمر، والشعب الذى يبيع يخدم؛ لابد من موازنة التجارة من أجل ضمان الحرية؛ الشعب الذى يريد أن يموت ، يبيع لشعب واحد ، والذى يريد أن ينقذ نفسه يبيع لأكثر من واحد» ، هكذا قال مارتى وكرر التشى جيفارا فى مؤتمر منظمة الدول الامريكية، فى بونتادل إستى Punta Del Este ، عام ١٩٦١. كان الانتاج يُحدَّد ، تعسفياً ، حسب إحتياجات واشنطن – واستمرار مستوى عام ١٩٢٥ ، وهو حوالى خمسة ملايين طن ، يمثل متوسط سنوات الخمسينات : وقد قفز الدكتاتور فولخنثيو باتيستا Fulgencio Batista إلى السلطة ، عام ١٩٥٢ ، فى أعقاب أكبر حصاد تحقق حتى ذلك الوقت ، أكثر من سبعة ملايين طن ، ومهمته ضبط الاوتار ، وفى العام التالى ، سقط الانتاج الى أربعة ملايين ، حسب طلب الشمال [٣٦].

■ الثورة فى مواجهة بنية العجز

إن القرب الجغرافى وظهور سكر البنجر ، الذى بدأ خلال حروب نابوليون ، فى حقول فرنسا والمانيا ، قد جعلا الولايات المتحدة الزبون الاساسى لسكر جزر الأنتيل. وفى عام ١٨٥٠ ، كانت الولايات المتحدة تسيطر فعلاً على ثلث تجارة كوبا ، وكانت تبيع لها وتشترى منها أكثر مما تفعل اسبانيا ، رغم أن الجزيرة كانت مستعمرة اسبانية ، وكان العلم ذو الخطوط والنجوم يرفرف على اشرعة أكثر من نصف السفن التى تصل الى هناك. وقد وجد رحالة اسبانى حوالى عام ١٨٥٩ ، فى قُرى كوبية نائية فى قلب

www.ibtesama.com/vb

الريف ، وجد ماكينات خياطة مصنوعة في الولايات المتحدة [٢٧]. وقد رصفت الشوارع الرئيسية في هافانا بكتل جرانيت من بوسطن.

وحين أشرف ضوء القرن العشرين ، كتب في صحيفة لويزيانا بلانتر Louisiana Planter : «قليلا قليلاً ، تنتقل كل جزيرة كوبا إلى ايدي مواطنين امريكيين شماليين ، وهذه هي ابسط وأضمن طريقة لتحقيق ضمها الى الولايات المتحدة». وفي مجلس الشيوخ الامريكي الشمالي كان يجري الحديث فعلاً عن نجمة جديدة في العلم؛ وبهزيمة اسبانيا ، حكم الجنرال ليونارد وود Leonard Wood الجزيرة. وفي نفس الوقت ، انتقلت الى ايدي الولايات المتحدة الفلبين وبويرتوريكو[٢٨].

« لقد سلّمت الينا بالحرب – هكذا قال الرئيس ماكينلي Mckinley مُدرجاً كوباً –، وبعون الرب وبإسم تقدم البشرية والحضارة ، فإن واجبنا هو الاستجابة لهذه الثقة الكبيرة» . في عام ١٩٠٢ ، اضطر توماس استرادا بالما Tomas Estrada Palma الى التخلي عن الجنسية الامريكية الشمالية التي كان قد تبنّاها في المنفى: فقد حوّلته قوات الاحتلال الأمريكية الشمالية الى أول رئيس لكوبا . وفي عام ١٩٦٠ ، أعلن سفير الولايات المتحدة السابق الى كوبا ، ايرل سميث Earl Smith ، أمام احدى لجان مجلس الشيوخ الفرعية أنه : «حتى صعود كاسترو الى السلطة، كان للولايات المتحدة في كوبا نفوذ لا يقاوم لدرجة أن السفير الأمريكي الشمالي كان الشخصية الثانية في البلاد ، وأحياناً يكون أهم حتى من الرئيس الكوبي».

حين سقط باتيستا ، كانت كوبا تبيع سكرها كله في الولايات المتحدة. وقبل ذلك بخمس سنوات ، كان محام ثوري شاب قد تنبأ بشكل صائب ، أمام من كانوا يحاكمونه بتهمه الهجوم على معسكر مونكادا ، بأن التاريخ سيبرئه؛ وقال في مرافعته الرنانة : «أن كوبا تظل مصنعاً منتجاً للمواد الاولية ، وهي تصدر السكر لتستورد الملبّس» [٢٩]. كانت كوبا تشتري من الولايات المتحدة ليس فقط السيارات والآلات ، والمنتجات الكيماوية ، والورق والملابس، بل كذلك الأرز والفاصوليا ، الثوم والبصل ، الشحوم ، واللحوم والقطن. وكانت تأتي من ميامي أرغفة خبز مثلجة وحتى وجبات فاخرة من باريس. كان بلد السكر يستورد نحو نصف الفواكه والخضروات التي يستهلكها ، رغم أن ثلث سكانه المنتجين فقط كان لديهم عمل دائم ورغم أن نصف أراضي معامل السكر المركزية كانت امتدادات مقفره لاتنتج فيها الشركات شيئاً [٣٠]. كان ثلاثة عشر معملاً أمريكياً شمالياً يتصرفون في أكثر من ٤٧ بالمائة من اجمالي مساحة السكر ويكسبون حوالي ١٨٠

www.ibtesama.com/vb

مليوناً من الدولارات في كل محصول. وكانت ثروات باطن الارض - النيكل والحديد، والنحاس، والمنجنيز، والكروم، والتنجستن - تشكل جزءاً من الاحتياطيات الاستراتيجية للولايات المتحدة ، التي لم تكن شركاتها تكاد تستغل هذه المعادن الا حسب الطوارئ المتغيرة للجيش والصناعة الشمالية. كان في كوبا، عام ١٩٥٨، عاهرات مسجلات أكثر عدداً من عمال المناجم (٣١).

كان مليون ونصف من الكوبيين يعانون من البطالة الشاملة أو الجزئية ، حسب ابحاث سوريه وبينو Seuret & Pino التي يوردها تونييث خيمينث .

كان اقتصاد البلاد يتحرك على إيقاع الحصاد، أما القدرة الشرائية للصادرات الكوبية فيما بين ١٩٥٢ و١٩٥٦ فلم تتجاوز مستواها قبل ذلك بثلاثين عاماً (٣٢)، رغم أن الاحتياج الى العملات الصعبة كان أكبر بكثير. وخلال الثلاثينات ، حين دعمت الازمة تبعية الاقتصاد الكوبي بدل أن تساهم في كسرها ، كان الامر قد بلغ حد فك مصانع أنشئت حديثاً من أجل بيعها الى بلدان أخرى. وحين انتصرت الثورة ، في أول أيام عام ١٩٥٩ ، كان التطور الصناعي لكوبا شديد الفقر والبطء . وكان اكثر من نصف الانتاج متركزاً في هافانا وكانت المصانع القليلة ذات التكنولوجيا المتقدمة توجَّه عن بعد من الولايات المتحدة. وهناك اقتصادي كوبي ، هو ريخينوبوتي Regino Boti ، هو أحد المشاركين في وضع الاطروحات الاقتصادية لمحاربي العصابات في السييرا ، يورد مثال أحد فروع شركة نسله التي كانت تنتج الباناً مركزة في باياموا : «في حالة وقوع حادث ، كان الفني يطلب كونكتيكت تليفونياً ويحدد أن الشئ الفلاني أو العلاني في قسمه لايعمل. وفي الحال يتلقى التعليمات بالاجراءات التي عليه أن يتخذها فينفذها آلياً ... واذا لم تنجح العملية ، تصل بعد اربع ساعات طائرة تحمل فريقاً من الاخصائيين المؤهلين بدرجة عالية يصلحون كل شئ، وبعد التأميم ، لم يعد يمكن اجراء مكالمة تليفونية لطلب الانقاذ وقد رحل الفنيون النادرون الذين كان يمكنهم اصلاح الاعطال الثانوية» (٣٣). هذه الشهادة توضح بإقتدار الصعوبات التي واجهتها الثورة منذ انطلقت في مغامرة تحويل المستعمرة الى وطن.

كانت سيقان كوبا مقطوعة نتيجة لوضع التبعية ولم يكن من السهل عليها أن تشرع في السير بمفردها . كان نصف أطفال كوبا لا يذهبون الى المدارس عام ١٩٥٨، لكن الجهل ، كما أعلن فيديل كاسترو مرات عديدة ، كان أوسع وأخطر من الامية. وقد عبأت حملة عام ١٩٦١ جيشاً من الشباب المتطوعين لتعليم كل الكوبيين القراءة والكتابة

www.ibtesama.com/vb

وأدهشت النتائج العالم : فكوبا تتمتع الآن ، حسب المكتب الدولي للتربية في منظمة اليونسكو ، بأقل نسبة من الأميين وبأكبر نسبة من السكان في المدارس ، الابتدائية والثانوية، في أمريكا اللاتينية، ورغم ذلك ، فإن الميراث اللعين للجهل لا يتم تجاوزه بين عشية وضحاها -- ولا خلال اثنى عشرة سنة . ونقص الكوادر التقنية الكفؤة ، وعدم كفاءة الادارة وسوء تنظيم الجهاز الانتاجي ، والخوف البيروقراطي من الخيال المبدع ومن حرية اتخاذ القرار ، ما زالت كلها تضع العوائق أمام تطور الاشتراكية، لكن رغم كل نظام العجز الذي صيغ خلال أربعة قرون ونصف من تاريخ الاضطهاد ، فإن كوبا تولد من جديد ، بحماس لا يتوقف : إنها تحسب قواها، وبهجتها واندفاعها، في مواجهة العقبات.

■ السكر كان السكين ، والقاتل هو الإمبراطورية

« البناء فوق السكر ، هل هو أفضل من البناء فوق الرمال ؟» هكذا تساءل جان - بول سارتر عام ١٩٦٠ ، في كوبا.

في مرفأ ميناء جوايا بال Guayabal ، الذي يصدر السكر غير المعبأ ، تحلق الطيور البحرية فوق سفينة ضخمة. أدخل وأتأمل ، مذهولاً ، هرماً مذهباً من السكر . وبقدر ما تتفتح فتحات التصريف ، من أسفل ، حتى تصب الانابيب المحولة ، دون تعبئة، نحو السفن ، بقدر ما تسكب فتحة السقف شلالات جديدة من الذهب ، من السكر المنقول للتو من مطاحن معامل التكرير. يتسرب ضوء الشمس ويضفي عليه تلألؤاً . حوالي أربعة ملايين دولار هي قيمة هذا الجبل الدافئ الذي أحسّه ولا يبلغ بصري حدوده. أفكر في أنه تتلخص هنا كل بهجة ودراما هذا المحصول القياسي لعام ١٩٧٠ الذي اراد ، ولم يستطع، رغم المجهود الذي يفوق طاقة البشر، أن يبلغ عشرة ملايين طن. وتتزلق مع السكر، أمام بصري، حكاية أطول بكثير. أفكر في مملكة شركة فرنسيسكو شوجار كومباني .Francisco Sugar Co ، وشركة ألين دولز، Allen Dulles ، حيث قضيت أسبوعاً استمع الي حكايات الماضي وأشهد مولد المستقبل: افكر في خو سفينا ، إبنة كاريداد رودر يجث Caridad Radriguez ، التي تدرس في قاعة كانت من قبل سجناً المعسكر، في نفس المكان بالضبط حيث سُجن والدها وعُذّب قبل أن يموت؛ في انطونيو باستيداس Antonio Bastidas ، الزنجي ذي السبعين عاماً، الذي تشعلق

زاد فجر هذا العام بكلتا قبضتيه في رافعة الصفارة لأن المعمل قد تجاوز المستهدف له في الغلة وصاح : «اللعنة !» «أنجزناه اللعنة !» ولم يكن ثمة من ينتزع الرافعة من يديه المرونقتين بينما الصفارة، التي كانت قد ايقظت القرية ، توقظ كوبا كلها! حكايات فقدان المأوى، والرشاوى، والاغتيالات، الجوع والاعمال التربية التي تخلقها البطالة، الاجبارية خلال نصف كل عام : مثلاً ، صيد العراصير بين الزراعات ، وأفكر في أن الشتاء له بطن منتفخة، الآن أعرف ذلك. من ماتوا لم يموتوا عبثاً : أما تشيو رودر يحث Amancio Rodriguez ، مثلاً، الذي اخترقته رصاصات كاسرى الاضراب خلال احد الاجتماعات، والذي كان قد رفض بغضب شيكاً على بياض من الشركة، وحين ذهب رفاقة ليدفنوه ، اكتشفوا انه لم يكن لديه سراويل داخلية ولا جوارب يحملها في تابوته ، أو بدرو بلازا Pedro Plaza ، مثلاً ، الذي اعتقل وهو في العشرين وقاد سيارة الجنود نحو الالغام التي كان قد زرعها بنفسه وتطايرت اشلاؤه مع السيارة والجنود، وآخرون كثيرون، في هذه القرية وفي كل القرى الاخرى : قال لي عامل سكر عجوز : «هنا تكن العائلات حباً كثيراً للشهداء ، لكن بعد موتهم. فقبل ذلك كانوا مجرد احتجاجات» . أفكر في أنه لم يكن من قبيل الصدفة أن يجند فيديل كاسترو ثلاثة أرباع مقاتليه من بين الفلاحين، عمّال السكر، وأن تكون مقاطعة أورينتي Oriente ، في آن واحد ، اكبر منبع للسكر وللانتفاضات في كل تاريخ كوبا . وأتفهم الحنق المتراكم : فبعد الحصاد الضخم لعام ١٩٦١ ، إختارت الثورة أن تنتقم من السكر. فقد كان السكر هو الذاكرة الحية للإذلال. فهل كان السكر قدراً ، كذلك؟ وهل تحول قهما بعد الى تكفير؟ وهل يمكنه الآن أن يصبح رافعة ، منصة انطلاق للتطور الاقتصادي ؟ وأمام تزايد نفاذ الصبر المشروع ، هدمت الثورة مساحات قصب عديدة وأرادت في غمضة عين ، تنويع الانتاج الزراعي : لم تقع في الخطأ التقليدي لتقسيم اللاتيفونديات الى قطع أرض صغيرة غير منتجة ، لكن كل ضيعة اشتراكية تولت على الفور زراعة مزروعات تزداد تنوعاً باستمرار. وكان لابد من الحصول على واردات واسعة النطاق من أجل تصنيع البلاد ، وزيادة الانتاجية الزراعية واشباع ضرورات استهلاكية كثيرة زادتها الثورة بدرجة كبيرة، عندما اعادت توزيع الثروة. وبدون الحصادات الكبيرة من السكر، من أين يمكن الحصول على العملات الصعبة اللازمة لتلك الواردات ؟ كذلك فإن تطوير صناعات التعدين، والنيكل بالدرجة الاولى، يتطلب استثمارات ضخمة ، يجرى توفيرها ، وقد تضاعف انتاج الاسماك ثماني مرات بفضل نمو الاسطول ، مما استلزم كذلك استثمارات ضخمة: ويجرى تنفيذ خطط

www.ibtesama.com/vb

ضخمة لانتاج المحميات، لكن السنوات التي تفصل بين البذار والمحصاد تجبر علم السير. عندئذ، اكتشفت الثورة أنها خلطت بين السكين وبين القاتل. فالسكر الذي كان عامل التخلف، أخذ يتحول الى أداة للتنمية، لم يكن هناك حل سوى استخدام ثمار الزراعة الاحادية والتبعية، التي توارثت عن الحاق كوبا بالسوق العالمية، من أجل تحطيم ظهر الزراعة الاحادية والتبعية.

ذلك أن الارباح التي يقدمها السكر لم تعد تستخدم في تدعيم بنية الخضوع [٣٤] وقد زادت واردات الالات والمنشئات الصناعية بنسبة حوالي أربعين في المائة منذ عام ١٩٥٨؛ والعائد الاقتصادي الذي يولده السكر يُعبأ من أجل تطوير الصناعات الاساسيا وحتى لا تبقى هناك أراض خالية ولاعمال محكوم عليهم بالبطالة. وحتى سقطت دكتاتورية باتيستا، كان في كوبا خمسة آلاف جرار زراعي وثلاثمائة الف سيارة، واليوم يوجد فيها خمسون الف جرار زراعي، رغم أنها تتلف بدرجة كبيرة بسبب أخطاء التنظيم الخطيرة، ومن ذلك الاسطول من السيارات، التي هي موديلات فاخرة في معظمها، لم يتبق سوى بضعة نماذج جديرة بمتحف الخردة. وقد نالت صناعة الاسمنت ومحطات الكهرباء دفعة مذهلة؛ وأتاحت مصانع المخصبات الجديدة أن تستخدم اليوم خمسة اضعاف الاسمدة التي كانت تستخدم عام ١٩٥٨. أما السدود، التي اقيمت في كل مكان، فتحتجز اليوم كمية من المياه تفوق اجمالي كميات المياه المخزونه عام ١٩٥٨ ثلاثاً وسبعين مرة [٣٥]. وزادت المساحة المروية بخطوات عملاقة. أما الطرق الجديدة، التي شُقت في كل أرجاء كوبا، فقد كسرت عزلة كثير من الاقاليم التي بدت وكانها محكوم عليها بالعزلة الابدية. ومن أجل زيادة الانتاج الضئيل من البان ما شبة اللبن، جلبت الى كوبا ثيران من فصيلة هولشتين، وبالتلقيح الصناعي، أنجب منها ثمانمائة الف بقرة مهجنة.

وقد تحقق تقدم ضخم في ميكنة قطع وغرس القصب، على أساس الإبتكارات الكوبية، إلى حد كبير، رغم أن ذلك ما زال غير كاف، ويجري، بصعوبة، وضع نظام جديد للعمل ليحل محل النظام القديم الذي فككته التغيرات التي أحدثتها الثورة. وقد أصبح قاطعوا القصب المحترفون، سجناء السكر، من ذكريات الماضي: فبالنسبة لهم ايضاً، تضمنت الثورة حرية اختيار اعمال أخرى أقل مشقة، وبالنسبة لأبنائهم، تضمنت امكانية الدراسة، من خلال المنح، في المدن. والثمن الحتمي لتحرير عمال القصب كان، بالتالي، اختناقات قاسية بالنسبة لاقتصاد الجزيرة. ففي عام ١٩٧٠،

www.ibtesama.com/vb

كان لابد لكوبا أن تستخدم ثلاثة أضعاف العمال في الحصاد ، وكان غالبيتهم متطوعين أو جنوداً أو عمالاً في قطاعات اخرى، مما اضر بالانشطة الاخرى في الريف والمدينة : أضيرت محاصيل منتجات أخرى ، وأضير ايقاع العمل في المصانع. ويجب أن نأخذ في الاعتبار، في هذا الصدد ، أنه في مجتمع اشتراكي ، بخلاف المجتمع الرأسمالي ، لم يعد العمال يتصرفون بدافع الخوف من البطالة أو بدافع الجشع. اذ يجب أن تعمل دوافع أخرى - منها التضامن ، والمسئولية الجماعية، واكتساب الوعي بالواجبات والحقوق التي تجعل الانسان يتجاوز الانانية. لكن وعي شعب بأكمله لا يتغير في لحظة. وحينما استولت الثورة على السلطة، حسب ما يقوله فيديل كاسترو ، لم تكن غالبية الكوبيين حتى معادية للإمبريالية.

لقد أخذ الكوبيون يزدادون جذرية مع ثورتهم ، بقدر ما تجرى التحديات والاستجابات، والضربات المضادة بين هافانا وواشنطن ، وبقدر ما أخذت وعود العدالة الاجتماعية تتحول الى حقائق ملموسة. وقد أنشئت مائة وسبعون مستشفى جديد وعيادات شاملة عديدة وأصبح العلاج الطبي مجانياً؛ وتضاعفت ثلاث مرات كمية الطلبة المسجلين في كل مستويات التعليم كما أصبح مجانياً؛ ويستفيد اليوم من المنح اكثر من ثلاثمائة الف طفل وشاب كما تضاعفت الاقسام الداخلية ورياض الاطفال. وهناك جزء كبير من السكان لا يدفعون ايجاراً لمساكنهم وقد أصبحت خدمات المياه ، والكهرباء، والتليفون ، والجنازات والعروض الرياضية كلها مجانية. وقد تضاعفت نفقات الخدمات الاجتماعية خمس مرات خلال سنوات قليلة. والان وقد اصبح لدى الجميع تعليم وأحذية، تتضاعف الاحتياجات بمتواليه هندسية بينما لا يستطيع الانتاج أن يتزايد إلا بمتواليه حسابية. إن ضغط الاستهلاك ، الذي اصبح الان استهلاك الجميع وليس استهلاك القلة، يجبر بدوره كوبا على زيادة صادراتها بسرعة ، ويظل السكر أكبر مصدر للموارد.

إن الثورة ، في الحقيقة ، تعيش أوقاتاً شاقة ، صعبة ، للانتقال والتضحية. وقد انتهى الكوبيون انفسهم الى تأكيد ان الاشتراكية تبُنى بالإصرار وأن الثورة ليست نزهة على الاطلاق. وفي نهاية المطاف ، فإن المستقبل لن يكون من نصيب هذه الارض لو جاء هدية. بالتأكيد، هناك نقص في منتجات مختلفة : وفي عام ١٩٧٠ ، هناك نقص في الفاكهة والثلاجات ، والملابس؛ والطوابير ، الشائعة جداً، ليست فقط نتيجة لسوء تنظيم التوزيع. فالسبب الرئيسي للنقص هو الزيادة الجديدة في المستهلكين : فالبلد الآن يخص الجميع والامر هنا يتعلق بنقص ذي دلاله مناقضة للنقص الذي تعانيه بلدان

www.ibtesama.com/vb

أمريكا اللاتينية الاخرى.

وفي نفس الاتجاه تعمل نفقات الدفاع. فكوبا مضطره لأن تنام وعيونها مفتوحة ، وهذا أمر باهظ التكلفة بدوره، بالتعبيرات الاقتصادية. هذه الثورة المُلاحقة ، التي توجب عليها أن تتحمل الغزو والتخريب دون توقف. لا تسقط لأن شعبها المسلح - هذه الدكتاتورية الغريبة - يدافع عنها. فمنتزعي الملكية الذين نزعت ملكيتهم لا يقبلون ما حدث. وفي ابريل عام ١٩٦١ ، لم تكن الكتيبة التي رست في بلايا خيرون Playa Giron مكونة فقط من الاعضاء السابقين في جيش ورواليس باتيستا ، بل كان فيها أيضاً ملاك اكثر من ٣٧٠ ألف هكتار من الاراضي ، ونحو عشرة الاف عمارة ، وسبعين مصنعاً ، وعشر معامل تكرير سكر، وثلاثة بنوك ، وخمسة مناجم وإثني عشر كباريه. وقد منح دكتاتور جواتيمالا، ميجيل يديجوراس Miguel Ydigoras أعضاء الحملة معسكرات تدريب مقابل الوعود التي قدمها له الامريكيون الشماليون ، حسب اعترافه هو فيما بعد: نقود عداً ونقداً ، لم يدفعوها ابداً ، وزيادة في حصة جواتيمالا من السكر في سوق الولايات المتحدة.

وفي عام ١٩٦٥ ، قاسى بلد آخر منتج للسكر ، هو جمهورية الدومينيكان ، من غزو نحو أربعين الفاً من جنود المارينز * مستعدين «للبقاء الى أجل غير مسمى في هذا البلد ، نظراً للاضطراب السائد» ، كما اعرب قائدهم ، الجنرال بروس پالمر Bruce Palmer . كان السقوط الحاد في اسعار السكر أحد العوامل التي فجرت السخط الشعبي : هب الشعب ضد الدكتاتورية العسكرية ولم تتأخر القوات الامريكية الشمالية في اعادة النظام. وقد خلفوا أربعة آلاف قتيل في المعارك التي شنها الوطنيون، جسداً لجسد ، بين نهر أوثاما والبحر الكاريبي ، في حي بائس من أحياء سانتو دومينجو [٣٦]. وقد قامت منظمة الدول الامريكية - التي تتمتع بذاكرة جحش ، لأنها لا تنسى ابداً أين تأكل - قامت بمباركة الغزو ودعمته بقوات جديدة. كان لابد من قتل جرثومة كوبا أخرى.

* المارينز : مشاة البحرية في الولايات المتحدة - م.

مبيد في الكاريبي ،
وات ومدافع واشنطن

تخلف هو قزم ذو رأس ضخمة وبطن منتفخة : لاتنسجم قصيرتان مع بقية جسمه. كانت هافانا تتلألأ ، وتنطلق في سيارات الكاديلاك ، وفي أكبر كباريه في العالم تتهادى ، أجمل النجمات Vedettes ؛ بينما في الريف الكوبي ، كان ل زراعيين يشرب اللبن ، ويستهلك اللحوم أربعة في المائة س القومي للإقتصاد ، كان ثلاثة أخماس العمال الريفيين ف المعيشة بثلاث أو أربع مرات.

م فقط ، فقد انتج العمالقة أيضاً ، أو على الأقل ، أسهم سكر خط الاستواء الأمريكي اللاتيني لدم دفعة قوية لتراكم الصناعي لإنجلترا ، وفرنسا ، وهولندا ، وكذلك الولايات شوه فيه اقتصاد الشمال الشرقي البرازيلي واقتصاد التاريخي لإفريقيا. وكان العصب الرئيسي للتجارة الثلاثية ، وأمريكا ، هو تجارة العبيد الموجهين إلى مزارع السكر Augusto Cochi : « إن تاريخ حبة سكر هو درس كامل

أرباح شركة غينيا ، التي تأسست سنة ١٧٠١ ، لجلب العبيد الى امريكا ، وكانت لدى وزيره كولبير Colbert ، خالق التصنيع الفرنسي ، دوافع تجعله يؤكد أن تجارة العبيد «مطلوبة من أجل تقدم البحرية التجارية القومية» (٣٧).

قال آدم سميث أن اكتشاف أمريكا «رفع النظام المركنتيلي الى درجة من البهاء والمجد لم يكن ليبلغها أبداً بدون ذلك». ووفقاً لما يقوله سيرخيو باجو، فإن أعظم محرك لتراكم رأس المال المركنتيلي الأوربي كان العبودية الامريكية؛ وكان هذا الرأسمال ، بدوره «حجر الزاوية الذي تأسس عليه الرأسمال الصناعي الهائل للأزمنة المعاصرة» (٣٨). فقد كان لانبعاث العبودية الإفريقية - الرومانية في العالم الجديد خصائص عجيبة ؛ فقد ضاعف السفن ، والمصانع، والسكك الحديدية ، والبنوك في بلدان لم تكن هي مصدر، ولا، باستثناء الولايات المتحدة، غاية العبيد الذين يعبرون المحيط. وبين مولد القرن السادس عشر ونهاية القرن التاسع عشر، عبر المحيط عدة ملايين من الافارقة ، لا يعرف عددهم؛ لكن المعروف أنهم كانوا أكثر بكثير من المهاجرين البيض، القادمين من أوربا، رغم أن من بقوا منهم على قيد الحياة كانوا أقل بكثير، بطبيعة الحال. ومن نهر البوتوماك الى نهر الريودي لابلاتا ، شيد العبيد منازل سادتهم ؛ وقطعوا الغابات ، وقطعوا وعصروا قصب السكر ، وزرعوا القطن ، وغرسوا الكاكاو ، وحصدوا البن والتبغ، ونقبوا مجاري الانهار بحثاً عن الذهب. كم هيروشيما تعادل إباداتهم المتعاقبة ؟ كما قال مزارع انجليزي من جامايكا ، « من الاسهل شراء الزنوج عن تربيتهم». وبحسب كايو برادو Caio Prado أنه حتى بدايات القرن التاسع عشر، كان قد وصل الى البرازيل ما بين خمسة وستة ملايين من الافارقة؛ حينئذ، كانت كوبا سوقاً ضخمة للعبيد تعادل ما كانه، من قبل ، كل نصف الكرة الغربي (٣٨).

هناك، حوالي عام ١٥٦٢ ، انتزع الكابتن جون هوكينز John Hawkins وهرّب ثلاثمائة زنجي من غينيا البرتغالية. وغضبت الملكة ايسابل ، وقالت «هذه المغامرة تستنزل انتقام السماء». لكن هوكينز أخبرها أنه في مقابل العبيد ، حصل في الكاريبي على حمولة من السكر والجلود. واللآلئ والزنجبيل. فعفت الملكة عن القرصان ، وتحولت الى شريكته في التجارة. وبعد ذلك بقرن من الزمن ، كان دوق يورك يختم بالحديد المحمّى الحرفين الاولين من اسمه، DY ، على الإليه اليسرى أو على صدر الثلاثة آلاف زنجي الذين تقتادهم شركته سنوياً الى «جزر السكر». وكانت الشركة الملكية الافريقية، التي يظهر بين مساهميها الملك كارلوس الثاني، تعطي أرباحاً قيمتها ثلاثمائة في المائة، رغم

www.ibtesama.com/vb

أنه من بين ٧٠ ألف عبد شحنتهم بين عامي ١٦٨٠ و١٦٨٨ ، لم يبق حياً بعد عبور المحيط سوى ٤٦ ألفاً . فخلال الرحلة ، كان يموت أفارقة عديدون ضحية للأوبئة أو لسوء التغذية ، أو ينتحرون برفض الطعام ، أو يشنقون أنفسهم بسلاسلهم، أو يلقون أنفسهم من السفينة الى المحيط المزروع بزعانف اسماك القرش. وببطء لكن بحزم ، أخذت انجلترا تقوض هيمنة الهولنديين على تجارة العبيد. وكانت شركة بحر الجنوب South Sea Co. هي المستفيدة الاساسية من «حق الاقامة» الممنوح للإنجليز من اسبانيا ، وكان يرتبط بها ابرز شخصيات السياسة والتمويل في انجلترا ، فقد كانت التجارة تفوق كل ما عداها ، واصابت بورصة الاوراق المالية في لندن بالجنون واشعلت مضاربة خرافية.

لقد رفع نقل العبيد ميناء بريستول، الذي كان مقراً لعمال الترسانة ، إلى مصاف ثاني مدن انجلترا، وحوّل ليفربول الى اكبر ميناء في العالم. كانت السفن تقلع ومخازنها محمله بالاسلحة، والمنسوجات، والجن، والروم، والتوافه والزجاج الملون ، التي ستكون وسيلة دفع ثمن البضاعة البشرية في أفريقيا، والتي سيكون ثمنها بدورها هو السكر، والقطن، والبن، والكاكاو من المزارع الاستعمارية الامريكية. وفرض الانجليز سيطرتهم على البحار. وعند أواخر القرن الثامن عشر، كانت افريقيا والكاريبي يوفران عملاً لمائه وثمانين ألف عامل نسيج في مانشستر؛ ومن شيفيلد كانت تاتي السكاكين، ومن برمنجهام، ١٥٠ الف بندقية سنوياً (٤٠). وكان الزعماء الافارقة يتلقون بضائع الصناعه البريطانية ويسلمون حمولات العبيد الى قباطنه تجارة العبيد. وبهذه الطريقة، كانوا يحصلون على اسلحة جديدة وروم وغير من أجل جولات الإصطياد الجديدة في القرى. كذلك كانوا يقدّمون العاج، والشموع، وزيت النخيل. وكان كثير من العبيد يأتون من الغابة ولم يروا البحر أبداً؛ وكانوا يحسبون هدير المحيط زئير وحش مغمور ينتظر أن يلتهمهم أو يعتقدون، حسب شهادة أحد تجار تلك الفترة ، وهم في ذلك على حق بمعنى معين ، أنهم «سيقتادون مثل الكباش الى المذبح، لأن الاوربيين يقدرون لحمهم جداً (٤١)». ولم تكن السياط ذات السبع شعب تفيد كثيراً في احتواء اليأس الانتحاري لدى الافريقيين.

كانت «العُزّم» التي تنجو من الجوع ، والامراض ، وتكدّس السفن ، تعرّض في الأسمال ، جلداً على عظم ، في الميدان العام ، بعد أن تمر في استعراض عبر الشوارع ذات الطراز الاستعماري على أنغام موسيقى القرب. أما من يصلون الى الكاريبي وقد بلغ منهم الارهاق مبلغه فيمكن تسمينهم في مستودعات العبيد قبل جعلهم يلمعون تحت عيون المشترين؛ أما المرضى فيتركون ليموتوا في المرافئ.

www.ibtesama.com/vb

وكان العبيد يباعون نقداً أو بكمبيالات مدتها ثلاث سنوات، وكانت السفن تقلع عائدةً الى ليفربول حاملة مختلف المنتجات الاستوائية : وفي بدايات القرن الثامن عشر، كان ثلاثة أرباع القطن الذي تغزله صناعه النسيج الانجليزية يأتي من جزر الانتيل ، رغم أن جورجيا ولويزيانا ستصبحان فيما بعد مصدرها الاساسي؛ وفي أواسط القرن، كان هناك مائة وعشرون مصنع لتكرير السكر في انجلترا.

في تلك الحقبة ، كان باستطاعه الانجليزى أن يعيش بحوالي سته جنيهات في السنة؛ لكن تجار العبيد في ليفربول كانوا يحصلون علي أرباح سنوية تزيد عن مليون ومائة ألف جنيه، إذا حسبنا فقط النقود التي يحصلون عليها من الكاريبي وبدون اضافة ارباح التجارة الاضافية ، وكانت عشر شركات كبيرة تتحكم في ثلثي التجارة، وافتتحت ليفربول نظاماً جديداً لارصفة السفن؛ فقد ازداد بناء السفن ، وازدادت السفن طولاً وحمولة ، وكان الصاغة يقدمون «أقفالاً وأطواقاً من الفضة للزنوج والكلاب» ، وكانت السيدات الانيقات تظهرن بين الناس مصحوبات بقرد تكسوه سترة مطرزة وطفل عبد ، بعمامة وسروال فضفاض من الحرير. وقد وصف إحد الاقتصاديين في ذلك الوقت تجارة العبيد بأنها «المبدأ الاساسي والرئيسي لكل ماعداها؛ مثل الزنبرك الرئيسي الماكينة الذي يحرك كل ترس من تروس المجموعة» . انتشرت البنوك في ليفربول ، ومانشستر ، وبريستول ، ولندن ، وجلاسجو؛ وتراكمت أرباح شركة لويدز للتأمين بالتأمين على العبيد، والسفن، والمزارع. ومنذ وقت مبكر جداً ، كانت اعلانات صحفية لندن جازيت London Gazette تشير الى أن العبيد الفارين يجب أن يسلموا الى شركة لويدز. وبأرصدة تجارة العبيد أقيمت سكك حديد الغرب الانجليزية الضخمة وولدت صناعات مثل مصانع الاردواز في ويلز . إن رأس المال المتراكم من التجارة الثلاثية - المنتجات المصنعة ، والعبيد ، والسكر - قد اتاح اختراع الآله البخارية : فقد دعم جيمس وات تجار كونوا ثرواتهم بهذه الطريقة. ويؤكد إريك ويليامز Eric Williams ذلك في دراسته الموثقة حول هذا الموضوع.

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر ، تحولت بريطانيا الى المحرك الاساسي للحملة ضد تجارة العبيد. فقد اصبحت الصناعة الانجليزية بحاجة الى اسواق دولية لها قوة شرائية أكبر، مما إضطرها إلي تعميم نظام الاجور. علاوة علي ذلك، فإنه مع اقامة نظام الاسعار في مستعمرات الكاريبي الانجليزية، استعاد السكر البرازيلي، الذي تنتجه الايدى العاملة من العبيد، بعض المزايا بسبب تكاليفه المنخفضة نسبياً [٤٢]. إنطلقت

البحرية البريطانية تهاجم سفن تجارة العبيد، لكن التجارة ظلت تنمو لتزويد كوبا والبرازيل. وقبل أن تصل السفن الحربية الانجليزية الى سفن القراصنة، كان العبيد يلقون في الماء : وفي الداخل لم تكن تتبقى سوى الرائحة ، وأواني الطهي الساخنة ، وقبطان يموت من الضحك في كمه ، ورفع قمع الإتجار الاسعار وزاد الارباح بشكل كبير، وفي منتصف القرن ، كان التجار يعطون بندقية قديمة مقابل كل عبد قوي ينتزع من افريقيا ، ليعيدو بيعه في كوبا بأكثر من ستمائة دولار.

كانت جزر الكاريبي الصغيرة أهم ، لانجلترا ، بكثير من مستعمراتها الشمالية. وقد حظرت على باربادوس ، وجامايكا ، ومونتسرات Montserrat أن تصنع بنفسها إبره أو حدوة حصان، وكان وضع نيو إنجلند مختلفاً تماماً ، مما سهل تطورها الاقتصادي ، وكذلك استقلالها السياسي.

ومن المؤكد أن تجارة الزنوج في نيوإنجلندا كانت مصدر جزء كبير من راس المال الذي سهل الثورة الصناعية في الولايات المتحدة الامريكية . فعند منتصف القرن الثامن عشر، كانت سفن تجارة العبيد الشمالية تحمل من بوسطن، ونيوبورت، أو برفيدنس براميل مملوءة بالروم الى سواحل افريقيا؛ وفي افريقيا تستبدلها بالعبيد؛ وتبيع العبيد في الكاريبي وتحمل المولاس من هناك الى ماساشوستس ، حيث يقطّر ويحوّل الى روم، لتكتمل الدورة. كان افضل روم في جزر الانتيل ، وهو الوست إنديان روم West Indian Rum ، لا يصنّع في جزر الانتيل .

وبدون الاموال المجلوبة من تجارة العبيد هذه ، أقام الاخوة بروان Brown ، من بروفيدنس ، فرن الصهر الذي أمد الجنرال جورج واشنطن بالمدافع من أجل حرب الإستقلال [٤٢]. أما مزارع السكر في الكاريبي ، والمحكوم عليها بالزراعة الاحادية للقصب ، ، فلا تستطيع فحسب أن تعتبر نفسها المركز الفعال لتطور «المستعمرات الثلاث عشرة» بسبب الدفعة التي اعطتها تجارة العبيد لصناعه السفن ولمعامل تقطير نيوإنجلند . بل إنها كذلك كانت تمثل السوق الكبيرة لتطوير الصادرات من الاغذية ، والاخشاب، ومختلف الادوات الموجهة الى معامل التكرير، مما أتاح جدوى اقتصادية للاقتصاد الزراعي والصناعي الواعي لشمال الاطلنطي. وإلى حد كبير، كانت السفن المصنوعة في ترسانات المستعمرين الشماليين تحمل الى الكاريبي اسماكاً طازجة ومدخنة، وشوفاناً وحبوباً، وفاصوليا ، ودقيقاً، وزبداً ، وجبناً ، وبصلاً ، وخيولاً وثيران، وشموعاً وصابون، ومنسوجات ، والواحاً من خشب الصنوبر والسنديان والارز من أجل

www.ibtesama.com/vb

صناديق السكر (وقد نالت كوبا أول منشار بالبخار يصل الى امريكا الاسبانية لكنها لم تكن تملك الخشب الذي يقطعه) وأضلاع براميل وأطواقها ، وحلقات ، ومسامير.

هكذا جرى تفريغ الدم خلال كل هذه العمليات وتطورت البلدان المتطورة في أيامنا، وتخلفت البلدان المتخلفة.

■ قوس قزح هو طريق العودة إلى غينيا

في عام ١٥١٨ ، كتب المحامي الونسو ثواثو Alonso Zuazu الى كارلوس الخامس من الدومينيكان يقول : «إن الخوف من أن يتمرد العبيد عبث؛ وثمة أرامل في جزر البرتغال هانئات جداً ومعهن ثمانمائة عبد؛ الامر كله يتلخص في كيف يُساسون. لقد وجدت عند وصولي بعض الزنوج العنيدين ، وآخرين هربوا الى الجبل؛ فجلدت بعضهم ، وقطعت آذان آخرين؛ ولم تعد تحدث متاعب . وبعد أربع سنوات اندلعت أول انتفاضة للعبيد في أمريكا : كان عبيد دييجو كولومبس Diego Colon ، إبن مكتشف امريكا ، هم أول من ثاروا وإنتهى بهم الامر الى أن علقوا في المشانق في ممرات معمل تكرير السكر [٤٤]. وتلت ذلك تمردات أخرى في سانتو دومينجو ثم في كل جزر السكرّ بالكاريبي، وبعد قرنين من انتفاضة دييجو كولومبس، وفي الطرف الاخر لنفس الجزيرة، هرب العبيد الفارون الى اعلى مناطق هايتي وأعادوا اقامة الحياة الافريقية في الجبال : اعادوا زراعه الغذاء، وعبادة الارباب والعادات. ومازال قوس قزح ، في الوقت الحاضر ، يشير الى طريق العودة الى غينيا بالنسبة لشعب تاهيتي. وفي سفينة ذات شراع ابيض ... في جويانا الهولندية، عبر نهر كورانتين، ومازالت باقية منذ ثلاثة قرون تجمعات زنوج الدجوكا Djukas ، المنحدرين من سلالة العبيد الذين فروا عبر غابات سورينام. في هذه القرى، ما زالت هناك «مصاريب مماثلة لمصاريب غينيا، وتجرى رقصات وإحتفالات يمكن أن تتم في غانا ، وتستخدم لغة الطبول الشديدة الشبّه بطبول الأشانتي» [٤٥]. وقد وقع أول تمرّد كبير للعبيد في جويانا بعد مائة عام من فرار زنوج الدجوكا : وقد استعاد الهولنديون المزارع وأحرقوا على نار هادئة زعماء العبيد. لكن قبل زمن من فرار زنوج الدجوكا ، كان عبيد البرازيل الابقين قد نظموا مملكة بالمارس Palmares الزنجية، في الشمال الشرقي البرازيلي، وقاوموا ظافرين، طوال

www.ibtesama.com/vb

القرن السابع عشر، حصار عشرات الحملات العسكرية التي جربها الهولنديون والبرتغاليون، الواحدة تلو الاخرى، لإسقاط هذه المملكة. كانت هجمات الاف الجنود بلاجدوى فى مواجهة تكتيكات محاربى العصابات التي جعلت هذا الملاذ الرهيب منيعاً، حتى عام ١٦٩٣. كانت مملكة پالمارس المستقلة - هذه الدعوة الى التمرد، وراية الحرية - قد نظمت كدولة «على غرار الدول الكثيرة التى كانت توجد فى افريقيا خلال القرن السابع عشر» [٤٦]. وامتدت من المناطق المجاورة لكابودى سانتو أجوستنييو Cabo De Santo Agostinho، فى برنامبوكو Pernambuco، حتى المنطقة الشمالية لنهر سان فرنسيسكو، فى الاجواس Alagoas: وكانت تعادل ثلث اراضى البرتغال ويحوطها حزام كثيف من الغابات البدائية. وكان الزعيم الاعلى يختار من بين اكثرهم مهارة وحكمة: كان يحكم من يتمتع «بأوفر منزلة وسعادة فى الحرب أو فى القيادة» [٤٧]. فى قمة حقبة مزارع السكر الكلية القدرة، كانت پالمارس هى الركن الوحيد فى البرازيل الذى تتطور فيه زراعة محاصيل متعددة. على هدى خبرتهم التى اكتسبوها بأنفسهم أو أكتسبها اسلافهم فى المراعى أو فى الغابات الاستوائية الافريقية، كان الزنوج يزرعون الذرة، والبطاطا، والفاصوليا، والمنيهوت، والموز وأغذية اخرى. ولم يكن عبثاً أن يبدو تدمير المزروعات كأنه الهدف الرئيسى للقوات الاستعمارية التى تحاول استعادة أولئك الرجال الذين هربوا من المزارع بعد أن عبروا المحيط والسلاسل فى اقدامهم.

كان وفرة الاغذية فى پالمارس تتناقض مع الندرة التى تعانى منها مناطق زراعه السكر الساحلية، فى ذروة الرخاء. كان العبيد الذين ظفروا بحريتهم يدافعون عنها ببراعة وشجاعة لانهم يقتسمون ثمارها: فقد كانت ملكية الأرض مشاعية ولم يكن فى دولة الزنوج نقود. ولاتوجد فى تاريخ العالم أى ثورة عبيد ممتدة قدر إمتداد ثورة پالمارس. فقد دامت ثورة سبارتاكوس، التى هزت أهم نظم العبودية فى العالم القديم، ثمانية عشر شهراً [٤٨]. ومن أجل المعركة الفاصلة حشد التاج البرتغالى أكبر جيش شهدته البلاد حتى استقلال البرازيل بعد ذلك بزمن طويل.

ولقد دافع من آخر حصون پالمارس مالا يقل عن عشرة آلاف شخص؛ وقطعت نفوس من بقوا منهم على قيد الحياه، أو قُذف بهم من حالق، أو بيعوا لتجار ريودى جانيرو وبوينوس آيرس. وبعد عامين وقع الزعيم زومبي Zumbi، بفعل الخيانة، وهو من يعتبره العبيد خالداً. حوصر فى الغابة وقطعت رأسه. لكن التمردات استمرت. وأن يمر وقت طويل قبل أن يعود الكابتن بارتولوميو بوينو دو برادو Bartolomeu Bueno Do

www.ibtesama.com/vb

من نهر داس مورتش Das Mortes محملاً بغنائم الانتصار على انتفاضة جديدة Prado للعبيد ، ويحضر معه ثلاثة آلاف وتسعمائة زوج من الآذان محملة على ظهور الخيول.

كذلك جرت الانتفاضات في كوبا. وكان بعض العبيد ينتحرون في جماعات ويسخرون بذلك من السيد «بإضرابهم الأبدي وفرارهم الذي لا ينتهي في العالم الآخر» كما يقول فرناندو أورتيث Fernando Ortiz . وكانوا يعتقدون أنهم، بهذه الطريقة، يبعثون بجسمهم وروحهم ، في إفريقيا. فكان السادة يشوهون الجثث، حتى يبعثوا خصياناً، أو مقطوعي اليد أو الرأس ، وعلى هذا النحو يتخلى الكثيرون عن فكرة الانتحار. وحوالي عام ١٨٧٠ ، حسب الرواية المدينة لعبدٍ هرب في شبابه الى جبال لاس بياس Las Villas ، لم يعد العبيد ينتحرون في كوبا. ومن طريق حزام سحري، «أخذوا يطيرون، يطيرون في السماء ويلقون أرضهم» أو يضيعون في الجبال لان «أي شخص يتعب من الحياة، ومن يتعودون تكون روحهم رخوة. كانت الحياه في الجبل افضل» (٤٩).

ظلت الآلهة الافريقية حيّة بين عبيد أمريكا مثلما بقيت حيةً، بفعل الحنين ، أساطير وخرافات الاوطان الضائعة. ومن الواضح أن الزنوج عبّروا بهذا النحو ، في احتفالاتهم، وفي رقصهم ، وفي ضراعاتهم، عن ضرورة تأكيد هويّة ثقافية كانت المسيحية تنكرها. لكنهم لابد وأنهم قد تأثروا كذلك بحقيقة أن الكنيسة مرتبطة مادياً بنظام الاستغلال الذي يعانون منه.

وفي أوائل القرن الثامن عشر، بينما كان عبيد الجزر الانجليزية المدانون في جرائم يموتون سحقاً بين رحى معاصر السكر ، وفي المستعمرات الفرنسية يُحرقون أحياء أو يعذبون مقيدين الى العجلات، صاغ الراهب الجزويتي أنطونيل Antonil نصائح رقيقة لاصحاب معامل السكر في البرازيل ، حتى يتجنبوا مثل هذه التجاوزات : «لايجب أن يوافق المديرون بحال على الضرب بالشلوت خصوصاً في بطن النساء الحوامل أو على ضرب العبيد بالهراوات، لأن الغضب يعمي عن الضرب بتعقل ويمكن أن يُجرح عبد كفء، يساوي مبلغاً كبيراً، في رأسه، وتفقده» (٥٠). وفي كوبا ، كان رؤساء العمال يجلدون بسياطهم المصنوعه من الجلد أو القنب ظهور العبيد من النساء الحوامل اللاتي ترتكبن خطأ ، لكن بعد أن يطرحوهن على بطونهن، والبطن مستقرة في حفرة، حتى لا يفسدوا «القطعة» الجديدة التي مازالت تتشكل. أما الكهنة، الذين يتلقون خمسة في المائة من انتاج السكر كضريبة عشور، فقد منحوا غفرانهم المسيحي : فرئيس العمال يعاقب الخطاة مثل يسوع المسيح. وقد نشر القاصد الرسولي خوان بريينيا إي بيمنات Juan

www.ibtesama.com/vb

Perpin`a y Pibernat مخاطبة الزنوج «أيها التعساء ! لا تفزعوا من أن تكون العقوبات التي عليكم أن تعانوها بوصفكم عبيداً كثيرة. فقد يكون جسدكم عبداً : لكن روحكم حرة لتطير ذات يوم الى دار المختارين السعيدة» (٥١).

إن رب المنبوذين ليس هو دائماً نفس رب النظام الذي يجعلهم منبوذين. ورغم أن الديانه الكاثوليكية تضم ، حسب المعلومات الرسمية ، نسبة ٩٤ في المائة من سكان البرازيل ، فإن السكان الزنوج يحتفظون ، في الواقع ، بتقاليدهم الافريقية حية كما تواصل الحياة عقيدتهم الدينية، متخفيةً في الأغلب خلف التصاوير المقدسة في المسيحية.(٥٢). وتُصادف العقائد ذات الجذور الافريقية انتشاراً واسعاً بين المضطهَدين - مهما كان لون جلدهم. ونفس الشئ يحدث في جزر الانتيل. فآلهة الفودو `Vudu في هايتي، وآلهة البيمبيه `Bembe في كوبا والأومباندا Umbanda والكيمباندا quimbanda في البرازيل ما زالت نفس الآلهة، برغم التحولات التي طرأت، بدرجة أو بأخرى، على الطقوس والآلهة الاصلية، منذ انتقالها الى الاراضي الامريكية. وفي الكاريبي وفي اقليم باهيا Bahia ينشدون الاناشيد الاحتفالية بلغات الناجو Nago ، واليوروبا Yoruba ، والكونغو Congo ، وغيرها من اللغات الافريقية. وفي ضواحي المدن الضخمة جنوبي البرازيل، في المقابل ، تسود اللغة البرتغالية ، لكن نبتت من شاطئ غرب افريقيا آلهة الخير والشر التي عبرت القرون لتتحول الى الاشباح المنتقمة للمنبوذين، اولئك البشر المهانين الذين يتضرعون في فافيلات Favelas * ريودي جانيرو صارخين :

ياقوة باهيا ،

أيتها القوة الإفريقية ،

أيتها القوة الإلهية ،

تعالي .

* فافيلا Favela : هي الأحياء البائسة من عشش الصفيح، وعادة ما تشكل ما يسمى بحزام الفقر حول المدن الكبيرة وتضم الهامشيين وقاع السلم الإجتماعي - م.

www.ibtesama.com/vb

■ تعالي لتساعدينا.

بيـــع الفلاحـــين

في عام ١٨٨٨ إلغي الرق في البرازيل ، لكن لم يتم الغاء اللاتيفونديا وفي نفس هذا العام كتب أحد الشهود من شيارا `Ceara يقول : « ظلت سوق الماشية الآدمية مفتوحة طالما استمر الجوع ، فهناك دائماً كثير من المشترين، وكان من النادر أن يتصاعد دخان ولايجذب عدداً كبيراً من اهالي شيارا » (٥٣). وقد هاجر نصف مليون من أهالي الشمال الشرقي إلي منطقة الأمازون، سعياً وراء سراب المطاط، حتي مطلع القرن؛ ومنذ ذلك الحين استمرت الهجرة ، بدافع نوبات الجفاف الدورية التي دمرت السرتون وبدافع الموجات المتتالية لتوسع لاتيفونديات السكر لمنطقة القصب .

وفي عام ١٩٠٠ هجر شيارا أربعون الفاً من ضحايا الجفاف، وسلكوا الطريق المعتادة حينئذ : طريق الشمال باتجاه الغابة. وقد تغير المسار فيما بعد ، ففي أيامنا يهاجر سكان الشمال الشرقي الي وسط وجنوب البرازيل. وقد قذف جفاف عام ١٩٧٠ بأفواج من الجوعى على مدن الشمال الشرقي. فنهبوا القطارات والمتاجر؛ وهم يضرعون الي القدس خوسيه صارخين أن يسقط المطر. إنطلق « المجلوبون » الي الطرق. وتنقل برقية في ابريل عام ١٩٧٠ أن : شرطة ولاية برنامبوكو اعتقلت يوم الاحد الماضي، في بلدية بيليم دوسان فرنسيسكو Bele`n do Sa`o Franciso ، ٢١٠ فلاحاً سوف يباعون لملاك زراعيين من ولاية ميناش جيرايش بسعر ثمانية عشر دولاراً للرأس» (٥٤). والفلاحون من پارايبا Paraiba وريو جراندي دونورتي Rio Grande do Norte ، وهما اشد الولايات تضرّراً من الجفاف. وفي يونيو ، نقلت البرقيات تصريحات رئيس الشرطة الفيدرالية : فإدارته لا تملك بعد الوسائل الفعالة من أجل وضع نهاية لتجارة العبيد ، ورغم أنه خلال الشهور الاخيرة بدأت عشر عمليات تحقيق ، مازال بيع عمال الشمال الشرقي مستمراً للملاك الاغنياء في المناطق الاخرى من البلاد .

تضمّن ذيوع Boom المطاط وصعود البن فيالق ضخمة من عمال الشمال الشرقي. لكن الحكومة كذلك تستفيد من هذا الفيضان من الايدي العاملة الرخيصة ، فهو جيش احتياطي ضخم من أجل الاشغال العامة الكبيرة . ومن الشمال الشرقي قدم ، مُساقين كالماشية ، الرجال العراة الذين شيدوا في يوم وليلة مدينة برازيليا في قلب الصحراء. هذه المدينة ، أحدث مدينة في العالم ، يحوطها الان حزام فقر مريض : فبعد انتهاء

عملهم ألقى الكاندانجوس Candangos الى الاحياء الهامشية. وفي هذه الاحياء يعيش على فضلات العاصمة المتلألئة ثلاثمائة الف من اهالي الشمال الشرقي ، مستعدون على الدوام لأى خدمة.

والان يفتح العمل العبودي لأهالي الشمال الشرقي الطريق العظيم عبر الامازون ، الذي سيقسم البرازيل الى قسمين ، مخترقاً الغابة حتى الحدود مع بوليفيا. كما تتضمن الخطة مشروعاً للاستيطان الزراعي من أجل مد «حدود الحضارة». فسوف ينال كل فلاح عشر هكتارات من الارض ، اذا نجى من صنوف الحمّى الاستوائية في الغابات. وفي الشمال الشرقي هناك ستة ملايين من الفلاحين المعدمين ، بينما يملك خمسة عشر الف شخص نصف المساحة الاجمالية. ولا يطبق الاصلاح الزراعي في الاقاليم المأهولة فعلاً ، حيث يظل حق اللاتيفونديين في الملكية مقدساً ، بل يطبق في قلب الغابة. ويعني هذا أن «المطرودين» من الشمال الشرقي سوف يفتحون الطريق أمام توسع اللاتيفوندية فوق مساحات جديدة. بدون رأس مال وبدون وسائل عمل ماذا تعني عشرة هكتارات على بعد ألفين أو ثلاثة آلاف كيلو متر من مراكز الاستهلاك ؟ ويستخلص من هذا أن الاهداف الحقيقية للحكومة مختلفة تماماً : هي تقديم أيد عاملة للاتيفونديين الامريكيين الشماليين الذي اشتروا أو اغتصبوا نصف الاراضي شمالي نهر الريو نجرو Rio Negro وكذلك لشركة يونايتيد ستيتس ستيل United States Steel Co. ، التي تلقت من يد الجنرال جراستازو ميديش Garrastazu` M'edici المنابع الثرية للحديد والمنجنيز في الامازون(٥٥).



دورة المطاط : كاروزو يفتتح مسرحاً ضخماً في قلب الغابة

يُقدّر بعض المؤلفين أن ما لا يقل عن نصف مليون من أهالي الشمال الشرقي قد راحوا ضحية للأوبئة ، والملاريا ، والسُل أو مرض البرى برى خلال فترة إزدهار المطاط. «أن هذا الكوم المشئوم من العظام ، كان هو ثمن صناعة المطاط»(٥٦). دون أي رصيد من الفيتامينات ، كان فلاحو الاراضي الجافة يقومون بالرحلة الطويلة صوب الغابة الرطبة ، وهناك، في مزارع المطاط المليئة بالبرك ، كانت تنتظرهم الحُمى . ثم يمضون مزدحمين

www.ibtesama.com/vb

في مستويات السفن في ظروف تجعل الكثيرين ينهارون قبل أن يصلوا؛ على هذا النحو ، كانوا يستبقون مصيرهم القريب. وكان آخرون لا يبلغون حتى حد ركوب السفن. وفي عام ١٨٧٨ ، ومن بين سكان شيارا الثمانمائة الف، مضى صوب الامازون ١٢٠ الفاً، لكن لم يصل الى هناك سوى اقل من نصفهم؛ وأخذ الباقون يتساقطون، بفعل الجوع أو المرض ، في طرق السرتاون أو في ضواحي فورتاليزا Fortaleza [٥٧]. وقبلها بعام ، كانت قد بدأت واحدة من كوارث الجفاف السبعة الكبرى بين تلك التي اصابت الشمال الشرقي خلال القرن الماضي .

وليست الحمى وحدها ما ينتظرهم؛ فكذلك ينتظرهم في الغابة نظام عمل شديد الشبه بالعبودية. كان الاجر يُدفع عيناً – في شكل لحم مجفف ، ودقيق منيهوت، وسكر أسمر ، وروم – حتى يسدد جامع المطاط (سرينجيرو) Seringuiro ديونه ، وهي معجزة نادراً ما تحدث. وكان هناك اتفاق بين اصحاب الشركات على الا يعطوا عملاً للعمال الذين ما زالت عليهم ديون؛ وكان الحرس الريفيون، الموزعين علي حواف الأنهار، يطلقون النار على الفارين. كانت الديون تتراكم فوق الديون، فإلى الدين الاصلي مقابل جلب العامل من الشمال الشرقي ، يضاف الدين مقابل أدوات العمل، المنجل، والسكين، والدلاء ، ولما كان العامل يأكل، بل يشرب في المقام الاول، فلم يكن الروم شحيحاً في مزارع المطاط ، فقد كان الدين الذي يتراكم عليه يكبر بقدر اقدميته في العمل. ولأنهم أميون، كان أهالي الشمال الشرقي يعانون دون دفاع من أحابيل التلاعب في حسابات المديرين.

كان بريستلي Priestley قد لاحظ، حوالي عام ١٧٧٠ ، أن المطاط يمحوا آثار القلم الرصاص من الورق. وبعد ذلك بسبعين سنة ، اكتشف تشارلز جوديير Charles Goodyear والانجليزي هانكوك Hancock في وقت واحد ، طريقة تقسية المطاط ، التي تمنحه الليونة وتجعله لا يتأثر بتغيرات الحرارة. وفي عام ١٨٥٠ ، كانت اطارات السيارات تكسى فعلاً بالمطاط. وفي نهاية القرن، ظهرت صناعة السيارات في الولايات المتحدة وأوربا، وولد معها استهلاك الاطارات الهوائية بكميات كبيرة. وتصاعد الطلب العالمي على المطاط تصاعداً رأسياً. كانت شجرة المطاط تقدّم للبرازيل ، عام ١٨٩٠ ، عشر أرباح الصادرات؛ وبعد عشرين سنه، زادت النسبة الى اربعين بالمائة ، مما جعل المبيعات تكاد تبلغ مستوى البن ، رغم أن البن كان ، حوالي عام ١٩١٠ ، في اوج ازدهاره. وكان معظم انتاج المطاط يأتي في ذلك الحين من اقليم أكري Acre ، الذي

www.ibtesama.com/vb

انتزعته البرازيل من بوليفيا في ختام حملة عسكرية خاطفة (٥٨).

وبالاستيلاء على اكري ، سيطرت البرازيل على مجمل الاحتياطيات العالمية من المطاط تقريباً؛ كانت الاسعار الدولية في ذروتها وبدا أن الاوقات الطيبة ستستمر الى الابد ، ولم يتمتع جامعو المطاط Seringueiros بتلك الاوقات ، بالتأكيد ، رغم أنهم هم من يخرجون كل شروق من اكواخهم، وعدة اوعية مربوطة بخيوط على ظهورهم، ويتسلقون الاشجار، أشجار Hevea Brasiliensis الضخمة ، لكي يجرحوها . كانوا يقطعون عدة جروح ، في الجذع وفي الاغصان السميكة القريبة من القمة؛ وكانت العصارة تنساب من الجروح ، وهي عصارة بيضاء لزجة تملأ الأوعية في ساعتين. وفي المساء ، تُطبخ أقراص المطاط المستوية ، التي ستتكراكم بعد ذلك في ادارة المزرعة. وكانت الرائحة الحمضية والمنفرة للمطاط تملأ مدينة ماناوس Manaus ، العاصمة العالمية لتجارة الناتج. في عام ١٨٤٩ كان تعداد سكان ماناوس خمسة آلاف؛ وخلال ما يزيد قليلاً عن نصف قرن زاد الى سبعين الفاً. وشيد اقطاب المطاط هناك دورهم الضخمة ذات المعمار الباذخ و المليئة بالاخشاب الثمينة من أورينتي Oriente ، والخزف المطلي بالمينا من البرتغال ، والاعمدة المرمرية من كارّارا Carrara ، والموبيليات الفرنسية. وكان اثرياء الغابة الجدد يجلبون أغلى الاغذية من ريودي جانيرو؛ وكان افضل مصممي الموضة في أوربا يفصلون بزاتهم وفساتينهن؛ وكانوا يرسلون أبناءهم ليدرسوا في المدارس الانجليزية، ويعد مسرح الامازون ، وهو بناء باروكي ضخم سيء الذوق، اكبر رمز لدوار تلك الثروات في أوائل القرن : وقد غنى التينور كاروزو من أجل سكان ماناوس ليلة الافتتاح، مقابل مبلغ خيالي، بعد أن صعد في النهر خلال الغابة. أما پافلوفا Pavlova ، راقصة البالية التي كان من المفروض أن ترقص ، فلم تستطع تجاوز مدينة بيليم ، لكنها أرسلت اعتذاراتها.

وفي عام ١٩١٣ ، وبضربة واحدة ، حلت الكارثة بالمطاط البرازيلي، فالسعر العالمي، الذي كان قد وصل الى اثني عشر شلناً قبل ثلاث سنوات ، هبط الى الربع. وفي عام ١٩٠٠ ، كان اقليم أورينتي قد صدّر اربعة أطنان فقط من المطاط؛ وفي عام ١٩١٤ ، صبت مزارع سيلان وماليزيا اكثر من سبعين الف طن في السوق العالمية ، وبعد خمس سنوات كانت صادراتها قد بلغت أربعمائة الف طن. وفي عام ١٩١٩ ، كانت البرازيل ، التي تمتعت بالاحتكار الفعلي للمطاط ، لا تقدم سوى ثمن الاستهلاك العالمي ، وبعد نصف قرن ، أخذت البرازيل تشتري من الخارج اكثر من نصف المطاط التي تحتاجه.

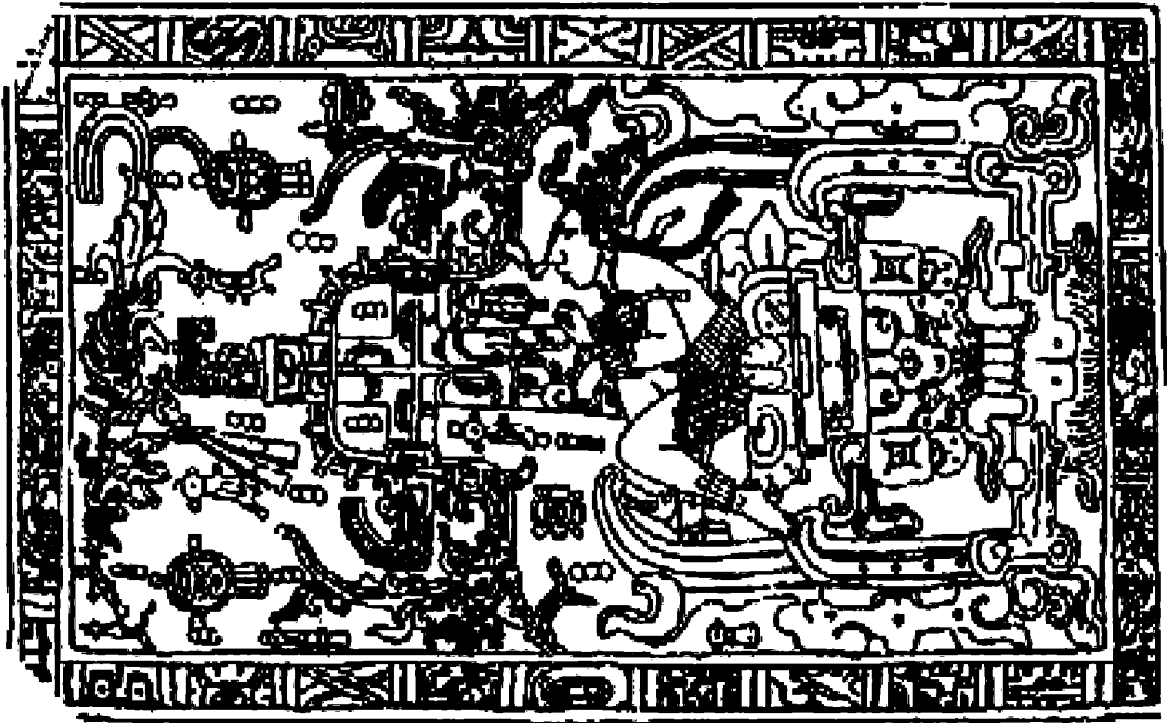
www.ibtesama.com/vb

فما الذي حدث ؟ حوالي عام ١٨٧٢ ، كان هنري ويكهام Henry Wickham وهو انجليزي يملك غابات مطاط في منطقة نهر الريو تاباچوس Tapajos ، معروفاً بجنون هواية النباتات ، وقد أرسل رسوماً وأوراقاً من شجرة المطاط الى مدير حديقة كيو Kew، في لندن. فتلقى أمراً بالحصول على كمية جيدة من البذور ، وهي الحبوب التي تحتويها شجرة الـ Hevea Brasiliensis داخل ثمارها الصفراء. وكان لابد من تهريبها ، لأن البرازيل كانت تفرض عقوبات قاسية على تهريب البذور. ولم يكن ذلك أمراً سهلاً ؛ فقد كانت السلطات تفتش المراكب تفتيشاً دقيقاً. ومن ثم، دخلت احدى سفن شركة انمان لاين Inman Line نحو داخل البرازيل لمسافة الفين من الكيلو مترات اكثر من المعتاد. وكان ذلك بدافع المتعه. وعند عودتها ، ظهر بين طاقمها هنري ويكهام. كان قد انتقى افضل البذور، بعد أن ترك الثمار تجف في أحدى قرى الهنود، وأحضرها داخل غرفة مغلقة ، ملفوفة في أوراق الموز ومعلقة بخيوط من السقف حتى لا تبلغها الفئران على سطح السفينة. وكانت بقية السفينة خالية ، وفي بيليم دو باراء Bele`m do Par`a ، في مواجهة مصب النهر ، دعى ويكهام المسئولين الى مأدبة كبيرة. كان الانجليزي مشهوراً بأنه مهووس، وكان معروفاً في كل الامازون بأنه يجمع الاوركيد. وأوضح أنه يحمل ، بتكليف من ملك انجلترا ، مجموعة من ايصال الاوركيد النادرة من أجل حديقة كيو. وشرح أن النباتات بالغة الحساسية ، ولهذا يحفظها في غرفة مغلقة بإحكام، وفي درجة حرارة خاصة : واذا فتحها، فسوف تموت الزهور. وهكذا، وصلت البذور، سليمة، الى مرافئ ليفربول. وبعد اربعين سنه ، غزا الانجليزي السوق العالمية بمطاط الملايو. هذه المزارع الاسيوية، المنظمة بطريقة عقلانية على أساس شتلات كيو الخضراء، أزاحت، دون صعوبة ، الانتاج البرازيلي .

تحولت الرفاهية الأمازونية الى دخان ، وعادت الغابة لتنغلق على نفسها. وهاجر الباحثون عن الثروات الى مناطق اخرى؛ وتم تفكيك المعسكر الفاخر. طبعاً بقي على قيد الحياة ، كيفما اتفق ، العمال ، الذين كانوا قد سيقوا من أنحاء نائية ليوضعوا في خدمة المغامرة الاجنبية. الاجنبية كذلك ، بالنسبة للبرازيل ذاتها ، التي لم تفعل سوى الاستجابة لفناء ضروريات الطلب العالمي على المادة الاولية، دون أن تشارك بأقل القليل في تجارة المطاط الحقيقية : في التمويل، والتسويق، والتصنيع، والتوزيع. واصبحت الصورية خرساء ، حتى جاءت الحرب العالمية الثانية ، واكتسب مطاط الامازون دفعه عابرة جديدة. كان اليابانيون قد احتلوا ماليزيا وكانت القوات المتحالفة بحاجة بائسه

www.ibtesama.com/vb

إلى امدادات المطاط، كذلك إهتزت الغابة البيروانية بدورها، خلال أربعينات، بفعل المتطلبات العاجلة من المطاط [٥٩]. وفي البرازيل، حشدت ما تسمى باسم «معركة المطاط» من جديد فلاحي الشمال الشرقي. ووفق تقرير قدم في الكونجرس حين انتهت «المعركة» كان الموتى في هذه المرة خمسون ألفاً ، هزمتهم الأوبئة والجوع ، وبقوا ليتعفنوا بين مزارع المطاط.



www.ibtesama.com/vb

■ مزارعو الكاكاو يشعلون سيجارهم بأوراق عملة من فئة خمسمائة ألف ريس

خلال زمن طويل، وحدّت فنزويلا نفسها بالكاكاو، وهو النبات الامريكي الأصل. يقول رانخل Rangel «نحن الفنزويليين قد صُنّعنا لنبيع الكاكاو ولنوزع، في ارضنا ، التوافه الاجنبية» (٦٠) . وتشكل أوليجاركيات الكاكاو ، مع المرابين والتجار «ثالوثاً مقدساً للتأخر» ، وبالاضافة الى الكاكاو ، وكجزء من حاشيته، توجد تربية الماشية في السهول ، والنيلة ، والسكر، والتبغ ، وكذلك بعض المناجم؛ لكن الكاكاو العظيم (جران كاكاو) Gran Cacao كان هو الاسم الذي عمد به الشعب ، عن حق ، أوليجاركية كاراكاس الاستعبادية . فعلى حساب عمل الزنوج ، أثرت هذه الاوليجاركية عن طريق امداد أوليجاركية المناجم المكسيكية والمتروبول الاسباني بالكاكاو، ومنذ عام ١٨٧٣ ، افتتح في فنزويلا عصر البن؛ ومثل الكاكاو ، يتطلب البن أراضي منحدرة أو سهولاً دافئة ، ورغم دخول هذا المتطفل الجديد ، واصل الكاكاو توسّعه ، بكل الطرق ، وغزا أراضي كاروبانو Carúpano الرطبة ، وظلت فنزويلا بلداً زراعياً ، محكوماً عليه بصليب التدهور الدوري في أسعار البن والكاكاو؛ وكلا المنتجين يمدان العواصم التي تتيح الحياة الطفيلية، حياة الاسراف، لملاكهما، وتجارهما، والمرابين. وظل ذلك حتى عام ١٩٢٢ ، حتى تحولت البلاد فجأة الى منبع للبترول. ومنذ ذلك الحين ، تحكم البترول في حياة البلاد . وجاء تدفق الثروة الجديدة ليبرر، بعد تأخير إستمر اكثر من أربعة قرون، توقعات المكتشفين الاسبان : اذ أنهم في بحثهم دون طائل عن الملك الذي يستحم في الذهب ، كانوا قد بلغوا من الجنون حداً جعلهم يحسبون أن احدى قرى ماركايبو هي فينيسيا ، وهو سراب تدين له فنزويلا بإسمها ، كما اعتقد كولومبس أن الفردوس الارضي يستقر في خليج باريا Paria (٦١).

وخلال العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر، انفتحت شهية الأوربيين والامريكيين الشماليين لتناول الشيكولاته. وأعطى تطور الصناعة دفعة قوية لمزارع الكاكاو في البرازيل وحفز الانتاج في المزارع القديمة في فنزويلا وإكوادور. في البرازيل، دخل الكاكاو بقوة الى الساحة الاقتصادية في نفس الوقت مع المطاط، ومثل المطاط، أتاح عملاً لفلاحي الشمال الشرقي. كانت مدينة سلفادور، في باهيا كل القديسين Bahia de

www.ibtesama.com/vb

Todos Las Santos ، واحدة من أهم مدن أمريكا، كعاصمة البرازيل والسكر، وولدت في ذلك الحين كعاصمة للكاكاو . وإلى الجنوب من باهيا، من الريكونكافو Riconcavo حتى ولاية إسبيريتو سانتو (الروح القدس) Espiritu Santo ، بين أراضي الشريط الساحلي المنخفضة وسلسلة الجبال الساحلية، تواصل المزارع في أيامنا، تقديم المادة الخام لجزء كبير من الشيكولاتة التي يستهلكها العالم، ومثل قصب السكر، جلب الكاكاو معه الزراعة الاحادية ، وحرق الغابات ، وديكتاتورية الاسعار الدولية، والفاقة المتصلة للعمال . أما ملاك المزارع، الذين يعيشون في بلاجات ريودي جانيرو ويعتبرون تجاراً أكثر من كونهم زراعاً، فيحظرون تخصيص شبر واحد من الارض لزروعات أخرى. ويدفع المديرون الاجور عيناً في العادة، لحماً قديداً ، ودقيقاً، وفاصوليا؛ وحين يدفعون الاجور نقداً، يتلقى الفلاح مقابل يوم عمل كامل أجراً يعادل ثمن لتر من البيرة، ولابد له أن يعمل يوماً ونصف يوم اذا اراد شراء علبة لبن مجفف.

لقد تمتعت البرازيل لزمن معقول بإنفصال السوق الدولية. ورغم ذلك وجدت في افريقيا منافسين اقوياء منذ ذروة الرواج. فمع حلول عقد العشرينات، كانت غانا قد إحتلت المركز الاول: فقد طور الانجليز مزارع الكاكاو على نطاق واسع، وبأساليب حديثة، في هذا البلد الذي كان عندئذ مستعمرة تسمى ساحل الذهب، وتراجعت البرازيل الى المركز الثاني، وإلى المركز الثالث بعدها بسنوات، كمورِّد عالمي للكاكاو . لكن كان ثمة أكثر من فترة لم يكن أحد خلالها ليستطيع أن يصدق أن مصيراً متواضعاً ينتظر الاراضي الخصبة جنوبي باهيا . هذه الاراضي التي كانت بكراً طوال الفترة الاستعمارية، أخذت تضاعف الثمار: كان الاجراء يقطعون الثمار بضربات السكاكين ويجمعون البذور، ويحملونها في العربات حتى تقودها الحمير الى الاجران، وأصبح من الضروري قطع المزيد من الغابات، وفتح ثغرات جديدة، وغزو أراضي جديدة بحد السكين وطلقات الرصاص. ولم يكن الاجراء يعرفون شيئاً عن الاسعار أو الاسواق. ولم يكونوا حتى يعرفون من الذي يحكم البرازيل: وحتى سنوات قريبة كان هناك عمال في الفازنداس* Fazendas مقتنعون أن الدون بدرو الثاني، الامبراطور، مازال على العرش. وكان سادة الكاكاو يفركون ايديهم : فهم يعرفون، أو يعتقدون انهم يعرفون، تزايد الاستهلاك وزادت معه الاسعار والارباح. كان ميناء إليّوس Ilheus ، حيث يشحن

* Fazenda : هو الأسم البرازيلي للمزرعة الضخمة، اللاتيفوندية عادة. والفازنديرو Fazendeiro هو صاحب المزرعة – م.

www.ibtesama.com/vb

كل الكاكاو تقريباً، يسمى «ملكة الجنوب»، ورغم أنه يرقد الآن في سبات، فقد بقيت فيه القصور القليلة التي أنشأها الفازنديرو Fazendeiros (أصحاب المزارع) بذوق باذخ وسقيم. وقد كتب جورج أمادو Jorge Amado عدة روايات حول هذا الموضوع. هكذا يصف مرحلة ارتفاع الأسعار: «كانت إليوس ومنطقة الكاكاو تسبح في الذهب، وتستحم في الشمبانيا، وتنام مع فرنسيات قادمات من ريودي جانيرو. وفي «التريانون»، أكثر كباريهات المدينة أناقة، كان الكولونيل مانيكا دانتاس يشعل سيجاره بأوراق عملة من فئة خمسمائة ألف رييس، مكرراً حركة كل الفازنديرو الأثرياء في البلاد في موجات الرواج السابقة للبن، والمطاط، والقطن، والسكر»[١٢] مع ارتفاع الأسعار. كان الانتاج يزيد، ثم تنخفض الاسعار. وأصبح عدم الاستقرار أكثر حدة وأخذت الارض تغير مالكيها، وبدأ زمن «المليونيرات الشحاذين»: ترك رواد المزارع مكانهم للمصدرين، الذي تمكنوا من إمتلاك الارض بممارسة الإقراض.

وحتى نذكر مثالاً واحداً، فإنه في أقل من ثلاث سنوات، بين عام ١٩٥٩ و ١٩٦١، أنخفض السعر العالمي لبذور الكاكاو البرازيلي بمقدار الثلث. وفيما بعد، فإن من المؤكد أن الاتجاه الي الارتفاع في الاسعار لم يستطع أن يفتح أبواب الامل. وتعزو اللجنة الاقتصادية لامريكا اللاتينية (CEPAL) عمراً قصيراً لمنحنى الارتفاع[١٣]. فكبار مستهلكي الكاكاو -وهم الولايات المتحدة، وانجلترا، وألمانيا الاتحادية، وهولندا، وفرنسا- يثيرون المنافسة بين الكاكاو الافريقي وذلك الذي تنتجه البرازيل وإكوادور، حتى يأكلوا شيكولاتة رخيصة. ويثيرون على هذا النحو، بتحكمهم في الاسعار كما يفعلون، فترات من الكساد تدفع الي الطرقات العمال الذين يطردهم الكاكاو. ويبحث العاطلون عن أشجار يناموا تحتها وعن موزات خضراء يراوغون بها جوعهم: ولايأكلون، بالتأكيد، الشيكولاتات الأوربية الفاخرة التي تستوردها البرازيل بصورة غير معقولة من فرنسا ومن سويسرا، والبرازيل ثالث منتج عالمي للكاكاو.

ويتزايد سعر الشيكولاتة باستمرار، بينما ينخفض سعر الكاكاو، نسبياً، باستمرار. وفيما بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٦٠، زادت مبيعات إكوادور من الكاكاو باكثر من ثلاثين في المائة في الحجم، لكنها لم تزد في قيمتها سوى بنسبة خمسة عشر بالمائة. والخمسة عشر بالمائة الباقية هدية من إكوادور للبلدان الغنيّة، التي أرسلت اليها في نفس الفترة منتجاتها المصنّعة، بأسعار متزايدة. ويعتمد اقتصاد الاكوادور على مبيعات الموز، والبن، والكاكاو، وهي ثلاث أغذية معرضة بقسوة لتقلبات الاسعار.

www.ibtesama.com/vb

وحسب البيانات الرسمية ، فإنه من بين كل عشرة إكوادوريين يعاني سبعة من سوء تغذية أساسي وتعاني البلاد من واحد من أكثر معدلات الوفيات ارتفاعاً في العالم.

■ أذرع رخيصة من أجل القطن

تحتل البرازيل المركز الرابع في انتاج القطن في العالم؛ وتحتل المكسيك المركز الخامس. وفي المجموع ، يأتي من أمريكا اللاتينية أكثر من خمس القطن الذي تستهلكه صناعه النسيج في كوكب الارض بأسره. وعند نهايات القرن الثامن عشر ، تحول القطن الى أهم المواد الاولية بين احتياجات أوربا الصناعية؛ وضاعفت انجلترا مشترياتها من هذه الخيوط الطبيعية خمسة أضعاف ، خلال ثلاثين عاماً . إن المغزل الذي إخترعه اركرايت Arkwright في نفس الوقت الذي سجل فية وات Watt آلته البخارية ، وإختراع النول الآلي الذي صنعه كارترايت Cartwright فيما بعد ، أسهمت كلها في إعطاء دفعه حاسمة لصناعة النسيج وفتحت أمام القطن ، وهو نبات كان موطنه أمريكا ، أسواقاً نهمةً وراء البحار. إن ميناء ساولويزدي مارانياو Sao Luiz de Maranhao ، الذي كان غارقاً في قيلولة إستوائية طويلة لايقطعها بالكاد سوى قاربين في السنه ، قد استيقظ بحدة بفعل نشوة القطن : تدفق العبيد السود الى مزارع شمال البرازيل وكانت تغادر الميناء كل عام ما بين مائة وخمسين ومائتي سفينة محملة بمليون رطل من المادة الخام اللازمة لصناعة النسيج. ومع مولد القرن الماضي ، قدمت أزمة الاقتصاد المنجمي للقطن أيد عاملة وفيرة من العبيد؛ مع نضوب الذهب والماس من الجنوب ، بدا أن البرازيل تنبعث من جديد في الشمال. وازدهر الميناء ، وأنتج شعراء بالدرجة الكافية لكي يطلق عليه اسم أثينا البرازيل (١٤). لكن الجوع أتى الى اقليم مارانياو ، مع الرخاء ، حيث لم يكن أحد يشغل نفسه بزراعة الاغذية. وفي بعض الفترات لم يكن ثمة ما يؤكل سوى الارز (١٥). وكما بدأت هذه الحكاية ، فإنها انتهت : فقد حل الانهيار فجأه . فقد نتج عن انتاج القطن على نطاق واسع في مزارع جنوبي الولايات المتحدة ، على أراضي ذات نوعية أفضل وبوسائل ميكانيكية لحلج وتعبئة الناتج ، أن انخفضت الاسعار الى الثلث وخرجت البرازيل من المنافسة. وحلت مرحلة ازدهار جديدة بسبب حرب الانفصال*، التي قطعت الامدادات الامريكية الشمالية ، لكنها لم تستمر طويلاً. وفي القرن العشرين،

* يشار بها إلى إنسحاب الولايات الجنوبية من إتحاد الولايات المتحدة مما أثار حرباً أهلية عام ١٨٦١ – م.

www.ibtesama.com/vb

فيما بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٩ ، تزايد الانتاج البرازيلي من القطن بمعدل مثير : فمن ١٢٦ الف طن أصبح ٣٢٠ الفاً . وعندئذ حلت كارثة جديدة : فقد أسقطت الولايات المتحدة فوائضها الى السوق الدولية وتدهور السعر .

والفوائض الزراعية الامريكية الشمالية، كما هو معروف، هي نتيجة الدعوم القوية التي تقدمها الدولة للمنتجين؛ بأسعار إغراق Dumping وكجزء من برامج المعونات الخارجية ، تدفقت الفوائض وأغرقت العالم. هكذا ، كان القطن هو ناتج التصدير الاساسي للباراجواي حتى أخرجته المنافسة المدمرة للقطن الامريكي الشمالي من الاسواق ، فانخفض انتاج الباراجواي ، منذ عام ١٩٥٢ ، الى النصف. وهكذا فقدت أورجواي السوق الكندي لأرزها. وهكذا فقد قمح الارجنتين ، وهو البلد الذي كان يمكن أن يصبح مستودع غلال للكوكب بأسره ، فقد وزناً حاسماً في الاسواق الدولية. ولم يمنع الإغراق Dumping الامريكي الشمالي للاسواق بالقطن ، شركة أمريكية هي شركة أندرسون كلايتون وشركاه Anderson Clayton and Co. ، من الاستيلاء على إمبراطورية هذا المنتج في أمريكا اللاتينية ، وكذلك لم يمنع أن تشتري الولايات المتحدة ، من خلالها ، قطناً مكسيكياً لكي تعيد بيعه لبلدان أخرى.

وما زال قطن أمريكا اللاتينية باقياً في الأسواق الدولية، في وضع سيء بفضل تكاليف انتاجه البالغة الانخفاض ، وحتى الارقام الرسمية ، التي هي أقنعه للحقيقة، تنم عن أجر العمل البائس. ففي مزارع البرازيل، تتبادل أجور الجوع مع عمل الاقنان؛ وفي جوا تيمالا ، يتفاخر الملاك بأنهم يدفعون أجوراً تبلغ تسعه عشر كتزالاً في الشهر (والكتزال يساوي الدولار اسمياً) وهم أنفسهم يقرون ، وكان هذا ليس كافياً ، بأن الجزء الاكبر من هذه الاجور يقدم عيناً مقابل مواد يحدّدون هم سعرها [٦٦]. وفي المكسيك ، فإن الاجراء الذين يتحولون من محصول الى محصول ويتقاضون دولاراً ونصف في اليوم لا يعانون من البطالة فقط ، بل يعانون كنتيجة لذلك ، من سوء التغذية ، لكن وضع عمال القطن في نيكاراجوا أسوأ من ذلك بكثير ، أما السلفادوريين الذين يزودون بالقطن مصانع النسيج اليابانية فيستهلكون سعرات حرارية وبروتينات أقل مما يفعل جياع الهند. ويمثل القطن ثاني مصدر للعملات الاجنبية في اقتصاد البيرو ، وقد لاحظ خوسيه كارلوس ماريانيجي Jose Carlos Mariategui أن الرأسمالية الاجنبية ، في بحثها الدائم من أراض ، وأيدي عاملة ، وأسواق ، نحت الى السيطرة على الزراعات التصديرية للبيرو، من خلال توقيع الحجز استيفاءً للديون العقارية على ملاك الأراضي المدينين [٦٧].

www.ibtesama.com/vb

وحين وصلت الى السلطة عام ١٩٨٦ الحكومة الوطنية للجنرال بيلاسكو البارادو Velasco Alvarado ، كان يزرع اقل من سدس أراضي البلاد القابلة للاستغلال المكثف ، وكان الدخل لكل فرد للسكان أقل من دخل الفرد في الولايات المتحدة خمس عشرة مرة ، وكان استهلاك السعرات الحرارية بين أقل المعدلات في العالم. لكن انتاج القطن ظل، مثل انتاج السكر، تحكمه المعايير الغريبة عن البيرو والتي شجبها مارياتيجي. كانت أفضل الاراضي، وهي اراضي الزراعة الساحلية ، في أيدي شركات أمريكية شمالية أو في أيدي ملاك أراضي لم يكونوا وطنيين سوى بالمعنى الجغرافي، مثلما هي حال بورجوازية ليما. كانت خمس شركات ضخمة – من بينها اثنتان أمريكيتان شماليتان : هما شركة اندرسون كلايتون وشركة جريس Grace – تسيطر فيما بينها على تصدير القطن والسكر وتمتلك كذلك «مجمعاتها الزراعية – الصناعية» الخاصة للانتاج. وكانت مزارع السكر والقطن الساحلية ، والتي يفترض أنها مراكز الرفاهية والتقدم مقابل لاتيفونديات الجبل، كانت تدفع للأجراء أجور جوع حتى صادرها الاصلاح الزراعي لعام ١٩٦٩ وسلمها للعمال على هيئة مزارع تعاونية. ووفقاً لما تذكرة اللجنة الامريكية المشتركة للتطور الزراعي ، فإن دخل كل واحدة من عائلات أجراء الساحل لم يكن يتجاوز خمسة دولارات شهرياً(٦٨).

وتحتفظ شركة آندرسون كلايتون وشركاه بثلاثين شركة تابعه لها في أمريكا اللاتينية ، ولا تعمل فقط في بيع القطن ، بل اضافة الى ذلك، وعلى سبيل الاحتكار الافقي ، لديها شبكة تشمل تمويل وتصنيع القطن ومشتقاته كما تنتج الاغذية على نطاق واسع. وفي المكسيك ، على سبيل المثال، تمارس بكل السهل سيطرتها على انتاج القطن ، رغم أنها لا تملك أرضاً؛ وفي قبضة يدها ، بالفعل ، العمال المكسيكيون الثمانمائة الف الذين يجمعونه. وتشتري الشركة بسعر بالغ الانخفاض تيلة القطن المكسيكي الممتازة ، لأنها تمنح قروضاً مسبقة للمنتجين مع إلزامهم بأن يبيعوا لها المحاصيل بالثمن الذي تقتنع به هي السوق. ويضاف الى مقدمات النقود تقديم الاسمدة، والبذور، والمبيدات، وتحتفظ الشركة بحق الإشراف على أعمال التسميد، والبذار، والحصاد، وتحدد الثمن الذي يروقها من أجل حلج القطن. وتستخدم البذور في مصانع الزيت والدهون والشحوم التي تملكها ، وخلال السنوات الاخيرة ، فإن كلايتون ، «غير مكتفية بالسيطرة كذلك على تجارة القطن ، قد ظهرت حتى في مجال انتاج الحلوى و الشيكولاته ، واشترت متأخراً شركة لوكسوس Luxus المعروفة»(٦٩).

www.ibtesama.com/vb

وشركة أندرسون كلايتون ، في الوقت الحاضر ، هي الشركة الاساسية المصدرة للبن في البرازيل. ففي عام ١٩٥٠ إهتمت بهذه التجارة ، وبعد ثلاث سنوات ، كانت قد انتزعت مكان الصداره فيها من الامريكان كوفي كوربوريشن American Coffee Corporation ، وهي أول منتج للأغذية في البرازيل كذلك ، وتندرج بين اقوى خمس وثلاثين شركة في البلاد.

■ أذرع رخيصة من أجل البن

هناك من يؤكدون أن البن يكاد يعادل في أهميته البترول في السوق الدولية. وعند بداية عقد الخمسينات ، كانت أمريكا اللاتينية تقدم أربعه أخماس البن يستهلك في العالم؛ وخلال الاعوام التالية ، فإن منافسة البن من نوع روبوستا Robusta ، الوارد من أفريقيا، ونوعيتة ادنى لكن سعره أقل ، قد خفضت من مساهمة أمريكا اللاتينية. ورغم ذلك، فإن سدس العملات الصعبة التي يحصل عليها الاقليم من الخارج تأتي، حالياً من البن. وتؤثر تقلبات الاسعار على خمسة عشر بلداً تقع جنوبي نهر الريو برافو. والبرازيل هي اكبر منتج في العالم؛ وتحصل من البن على نحو نصف عائداتها من التصدير. وتعتمد السلفادور ، وجواتيمالا ، وكوستاريكا ، وهايتي بدرجة كبيرة كذلك على البن ، الذي يقدم علاوة على ذلك ، ثلثي العملات الصعبة لكولومبيا.

وقد جلب البن معه التضخم الى البرازيل؛ ففيما بين عام ١٨٢٤ و ١٨٥٤ ، تضاعف سعر الرجل، ولم يستطيع قطن الشمال ولاسكر الشمال الشرقي ، بعد أن انقضت دورات الرخاء ، دفع ثمن أولئك العبيد الباهظي الثمن . فإنتقلت البرازيل نحو الجنوب، وبالاضافة الى اليد العاملة من العبيد ، إستخدم البن الايدي العاملة من المهاجرين الاوربيين، الذين كانوا يوردون الى الملاك نصف محاصيلهم، في نظام مناصفة ما زال يسود الى اليوم في داخل البرازيل. والسياح الذي يخترقون اليوم غابات تيجوكا Tijuca لكي يسبحوا في مياه الشاطئ؛ يجهلون أن في الجبال المحيطة بريو دي جانيرو، كانت هناك مزارع بن ضخمة منذ أكثر من قرن. وعبر سفوح الجبال ، واصلت المزارع ، باتجاه ولاية ساوباولو ، مجزرتها المطلقة العنان للرواسب العضوية في الاراضي البكر الجديدة. ومنذ نهاية القرن كان لا يتفوندبيو زراعة البن قد أصبحوا يشكلون النخبة الاجتماعية الجديدة للبرازيل ، وقد بروا اقلامهم وأجروا حساباتهم : فإتضح أن أجور

www.ibtesama.com/vb

ـطعام العبيد النادرين. فـالغيت العبودية عـام ١٨٨٨ ، وبذلك
لعبودية الاقطاعية والعمل المأجور ما زالت باقية فى ايامنا.
ـ فيالق من الاجراء «الاحرار» جولات البن. تحول وادى نهر
ناطق البلاد ، لكنه سرعان ما دمره هذا النبات القاتل الذى،
ـلف وراءه غابات محروقة ، وموارد طبيعية ناضبة ، وتدهوراً
ـممة ، الاراضى التى كـانت بكراً ، ومن ذهب الى نهب، أخذ
ـاتات وجاعلاً لها قابلة لأذى الاوبئة. وغزت لا يتفوندية البن
شرقى ساو پاولو؛ وبأساليب استغلال أقل وحشية ، حولتها
ـت تقدمها نحو الغرب. وبلغت ضفاف نهر البارانا Parana ،
ـروسّو Mato Grosso ، استدارت نحو الجنوب لكى تنتقل ،
ـو الغرب من جديد ، متخطية حدود الباراجواى .
ـبد أن ساوباولو هى أكثر ولايات البرازيل تطوراً ، لأنها تضم
ـ ما زال هناك الكثيرون من «الرعايا المقيمين» الذين يدفعون
ـمل ابنائهم. وخـلال السنوات المزدهرة التي أعقبت الحرب
ـع أصحاب مزارع البن الالغاء الكامل للنظام الذى كان يسمح
لاغذية لحسابهم. والان ، لا يمكنهم عمل ذلك الا مقابل ايجار
ـر. و بالاضافة الى ذلك ، يعتمد اللاتيفوندى على المستوطنين
ـود، فيسمح لهم بزراعات مؤقتة ، لكن ذلك مقابل أن يزرعوا
ـه. وبعد أربع سنوات ، حين تتلون الحبوب الصفراء فوق
لارض ، ويكون على المستوطن أن يرحل.
ـا زالت مـزارع البن تدر عـائداً أقل من مـزارع القطن. وفى
الملاك أنهم يدفعون خمسة عشر دولاراً شهرياً مقابل عمل
ـ كل عام من هضبة الالتيبلانو نحو الجنوب ، لكى يبيعوا قوة
ـك الضياع شرطتها الخاصة، وهناك مثلما شرح لي أحدهم،
ـبره»؛ ويتعهد جهاز القمع باستمرار ذلك. والموقف اسوأ من
ـيا Alta Verapaz . فهناك ليس ثمة سيارات شحن ولا عربات،

www.ibtesama.com/vb

العائلات الاوليجاركية ، يتمتع البن بأهمية أساسية : فالزراعة الأحادية تضطر البلاد لاستيراد الفاصوليا من الخارج ، وهي المصدر الوحيد للبروتين للتغذية الشعبية ، وكذلك الذرة ، والخضروات ، وغيرها من الاغذية التي كانت البلاد تنتجها تقليدياً. وربع السلفادوريين يسقطون ضحية نقص الفيتامينات. أما هايتي ، فلديها أعلى معدل للوفيات في امريكا اللاتينية ؛ واكثر من نصف سكانها من الاطفال يعاني من الانيميا . والاجر الرسمي ، في هايتي ، يدخل في نطاق الروايات الخيالية! ففي مزارع البن ، يتراوح الاجر الفعلي بين سبعه وخمسة عشر سنتاً من الدولار يومياً .

وفي كولومبيا ، أرض الاراضي المنحدرة ، يتمتع البن بالهيمنة. ووفقاً لما ذكره تقرير نشرتة مجلة تايم Time عام ١٩٦٢ ، لا يتقاضى العمال سوى نسبة خمسة بالمائة، من خلال أجورهم ، من الثمن الاجمالي الذي يحققه البن خلال رحلته من الغصن الى شفاه المستهلك الامريكي الشمالي [٧٠].

وبعكس البرازيل ، فإن بن كولومبيا لا ينتج ، في أغلبه، في اللاتيفونديات ، بل في مينيفونديات (قطع أرض صغيرة) تميل الى التفتت باستمرار . فيما بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٦٠ ، ظهرت مائة الف مزرعة جديدة ، ذات مساحات ضئيلة في غالبيتها ، تقل عن هكتار واحد. والمزارعون الصغار والصغار جداً ينتجون ثلاثة أرباع البن الذي تصدره كولومبيا و ٩٦ بالمائة من المزارع مينيفونديات [٧١] . في الاعلانات ، يبتسم خوان بالديس Juan Valdes ، ولكن تفتت الملكيات يخفض مستوى معيشة الزراع ، ذوي الدخول المتضائلة ، ويسهل مناورات الاتحاد القومي لمنتجي البن، الذي يمثل مصالح الملاك الكبار والذي يتحكم فعلياً في تسويق المنتج. وقطع الارض الاقل من هكتار واحد تدر دخلاً يشبع الجوع : مائة وثلاثون دولاراً ، في المتوسط ، سنوياً [٧٢].

■ أسعار البن تقذف المحاصيل في النار وتحدد إيقاع الزيجات

ما هذا ؟ هل هو رسم مخ لشخص مجنون ؟ في عام ١٨٨٩ كان البن يساوي سنتين وارتفع بعد سته أعوام الى تسعه سنتات؛ وبعد ذلك بثلاث سنوات انخفض الى اربعة سنتات وبعد خمسة اعوام انخفض الى سنتين إثنين. وكانت تلك فترة نموذجية [٧٣]. إن

www.ibtesama.com/vb

الخطوط البيانية لاسعار البن ، مثلها مثل أسعار كل النواتج الاستوائية ، تشبه دائماً الخطوط البيانية الاكلينيكية لداء الصرع ، لكن الخط يهبط بحدة دائماً حين تسجل قيمة التبادل للبن في مقابل الآلات والنواتج الصناعية. وقد احتج كارلوس ييراس ريستريبو Carlos Lleras Restrepo ، رئيس كولومبيا عام ١٩٦٧ : في هذه السنه كان على بلاده أن تدفع سبعة وخمسين كيساً من البن مقابل شراء سيارة جيب ، وفي عام ١٩٥٠ كان الثمن سبعة عشر كيساً. وفي نفس الوقت ، أجرى وزير الزراعة في ساو پاولو ، هربرت ليڤي Herbert Levi ، حسابات أكثر درامية : فمن أجل شراء جرار زراعي عام ١٩٦٧ ، كانت البرازيل تحتاج ثلاثمائة وخمسين كيساً من البن ، لكن قبل أربع عشرة سنة كانت تكفي لذلك سبعون كيساً فقط. وكان الرئيس جيتوليو ڤارجاس Getulio Vargas قد مزق قلبه برصاصة ، عام ١٩٥٤ ، ولم تكن اسعار البن غريبة على المأساه : «جاءت أزمة انتاج البن – هكذا كتب ڤارجاس في وصيته – وتم تحديد قيمة منتجنا الاساسي. فكرنا في الدفاع عن اسعاره وكان الرد ضغطاً عنيفاً على اقتصادنا ، إلى درجة أن نجد انفسنا مضطرين للتسليم». أراد ڤارجاس أن يكون دمه ثمناً للانقاذ.

ولو كان محصول عام ١٩٦٤ من البن قد بيع ، في سوق أمريكا الشمالية ، بأسعار عام ١٩٥٥ ، لكانت البرازيل قد تلقت مائتي مليون دولار اكثر. فانخفاض سنت واحد في سعر البن يتضمن خسارة مبلغ ٦٥ مليوناً من الدولارات بالنسبة لمجموع البلدان المنتجة. ومنذ عام ١٩٦٤ ، وحيث أن السعر استمر في الانخفاض حتى عام ١٩٦٨ ، تزايدت كمية الدولارات التي اغتصبها البلد المستهلك للبن ، وهو الولايات المتحدة ، من البرازيل، وهو البلد المنتج ، لكن ، لصالح من هذا ؟ لصالح المواطن الذي يشرب القهوة ؟ في يوليو من عام ١٩٦٨ ، كان سعر البن البرازيلي في الولايات المتحدة قد إنخفض بنسبة ثلاثين بالمائة بالمقارنة مع يناير من عام ١٩٦٤ ، ورغم ذلك ، لم يدفع المستهلك الامريكي الشمالي ثمناً أقل للبن ، بل اشتراه اغلى بنسبة ثلاثة عشر بالمائة . اذن فقد نال الوسطاء ، بين عامي ٦٤ و٦٨ ، هذه الثلاثة عشر وتلك الثلاثين بالمائة: كسبوا من كلا الطرفين. وفي نفس هذا المدى الزمني ، قلت الاسعار التي يتلقاها المنتجون البرازيليون مقابل كل كيس من البن بنسبة النصف [74]. ومن هم الوسطاء ؟ تستحوذ ست شركات أمريكية شمالية على أكثر من ثلث البن الذي يخرج من البرازيل ، وتستحوذ ست شركات أمريكية شمالية على أكثر من ثلث البن الذي يدخل الولايات المتحدة ؛ إنها الشركات المسيطرة عند كلا طرفي العملية [75]. وشركة اليونايتيد فروت United Fruit (التي

www.ibtesama.com/vb

اصبحت تسمى يونا يتيد براندز Uinted Brands بينما اكتب هذه السطور) تمارس احتكار بيع الموز من امريكا الوسطى، وكولومبيا، وإكوادور، وفي نفس الوقت تحتكر استيراد وتوزيع الموز في الولايات المتحدة. وبنفس الطريقة، فإن الشركات الامريكية هي التي تتحكم في تجارة البن، وتشارك البرازيل فقط بوصفها مورداً وبوصفها ضحية. والدولة البرازيلية هي التي تتولى المخزون Stocks، حين يجبر الانتاج الزائد على تكويم الاحتياطيات .

ألا توجد إذن اتفاقية دولية للبن من أجل تثبيت الاسعار في السوق ؟ لقد نشر المركز الدولي لمعلومات البن في واشنطن، عام ١٩٧٠، وثيقة مسهبة تستهدف اقناع المشرعين حتى تصادق الولايات المتحدة، في سبتمبر، على سريان القانون التكميلي المتعلق بالمعاهدة. ويؤكد التقرير أن المعاهدة قد أفادت الولايات المتحدة بالدرجة الاولى، وهي التي تستهلك أكثر من نصف البن الذي يباع في العالم. ومازال شراء حبات البن صفقة طيبة . وفي سوق امريكا الشمالية، فإن الارتفاع المضحك في سعر البن (لصالح الوسطاء كما رأينا) كان أقل بكثير من الارتفاع العام في تكاليف المعيشة وفي المستوى الداخلي للأجور؛ وقد أرتفعت قيمة صادرات الولايات المتحدة، فيما بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٦٩، بنسبة السدس، وفي نفس الفترة، أنخفضت قيمة واردات البن، بدل أن ترتفع. ويجب، علاوة على ذلك، أن نضع في الاعتبار أن البلدان الامريكية اللاتينية تنفق العملات الصعبة المتضائلة التي تحصل عليها من بيع البن، في شراء هذه المنتجات الامريكية الشمالية الباهظة الثمن.

إن البن يفيد من يستهلكونه أكثر ممن ينتجونه. وفي الولايات المتحدة وأوربا يولد أرباحاً وفرص عمل ويعبئ رؤوس أموال كبيرة؛ أما في امريكا اللاتينية، فإنه يقدم أجور جوع ويزيد من حدة التشوه الاقتصادي للبلاد الموضوعة في خدمته. في الولايات المتحدة، يتيح البن عملاً لأكثر من ستمائة الف شخص : والامريكيون الشماليون الذين يوزعون ويبيعون البن الامريكي اللاتيني يكسبون أجوراً أعلى بما لا يقاس من البرازيليين، أو الكولومبيين، أو الجواتيماليين، أو السلفادوريين، أو الهايتيين الذين يبذرون ويحصدون البذور في المزارع. ومن جهة أخرى، تخبرنا اللجنة الاقتصادية لامريكا اللاتينية CEPAL، ورغم غرابة ذلك، بأن البن يلقي بثروة أكبر في خزائن الدول الاوربية، مما يتركه من ثروة في أيدي البلدان المنتجة . وبالفعل، فإنه، « في عامي ١٩٦٠ و ١٩٦١، تصاعدت الاعباء المالية الاجمالية المفروضة من بلدان السوق الاوربية

www.ibtesama.com/vb

على البن الامريكي اللاتيني الى نحو سبعمائة مليون دولار ، بينما لم تبلغ دخول البلدان المورّدة (بالنسبة لسعر التسليم على السفينة .F.O.B لنفس الصادرات) سوى ستمائة مليون دولار» [٣٦]. إن البلدان الغنية ، التي تدعو الى التجارة الحرة، تطبق أشد سياسات الحماية ضد البلدان الفقيرة : إنهم يحولون كل ما يلمسونه الى ذهب بالنسبة لهم وإلى صفيح بالنسبة للآخرين - بما في ذلك نفس انتاج الدول المتخلفة. والسوق الدولية للبن شديد ة الشبه بالخدعه بحيث أن البرازيل قبلت مؤخراً فرض رسوم عالية على صادراتها من البن السريع الذوبان لكي تحمي، حماية معكوسة، مصالح الصناع الامريكين الشماليين لنفس المنتج. والبن السريع الذوبان الذى تنتجه البرازيل أرخص وافضل في النوعية من ذلك الذى تنتجه الصناعة المزدهرة للولايات المتحدة، لكن من الواضح أنه في نظام المنافسة الحرة ، هناك البعض ممن هم اكثر حرية من الاخرين.

في هذه المملكة من العبث المُنظّم تتحول الكوارث الطبيعية الى بركات من السماء للبلدان المنتجة. فتجاوزات الطبيعة ترفع الاسعار وتسمح بتحريك الاحتياطيات المتراكمة. وقد حكمت موجات الصقيع العادة التى دمرت محصول عام ١٩٦٩ في البرازيل بالخراب على الكثير من المنتجين ، وبالاخص على أكثرهم ضعفاً ، لكنها دفعت الى أعلى الاسعار الدولية للبن وخففت بشدة من المخزون البالغ ستين مليون كيس - تعادل ثلثي الدين الخارجي للبرازيل - التي كانت الدولة قد راكمتها للمحافظة على الاسعار. فالبن المخزون ، الذى كانت نوعيته تسوء ويفقد قيمته باطراد ، كان يمكن أن ينتهي به الامر إلي الالقاء في النيران . ولن تكون هذه أول مرة. فبسبب أزمة عام ١٩٢٩ ، التى خفضت الاسعار وقلصت الاستهلاك ، وأحرقت البرازيل ٧٨ مليون كيس بن : وهكذا أحرقت السنه اللهب جهد مائتي الف شخص خلال خمسة محاصيل [٣٧]. كانت تلك أزمة نمطية لاقتصاد إستعماري : بل جاءه من الخارج . وقد أثار الانخفاض المفاجئ فى أرباح المزارعين ، والمصدرين للبن خلال الثلاثينات ، بالاضافة الي احتراق البن ، اشتعالاً في النقود ، هذه هي الآلية المعتادة في امريكا اللاتينية من أجل «اشتراكية الخسائر» للقطاع التصديري : اذ يعوض في العملة القومية ، من خلال خفض قيمتها ، ما يتم فقده في العملات الصعبة .

لكن ليس لازدهار الاسعار نتائج أفضل. فإنه يطلق عنان زراعات أكبر ، وزيادة في الانتاج ، وتضاعفاً في المساحة المخصصة لزراعة المنتج السعيد الحظ. ويعمل الحافز بطريقة إرتدادية Boomerang ، لأن الوفرة في المنتج تخفض الاسعار وتنهر

www.ibtesama.com/vb

الكارثة . وهذا ما حدث عام ١٩٥٨ ، فى كولومبيا ، حين تم جمع محصول البن الذى بذر بحماس كبير قبلها بأربع سنوات وتكررت الدورات المماثلة على طول تاريخ هذا البلد. فكولومبيا تعتمد على البن وعلى سعره الخارجي الى درجة أنه ، «فى انتيوكيا Antioquia ، يستجيب المنحنى البيانى للزواج بشدة لمنحنى اسعار البن. وهذا أمر نمطي بالنسبة لبنية تابعة : فحتى اللحظة المواتية لاعلان الحب فى أحد تلال انتيوكيا تتقرر فى بورصة نيويورك»[٧٨].

■ عشر سنوات أدمت كولومبيا

فى سنوات الاربعينات ، كتب الاقتصادى الكولومبى ذو المكانة لويس إدواردو نييتو أرتيتا Luis Eduardo Nieto Arteta دفاعاً عن البن. فقد حقق البن ما لم تبلغه أبداً ، فى الدورات الاقتصادية السابقة للبلاد ، لا المناجم ولا التبغ ، ولا النيلة ولا الكينا : حقق مولد نظام ناضج وتقدمى. كانت مصانع النسيج وغيرها من الصناعات الخفيفة قد ولدت، وليس بمحض الصدفة ، فى المقاطعات المنتجة للبن : أنتيوكيا Antioquia، وكالداس Caldas ، ووادى كاوكا Valle Del Cauca وكونديناماركا Cundinamarca. كانت ديمقراطية صغار المنتجين الزراعيين ، المكرسين لانتاج البن ، قد حولت الكولومبيين الى «رجال معتدلين وعاقلين». قال « أن أهم فرضية من أجل اضفاء الاعتيادية على اداء الحياة السياسية الكولومبية كانت هى تحقيق استقرار اقتصادى فريد. وقد انتجها البن» وأنتج معها الهدوء والتعقل»[٧٩].

وبعد زمن يسير، أنفجر العنف. وفى الواقع ، لم تكن مدائح البن قد قطعت، كأنما بفعل السحر ، التاريخ الطويل من الانتفاضات والقمع الداميين فى كولومبيا. وفى هذه المرة ، وخلال عشر سنوات ، بين ١٩٤٨ و ١٩٥٧ ، شملت الحرب الفلاحية المزارع الصغيرة والكبيرة و الصحراوات والاراضى المزروعة، الوديان والغابات والقفار الانديزية ، وطردت الى المنفى جماعات بأكملها، وولدت جماعات حرب عصابات ثورية وعصابات مجرمين وحولت البلاد بأسرها الى جبانة : ويُقَدّر أنها أودت بحياة مائة وثمانين الف شخص[٨٠]. وتصادف حكم الدم مع فترة انتعاش اقتصادى للطبقة المسيطرة : فهل من المشروع ان نخلط بين رخاء طبقة ورفاهية بلد من البلدان؟

بدأ العنف بإعتباره مواجهة بين الليبراليين والمحافظين، لكن ديناميكية الحقد الطبقى

www.ibtesama.com/vb

أخذت تؤكد باستمرار طابع الصراع الطبقي، كان خورجي اليثر جايتان Jorge Eliecer Gaitan ، الزعيم الليبرالي الى الذى كانت أوليهاركية حزبه ذاته ، بين الاحتقار والخشية ، تسمية باسم «الذئب» أو «الوغد» "El Lobo o El Badulaque" ، كان قد اكتسب مكانة شعبية كبيرة وهدد النظام القائم؛ وحين اغتالوه بالرصاص ، انطلق الاعصار .

وكانت البداية مداً بشرياً ساحقاً في شوارع العاصمة ، و«ملحمة بوجوتا» * العفوية ، وعلى الفور انتقل العنف الى الريف ، حيث كانت العصابات التى ينظمها المحافظون تأتي، منذ زمن، باذرةً بذور الرعب. انفجر الحقد الذي ظل الفلاحون يضمرونه طويلاً ، وبينما الحكومة تبعث شرطة وجنوداً ليقطعوا خصيات الرجال، ويشقوا بطون النساء الحوامل أو يطوحون الاطفال في الهواء ليخترقوهم بالسونكى تحت شعار «ألا يتركوا حتى البذرة»، كان دكاترة الحزب الليبرالى قابعين فى بيوتهم دون أن يغيروا من سلوكهم الجيد أو من اللهجة الفروسية لبياناتهم أو كانوا يمضون الى المنفى، في أسوأ الاحوال. وكان الفلاحون هم من دفعوا الموتى. بلغت الحرب درجات من القسوة التي لا تصدَّق، تدفعها رغبة في الانتقام نمت مع الحرب نفسها. وظهرت أساليب جديدة للموت : ففى «موضة رباط العنق »، كان اللسان يظل معلقاً من القفا. وجرت أعمال الاغتصاب، واشعال الحرائق، والنهب؛ كان الرجال تقطع اطرافهم أو يحرقون احياء، ويسلخون أو يقطعون إرباً إرباً ببطء؛ وكانت الفصائل تحرق القرى والمزارع؛ واصطبغت الانهار باللون الاحمر؛ وكان قطاع الطرق يمنحون الاذن بالحياة مقابل جزية تدفع نقداً أو بأحمال بن وطردت قوات القمع أو طاردت عدداً لا يحصى من العائلات التي هربت الى الجبال بحثاً عن ملاذ : وفي الغابات ، كانت النساء تلدن. أما زعماء حرب العصابات الاوائل ، الذين حركتهم ضرورة الثأر دون آفاق سياسية واضحة ، فقد انطلقوا يدمرون من أجل التدمير ، ويختنقون بالدم والنار دون غايات أخرى. وأما أسماء ابطال العنف (الملازم غوريلا Gorila ، والظل السيئ Malasombra ، والكندور Condor والجلد الاحمر Pielroja ، ومصاص الدماء El Vampiro ، الطير الاسود Avenegro ، ورعب السهول El Terror del Llano) فلا توحي بملحمة الثورة لكن لهجة التمرد

* من هول الملحمة التي جرت قبل ذلك في بوجوتا عام ١٩٢٨ أصبح لها إسم خاص منسوب إلي أسم العاصمة هو "Bogotazo" ويطلق كذلك علي كل ملحمة بهذه البشاعة وقد أشار جارثيا ماركث إلي هذه الملحمة في روايته الشهيرة "مائة عام من العزلة" – م

الاجتماعي انطبعت في الابيات التي تغنيها الجماعات :

أنا فلاح قح ،
ولم أبدأ العراك ،
لكن إذا أرادوا ضجيجاً
فسوف يرقصون على أقبح الأنغام.

وبالفعل ، كان الرعب دون تمييز قد ظهر كذلك ، مختلطاً بمطالب العدالة ، في الثورة المكسيكية بقيادة إميليانو ثاباتا و پانشو بيّا * Emiliano Zapata y Pancho villa . أما في كولومبيا ، فقد كان الغضب ينفجر بأية طريقة ، لكن ليس صدفة أنه من ذلك العقد من العنف ولدت جماعات حرب العصابات السياسية اللاحقة، التي رفعت ألوية الثورة الإجتماعية، ووصلت إلي حد إحتلال والسيطرة علي مناطق واسعه من البلاد. هاجر الفلاحون، الذين حاصرهم القمع، إلى الجبال وهناك نظموا العمل الزراعي والدفاع الذاتي. وتلت ما تدعى «الجمهوريات المستقلة» في تقديم الملاذ للمطاردين بعد أن وقع المحافظون والليبراليون، في مدريد، إتفاق السلام. حل زعماء كلا الحزبين ، في جو من الانخاب والعمامات، مشكلة تناوبهم في السلطة في سبيل الوفاق الوطني وعندئذ بدأوا ، متفقين، جهد «التطهير» ضد بؤر إزعاج النظام. وفي عملية واحدة فقط، من أجل القضاء على متمردي ماركيتاليا Marquetalia ، أطلقت مليون ونصف مليون قذيفة ، وقتلت عشرون الف قتيلة وتمت تعبئة سته عشر ألف جندي، أرضاً وجواً [٨١].

في ذروة العنف كان ثمة ضابط يقول : «لا تأتوني بحكايات. إئتوني بآذان» ، السادية والقمع ووحشية الحرب ، هل يمكن تفسيرها باسباب مرضية ؟ هل كانت نتيجة السوء الطبيعي لابطالها ؟ هناك رجل قطع يدي قسيس ، وأشعل النار في جسده وفي منزله ثم مزقه والقاه في قناه، لكنه صاح ، حين انتهت الحرب : « لست مذنباً. لست مذنباً، دعوني وحدي». كان قد فقد عقلة ، لكن كان لديه عقل بمعنى معين : فرعب العنف لم يفعل سوى أن أوضح للعيان رعب النظام. لأن البن لم يجلب معه السعادة والتألف، كما تنبأ نيهتو أرتيتا. حقيقاً أنه بفضل البن نشطت الملاحة في نهر ماجدالينا Magdalena وولدت خطوط السكك الحديدية والطرق وتراكمت رؤوس أموال صنعت بعض الصناعات،

* القائدان الشهيران للثورة المكسيكية. ويعرفان خطأ (نتيجة خطأ في نطق الأسماء) باسمي زاباتا وڤيلا - م.

لكن النظام الاوليجاركي والتبعية الاقتصادية لمراكز السلطة الخارجية لم تتضح مشاشتهما خلال عملية صعود البن، بل على العكس ، أصبحا اكثر قهراً بما لا يقاس بالنسبة للكولومبيين، وحين وصل عقد العنف الى نهايته، نشرت الامم المتحدة نتائج بحثها بشأن التغذية في كولومبيا . ومنذ ذلك الحين ، لم يتحسن الوضع على الاطلاق : كان ٨٨ بالمائة من تلاميذ المدارس في بوجوتا يعانون من نقص الفيتامينات ، و ٧٨ بالمائة يعانون من نقص الأريبوفلافين * وكان أكثر من نصفهم يزنون أقل من المعتاد؛ وبين العمال يصيب نقص الفيتامينات ٧١ بالمائة وبين فلاحي وادي تنسا Tensa، يصيب ٧٨ بالمائة [٨٢]. وبين الاستبيان نقصاً بارزاً في الاغذية الوقائية – اللبن ومشتقاته، والبيض، واللحم ، والسمك ، وبعض الفواكة والخضروات – التي تحمل في مجموعها البروتينات والفيتامينات والأملاح» ، أن المأساة الاجتماعية لا تتكشف فقط في وميض طلقات الرصاص، فالإحصائيات تشير الى أن معدل جرائم القتل في كولومبيا أعلى منه في الولايات المتحدة سبع مرات ، لكنها تشير كذلك الى أن ربع الكولومبيين في سن العمل يفتقر الى عمل ثابت . ويدخل الى سوق العمل كل عام مائتان وخمسون الف شخص؛ ولا تخلق الصناعة فرص عمل جديدة وفي الريف لا تحتاج بنيه المزارع الضخمة والمزارع الضئيلة الى المزيد من الاذرع : بل على العكس، فإنها تطرد باستمرار عاطلين جدداً نحو ضواحي المدن. وفي كولومبيا أكثر من مليون طفل لا يجدون مدرسة . لكن هذا لا يمنع النظام من الابقاء على ترف الحفاظ على واحد وأربعين جامعة مختلفة ، عامة أو خاصة ، وبكل منها كلياتها وأقسامها المتنوعة ، من أجل تعليم ابناء النخبة والطبقة المتوسطة التي تشكل إقلية [٨٣].

---

* Arriboflavinosis : نقص مادة الأريبو فلافين. وهي المادة التي تحدث النمو في فيتامين ب المركب – م.

■ العصا السحرية للسوق الدولية توقظ امريكاالوسطى

بلغت اراضي امريكا الوسطى منتصف القرن الماضي دون مضايقات شديدة، فعلاوة على الاغذية الموجهة الى الاستهلاك، كانت امريكا الوسطى تنتج حشرة القرمز والنيلة، برؤوس اموال قليلة، وايد عاملة قليلة، وباقل مايمكن من المشاغل. فحشرة القرمز، وهي حشرة تولد وتنمو دون مشاكل على السطح الشوكي للصبار، كانت تتمتع، مثلها مثل النيلة، بطلب مستمر من صناعة النسيج الاوربية. وقد اصاب الموت الكيميائي كلا الصبغين الطبيعيين حين اخترع الكيميائيون الالمان، حوالي عام ١٨٥٠، اصباغ الانيلين وغيرها من الاصباغ الرخيصة لصبغ الاقمشة. وبعد ثلاثين عاما من هذا الانتصار للمعامل على الطبيعة، جاء دور البن. وتحولت امريكا الوسطى. فمن مزارعها الحديثة الميلاد كان يأتي، حوالي عام ١٨٨٠ مايقل قليلا عن سدس الانتاج العالمي من البن. ومن خلال هذا الناتج، انضم الاقليم بصورة نهائية الى السوق الدولية. وتلاالمشترين الانجليز المشترون الالمان والامريكيون الشماليون؛ وبعث المستهلكون الاجانب الحياة في برجوازية البن المحلية، التي صعدت الى السلطة السياسية من خلال الثورة الليبرالية لخوستو روفينو باريوس Justo Rufino Barrios في بداية عقد السبعينات من القرن التاسع عشر. وايقظ التخصص في الزراعة، والمفروض من الخارج، نهم امتلاك الارض والبشر: لقد ولدت اللاتيفوندية الراهنة، في امريكا الوسطى، تحت رايات حرية العمل.

هكذا إنتقلت الى الملكيات الخاصة مساحات كبيرة مقفرة، كانت تخص الكنيسة او الدولة او لا تخص احدا، وجرى الاستنزاف المحموم للتجمعات الهندية. كان الفلاحون الذين يرفضون بيع اراضيهم يُجنّدون بالقوة في الجيش. وتحولت المزارع الى ساحات لجثث الهنود. تم احياء المراسيم الاستعمارية من جديد، مثل التعبئة الاجبارية للأيدي العاملة والقوانين ضد التشرد. وكان العمال الهاربون يطاردون بالرصاص؛ وحدثت الحكومات الليبرالية علاقات العمل وادخلت نظام الاجور، لكن الاجراء تحولوا الى ملكية خاصة لاصحاب شركات البن الجدد. ولم يحدث في اي لحظة، طوال القرن المنصرم منذ ذلك الحين، ان انعكست فترات ارتفاع الاسعار على مستوى الاجور، التي ظلت مقابلا لا يُشبع من جوع دون ان تترجم اسعار البن الافضل ابدا الى زيادات في الاجور. وكان احد العوامل التي منعت تطور سوق استهلاك داخلية في بلدان امريكا الوسطى[٨٤].

www.ibtesama.com/vb

ومثلما حدث في كل مكان، ثبطت زراعة البن في توسعها المطلق العنان ، زراعة الاغذية الموجهة للسوق الداخلية. كذلك قدر لهذه البلدان لن تعاني من النقص المزمن في الارز، والفاصوليا ، والذرة ، والقمح ، واللحوم. وبقيت بالكاد زراعة كفاف بائسة، في الاراضي المرتفعة والمدمرة حيث طردت اللاتيفوندية الهنود منذ تملكها للاراضي المنخفضة ذات الخصوبة الاكبر . وفي الجبال، بزراعة قطع أرض ضئيلة بالذرة والفاصوليا التي لا غنى عنهما حتى لايسقطوا ميتين، يحيا الهنود جزءا من السنة ثم يؤجرون قوة عملهم خلال الحصاد المزارع. وهم يمثلون احتياطيات الايدي العاملة للسوق الدولية. ولم يتغير الوضع : فالمزارع الكبيرة والصغيرة تشكل، معا ، وحدة نظام يرتكز على الاستغلال غير الانساني للايدي العاملة الهندية . وبوجه عام ، وعلى الاخص في جواتيمالا ، تبدو هذه البنية لامتلاك قوة العمل متوحدة مع نظام كامل للاحتقار العرقي : اذ يعاني الهنود من الاستعمار الداخلي البيض و المولدين، الذي تباركه الثقافة السائدة ايديولوجيا ، على نفس النحو الذي تعاني فيه بلدان امريكا الوسطى من الاستعمار الاجنبي . (٨٨)

ومنذ بداية القرن، ظهرت كذلك، في هندوراس، وجواتيمالا، وكوستاريكا، اراضي زراعة الموز ومن اجل نقل البن الى الموانى ، كان قد ولدت بعض خطوط السكك الحديدية بتمويل من راس المال القومي . وسيطرت الشركات الامريكية الشمالية على هذه السكك الحديدية واقامت غيرها ، من اجل نقل الموز فقط من المزارع ، وذلك في نفس الوقت الذي فرضت فيه احتكار خدمات الضوء الكهربائي ، والبريد ، والبرق ، والهاتف ، وغيرها من الخدمات العامة التي لاتقل اهمية ، بالاضافة الى احتكار السياسة : وفي هندوراس " يساوي البغل اكثر مما يساوي نائب في البرلمان " وفي كل امريكا الوسطى يمارس سفراء الولايات المتحدة الرئاسة اكثر مما يفعل الرؤساء . وقد ابتلعت شركة اليونايتيد فروت منافسيها في انتاج وبيع الموز، وتحولت الى اكبر لاتيفوندي في امريكا الوسطى، كما احتكرت فروعها النقل بالسكك الحديدية والنقل البحري ؛ واصبحت مالكة الموانى ، وامتلكت جمارك وشرطة خاصة بها . واصبح الدولار ، فعليا ، هو العملة القومية في امريكا الوسطى .

www.ibtesama.com/vb

■ فليصعد القراصنة إلى السفن

في المفهوم الجيو- بوليتكي للإمبريالية ، لا تعدو أمريكا الوسطى ان تكون ملحقا طبيعيا للولايات المتحدة . وحتى ابراهام لنكولن Abraham Lincoln ، الذي فكر هو الآخر في ضم اراضيها ، لم يستطع الافلات من متطلبات " المصير الواضح " للقوة العظمى على المساحات المجاورة لها (٨٦).

ومنذ منتصف القرن الماضي ، قام القرصان ويليام ووكر William Walker ، الذي كان يعمل باسم المصرفيين مورجان و جاريسون Morgan & Garrison ، قام بغزو امريكا الوسطى على راس عصابة من القتلة يسمون انفسهم " الكتيبة الامريكية الخالدين " . وبدعم نشيط من حكومة الولايات المتحدة سرق ووكر ، وقتل ، واحرق ، واعلن نفسه رئيسا ، في حملات متتالية ، على نيكاراجوا ، والسلفادور ، وهندوراس . واعاد العبودية الى الاراضي التي قامت من احتلاله المدمر ، مواصلا بهذه الطريقة العمل الانساني لبلاده في الولايات التي كانت قد اغتصبت ، قبل قليل ، من المكسيك .

وعند عودته، استقبل في الولايات المتحدة كبطل قومي، ومنذ ذلك الحين، جرت احداث الغزو ، والتدخلات ، والقصف ، والقروض الاجبارية والمعاهدات الموقعة في ظل المدافع . وفي عام ١٩١٢ اكد الرئيس ويليام هـ . تافت William H.taft انه : "ليس بعيدا ذلك اليوم الذي تحدد فيه ثلاثة اعلام ذات خطوط ونجوم، امتداد اراضينا في ثلاثة مواقع على مسافة متساوية : واحد في القطب الشمالي ، واخر في قناة بنما ، والثالث في القطب الجنوبي . سيكون كل نصف الكرة الغربي ملكنا ، مثلما هو ملكنا معنويا ، بفضل تفوقنا العرقي " (٨٧) . وقال تافت ان طريق العدل المستقيم في السياسة الخارجية للولايات المتحدة " لا يستبعد باية طريقة تدخلا نشيطا من اجل ضمان تسهيلات امام الاستثمارات المربحة لبضائعنا و رأسماليينا " . وفي نفس الحقبة ، تذكر الرئيس الاسبق تيدي روزفلت Teddy Roosevelt بصوت عال اقتطاعه الناجح لاراضي تخص كولومبيا فقال : " لقد اخذت القناة " ، هكذا قال الرجل المتباهي الحائز على جائزة نوبل للسلام ، وهو يحكي كيف جعل بنما دولة مستقلة (٨٨) . وقد تلقت كولومبيا ، بعد ذلك بقليل ، تعويضا قيمته خمسة وعشرين مليون دولار : هي ثمن بلد ، ولد حتى يتاح للولايات المتحدة طريق للمواصلات بين المحيطين .

سيطرت الشركات على أراضي، وجماركه، وخزائن، وحكومات؛ كان جنود المارينز

www.ibtesama.com/vb

Marines يقومون بالانزال في كل مكان من اجل "حماية حياة و مصالح المواطنين الامريكيين الشماليين"، وهو العذر المماثل لذلك الذي سيستخدمونه، عام١٩٦٥، لكي يمحوا بالماء المقدس اثار جريمة الدومينيكان. وكان العلم يلف بضائع اخرى. فقد لخص القومندان سميدلي د . بطلر Smedley Butler الذي كان على رأس الكثير من العملات، نشاطه ، عام ١٩٣٥ ، بعد ان احيل الى الاستيداع بقوله : " لقد قضيت ثلاثة وثلاثين عاماً واربعة اشهر في الخدمة العاملة ، كعضو في القوة العسكرية الاكثر حيوية لهذا البلد : في سلاح مشاة البحرية . وخدمت في كل الرتب ، من رتبة ملازم ثان الى جنرال فرقة. وخلال كل هذه الفترة قضيت اغلب الوقت اقوم بمهام قاتل اجير من الدرجة الاولى من اجل الاعمال الضخمة ، من اجل وول ستريت والمصرفيين . وبعبارة واحدة ، كنت قاتلا اجيرا في خدمة الرأسمالية ... هكذا ، على سبيل المثال ، في عام ١٩١٤ ، ساعدت على جعل المكسيك ، وخصوصا تامبيكو Tampico ، فريسة سهلة امام المصالح البترولية الامريكية الشمالية . وساعدت على جعل هايتي وكوبا اماكن محترمة لتحصيل الريع من جانب الناشيونال سيتي بنك National City Bank... وفي ١٩٠٩ - ١٩١٢ ، ساعدت على تطهير نيكاراجوا من اجل الشركة المصرفية الدولية براون براذرز Brown Brothers. وفي عام ١٩١٦ حملت الضوء الى جمهورية الدومينيكان، باسم مصالح السكر الامريكية الشمالية . وفي عام ١٩٠٣، ساعدت على " تهدئة " هندوراس لصالح شركات الفواكه الامريكية الشمالية " (٨٩) في الاعوام الاولى من القرن الحالي ، كان الفيلسوف وليام جيمس قد اصدر حكما لا يعرفه سوى القليلين: " ان البلاد قد تقيأت مرة واحدة والى الابد اعلان الاستقلال ..." لكي نورد مثالا واحدا، فقد احتلت الولايات المتحدة هايتي لمدة عشرين عاما ، وهناك ، في هذا البلد الزنجي الذي كان مشهد اول ثورة ظافرة للعبيد، ادخلوا الفصل العنصري ونظام العمل الاجباري، وقتلوا ألفا وخمسمائة عامل في احدى عمليات القمع (حسب تحقيق مجلس الشيوخ الامريكي الشمالي عام ١٩٢٢) ، وحين رفضت الحكومة المحلية تحويل البنك القومي الى فرع للناشيونال سيتي بانك في نيويورك ، اوقفوا دفع رواتب الرئيس و وزرائه، حتى يعيدوا التفكير في الامر (٩٠).

وتكررت حكايات مماثلة في بقية جزر الكاريبي وفي كل امريكا الوسطى، التي هي

www.ibtesama.com/vb

المجال الحيو ـ بوليتيكي لـ Marc Nostrum (*) للامبراطورية، بالايقاع المتبادل بين العصا الغليظة Big Stick أو " ديبلوماسية الدولار " .

ذكر القرآن الموز بين اشـجـار الجنة، لكن جـعـل جـواتيـمـالا و وهندوراس، وكوستاريكا، وبنما، وكولومبيا، واكوادور مزارع موز يسمح بالشك في انها احدى اشجار جهنم . ففي كولومبيا، جعلت شركة اليونايتيد فروت من نفسها مالكة لاكبر لاتيفونديا في البلاد حين اندلع، عام ١٩٢٨ ، اضراب ضخم في الساحل الاطلنطي، وتمت تصفية عمال الموز بالرصاص ، أمام محطة سكة حديد . ثم فرض مرسوم رسمي يقول ان : "رجال قوات الامن يرخص لهم بالعقاب بالسلاح ..." وبعد ذلك لم تعد ثمة ضرورة لفرض أي مرسوم يمحو المذبحة من الذاكرة الرسمية للبلاد (٩١) وقد حكى ميجيل انخل استورياس Miguel Angel Asturias عملية فتح ونهب امريكا الوسطى . فالبابا الاخضر EL Papa verde كان هو ماينوركيث Minor Keith ، الملك غير المتوج للاقليم بأسره، وأبو شركة اليونايتيد فروت، وملتهم البلاد. " لدينا مرافىء وسكك حديدية، وأراض، ومبان، وجداول ـ يعدد الرئيس؛ الدولار يتداول، ويجرى الحديث بالانجليزية، ويخفق علمنا ..." " لم يكن باستطاعة شيكاجو ان تحس بأقل من الفخر بهذا الابن الذي مضى يتوج من المسدسات وعاد ليطالب بمكانه بين اباطرة اللحم ، وملوك السكك الحديدية ، وملوك النحاس ، وملوك اللبان " (٩٢).

وفي رواية الشارع الثاني والاربعين الموازي 42 nd parallel رسم جون دوس باسوس John dos Passos السيرة الذاتية اللامعة لكيث، السيرة الذاتية للشركة :

" في أوربا والولايات المتحدة، بدأ الناس يأكلون الموز، وهكذا حطموا الغابات عبر امريكا الوسطى لبذر الموز واقامة السكك الحديدية من اجل نقل الموز، وفي كل عام كانت سفن شراعية تابعة للجريت وايت فليت Great White Fleet تمضي صوب الشمال مكدسة بالموز، وهذه هي حكاية الامبراطورية الامريكية الشمالية في الكاريبي وحكاية قناة بنما وقناة نيكاراجوا المستقلة والمارينز والمدرعات والخناجر ..." .

اصبحت الارض منهكة مثل العمال : فقد كانوا يسرقون من الارض الرواسب العضوية ومن العمال رئاتهم، و لكن كان ثمة دائما أراض جديدة تستغل وعمال جدد

* Marc Nostrum : تعني حرفياً «بحرنا» وهي التعبير الذي كان الرومان يطلقونه على البحر الأبيض المتوسط باعتباره بحراً مغلقاً للإمبراطورية الرومانية. والمقصود أن الكاريبي بحر مغلق لإمبراطورية الولايات المتحدة - م.

www.ibtesama.com/vb

بيادون . وكان الدكتاتوريون، الشخصيات البارزة في الاوبريت، يسهرون على رفاهية اليونايتيد فروت والسكين بين اسنانهم . وفيما بعد، اخذ انتاج الموز في التناقص وعانت قدرة الشركة الكلية من عدة ازمات، لكن امريكا الوسطي لاتزال، في ايامنا، محرابا لكسب امام المغامرين رغم ان البن ، والقطن ، والسكر قد أنزلوا الموز من مكانه المتاز، وفي عام ١٩٧٠ ، نجد ان الموز هو المصدر الرئيسي للعملات الصعبة لهندوراس وبنما، ولاكوادور، في امريكا الجنوبية . وعند عام ١٩٣٠، كانت امريكا الوسطى تصدر سنويا ٣٨ مليون عنقود موز وكانت اليونايتيد فروت تدفع سنتيما على سبيل الضريبة على كل عنقود. ولم تكن هناك طريقة لمصر دفع الضريبة الطفيفة (التي زادت قليلا بعد ذلك)، ولا توجد طريقة بعد، لان اليونايتيد فروت مازالت اليوم تصدر وتستورد ما شاءت على هامش الجمارك الرسمية . اما الميزان التجاري وميزان المدفوعات للبلاد فانهما من اعمال الخيال التي يتولاها تقنيو الخيال البارع .

■ أزمـة الثلاثينـات :

« قتل نملة جريمة أكبر من قتل رجل »

كان البن يعتمد على السوق الأمريكية الشمالية ، على طاقة استهلاكها ، وعلى اسعارها؛ وكان الموز تجارة أمريكية شمالية من اجل أمريكيين شماليين . وفجأة ، تفجرت ازمة ١٩٢٩ . وجعل انهيار Crack بورصة نيويورك أربطة الرأسمالية العالمية تطقطق ، لكنه سقط على الكاريبي مثل كتلة هائلة من الصخر في بركة صغيرة . سقطت أسعار البن والموز رأسيا، وسقط رأسيا كذلك حجم المبيعات. إحتدم طرد الفلاحين بعنف محموم، وانتشرت البطالة في الريف وفي المدن ، وثارت موجة من الاضرابات؛ وانخفضت بحدة القروض ، والاستثمارات، والانفاق العام ، وانخفضت مرتبات موظفي الدولة الى مايقرب من النصف في هندوراس، وجواتيمالا ، ونيكاراجوا [٩٣]. ووصل طاقم الدكتاتوريين دون ابطاء لسحق الغليان؛ واستهلت حقبة سياسة حسن الجوار في واشنطن، لكن كان من الضروري احتواء التحريض الاجتماعي، الذي يمور في كل مكان، بالدم والنار. ولنحو عشرين عاما اكثر قليلا بالنسبة للبعض ، واقل قليلا بالنسبة لآخرين ـ بقي في السلطة خورخي اوبيكو Jorge Ubico في جواتيمالا، ومكسيميليانو

www.ibtesama.com/vb

ارناندث مارتينث Marximiliano Hernandez Martínez في السلفادور، وتيبورثيو كارياس Tiburcio Carias في هندوراس ، واناستاسيو سوموثا Anastasio Somoza في نيكاراجوا .

وحركت ملحمة اوجستو ثيسار ساندينو Augusto Cesar Sandino مشاعر العالم . وادى النضال الطويل لزعيم مقاتلي العصابات في نيكاراجوا الى المطالبة بالارض والى اشعال الغضب الفلاحي. فخلال سبع سنوات، ظل جيشه الصغير من العراه يقاتل، في ان واحد، ضد الغزاة الامريكيين الشماليين الاثني عشر الفا وضد قوات الحرس الوطني. وكانوا يصنعون القنابل اليدوية بعلب السردين المليئة بالحصى، وكانت البنادق من طراز سبرينجفيلد تسقط الاعداء، والسكاكين متوفرة؛ وكانت سارية العلم غصنا لم يُشذَّب وبدل الاحذية كان الفلاحون يستخدمون رباطا من الجلد يسمى كايتي Caite لكي يتحركوا في الجبال الوعرة. وعلى موسيقى اديليتا Adelita ، كان مقاتلو العصابات ينشدون : (٩٤)

في نيكاراجوا ، ايها السادة ،
يضرب الفأرُ القط .

لم تكن طاقة نيران مشاة البحرية و لا القنابل التي تقدمها الطائرات بكافية لسحق ثوار لاس سيجوبياس Las Segovias . كذلك لم تكن كافية تلك الاختلاقات التي نشرتها في العالم كله وكالتا اسوشيتيد برس و يونايتيد برس، اللتان كان مراسلاهما في نيكاراجوا امريكيان شماليان يسيطران على جمارك البلاد .(٩٥) وفي عام ١٩٣٢، تنبأ ساندينو قائلا : " لن اعيش وقتا طويلا ". وفي العام التالي، مع فيض سياسة حسن الجوار الامريكية الشمالية، تم الاحتفال بالسلام. فقد دعي الرئيس زعيم مقاتلي العصابات الى اجتماع حاسم في ماناجوا. وفي الطريق سقط ميتا في كمين . والمع القاتل ، اناستاسيو سوموثا، فيما بعد إلى ان الاغتيال تم بامر من السفير الامريكي الشمالي ارثر بليس لين Arthur Bliss Lane ، ولم يتباطأ سوموثا، الذي كان قائدا عسكريا حينئذ، في الاستيلاء على السلطة. وحكم نيكاراجوا طوال ربع قرن بعده تلقى ابناؤه المنصب، بالوراثة. وقبل ان يتقلد وشاح الرئاسة ، كان سوموثا قد انعم على نفسه بصليب الشجاعة ، ونوط الاستحقاق ، ووسام الجدارة الرئاسي. وبعد ان اصبح

www.ibtesama.com/vb

في السلطة، نظم عدة مذابح واحتفالات ضخمة ، جعل جنوده فيها يتنكرون في زي الرومان، بصنادل وخوذات؛ وتحول الى اكبر منتج للبن في البلاد، في ٤٦ مزرعة، كما كرس نفسه لتربية الماشية في ٥١ مزرعة اخرى . ورغم ذلك ، لم ينقصه الوقت ابدا حتى يبذر بذور الرعب كذلك، وخلال فترة حكمه الطويلة ، لم يقاس، والحق يقال، من الضيق . وكان يتنكر ببعض الاسى سنوات شبابه ، حين كان عليه ان يزيف نقودا ذهبية حتى يستطيع ان يتسلى .

كذلك اندلعت التوترات في السلفادور كنتيجة للازمة. كان نحو نصف عمال مزارع الموز في هندوراس سلفادوريين اضطر الكثير منهم للعودة الى بلادهم، حيث لم يكن ثمة عمل لاحد. وفي اقليم ايزالكو Izalco ، جرت انتفاضة فلاحية كبيرة عام ١٩٣٢ ، انتشرت بسرعة الى كل غرب البلاد. فارسل الدكتاتور مارتينث الجنود، المزودين بمعدات حديثة ، ليحاربوا ضد "البلشفيك". وقاتل الهنود بالسكاكين ضد الرشاشات واختتم هذا العمل بعشرة الاف قتيل . كان مارتينث، ذلك الساحر النباتي ومحب اللاهوت، يؤكد ان "قتل نملة جريمة اكبر من قتل رجل، لان الرجل يبعث بعد موته، بينما تموت النملة نهائيا"[٩٦] وكان يقول ان "قيالق غير منظورة" تحميه وتخبره بكل المؤامرات وكان يمارس الاتصال بالتخاطر المباشر عن بعد برئيس الولايات المتحدة . وكانت ساعة ذات بندول، فوق الطبق، تبين له ما اذا كان الطعام مسموما؛ وتشير له، على الخريطة، إلى الاماكن التي يختبئ فيها الاعداء السياسيون وكنوز القراصنة . وكان من عادته ان يرسل بطاقات تعزية الى أباء ضحاياه وكانت الغزلان ترعى في فناء قصره. وقد حكم حتى عام ١٩٤٤ .

جرت المذابح في كل مكان. وفي عام ١٩٣٢ ، اعدم خورخي اوبيكو رميا بالرصاص مئة من القادة النقابيين، والطلابيين، والسياسيين، في الوقت الذي اعاد فيه تطبيق القوانين المناهضة "لتشرد" الهنود . كان يجب على كل هندي ان يحمل دفترا تسجل فيه ايام عمله ؛ واذا لم تعتبر هذه الايام كافية، كان يسدد ماعليه منها في السجن او قاصما ظهره فوق الارض، مجانا، خلال نصف عام. وفي الساحل غير الصحي للمحيط الهادي، يتقاضى العمال الذين يعملون خائضين في الطين حتى ركبهم ثلاثين سنتا في اليوم، وقد اوضحت اليونايتيد فروت ان اوبيكو قد اجبرها على خفض الاجور. وفي عام ١٩٤٤ ، قبل قليل من سقوط الدكتاتور، نشرت مجلة الريدرز دايجست Readers Digest مقالا ملتهبا من المديح: فقد تجنب نبي صندوق النقد الدولي هذا التضخم

بخفض الاجور، من دولار واحد الى خمسة وعشرين سنتيما يوميا، في انشاء طريق الطواري العسكري، ومن دولار الى خمسين سنتيما يوميا ، في اعمال القاعدة الجوية في العاصمة . وفي هذه الفترة، منح اوبيكو سادة البن وشركات الموز الترخيص بالقتل : " سيعفى من المسئولية الجنائية ملاك المزارع ...." كان المرسوم يحمل رقم ٢٧٩٥وتجدد عام ١٩٦٧ ، خلال حكم الحكومة الديمقراطية والتمثيلية لميندث مونتينيجرو Mendez Montenegro .

ومثل كل طغاة الكاريبي، كان اوبيكو يظن نفسه نابليون. وعاش محاطا بتماثيل نصفية للامبراطور الذي كان له، حسب قوله، نفس ملامحه. وكان يؤمن بالانضباط العسكري : فقد صبغ بالصبغة العسكرية مستخدمي البريد واطفال المدارس و الأوركسترا السيمفوني . كان اعضاء الاوركسترا يعزفون وهم مرتدين الزي الرسمي ، المقطوعات التي يختارها اوبيكو بالاسلوب والالات التي يحددها، وذلك مقابل تسعة دولارات شهريا . واعتبر ان المستشفيات من اجل المخنثين، بحيث كان المرضى يتلقون العلاج على ارض الممرات والدهاليز، اذا كان من نصيبهم شقاء ان يكونوا فقراء بالاضافة الى كونهم مرضى .

■ من أطلق العنف في جواتيمالا ؟

في عام ١٩٤٤، سقط اوبيكو من فوق منصته، اكتسحته رياح ثورة ذات طابع ليبرالي تزعمها بعض الضباط الشباب والجامعيين من الطبقة المتوسطة . وبدأ خوان خوسيه اريبالو Juan Jose Arevalo ، الذي اختير رئيسا، خطة تعليم نشطة واصدر قانونا للعمل لحماية عمال الريف والمدن. وولدت عدة نقابات؛ اما اليونايتيد فروت كومباني، مالكة الاراضي الشاسعة، والسكك الحديدية والميناء، والمعفاه تقريبا من الضرائب والقيود، فلقد كفت عن كونها ملكية القدرة في ممتلكاتها. وفي عام ١٩٥١، في خطاب الوداع، كشف اريبالو النقاب عن انه كان عليه ان يحبط اثنتين وثلاثين مؤامرة مولتها الشركة. وواصلت حكومة خاكوبو اربنث Jacobo Arbenz وعمقت دورة الاصلاحات . فقد كسرت الطرق وميناء سان خوسيه الجديد احتكار شركة الفواكه على المواصلات والتصدير. وبرأسمال قومي، ودون ان يمد يده الى اي بنك اجنبي، بدأ تنفيذ مشروعات تنمية عديدة افضت الى تحقيق الاستقلال. وفي يونيو عام ١٩٥٢، تم اقرار

www.ibtesama.com/vb

الاصلاح الزراعي، الذي استفادت منه اكثر من مائة الف اسرة، رغم انه كان يسري فقط على الاراضي غير المنتجة ويقضي بدفع تعويضات، على شكل سندات، للملاك الذين تنتزع ملكيتهم. كانت اليونايتيد فروت لاتزرع سوى ثمانية بالمائة من اراضيها الممتدة بين كلا المحيطين .

طرح الاصلاح الزراعي " تطوير الاقتصاد الرأسمالي الفلاحي والاقتصاد الرأسمالي في الزراعة بوجه عام "، لكن حملة دعاية دولية مسعورة انطلقت ضد جواتيمالا: "الستار الحديدي يسقط حول جواتيمالا ". هذا ماتصايحت به الاذاعات ، والصحف، واقطاب منظمة الدول الامريكية.(٩٧) ، وقام الكولونيل كاستيو ارماس Castrillo Armas، المتخرج من كلية فورت ليفنورث العسكرية، بولاية كانساس ، بدفع القوات المدربة، و المزودة لهذا الغرض في الولايات المتحدة، ضد بلاده ذاتها. وساند الغزو قصف الطائرات من طراز اف - ٤٧، التي يقودها طيارون امريكيون شماليون. وبعد ذلك بتسع سنوات، قال دايت أيزنهاور Dwight Eisenhower "(٩٨) كان علينا ان نتخلص من حكومة شيوعية صعدت الي السلطة". وكشفت تصريحات السفير الامريكي الشمالي في هندوراس امام لجنة فرعية لمجلس الشيوخ في الولايات المتحدة ، في ٢٧ يوليو ١٩٦١ ، ان العملية التحريرية لعام ١٩٥٤ قد نفذها فريق إشترك فيه، بالاضافة اليه هو نفسه، السفراء لدى جواتيمالا، وكوستا ريكا، ونيكاراجوا. وقد ارسل اليهم الن دلاس Allen Dulles ، الذي كان الرجل الاول في وكالة المخابرات المركزية C.I.A في ذلك الحين، ارسل اليهم برقيات تهنئة على العمل الذي تم انجازه. وقبل ذلك، كان الن الطيب قد شارك في مجلس ادارة اليونايتيد فروت كومباني . وشغل كرسيه ، بعد عام من الغزو، مدير اخر في وكالة المخابرات المركزية ، هو الجنرال والتر بيديل سميث Walter Beedell Smith، وكان فوستر دلاس Foster Dulles ، شقيق الن، قد ظهر نافذ الصبر في مؤتمر منظمة الدول الامريكية الذي بارك الحملة العسكرية ضد جواتيمالا. وبالصدفة، كانت مسودات عقود شركة اليونايتيد فروت قد حررت، في زمن الدكتاتور اوبيكو، في مكتبه للمحاماه .

وترك سقوط اربنث علامة من اللهب على التاريخ اللاحق للبلاد. فنفس القوات التي قصفت مدينة جواتيمالا، وبويرتو باريوس وميناء سان خوسيه عند غروب يوم ١٨ يونيو ١٩٥٤، هي الموجودة في السلطة اليوم. وتلت التدخل الاجنبي عدة دكتاتوريات وحشية، تشمل فترة حكم خوليو ثيسار ميندث مونتينجرو (١٩٦٦ - ١٩٧٠) ، الذي اسبغ على

www.ibtesama.com/vb

الدكتاتورية ديكور نظام ديمقراطي. وقد وعد مونتينجرو بإجراء اصلاح زراعي، لكن اقتصر على توقيع الترخيص لملاك الاراضي بحمل الاسلحة ، وباستخدامها . وكان الاصلاح الزراعي الذي اجراه أربينث قد تمزق اربا حين اتم كاستيو ارماس مهمته باعادة الاراضي الى اليونايتيد فروت و الملاك الاخرين الذين انتزعت ملكيتهم .

وكان عام ١٩٦٧ اسوأ اعوام دورة العنف التي استهلت في ١٩٥٤ . وقد ابلغ قس كاثوليكي امريكي شمالي طرد من جواتيمالا، هو الاب توماس ملفيل Thomas Melville صحيفة الناشيونال كاثوليك ريبورتر National Catholic Reporter في يناير عام ١٩٦٨ انه : خلال مايزيد قليلا عن عام، اغتالت جماعات اليمين الارهابية اكثر من الفين وثمانمائة من المثقفين ، والقادة النقابيين ، والفلاحين الذين " حاولوا مقاومة مفاسد المجتمع الجواتيمالي". وقد اجرى الاب ملفيل حسابه على اساس معلومات الصحف لكن احدا لم يبلغ ابدا عن غالبية الجثث : فقد كانوا هنودا بلا اسم و لا اصل معروف ادرجهم الجيش، احيانا ، كمجرد ارقام، في بيانات النصر على التخريب. وشكل الاضطهاد دون تمييز جزءا من العملة العسكرية،من اجل " محاصرة وتصفية " حركات مقاتلي العصابات. وطبقا للقانون الجديد الساري ، لا يتحمل اعضاء اجهزة الامن مسئولية جنائية عن القتل، وتعتبر البيانات البوليسية او العسكرية براهين ثابته في المحاكمات. وقد اضفيت على اصحاب الضياع ومديريهم قانونيا صفة السلطات المحلية، مع حقهم في حمل الاسلحة وفي تشكيل اجهزة قمع . لم تدق اجهزة التيكرز في العالم معلنة اخبار المذبحة المنهجية، ولم يصل الى جواتيمالا الصحفيون المتشوقون الى الاخبار، ولم يستمع احد الى اصوات الادانة. ادار العالم ظهره، بينما كانت جواتيمالا تعاني من ليلة سان بارتولوميو الطويلة (*). بقيت قرية كاخون دل ريو Cajon del Rio بلا رجال، اما رجال قرية تيتوكي Tithuquc فقد اخرجوا امعاءهم بالسكاكين كما سلخوا رجال قرية بييدرا بارادا Piedre Parada احياء وإحرقوا احياء رجال قرية اجوا بلا نكادي ايبالا Agua Blanca de Ipala بعد ان اطلقوا الرصاص على سيقانهم؛ وفي قلب ميدان سان خورخي علقوا فوق رمح رأس فلاح متمرد. وفي ثيرو جوردو Cerro Gordo، ملأوا بالدبابيس حدقتي عين خايمي بيلا ثكيث، وتم العثور على جسد ريكاردو ميراندا وبه ثمانية وثلاثين ثقبا اما رأس هارولد وسيلبا، بدون جسد هارولد

* ليلة سان بارتولوميو الطويلة : إشارة إلى المذبحة البشعة للبروتستانت في عهد شارل التاسع في فرنسا في ٢٣ أغسطس ١٥٧٢ — م.

www.ibtesama.com/vb

سيليبا، فقد عثر عليه على قارعة الطريق المؤدي الى سان سلفادور؛ وفي لوس ميكسكوس Los Mixcos قطعوا لسان ارنستو تشينشيا Ernesto Chinchilla ؛ وفي نبع اوخو دي اجوا Ojo de Agua، حاكت الطلقات الاخوة اوليبا الدانا وايديهم مقيدة خلف ظهورهم واعينهم معصوبة؛ وتحولت جمجمة خوسيه جوشمان الى لغز من القطع الصغيرة المتناثرة على ارض الطريق ؛ ومن ابار سان لوكاس ساكا تيبيكث San Lucas Sacatepequez كان يخرج بدل الماء موتى؛ وكان الرجال يصبحون وقد فقدوا ايديهم او اقدامهم في ضيعة ميرافلوريس Miraflores. وكانت الاعدامات تعقب التهديدات او يخترق الموت الرقاب، دون انذار؛ وفي المدن، كانت علامة الصليب الاسود ترسم على أبواب المحكوم عليهم، وعند خروجهم تطلق عليهم الرشاشات ، و تقذف جثثهم من اعالي الجبال.

ولم يتوقف العنف بعدها ، فطوال زمن الاحتقار والغضب الذي استهل عام ١٩٥٤ ، كان العنف و مازال افرازا طبيعيا لجواتيمالا . وظلت الجثث تظهر واحدة كل خمس ساعات ، في الانهار او على جوانب الطرق ووجوهها دون ملامح ، فقد شوهها التعذيب، بحيث لايمكن التعرف عليها ابدا . كذلك استمرت، على نطاق اوسع، المذابح الاكثرخفاء : مذابح البؤس اليومية، وقد شجب قس مطرود اخر، هو الاب بليز بونبين Blase Bonpane ، في الواشنطن بوست، عام ١٩٦٨، هذا المجتمع المريض : "من بين الستين الف شخص الذين يموتون كل عام في جواتيمالا، هناك ثلاثون الفا من الاطفال. ومعدل وفيات الاطفال في جواتيمالا اعلى من مثيلتها في الولايات المتحدة اربعين مرة .

■ أول إصلاح زراعي في أمريكا اللاتينية :
قرن ونصف من الهزائم من أجل خوسيه أرتيجاس

بالحراب او بضربات السكين، كان المحرومون هم الذين قاتلوا فعلا، عند مطلع القرن التاسع عشر، ضد السلطة الاسبانية في ريف أمريكا . ولم يعوّضهم الاستقلال ؛ بل خان آمال من نزفوا دماءهم. وحين حلّ السلام، بدأ زمن الشقاء من جديد . كان ملاك الارض وكبار التجار يزيدون ثرواتهم ، بينما ينتشر فقر الجماهير الشعبية . وفي نفس الوقت ، وعلى ايقاع مؤتمرات السادة الجدد لأمريكا اللاتينية، تناثرت أراضي نواب الملك الاربعة التابعة للامبراطورية الاسبانية إرباً وولدت بلدان كثيرة كشظايا للوحدة

www.ibtesama.com/vb

القومية المفتته. كانت فكرة " الامة " التي بعثها النبلاء الامريكيون اللاتين شديدة الشبه بصورة ميناء نشيط، يقطنه العملاء التجاريون و المصرفيون للامبراطورية البريطانية، مع لاتيفونديات و مناجم في المؤخرة. كان فيلق الطفيليين الذين تلقوا انباء حرب الاستقلال وهم يرقصون رقصات المينويت في صالونات المدن، يشربون نخب حرية التجارة في كؤوس من الكريستال البريطاني. واصبحت الموضة هي الشعارات الجمهورية الزاعقة للبرجوازية الاوربية : وضعت بلادنا نفسها في خدمة الصناعيين الانجليز والمفكرين الفرنسيين. لكن، أي " برجوازية قومية " كانت برجوازيتنا، المكونة من ملاك الاراضي، وكبار المهربين ، والتجار و المضاربين ، والسياسيين المرتدين الفراك والدكاترة دون جذور؟ سرعان ما اصبح لدى امريكا اللاتينية دساتيرها البرجوزية، التي تلمع ببريق الليبرالية، لكن لم يكن لديها ، بالمقابل، برجوازية خلاقه، من الطراز الاوربي او الامريكي الشمالي، تطرح على نفسها كمهمة تاريخية تطور الرأسمالية القومية الفتية. فقد ولدت برجوازيات هذه البلاد كمجرد ادوات للرأسمالية العالمية، كقطع مزدهرة من الالة العالمية التي تدمي المستعمرات واشباه المستعمرات. كان برجوازيو واجهات العرض، المرابون والتجار، الذين احتكروا السلطة السياسية، لا يهتمون بادنى اهتمام في حفز صعود الصناعات المحلية، التي ماتت وهي جنينية حين فتح التبادل الحر الابواب امام شلال البضائع البريطانية. اما شركاؤهم، ملاك الاراضي، فلم يكونوا بدورهم مهتمين بحل " المسألة الزراعيـة "، الا بقدر ما يناسبهم . وتدعم نظام اللاتيفونديا على أساس الاستنزاف ، طوال القرن التاسع عشر . كان الاصلاح الزراعي راية مبكرة ، في الاقليم .

احباط اقتصادي، واحباط اجتماعي، واحباط قومي : تلى الاستقلال تاريخ من الخيانات، وظلت أمريكا اللاتينية ، التي تمزقها حدودها الجديدة، محكوما عليها بالزراعة الاحادية و بالتبعية . وفي عام ١٨٢٤ ، اصدر سيمون بوليفار مرسوم تروخيو Decreto de Trujillo من اجل حماية هنود البيرو واعادة تنظيم نسق الملكية الزراعية هناك: ولم تمس بنوده القانونية على الاطلاق امتيازات الاوليجاركيه البيروانية، التي ظلت كما هي برغم النوايا الطيبة للمحرر، وظل الهنود في استغلالهم كما كانوا . وفي المكسيك كان ايدالجو و موريلوس Hidalgo Y Morelos قد هزما قبل ذلك، وكان لابد ان ينقضي قرن من الزمان قبل ان تزدهر من جديد ثمار تعاليمهما في تحرير البسطاء والاستيلاء على الاراضي المغتصبة .

www.ibtesama.com/vb

وإلى الجنوب، جسد خوسيه ارتيجاس الثورة الزراعية . فهذا الزعيم الثائر الذى لطخ سمعته وشوهه التاريخ الرسمى، تزعم الجماهير الشعبية فى الاراضى التى تشكل الان اورجواى، و المقاطعات الارجنتينية سانتافى، وكورينتس، وانتر ريوس، وميسيونس، و كوردوبا، خلال الحقبة البطولية بين عامى ١٨١١ و ١٨٢٠ اراد ارتيجاس ان يضع الاسس الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية لوطن كبير فى حدود نيابة الملك السابقة فى الريو دى لا بلاتا ، وكان اهم و اوضح الزعماء الفيدراليين الذين قاتلوا ضد المركزية التصفوية لميناء بوينوس ايرس. وقد ناضل ضد الاسبان والبرتغاليين واخيرا سُحقت قواته بفعل الكماشة التى قام بها ريو دى جانيرو و بوينوس ايرس، اداتا الامبراطورية البريطانية، وبفعل الاوليجاركيه التى خانته، وفاء لاسلوبها، فور ان شعرت بدورها بان برنامج المطالب الاجتماعية للزعيم خيانة لها .

سار الوطنيون خلف ارتيجاس، والحراب فى ايديهم . كانوا فى غالبيتهم من الفلاحين الفقراء ، والجاوشو الخشنين ، والهنود الذين استعادوا احساسهم بالكرامة فى النضال ، والعبيد الذين كسبوا حريتهم بالانضمام الى جيش الاستقلال . اشعلت ثورة الفرسان الرعاه المراعى ، وجاءت خيانة بوينوس ايرس ، التى تركت فى ايدى السلطة الاسبانية والقوات البرتغالية ، عام ١٨١١ ، الاراضى التى تكون اليوم اورجواى ، لتسبب رحيلا جماعيا السكان نحو الشمال . تحول الشعب المسلح الى شعب فى المسيرة : رجال ونساء ، عجائز و اطفال، تركوا كل شئ مقتفين خطى الزعيم، فى قافلة لاتنتهى من الضجيج . وفى الشمال، على نهر اورجواى، نصب ارتيجاس معسكره، بالخيول والعربات وفى الشمال . اقام حكومته، بعد وقت قصير. فى عام ١٨١٥ ، كان ارتيجاس يسيطر على اقاليم شاسعة من معسكر بوريفيكاثيون Purificacion ، فى بايساندو Paysandu " ماذا تظنوننى رأيت ؟ " ــ قص رحالة انجليزي[٩٦] " كان فخامة السيد الحامى لنصف العالم الجديد جالسا على رأس ثور، بجوار نار مشتعلة فى الأرض الطينية لبيته، وهو يأكل لحما من الاناء ويشرب الجنين فى قرن بقرة ! وكان يحيط به دسته من ضباطه المهلهلين ..." ، ومن كل مكان كان يأتى، على ظهر الخيول المسرعة، جنود، وقواد، ومستكشفين . وكان ارتيجاس يُملى المراسيم الثورية لحكومته، وهو يمر بيديه على ظهره، وكان اثنان من الكتبه ــ لم يكن ورق الكربون موجودا ــ يدونان الملاحظات . هكذا ولد اول اصلاح زراعى فى امريكا اللاتينية، وطبق خلال عام كامل فى " المقاطعة الشرقية " ، التى تشكل اليوم اورجواى، حتى تمزق اوربا

www.ibtesama.com/vb

نتيجة غزو برتغالي جديد، حين فتحت الاوليجاركيه ابواب مونتفيديو للجنرال ليكور Lecor وحيته كمحرر وقادته بكل التكريم الى تسبيحه شكر، تكريما للغازى، امام مذبح الكاتدرائية. وقبل ذلك، كان ارتيجاس قد اصدر كذلك قانونا للجمارك يفرض ضريبة كبيرة على استيراد البضائع الاجنبية المنافسة لصناعات و حرف البلاد، المتطورة بشكل ملحوظ فى بعض الاقاليم التى تشكل اليوم جزءاً من الارجنتين والتى كانت ضمن الاقاليم الخاضعة للزعيم، وذلك فى الوقت الذى اطلق فيه استيراد لوازم الانتاج الضرورية للتنمية الاقتصادية وفرض ضريبة لا تذكر على المواد الامريكية ، مثل عشب الباراجواى وتبغ الباراجواى (١٠٠) ، وقد قام من دفنوا الثورة كذلك بدفن قانون الجمارك .

كان القانون الزراعى لعام ١٨١٥ ــ ارض حرة ، رجال احرار ــ " اكثر التشريعات تقدما و مجدا " (١٠١) من بين تلك التشريعات العديدة التى شهدتها الاورجواى. وقد اثرت افكار كامبو مانس Campomanes و خوبيانوس Jovellanos فى الثورة الاصلاحية لكارلوس الثالث، دون شك، فى تشريع ارتيجاس ، لكن هذا الاخير نشأ، بشكل حاسم، كاستجابة ثورية للحاجة القومية الى استعادة الإزدهار الاقتصادى والعدالة الاجتماعية . فقد سن مبدأ نزع ملكية و توزيع اراضى " الأوروبيين السيئين والأمريكيين الاسوأ " الذين هاجروا بسبب الثورة ولم تغفر لهم الثورة ذلك. تمت مصادرة اراضى الاعداء دون تعويض، وكان الاعداء يملكون، وهذه معلومة هامة، الاغلبية الساحقة من اللاتيفونديات. ولم يكن الابناء يدفعون ثمن ذنوب ابائهم : فقد قدم لهم القانون نفس مايقدمه للوطنيين الفقراء. وكانت الاراضى توزع وفق مبدأ ان " الاكثر شقاء سيتمتعون باكبر الامتيازات ". وكان للهنود، فى مفهوم ارتيجاس، " الحق الاساسى ". كان المعنى الجوهرى لهذا الاصلاح الزراعى يتمثل فى منح الاستقرار فى الأرض لفقراء الريف، ويحول الى فلاح ذلك الجاوشو المعتاد على حياة التجوال فى الحرب وعلى المهام السرية والتهريب فى وقت السلم. وسوف تأتى الحكومات التالية لحوض نهر البلاتا لتقضى بالدم و النار على الجاوشو، وتضمه بالقوة الى اجراء المزارع الضخمة، لكن ارتيجاس اراد ان يجعله مالكا : " بدأ العمل الشريف يروق للجاوشو المتمردين، فاقاموا البيوت والحظائر، وزرعوا اول محاصيلهم " (١٠٢).

انهى الغزو الاجنبى كل شىء . رفعت الاوليجاركية رأسها وانتقمت ، وفيما تلا ، لم يعترف التشريع بتوزيعات الاراضى التى قام بها ارتيجاس . وبدءاً من ١٨٢٠ وحتى

www.ibtesama.com/vb

نهاية القرن ، تم ، بالرصاص ، اجلاء الوطنيين الفقراء الذين استفادوا من الاصلاح الزراعي . ولم يحتفظوا " بأرض اخرى خلاف ارض قبورهم " . ومهزوما ، مضى ارتيجاس الى باراجواى ليموت وحيدا فى ختام منفى طويل من التقشف والصمت . واصبحت صكوك الملكية التى اصدرها لا تساوى شيئا : فقد اكد مدعى الحكومة ، برناردو بوستامانتى Benardo Bustamante على سبيل المثال، انه يتضح من اول نظرة "انعدام القيمة الذى يميز الوثائق المشار اليها". وفى نفس الوقت، كانت حكومته تستعد، وقد تمت استعادة " النظام " ، للاحتفال بأول دستور لاورجواى المستقلة ، المنتزعة من الوطن الكبير الذى قاتل من اجله ارتيجاس ، عبثا .

كان قانون عام ١٨١٥ يحتوى على اجراءات خاصة من اجل تجنب تراكم الاراضى فى ايد قليلة . وفى ايامنا ، يرسم ريف اورجواى مشهد صحراء : اذ تمتلك خمسمائة اسرة نصف الاراضى الاجمالية وكذلك ، بوصفها كوكبة السلطة ، تسيطر على ثلاثة ارباع رأس المال المستثمر فى الصناعة وفى البنوك (١٠٣) تتراكم مشاريع الاصلاح الزراعى ، بعضها فوق بعض ، فى المقبرة البرلمانية، بينما يخلو الريف من السكان : يضاف العاطلون الى العاطلين و يتضاءل باستمرار عدد الاشخاص الذين يعملون فى اعمال زراعية ، حسب السجل الدرامى لتعدادات السكان المتتالية . و تحيا البلاد على انتاج الصوف واللحم، لكن فى مراعيها، فى ايامنا، ترعى اغنام و ابقار اقل مما كانت منذ بداية القرن. وينعكس تأخر اساليب الانتاج فى العائدات المنخفضة للتربية الماشية - التى تتم حسب مزاج الثيران والخراف فى الربيع ، وحسب الامطار الموسمية وحسب الخصوبة الطبيعية للتربة - وكذلك فى الانتاجية الضئيلة للمحاصيل الزراعية. ولا يبلغ انتاج اللحم لكل حيوان ولا حتى نصف ماتحصل عليه فرنسا او المانيا ، ونفس الشىء بالنسبة للبن بالمقارنة مع نيوزيلندا، والدنمارك ، وهولندا، وتنتج كل عنزة من الصوف مايقل كيلو جراما عما تنتجه فى استراليا. ويغل الهكتار من القمح مايقل ثلاث مرات عن غلته فى فرنسا، وفى الذرة ، تفوق غلة الفدان فى الولايات المتحدة مقابلها فى اورجواى سبع مرات (١٠٤). ويقضى كبار الملاك الذين يهربون ارباحهم الى الخارج، يقضون الصيف فى بونتا دل استى Punta del Este وطبقا لتقاليدهم الخاصة، لايقيمون فى الشتاء كذلك فى لاتيفوندياتهم، التى يزورونها بالطائرة بين الحين والاخر: ومنذ قرن من الزمان، حيث تأسست الجمعية الزراعية، كانت عناوين ثلثى اعضائها فى العاصمة . والانتاج الواسع النطاق، الذى هو من عمل الطبيعة والاجراء الجوعى، لا

www.ibtesama.com/vb

يتضمن وجع الراس .

ومن المؤكد انه ينتج ارباحاً. فدخول و ارباح الرأسماليين من مربي الماشية تبلغ ما لا يقل عن ٧٥ مليـون دولار في العـام في الوقت الحـاضـر [١٠٥] الارباح الانتاجية منخفضة، لكن المكاسب عالية جدا، بسبب التكاليف البالغة الانخفاض . ارض بلا بشر، وبشر بلا ارض : فالاتيفونديون الكبار يستخدمون، جزءا من العام فقط، شخصين بالكاد لكل الف هكتار. وفي القرى، على حافة المزارع الضخمة، تتكوّم، بائسة، الاحتياطيات المتاحة دوما من الايدي العاملة . والجاوشو ذو السمات الفولكلورية، الذي يمثل موضوعا للوحات والقصائد، لا يشبه كثيرا الاجير الذي يعمل، في الواقع ، في الاراضي الضيقة والغريبة. تحتل الأخفاف المتهرئة مكان الاحذية الجلدية الطويلة الرقبة ويحل حزام عادي او مجرد حبل احيانا، محل الاحزمة الضيقة ذات النقوش الذهبية والفضية. ومن ينتجون اللحم فقدوا الحق في اكله : فالكريول نادرا مايتالون الشواء الكريولي التـقليـدي، ذلك اللحم الطري الشـهي الذي تذهّبــه ألسنة اللهب . ورغم ان الاحصائيات الدولية تبتسم عارضة متوسطات خداعة، فالحقيقة هي ان" الشورية " وهي طعام مطهو من الشعرية و فضلات الذبائح، يشكل الغذاء الاساسي، المفتقر الى البروتين ، للفلاحين في اورجواي [١٠٦].

■ أرتيميو كروث و ميتة إميليانو ثاباتا الثانية

بعد قرن بالضبط من قانون أرتيجاس للاراضي، طبّق اميليانو ثاباتا Emiliano Zapata ، في اقليمه الثوري جنوب المكسيك ، اصلاحا زراعيا جذريا .

قبل خمس سنوات ، كان الدكتاتور بورفيريو دياث Porfiro Diaz قد احتفل ، في احتفالات ضخمة، بالعيد المئوي الاول لصيحة دولوريس(*) : كان السادة مرتدي معاطف الفراك الذين يمثلون المكسيك الرسمي، يجهلون بصورة أوليمبية المكسيك الحقيقي، الذين كان بؤسه يغذي بهاءهم، في جمهورية المنبوذين . لم تكن دخول العمال قد زادت سنتا واحدا منذ الانتفاضة التاريخية للقس ميجيل ايدالجو Miguel Hidalgo. وفي عام ١٩١٠ ، كان مايزيد قليلا على ثمانمائة لاتيفونديو ، الكثير منهم اجانب،

* صيحة الاستقلال التي أطلقها ميجيل ايدالجو، قس دولوريس (بإقليم جوانا خواتو) في ١٦ سبتمبر ١٨١٠ وطرح توزيع الأرض والغاء الضرائب – م.

www.ibtesama.com/vb

يمتلكون كل الاراضي القومية تقريبا . كانوا سادة مدن، يعيشون في العاصمة أو في اوربا و نادرا مايزورون مركز لاتيفونديالتهم ، حيث ينامون مُتمترسين خلف جدران عالية من الحجر الداكن تدعمها اركان قوية (١٠٧). وعلى الجانب الاخرمن الجدران، في اماكن فرق العمل ، كان الاجراء يتكومون في جحور من الطين النيء. كان اثنا عشر مليونا من الاشخاص، من بين عدد اجمالي السكان يبلغ خمسة عشر مليونا ، يعتمدون على الاجور الزراعية ! وكان الاجراء يتقاضون اجرهم بالكامل تقريبا من محلات الضياع، مترجما، باسعار خيالية، الى فاصوليا ، ودقيق، و روم، وكان السجن، والمسكر، والكنيسة يتولون النضال ضد العيوب الطبيعية للهنود، الذين، حسب قول احد اعضاء أسره بارزة في ذلك العصر ، كانوا يولدون "ضعافا ، وسكيرين، ولصوصاً . كانت العبودية ، حيث العامل مقيّد بديون تورث أو بعقد شرعي ، هي النظام الفعلي للعمل في مزارع القنّب في يوكاتان Yucatan ، وفي سهول التبغ في الباي ناثيونال Valle Nacional ، وفي غابات الاخشاب والفواكه في تشياباس Chiapas وتاباسكو Tabasco وفي مزارع المطاط، والبن، وقصب السكر، والتبغ ، والفواكه في بيراكروث Veracruz ، وأواكساكا Oaxaca وموريلوس Morelos . وقد استنكر جون كينيث تيرنر John Kenneth Turner ، الكاتب الامريكي الشمالي ، في شهادته عن زيارته (١٠٨)، أن «الولايات المتحدة قد حولت بورفيريو دياث فعلياً الى نائب ملك سياسي، وبالتالي ، حولت المكسيك الى مستعمرة عبده». كانت رؤوس الأموال الامريكية الشمالية تحصل، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، على ارباح سمينة من ارتباطها بالدكتاتورية، قال تيرنر «إن العاق المكسيك بأمريكا الشمالية ، والذي كثيراً ما يتشدق به وول ستريت ، ينفذ و كأنه إنتقام».

في عام ١٨٤٥ ، كانت الولايات المتحدة قد ضمت الاراضي المكسيكية في تكساس وكاليفورنيا، حيث أعادت العبودية باسم الحضارة، وفي الحرب خسرت المكسيك كذلك الاراضي التي تشكل الآن ولايات كولورادو ، وأريزونا ، ونيومكسيكو ، ونيفادا ، ويوتاه، أكثر من نصف البلاد. وتعادل الاراضي المغتصبة المساحة الحالية للأرجنتين . «المكسيك البائسة ! – هكذا يقال منذ ذلك الحين – بعيدة جداً عن الربّ وقريبة جداً من الولايات المتحدة». أما بقية أراضيها الممزقة فقد عانت فيما بعد من غزو الاستثمارات الامريكية الشمالية في النحاس، وفي البترول، وفي السكر، وفي المصارف ، وفي النقل، فشركة الامريكان كورديج ترست American Cordage Trust ، وهي أحد فروع شركة ستاندارد أويل Standard Oil ، ليست غريبة على الاطلاق عن ابادة هنود المايا والياكي في

مزارع القنب في يوكاتان ، معسكرات الاعتقال حيث كان الرجال والاطفال يباعون ويشترون كالحيوانات ، لأن هذه كانت الشركة التي تملك اكثر من نصف القنب المنتج وكان يناسبها أن تحصل على النيلة بأسعار رخيصة. وفي أحيان أخرى ، كان استغلال قوة عمل العبيد مباشراً ، كما إكتشف تيرنر. وحكى مدير أمريكي شمالي أنه كان يدفع ثمن جماعات الاجراء المقيدة بسعر خمسين بيسو للرأس ، «ونبقيهم طالما تحملوا ... وخلال أقل من ثلاثة أشهر ندفن أكثر من نصفهم»(١٠٩).

وفي عام ١٩١٠ حانت ساعة تصفية الحساب. إنتفضت المكسيك بالسلاح ضد بورفيريو دياث، ومنذ ذلك الحين، ترأس زعيم فلاحي الانتفاضة في الجنوب : هو إميليانو ثاباتا، أكثر قادة الثورة نقاءً ، وأكثرهم إخلاصاً لقضية الفقراء، وأكثرهم حماساً في رغبته في الخلاص الاجتماعي .

كانت العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر زمناً للاستنزاف الوحشي بالنسبة للتجمعات الفلاحية في كل المكسيك؛ كانت قرى ونجوع موريلوس تقاسي من الاصطياد المحموم للأراضي ، والمياه ، والايدي العاملة التي كانت مزارع قصب السكر تلتهمها في توسعها. كانت مزارع القصب الضخمة تسيطر على حياة الولاية وكان إزدهارها قد بعث الى الحياة معامل تكرير حديثة ، ومعامل تقطير ضخمة وشبكات سكك حديدية من أجل نقل المنتج. وفي قرية أنينيكويلكو Anenecuilco ، حيث عاش ثاباتا وإلى حيث كان ينتمي جسداً وروحاً ، كان الفلاحون المستنزفون ينسبون الى انفسهم سبعه قرون من العمل المتصل على أراضيهم : فقد كانوا هناك قبل أن يصل هرنان كورتيس. وكان من يحتجون بصوت عال يساقون الي معسكرات الاعتقال القسرية في يوكاتان. ومثلما في كل ولاية موريلوس ، التي كانت أراضيها الخصبة في أيدي سبعة عشر مالكاً ، كان الفلاحون يعيشون أسوأ مما يعيش خيول البولو التي يدللها اللاتيفونديون في إسطبلاتهم الفاخرة . وقرر قانون صدر عام ١٩٠٩ إنتزاع أراض جديدة من أصحابها الشرعيين وأشعل التناقضات الاجتماعية الملتهبة أملاً.

وتحول إميليانو ثاباتا الى مقاتل عصابات ، هذا الفارس القليل الكلام ، الشهير لأنه كان أفضل مروِّض في الولاية والذي يحترمه الجميع بالاجماع لأمانته وشجاعته . و «ملتصقين بذيل جواد الزعيم ثاباتا» ، شكل رجال الجنوب بسرعة جيش تحرير(١١٠).

سقط دياث ، ووصل فرنثيسكو ماديرو Francisco Madero الى الحكم ، على عنان الثورة. ولم تتأخر وعود الاصلاح الزراعي في التبخر الى بخار تشريعي. وفي يوم

www.ibtesama.com/vb

زراجسه، اضطر ثاباتا الى قطع الصفل : فـقـد أرسلت الحكومـة قـوات الجنرال بيكتوريانوأويرتا Victoriano Huerta لسحقه . تحول البطل الى «قاطع طريق» ، وفق ما ذكره دكتاتورة المدينة. وفي نوفمبر عام ١٩١١، أعلن ثاباتا خطة أيالا Ayala ، بينما يعلن: «أنا مستعد للنضال ضد كل شيء وضد الجميع» . أعلنت الخطة أن «الغالبية الساحقة من قرى ومُواطني المكسيك لم يعودوا يمتلكون أكثر من الأرض التي يطأونها» وبعث الى التأميم الشامل لممتلكات اعداء الثورة ، وأعادة الارض التي إغتصبها سيل اللاتيفونديين الى أصحابها الشرعيين ، ونزع ملكية ثلث أراضي الملاك المقيمين ، تحولت خطة أيالا الى قطب لا يقاوم جذب الآلاف والآلاف من الفلاحين الى صفوف الزعيم الزراعي. وشجب ثاباتا «النفاق السئ الصيت» الذي يحول الامر كله الى مجرد تغيير أشخاص في الحكومة : فلم تقم الثورة من أجل هذا.

دام الصـراع نحـو عـشـر سنوات ، ضـد دياث ، وضـد مـاديرو ، ثم ضد ويرتا ، القاتل، وفيما بعد ضد بينو ستيانو كارانثا Venustiano Carranza . وكان زمن الحرب الممتد كذلك فترة للتدخلات الامريكية الشمالية المستمرة : فقد تولى جنود المارينز عمليتي إنزال وعدة عمليات قصف، ودبر الموظفون الدبلوماسيون عدة مؤامرات سياسية كما نظم السفير هنرى لين ويلسون Henry Lane Wilson بنجاح جريمة الرئيس ماديرو ونائبة. ولم تغير التبدلات المتتابعة في السلطة ، على أية حال ، من عنف الاعتداءات ضد ثاباتا وقواته ، لانها كانت تعبيراً غير مُقنّع من الصراع الطبقي في عمق الثورة القومية: كانت الخطر الحقيقي. كانت الحكومات والصحف تطنطن ضد «الجموع المغّرية» لجنرال ولاية موريلوس ، وأرسلت الجيوش الثوية ، الواحد تلو الآخر، ضد ثاباتا. كانت الحرائق والمذابح ، وتخريب القرى ، تجرى المرة تلو المرة ، دون جدوى. كان الرجال ، والنساء ، والاطفال يموتون رمياً بالرصاص أو شنقاً بإعتبارهم «جواسيس لثاباتا» وكانت المذابح تتلو اعلانات النصر: كان التطهير ناجحاً. لكن سرعان ما تعود النيران لتوقد في المعسكرات الثورية المتنقلة في جبال الجنوب. وفي مناسبات عدةّ ، شنت قوات ثاباتا هجمات مضادة بنجاح حتى مشارف العاصمة. وبعد سقوط نظام ويرتا ، قام إميليانو ثاباتا وبانشو بيّا Pancho Villa ، «أتيلا الجنوب» و «سنطور الشمال» ، بدخول مدينة المكسيك منتصرين وإقتسموا السلطة لفترة وجيزة ، ومنذ نهاية عام ١٩١٤ ، بدأت دورة قصيرة من السلم أتاحت لثاباتا أن يطبق ، في موريلوس ، اصلاحاً زراعياً أكثر جذرية من ذلك الذي أعلنته خطة أيالا . وقد أثر مؤسس الحزب

www.ibtesama.com/vb

الاشتراكي وبعض المناضلين الفوضويين - النقابيين بدرجة كبيرة في هذه العملية : فقد جعلوا ايديولوجية زعيم الحركة اكثر راديكالية ، دون أن يجرحوا جذوره التقليدية ، وقدموا له قدرة تنظيمية لاغنى عنها.

طرح الاصلاح الزراعي «التدمير من الجذور وإلى الابد لاحتكار الارض الجائر ، من أجل تحقيق حالة اجتماعية تضمن تماماً الحق الطبيعي لكل إنسان في مساحة الارض الضرورية لاقامة اوده وأود اسرته» . اعيدت الارض الي الجماعات والافراد المنهوبين على أساس قانون نقل الملكية لعام ١٨٥٦ ، وحددت حدود قصوى للأراضي حسب المناخ والجودة الطبيعية للأرض وأعلنت ممتلكات أعداء الثورة ممتلكات عامة. وكان هذا البند السياسي الاخير ، مثلما في إصلاح أرتيجاس الزراعي، يتمتع بمعنى اقتصادي واضح : فالاعداء هم اللاتيفونديون. تشكلت مدارس تقنية ، ومصانع للأدوات، ومصرفاً للتسليف الزراعي؛ وتم تأميم معامل التكرير والتقطير ، التي تحولت الى خدمة عامة، ووضع نظام الديمقراطية المحلية في أيدي الشعب منابع السلطة السياسية والحاجة الاقتصادية. ولدت وأنتشرت المدارس الثاباتية ، وتنظمت مجالس شعبية للدفاع والتطوير المبادئ الثورية ، إكتسبت ديمقراطية أصيلة شكلها وقوّتها . كانت البلديات وحدات نووية للحكومة وكان الناس يختارون سلطاتهم ومحاكمهم ، وشرطتهم، وكان على الزعماء العسكريين أن يخضعوا لإرادة السكان المدنيين المنظمين. لم تكن ارادة البيروقراطيين والجنرالات هي التي تفرض نظم الانتاج والحياة. وارتبطت الثورة بالتقاليد وعملت «في انسجام مع العادة ومع أعراف كل قرية .... ، بمعنى أنه ، اذا كانت قرية معينة تريد النظام المشاعي فسوف ينُفّذ ذلك ، واذا شاءت قرية أخرى تفتيت الارض للتعرف على ملكياتها الصغيرة ، فسوف يتم ذلك» (١١١).

وفي ربيع عام ١٩١٥ ، كانت كل حقول موريلوس مزروعة ، بالذرة والاغذية الاخرى اساساً. بينما كانت مدينة المكسيك تعاني، بسبب نقص الاغذية، من خطر المجاعة الوشيكة. كان بينو-ستيانو-كارانثا قد تولي الرئاسة وأصدر بدوره، إصلاحاً زراعياً لكن قواده لم يتباطئوا في امتلاك مكاسبه؛ وفي عام ١٩١٦ هجموا، بأسنان مسنونة، على كويرنا باكا ، عاصمة موريلوس، وعلى بقية المقاطعات الثاباتية. وأصبحت الزراعات، التي عادت تعطي ثمارها ، والمعادن، والجلود ، وبعض الالات، أصبحت كلها غنيمة ممتازة للضباط الذي تقدموا وهم يحرقون كل شئ يصادفهم ويعلنون ، في نفس الوقت، «عملاً لاعادة البناء والتقدم».

www.ibtesama.com/vb

وفي عام ١٩١٩ ، أودت خدعة حربية وخيانة بحياة إميليانو ثاباتا . فقد أفرغ كمين من ألف رجل بنادقهم في جسده. مات في نفس عمر التشي جيفارا . وعاشت أسطورته: الجواد القسطلي اللون الذي انطلق يخب وحيداً ، صوب الجنوب ، عبر الجبال. وليست الأسطورة فقط. فقد إستنفدت موريلوس كلها «لاستكمال عمل المصلح، والانتقام لدم الشهيد، واقتفاء مثال البطل» وبث الصدى في البلاد بأسرها . ومر الزمن، ومع رئاسة لازاروكارديناس Lazaro Cardenas (١٩٢٤-١٩٤٠) استعادت تقاليد ثاباتا حياة وقوة من خلال تطبيق الاصلاح الزراعي في البلاد كلها . تم خلال فترة حكمه بالدرجة الاولى، نزع ملكية ٦٧ مليون هكتار تسيطر عليها الشركات الاجنبية أو القومية وتلقى الفلاحون، علاوة على الارض، قروضاً، وتعليماً، ووسائل لتنظيم العمل. كان اقتصاد وتعداد البلاد قد بدءا صعودهما المتسارع؛ تضاعف الانتاج الزراعي بينما جرى تحديث وتصنيع البلاد بأسرها . نمت المدن واتسعت، امتداداً وعمقاً، السوق الاستهلاكية.

لكن القومية المكسيكية لم تؤد الى الاشتراكية ، وبالتالي، وكما حدث في بلدان اخرى لم تقفز القفزة الحاسمة بدورها ، فلم تحقق بإقتدار أهدافها في الاستقلال الاقتصادي والعدالة الاجتماعية. كان مليون من الموتى قد قدّموا دمهم ، خلال سنوات الثورة والحرب الطويلة ، « إلى هويتزيلو بوتشتلي Huitzilo Pochtli أشد قسوة وغلظة ونهماً من ذلك الذي عبده أسلافنا ؛ هذا الإله هو التطور الرأسمالي للمكسيك ، في الشروط التي يفرضها الخضوع للإمبريالية»[١١٢]. وقد بحثت دراسات عديدة مؤشرات تدهور الرايات القديمة ، ويؤكد ادموندو فلورس Edmundo Flores[١١٣]. في دراسة نشرت حديثاً أنه، « في الوقت الحاضر، فإن ٦٠ في المائة من إجمالي سكان المكسيك دخلهم يقل عن ١٢٠ دولاراً سنوياً ويعانون من الجوع» ، وهناك ثمانية ملايين من المكسيكيين لا يستهلكون عملياً سوى الفاصوليا، وعجة الذرة والفلفل الحار[١١٤]. ولا يكشف النظام تناقضاته العميقة فحسب حين يسقط خمسمائة طالب صرعى في مذبحة تلاتيلولكو Tlatelolco . فباستخدام ارقام رسمية ، يصل الونسو اجيلار Alonso Aguilar إلى نتيجة أنه يوجد في المكسيك نحو مليونين من الفلاحين دون أرض ، وثلاثة ملايين طفل لا يتلقون تعليماً ، ونحو أحد عشر مليوناً من الاميين وخمسة ملايين من الحفاة[١١٥]. تفتت الملكية الجماعية لفلاحي الإخيدو * باستمرار ، وإلى جانب تضاعف المزارع البالغة الصغر ، التي تفتت نفسها ، ظهرت لاتيفونديا من نوع جديد وبرجوازية زراعية تكرس نفسها

* الإخيدو : الأرض المشاعية لهنود المكسيك - م.

www.ibtesama.com/vb

الزراعة التجارية على نطاق واسع. وملاك الاراضي والوسطاء القوميّون الذين كسبوا مركزاً مسيطراً بالتلاعب بنص وروح القوانين هم، بدورهم، خاضعون. وفي كتاب حديث يُعتبرون متُضمّنين في عبارة «شركاء» التي تكمل اسم شركة أندرسون كلايتون (١١٦). وفي نفس الكتاب يقول إبن لاثارو كارديناس أن «اللاتيفونديات المتنكرة، قد أقيمت، بصورة تفضيلية، في الاراضي ذات النوعية الافضل، في أكثرها انتاجية».

وقد أعاد الروائي كارلوس فوينتس Carlos Fuentes، بدءاً من الاحتضار، رسم حياة كابتن في جيش كارّانثا يشق طريقه، بالرصاص وبقوة الاصرار، في الحرب وفي السلم (١١٧). هذا الرجل، أرتيميو كروث، ذو الاصل الشديد التواضع، يخلف وراءه، بمرور السنين، مثالية وبطولة الشباب: يغتصب الأراضي، يؤسس ويضاعف الشركات، يجعل من نفسه نائباً في البرلمان، ويتسلق، في جهد لامع، نحو القمم الاجتماعية، مراكماً الثروة، والسلطة، والمكانة على أساس الأعمال، والرشوة، والمضاربة، وضربات الجسارة الضخمة، وقمع الهنود بالدم والنار. وتشبه صيرورة الشخصية صيرورة الحزب الذي، نتيجة العجز الجبار للثورة المكسيكية، يحتكر فعلياً الحياة السياسية للبلاد في أيامنا. كلاهما سقط إلى أعلى.

■ اللاتيفونديا تضاعف الأفواه وليس الخبز

إن الانتاج الزراعي للفرد في أمريكا اللاتينية أقل اليوم مما كان عشية الحرب العالمية الثانية. مضت ثلاثون عاماً طويلة: وخلال هذه المدة، تزايد انتاج الغذاء في العالم بنفس النسبة التي انخفض بها في بلادنا. وتعمل بنية التأخر في الريف الامريكي اللاتيني كذلك كبنية للتبديد: تبديد قوة العمل، والارض المتاحة، ورؤوس الأموال والانتاج، وفي المحل الأول، تبديد الفرص التاريخية المراوغة للتنمية. فاللاتيفونديا وقرينتها الفقيرة، الميتيفونديا (المزرعة الصغيرة)، تمثلان، في كل بلدان امريكا اللاتينية تقريباً، عنق الزجاجة الذي يخنق النمو الزراعي وتطور الاقتصاد بأكمله. ويسم نظام الملكية ميسمه على نظام الانتاج: فالواحد ونصف في المائة من الملاك الزراعيين الامريكيين اللاتين يملكون نصف اجمالي الاراضي القابلة للزراعة وتنفق امريكا اللاتينية، سنوياً، أكثر من خمسمائة مليون دولار على شراء الاغذية من الخارج يمكنها أن

www.ibtesama.com/vb

تنتجها دون صعوبة في أراضينا الشاسعة والخصبة. وهناك بالكاد خمسة بالمائة من إجمالي المساحة خاضعة للزراعة : وهي أدنى نسبة في العالم ، وبالتالي، أعلى تبديد [١١٨]. علاوة على ذلك ، فإن العائدات بالغة الانخفاض ، في الاراضي القليلة المزروعة. وفي أقاليم عديدة ، تنتشر المحاريث الخشبية اكثر من الجرارات الزراعية . ولا تستخدم الا بشكل استثنائي ، التقنيات الحديثة ، التي يتضمن انتشارها ليس ميكنة الاعمال الزراعية فحسب ، بل كذلك تعميم وحفظ التربة عن طريق الاسمدة ، والمبيدات ، والبذور المخصبة ، ومبيدات الاعشاب ، والري الصناعي [١١٩]. تشمل اللاتيفونديا ، مثل الملك الشمس أحيانا ، كوكبة سلطة تقوم ، اذا استخدمنا التعبير الموفق لماثا ثابالا Maza Zavala [١٢٠]. بمضاعفة الجوعى وليس الخبز. وبدل امتصاص اليد العاملة ، تطردها اللاتيفونديا : ففي خلال أربعين عاماً ، انخفض عمال الريف الامريكيين اللاتين بأكثر من عشرين بالمائة ، وثمة أكثر مما يجب من التكنوقراطيين المستعدين للتأكيد ، بأستخدام ميكانيكي لوصفات جاهزه على أن هذا مؤشر على التقدم: مؤشر على اتساع المدن المتسارع ، وعلى الانتقال الجماعي للسكان الريفيين . فالعاطلون ، الذين يتقيأهم النظام بلا توقف ، يزحفون ، بالفعل ، على المدن ويوسّعون ضواحيها. لكن المصانع، التي تفرز بدورها عاطلين بقدرما تزداد تحديثاً ، لاتقدم ملاذاً لهذه الايدي العاملة الفائضة وغير المؤهلة. أما أوجه التقدم التكنولوجي للريف، حين تحدث ، فإنها تزيد من حدة المشكلة. تزداد أرباح ملاك الاراضي ، بإدخال وسائل أحدث لاستغلال ممتلكاتهم ، لكن أذرعاً اكثر تظل دون عمل وتتسع الهوّة التي تفصل بين الاغنياء والفقراء. وإدخال المعدات الميكانيكية ، مثلاً ، يلغي فرص عمل زراعية أكثر مما يخلق ، والامريكيون اللاتين الذين ينتجون ، في يومياته عمل من مطلع الشمس الى مغيبها ، الاغذية ، يعانون ، عادة ، من سوء التغذية : يعملون بائسة ، أما الريع الذي يولده الريف فينفق في المدن أو يهاجر الى الخارج ، والتقنيات الافضل التي تزيد من الناتج الضئيل للأرض لكنها لا تمس نظام الملكية القائم ، لا تمثل بركة بالنسبة للفلاحين، رغم انها تساهم في التقدم العام. اذ لا تزيد أجورهم ولا مشاركتهم في المحاصيل. الريف يشعّ فقراً للكثيرين وثراءً لاقل القليلين. تحلق الطائرات الخاصة فوق الصحراوات البائسة ، ويتضاعف البذخ المقيم في المنتجعات الضخمة وتمور أوربا بالسياح الامريكيين اللاتين المتفخين بالنقود، الذين يهملون زراعة اراضيهم لكنهم لا يهملون تثقيف روحهم. هذا ما كان يتلمسهم.

www.ibtesama.com/vb

يعزو پول بيروش Paul Bairoch الضعف الاساسي لاقتصاد العالم الثالث الى حقيقة أن متوسط إنتاجيته الزراعية لا تبلغ إلا نصف المستوى الذي بلغته ، عشية الثورة الصناعية ، البلدان المتطورة الآن [١٢١]. وفي الواقع ، فإن الصناعة تتطلب، حتى تتوسع بصورة متناسقة، زيادة اكبر بكثير في انتاج الاغذية والمواد الاولية الزراعية. الاغذية لأن المدن تكبر وتأكل؛ والمواد الأولية، من أجل المصانع ومن أجل التصدير ، بحيث تقل الواردات الزراعية وتزداد المبيعات الى الخارج وتولد العملات الصعبة التي يتطلبها النمو. ومن ناحية أخرى ، فإن نظام اللاتيفونديات والمزارع الصغيرة يتضمن ضيق سوق الاستهلاك الداخلية ، التي تفقد الصناعة الوليدة موطئ قدمها اذا لم تتسع. وأجور الكفاف في الريف وجيش الاحتياطي من العاطلين الذي يزداد عدده باستمرار، يتآمران في هذا الاتجاه : فالمهاجرون من الريف ، الذين يطرقون ابواب المدن، يدفعون المستوى العام لأجور العمال الى الانخفاض.

ومنذ أعلن التحالف من أجل التقدم ، للرياح الاربعة ، ضرورة الاصلاح الزراعي، لم تكف الاوليجاركية والتكنوقراط عن تدبيج القوانين. عشرات القوانين، سمينه، ونحيفة، عريضة ، وضيقة ، ترقد على رفوف برلمانات كل بلدان امريكا اللاتينية ، لم يعد الاصلاح الزراعي موضوعاً ملعوناً : وقد تعلم السياسيون أن افضل طريقة لعدم تنفيذه تتلخص في ذكره باستمرار . والعمليات المتزامنه لتركز وتفتت ملكية الارض تواصل مسارها ، بصورة اوليمبية ، في غالبية البلدان. ورغم ذلك ، بدأت الاستثناءات تشق طريقها .

فالريف ليس فقط موضعاً لبذر بذور الفقر : لأنه ، أيضاً ، موضع لبذور بذور الثورات ، رغم أن التوترات الاجتماعية العادة تختفي عادة ، وتتقنع بقناع التسليم البادي للجماهير. فالشمال الشرقي للبرازيل ، على سبيل المثال ، يثير الدهشة للوهلة الاولى باعتباره ملاذاً للقدرية ، يقبل سكانه الموت جوعاً بشكل سلبي كما يقبلون قدوم الليل في نهاية كل نهار. لكن ليس بعيداً في الزمان ، في نهاية الامر ، الانفجار الغيبي لسكان الشمال الشرقي الذين حاربوا بجوار مسيحيهم ، ورسلهم الغريبين ، رافعين الصليب والبنادق ضد الجيوش ، حتى يجلبوا الى هذه الارض مملكة السماوات ، كذلك ليست بعيدة موجات العنف الصاخبة للكانجاسيرو Cangaceiros : فالمتعصبون وقطاع الطرق، اليوتوبيا والانتقام، حفروا مجرى الاحتجاج الاجتماعي، الذي ما زال أعمى ، للفلاحين اليائسين [١٢٢]. وفيما بعد ، سوف تستعيد جيوش الفلاحين، وتعمق،

www.ibtesama.com/vb

هذه التقاليد النضالية.

لم تتباطأ الدكتاتورية العسكرية التي اغتصبت السلطة في البرازيل عام ١٩٦٤ في إعلان اصلاحها الزراعي، والمعهد البرازيلي للاصلاح الزراعي ، كما أوضح باولو شيلينج ، هو حالة فريدة في العالم : فبدل أن يوزع الارض على الفلاحين ، يكرس نفسه لطردهم ، حتى يعيد الى اللاتيفونديين المساحات التي غزتها عفواً أو نزعت ملكيتها الحكومات السابقة . وفي عامي ١٩٦٦ و١٩٦٧ ، وقبل أن تطبق الرقابة على الصحف بحزم أكبر ، تعودت الصحف أن تنقل حوادث السلب ، والحرائق ، والاضطهاد التي كانت قوات الشرطة العسكرية تقوم بها بأمر من المعهد المزدحم بالعمل . وهناك اصلاح زراعي آخر جدير بأن يؤلف فيه كتاب ، هو ذاك الذي صدر في إكوادور عام ١٩٦٤ . فلم توزع الحكومة سوى الاراضي غير المنتجة ، في نفس الوقت الذي سهلت فيه تركيز الاراضي ذات النوعية الافضل في أيدي كبار ملاك الاراضي، وكان نصف الاراضي التي وزّعت في الاصـــلاح الزراعي بفنزويلا ، ابتـداءً من عـام ١٩٦٠ ، من أراضي الملكية العامة؛ لم تمس المزارع التجارية الضخمة وتلقى اللاتيفونديون الذين نزعت ملكيتهم تعويضات بلغ من ارتفاعها أن حققوا ارباحاً رائعة واشتروا أراضي جديدة في مناطق أخرى.

كان الدكتاتور الارجنتيني خوان كارلوس اونجانيا Juan Carlos Ongania على وشك التعجيل بسقوطه قبل عامين من حدوثه، حين حاول عام ١٩٦٨ ، تطبيق نظام جديد للضرائب على الملكية الزراعية. كان المشروع ينوي فرض ضرائب على «السهول العارية» أكثر من الاراضي المنتجة. أطلقت الاوليجاركية المحصنة صرختها الى عنان السماء ، وعبأت سيوفها الخاصة في رئاسة الاركان وكان على اونجانيّا أن ينسى نواياه الهرطيقة. وتتمتع الارجنتين ، مثلها مثل أورجواي ، بسهولة خصبة طبيعياً سمحت لها، مع المناخ المعتدل ، بالتمتع برفاهية نسبية في امريكا اللاتينية. لكن التآكل يعَّض بأنيابه بلا رحمة السهول الشاسعة المهجورة التي لا تستخدم لافي الزراعة ولا في الرعي، ونفس الشيء يحدث بالنسبة لجزء كبير من ملايين الهكتارات المخصصة للتربية الكثيفة للماشية. ومثلما في حالة الاورجواي ، لكن بدرجة أقل ، فأن هذا الاستغلال المكثف يكمن في قاع الازمة التي اصابت الاقتصاد الارجنتيني في الستينات. ولم يظهر اللاتيفونديون الارجنتينيون اهتماماً كافياً بإدخال التجديدات التقنية في حقولهم، ومازالت الانتاجية منخفضة ، لأن من المناسب أن تظل كذلك؛ فقانون الربح أقوى من كل

www.ibtesama.com/vb

القوانين. وتوسيع الملكيات ، من خلال شراء حقول جديدة ، أكثر ربحية وأقل خطراً من تطبيق الوسائل التي تتيحها التكنولوجيا الحديثة من أجل الانتاج المكثف (١٢٣).

في عام ١٩٣١ ، عارضت الجمعية الزراعية الجرار الزراعي بالحصان :

«أيها الزراع مربّو الماشية ! - صاح مديروها - إن العمل بالحصان في المهام الزراعية يعني حماية مصالحكم الخاصة ومصالح البلاد» ، وبعد عشرين عاماً ، أصرّت في مطبوعاتها : « من الاسهل - قال أحد العسكريين المعروفين - أن يصل العلف الى معدة حصان من أن يصل السولار الى خزان عربة نقل ثقيلة» (١٢٤). وطبقاً لبيانات اللجنة الاقتصادية لامريكا اللاتينية CEPAL ، فإن لدى الارجنتين ، بالتناسب مع هكتارات المساحة القابلة للزراعة ، جرارات زراعية أقل من فرنسا ست عشرة مرة ، وأقل من المملكة المتحدة تسع عشرة مرة . وتستهلك البلاد ، نسبياً كذلك، أسمدة أقل من ألمانيا الغربية مائة وأربعين مرة (١٢٥). ونواتج القمح ، والذرة ، والقطن في الزراعة الارجنتينية أقل بكثير من نواتجها في البلاد المتطورة.

وقد تصدّى خوان دومينجو بيرون Juan Domingo Peron مصالح أوليجاركية ملاك الاراضي في الارجنتين ، حين فرض قانون الاجير وشرط الحد الادنى للاجر الزراعي. وفي عام ١٩٤٤ ، أكدت الجمعية الزراعية : « في تحديد الاجور لابد من تحديد مستوى معيشة الاجير العادي. وإحتياجاته المادية محدودة جداً في بعض الاحيان بحيث أن ما يزيد عليها يجلب مصائر اجتماعية قليلة الاهمية» . ما زالت الجمعية الزراعية تتحدث عن الأجراء وكأنهم حيوانات، والتأمل العميق بصدد الاحتياجات الاستهلاكية الضئيلة للعمال يعطينا، رغم انفنا ، مفتاحاً جيداً لفهم حدود التطور الصناعي الارجنتيني : فالسوق الداخلية لا تتسع ولا تتعمق بدرجة كافية. وسياسة التطور الاقتصادي التي دفعها بيرون نفسه لم تكسر ابداً بنية التخلف الزراعي. وفي يونيو عام ١٩٥٢ في خطاب ألقاه من على مسرح كولومبس ، أنكر بيرون أنه يهدف الى اجراء إصلاح زراعي ، وقد علقت الجمعية الزراعية ، رسمياً ، على هذا الخطاب بقولها: «كان تمييزاً رائعاً».

وفي بوليفيا ، وبفضل الاصلاح الزراعي لعام ١٩٥٢ ، تحسنت التغذية بصورة ملحوظة في مناطق ريفية واسعة من هضبة الالتيبلانو ، لدرجة أنه ثبتت تغيرات في طول قامة الفلاحين. ورغم ذلك ، فإن مجمل سكان بوليفيا ما زالوا يستهلكون بالكاد ستين بالمائة من البروتينات وعشرين بالمائة من الكالسيوم الضروريين في الوجبة الدنيا ، وفي المناطق الريفية نجد أن العجز أكثر حدةً بكثير من هذه المتوسطات. ولا يمكن القول ،

www.ibtesama.com/vb

بحال ، أن الاصلاح الزراعي قد فشل ، لكن توزيع الاراضي المرتفعة لم يكف لمنع بوليفيا من أن تنفق ، في أيامنا ، خمس عملاتها الصعبة على استيراد اغذية من الخارج.

أما الاصلاح الزراعي الذي طبقته ، منذ ١٩٦٩ ، حكومة بيرو العسكرية، فيبدو أنه تجربة في التغيير العميق. وبالنسبة لنزع ملكية بعض اللاتيفونديات التشيلية من جانب حكومة ادوارد وفراي Eduardo Frei ، فمن الانصاف الاعتراف بأنه فتح الطريق امام الاصلاح الزراعي الجذري الذي يعلنه الرئيس الجديد سلبادور ألييندي Salvador Allende ، بينما أكتب هذه الصفحات .

■ مستعمرات الشمال الثلاث عشرة وأهمية ألا تولد مهمّين

في أمريكا اللاتينية ، كان التملك الخاص للأرض يسبق دائماً زراعتها النافعة، وأكثر الملامح تخلفاً في نظام الحيازة الساري حالياً لم تنشأ من الازمات، بل إنها ولدت خلال الفترات ذات الرفاهية البالغة؛ وعلى العكس، هدأت فترات الكساد الاقتصادي من نهم اللاتيفونديين للاستيلاء على مساحات جديدة. وفي البرازيل ، على سبيل المثال ، جعل تدهور السكر والاختفاء الفعلي للذهب والماس من الممكن أن يصدر ، فيما بين عامي ١٨٢٠ و ١٨٥٠ ، تشريع يضمن ملكية الارض لمن يشغلها ويجعلها تنتج. وفي عام ١٨٥٠ ، فإن صعود البن باعتباره «منتجاً ملكاً» جديداً ، حدد إصدار قانون الاراضي ، الذي صيغ وفق رغبات السياسيين والعسكريين في النظام الاوليجاركي ، من أجل احتكار ملكية الارض على من يُفلحونها ، بقدر ما أخذت تنفتح ، نحو الجنوب ونحو الغرب ، الاتساعات الشاسعة الداخلية للبلاد . هذا القانون «أخذ يكتسب التدعيم والإقرار منذ ذلك الحين عن طريق تشريع مفصل، يجعل الشراء هو الشكل الوحيد للحصول على الارض ويخلق نظاماً لتوثيق العقود يجعل من غير العملي تقريباً أن يستطيع عامل أن يقتني ملكيته ... »[١٢٦].

أما التشريع الامريكي الشمالي لنفس الفترة فقد طرح الهدف المقابل ، من أجل حفز الاستعمار الداخلي للولايات المتحدة. أخذت تصرّ عربات الرواد الذين مضوا

www.ibtesama.com/vb

يوسعون الحدود ، على حساب مذابح السكان الاصليين ، صوب أراضي الغرب البكر ؛ وكان قانون لينكولن لعام ١٨٦٢ ، قانون هومستيد HomestedAct ، يضمن لكل عائلة ملكية قطع أرض ذات ٦٥ هكتارا ، ويلتزم كل مستفيد بزراعة قطعة أرضه خلال فترة لا تقل عن خمس سنوات [١٢٧]. استمرت الملكية العامة بسرعة مذهلة. تزايد السكان وانتشروا مثل بقعة زيت هائلة على الخريطة . جذبت الارض المتاحة ، الخصبة والمجانية تقريباً ، الفلاحين الاوربيين مثل قطب مغناطيس لا يقاوم : كانوا يعبرون المحيط وكذلك جبال أبالاتشي* باتجاه السهول المفتوحة. هكذا ، كان مزارعون أحرار هم من احتلوا الاراضي الجديدة في الوسط وفي الغرب. وبينما البلاد تزداد في المساحة وفي السكان، خلقت مصادر للعمل الزراعي وفي نفس الوقت تولدت سوق داخلية ذات قدرة استيعاب ضخمة ، هي الكتلة الضخمة من المزارعين الملاك ، من اجل الحفاظ على اندفاع التطور الصناعي .

وبالمقابل ، فإن العمال الزراعيين الذين ، منذ أكثر من قرن من الزمن ، قد زحزحوا بمماس حدود البرازيل الداخلية، لم يكونوا وليسوا عائلات من الفلاحين الاحرار يبحثون عن قطعه أرض تكون ملكهم ، كما يلاحظ ريبيرو Ribeiro ، بل إنهم أجراء تعاقدوا على خدمة اللاتيفونديين الذين سارعوا بامتلاك المساحات الضخمة الخاوية. لم تكن الصحراوات الداخلية ابداً في متناول السكان الريفيين، مالم يكن على هذا النحو لصالح آخرين، ظل العمال يفتحون البلاد، بضربات السكين ، عبر الغابات. والنتيجة أن الاستيطان هو مجرد امتداد للمساحة اللاتيفوندية. وفيما بين ١٩٥٠ و ١٩٦٠ ، استوعب ٦٥ لاتيفونديا برازيلياً رُبع الاراضي الجديدة التي اندرجت في الزراعة [١٢٨].

يبين هذان النظامان المتعارضان للاستيطان الداخلي واحداً من أهم الفروق بين نموذجي التطور في الولايات المتحدة وفي امريكا اللاتينية. لماذا يكون الشمالي غنياً والجنوب فقيراً ؟ إن نهر الريو براڤو يحدد اكثر بكثير من مجرد حدود جغرافية. وهذا التفاوت العميق في أيامنا ، الذي يبدو أنه يؤكد نبؤة هيجل حول الحرب الحتمية بين امريكا وامريكا اخرى ، هل ولد نتيجة التوسع الامبريالي للولايات المتحدة أم أن له جذور اقدم ؟ في الحقيقة ، أنه الي الشمال وإلى الجنوب قد تولدت في رحم الاستعمار نفسه، مجتمعات قليلة الشبه جداً وفي خدمة أهداف ليست واحدة [١٢٩]. لم يعبر حجاج ماي

* جبال أبالاتشي Appalachian ، (مشتقه من أسم قبيلة الأبالاتشي Apalache) : سلسلة جبال تقع شرقي أمريكا الشمالية، وتمتد من ولاية كويبك في كندا، حتى شمال آلاباما. وتنقسم إلى عدة جبال تحمل أسماء مستقلة - م.

www.ibtesama.com/vb

فلاور May Flower البحر من أجل الاستيلاء على كنوز اسطورية ولا من أجل سحق الحضارات الهندية الغير موجودة في الشمال ، بل من أجل أن يستقروا مع عائلاتهم ويعيدوا انتاج نظام الحياة والعمل الذي كانوا يمارسونه في اوربا ، في العالم الجديد . لم يكونوا جنوداً للحظ ، بل رواداً ، ولم يأتوا للغزو ، بل للإستيطان : أسسوا «مستعمرات استيطانيه» . مؤكد أن العملية اللاحقة طورت ، جنوب خليج ديلاوير Delaware ، إقتصاد مزارع عبودية مماثلة لتلك التي نشأت في امريكا اللاتينية ، لكن مع فارق أن مركز الثقل في الولايات المتحدة كان راسخاً منذ البداية في مزارع ومعامل نيو إنجلند، حيث ستخرج الجيوش المنتصرة في حرب الانفصال في القرن التاسع عشر. إن مستوطني نيو إنجلند، النواة الاصلية لحضاره الامريكية الشمالية ، لم يتصرفوا أبداً كوسطاء استعماريين التراكم الرأسمالي الاوربي؛ فمنذ البداية ، عاشوا في خدمة تطورهم الخاص وتطور أرضهم الجديدة. كانت مستعمرات الشمال الثلاث عشرة بمثابة متنفسٍ لجيش الفلاحين والحرفيين الاوربيين الذين كان تطور الترووبول يدفعهم خارج سوق العمل. شكل عمال أحرار قاعدة ذلك المجتمع الجديد على هذا الجانب من البحر .

وفي المقابل ، اعتمدت اسبانيا والبرتغال على وفرة هائلة من اليد العاملة الخاضعة في أمريكا اللاتينية. تلي عبودية الهنود النقل الجماعي للعبيد الافارقة. وعلى طول القرون ، كان هناك دائماً فيلق ضخم من الفلاحين العاطلين المتاحين لنقلهم الى مراكز الانتاج : وجدت المناطق المزدهرة دائماً الى جانب المناطق المتدهورة ، على ايقاع ازدهار وسقوط صادرات المعادن النفيسة أو السكر ، وأمدت المناطق المتدهورة باليد العاملة المناطق المزدهرة. هذه البنية ما زالت قائمة حتى وقتنا الحاضر، وفي الوقت الحاضر ايضاً تتضمن مستوىً منخفضاً من الاجور، بسبب الضغط الذي يمارسه العاطلون على سوق العمل، وتحبط نمو سوق الاستهلاك الداخلية . لكن بالاضافة الى ذلك، وبخلاف بيوريتانييّ الشمال ، فإن الطبقات المسيطرة في المجتمع الاستعماري الامريكي اللاتيني لم تتجه ابداً الى التطور الاقتصادي الداخلي. كانت مكاسبها تأتي من الخارج؛ وكانت اكثر إرتباطاً بالسوق الاجنبية من ارتباطها بإقليمها ذاته. وأُعدّ ملاك الاراضي وأصحاب المناجم والتجار للقيام بهذه الوظيفة : امداد أوربا بالذهب، والفضة، والاغذية. كانت الطرق تنقل الحمولة في اتجاه واحد : صوب الميناء وأسواق ما وراء البحار. وهذا أيضاً هو المفتاح الذي يفسر توسع الولايات المتحدة كوحدة قومية وتمزّق

www.ibtesama.com/vb

امريكا اللاتينية : فلم تكن مراكز انتاجها مرتبطة فيما بينها ، بل تشكل مروحة مركزها بعيد جداً".

لقد نالت مستعمرات الشمال الثلاث عشرة ، إن أمكننا القول ، نعمة الشقاء، وقد بيّنت خبرتها التاريخية الاهمية الفائقة لسمو ولادتها مهمة . لأنه في شمال أمريكا لم يكن ثمة ذهب ولا فضة ، ولا حضارات هندية ذات تركزات سكانية كثيفة منظمة فعلاً من أجل العمل ، ولا أرض استوائية ذات خصوبة مدهشة في الشريط الساحلي الذي استعمره الحجاج الانجليز .

لقد أظهرت الطبيعة أنها بخيلة ، وكذلك التاريخ : لم تكن هناك معادن ولا أيدي عاملة من العبيد لانتزاع المعادن من أحشاء الارض، وكان ذلك من حسن حظها . وفيما عدا ذلك ، ومن ماريلاند الى نوفاسكوشيا ، مروراً بنيو إنجلند ، انتجت مستعمرات الشمال ، بفضل المناخ وخصائص التربة ، ما كانت تنتجه بالضبط الزراعة البريطانية ، أي أنها لم تقدم الى المتروبول ، كما أوضح باجو [١٢٠]، انتاجاً تكميلياً . وكان الوضع مختلفاً تماماً في جزر الانتيل وفي المستعمرات الايبيرية في القارة. فمن الاراضي الاستوائية نبت السكر ، والتبغ ، والقطن، والنيلة، والتربنتينة؛ كانت جزيرة واحدة من جزر الكاريبي أهم بالنسبة لانجلترا ، من وجهة النظر الاقتصادية ، من مستعمرات الولايات المتحدة الثلاث عشرة مجتمعة .

تفسر هذه الظروف صعود وتدعيم الولايات المتحدة ، كنسق مستقل اقتصادياً ، لا يستنزف نحو الخارج الثروة المتولدة في صدره. كانت الروابط التي تربط المستعمرة بالمتروبول واهية جداً؛ وفي باربادوس أو جامايكا ، بالمقابل، لم يكن يعاد استثمار رؤوس أموال سوى تلك التي لا غنى عنها لاحلال العبيد بقدر ما يستهلكون ، لم تكن العوامل العرقية ، كما يتضح ، هي التي حددت تطور البعض وتخلف الاخرين : فلم تكن جزر الانتيل البريطانية اسبانية في شئ أو برتغالية في شئ. والحقيقة هي أن عدم الاهمية الاقتصادية للمستعمرات الثلاث عشرة اتاحت التنويع المبكر لصادراتها واشعلت التطور القوي للصناعات. وتمتع التصنيع الامريكي الشمالي ، منذ ما قبل الاستقلال ، بحوافز وضروب حماية رسمية. وأبدت إنجلترا مرونة ، في نفس الوقت الذي حظرت فيه بحسم أن تصنع جزرها الأنتيلية وأودبوساً.

الهوامش

(1) Fernando Ortiz, ***Contrapunteo Cubano del Tabaco y el azúcar***, La Habana, 1963.

(2) Caio Prado Júnior, ***Historia económica del Brasil***, Bueuos Aires, 1960.

(3) Sergio Bagú, ***Economía de la sociedad colonial***, Ensayo de historia comparada de América Latina, Bucnos Aires, 1949.

(4) Celso Furtado, ***Formación económica del Brasil***, México - Buenos Aires, 1959.

(5) Josué de Castro, ***Geografía da Fome***, São Paulo, 1963.

(6) ***Ibid.***

(٧) المرجع السابق : أرجع رحالة انجليزي، هو هنري كوستر، عادة أكل الطين إلى إختلاط الأطفال البيض بالأطفال السود «الذين يُعدونهم بهذه الرذيلة الأفريقية».

(٨) يعاني الشمال الشرقي، بطرق عديدة، من نوع من الاستعمار الداخلي لصالح الجنوب الصناعي، وفي داخل الشمال الشرقي، نجد أن أقليم السرتون خاضع بدوره لمنطقة السكر التي تزوده بالإمدادات، بينما تعتمد اللاتيفونديات السكرية على معامل تصنيع المنتج، وتمر مؤسسة سيد المعمل Senhor de eugenho القديمة بأزمة، فمعامل التكرير المركزية قد التهمت المزارع.

(٩) طبقاً لأبحاث معهد جواكيم نابوكو للأبحاث الإجتماعية Instituto Joaquim Nabuco de Pesquisas Sociais ، في برنامبوكو Pernambuco ، أورده كيت سيمز تيلور Kit Sims Taylor في :

El nordeste brasiléno : azucar y Plusvalía, Monthly Review, núm 63, Santiago de Chile, Junio de 1969.

(10) Franklin de Oliveira, ***Revolucoón y contrarrevolución en el Brasil***, Buenos Aires, 1965.

www.ibtesama.com/vb

(11) René Dumont, *Tierras vivas*. Problemas de la reforma agraria en el mundo, México, 1963.

(12) Josué de Castro, ***Op. Cit.***

(13) Celso Furtado, ***Dialética do desenvolvimento***, Río de Janeiro, 1964.

(14) Karl Marx, ***Discurso sobre el libre cambio***, en Miseria de la Filosofía, Moscú, s. f.

(15) Vincent T. Harlow, ***A History of Barbados***, Oxford, 1926.

(16) Tadeusz Lepkowski, ***Haití***, tomo I, La Habana, 1968.

(17) ***Ibid.***

(١٨) هناك رواية رائعة لأليخو كاربنتييه Alejo Carpentier ، هي *مملكة هذا العالم* (مونتفيديو، ١٩٦٦)، تدور حول هذه الفترة الرائعة من حياة هاييتي، وتتضمن إعادة خلق كاملة لجولات بولين وزوجها في الكاريبي.

(19) أورده Manuel Moreno Fraginals, ***El ingenio***, La Habana, 1964.

(٢٠) كانت قد بدأت بالفعل مصانع ذبح وتمليح اللحوم في الريو دي لابلاتا. فلقد كانت الأرجنتين وأوروجواي، اللتان لم تكونا في ذلك الحين توجدان منفصلتين ولا تحملان بعد هذين الاسمين، كانتا قد مدتا إقتصادهما على أساس التصدير الواسع للحوم المجففة والمملحة، والجلود، والشحوم، والدهون. وكانت البرازيل وكوبا، مركزا العبيد الكبيران في القرن التاسع عشر، سوقين ممتازين للحم المقدد، وهو غذاء رخيص، سهل النقل والتخزين، ولا يتعفن في الحرارة الاستوائية. ولازال الكوبيون يطلقون إسم «مونتفيديو» على اللحم المقدد. لكن أوروجواي كفت عن بيعه لكوبا عام ١٩٦٥، وانضمت بذلك للمقاطعة التي فرضتها منظمة الدول الأمريكية على كوبا. وعلى هذا النحو فقدت أوروجواي، بحمق، آخر سوق بقي لها لهذه السلعة. وكانت كوبا، في أواخر القرن الثامن عشر، هي أول سوق تفتح أمام لحم أوروجواي، الذي يشحن في شرائح رقيقة مجففة.

- José Pedro Barrán y Benjamín Nahum, ***Historia rural del Uruguay moderno (1851 - 1885)***, Montevideo, 1967.

(21) Manuel Moreno Fraginals, ***Op. Cit.***

www.ibtesama.com/vb

ـ حتى وقت قريب، كان بجوب نهر ساجوا اناس يسمون Palanqueros أو ملتقطو الجلوع، ويحملون قضيباً طويلاً بطرف حديدي، وبهذا القضيب يجرجرون مجرى النهر حتى يلتقطوا جذع شجرة ... وهكذا، يوماً بعد يوم، يخرجون من قاع النهر بقايا الأشجار التي قطعها السكر، إنهم يعيشون على جثث الغابة».

(22) Celso Futado, *La economía latinoamericana desde la Conquista ibérica hasta la Revolucion Cubana*, Santiago de Chile, 1969, México, 1969.

(٢٣) لاحظ مورينو فراخينالس، ببراعة، أن أسماء معامل التكرير التي ولدت خلال القرن التاسع عشر كانت تعكس تقلبات منحنى السكر : الأمل، الأمل الجديد، الجسور، الصداقة، الطامح، الفتح، الثقة، النجاح الطيب، الشائقة، الذائب، نزع الوهم، وكان ثمة أربعة معامل تحمل، بصورة تنبوئية، إسم، نزع الوهم.

(24) René Dumont, *Cuba (intento de crítica constructiva)*, Barcelona, 1965.

(25) Celso Furtado, *La economía latinoamericana .... Op. Cit.*

(٢٦) صرح مدير برنامج السكر في وزارة زراعة الولايات المتحدة بعد الثورة بفترة، فقال : «منذ أن خرجت كوبا من الساحة، لم نعد نعتمد على حماية هذا البلد، الذي يعد أكبر مصدّر عالمي، حيث كان دائماً يملك إحتياطيات تلبية إحتياجات سوقنا، حين يكون ذلك ضرورياً» :

- Enrique Ruiz Garcia, *América Latina : Anatomía de una revolución*, Madrid, 1966.

(27) Leland H. Jenks, *Nuestra colonia de cuba*, Buenos Aires, 1960.

(٢٨) أصبحت بورتوريكو، وهي مصنع سكر آخر، سجينة. فمن وجهة النظر الأمريكية الشمالية، ليس مواطنو بورتوريكو صالحين بما يكفي لكي يحيوا في وطن خاص بهم، لكنهم بالمقابل، صالحين بما يكفي لكي يموتوا في جبهة فيتنام بإسم وطن ليس وطنهم. وبالحساب بالنسبة لعدد السكان، فإن «الولاية الحرة المتحدة» لبورتوريكو لها جنود يحاربون في جنوب شرق آسيا أكثر من أي ولاية أخرى من الولايات المتحدة. ومواطنو بورتوريكو الذين يقاومون الخدمة العسكرية الالزامية في فيتنام يرسلون للقضاء خمس سنوات في سجون أتلانتا. وتضاف إلى الخدمة العسكرية في صفوف الولايات المتحدة أنواع أخرى من الإذلال موروثة من غزو عام ١٨٩٨ ويباركها القانون

(قانون كونجرس الولايات المتحدة)، وابورتوريكو تمثيل رمزي في الكونجرس الأمريكي الشمالي، دون تصويت وبدون صوت، عملياً. وفي مقابل هذا الحق، تتمتع بوضع المستعمرة : فقد كان لبورتوريكو، حتى الاحتلال الأمريكي، عملة خاصة بها وكانت تقيم علاقات تجارية مزدهرة مع الأسواق الرئيسية. والعملة اليوم هي الدولار والتعريفات الجمركية لجماركها تتحدد في واشنطن، حيث يتقرر كل ماله علاقة بالتجارة الخارجية والداخلية للجزيرة. ونفس الشيء يجري بالنسبة العلاقات الخارجية، والنقل والاتصالات، والأجور، وظروف العمل. والمحكمة الفيدرالية للولايات المتحدة هي التي تحاكم البورتوريكيين؛ والجيش المحلي يضمه جيش الشمال، والصناعة والتجارة في أيدي المصالح الأمريكية الشمالية الخاصة. وقد شاء نزع الصبغة القومية أن يصبح مطلقاً عن طريق الهجرة : فقد دفع البؤس أكثر من مليون بورتوريكي إلى البحث عن حظ أفضل في نيويورك، والثمن هو فقدت هويتهم القومية. وهناك يشكلون بروليتاريا ثانوية تتزاحم في أشد الأحياء قذارة.

(29) Fidel Castro. :*A revolución cubana* (discursos), Buenos Aires, 1959.

(30) A. Nú´nez Jiménez, *Geografía de Cuba*, La Habana, 1959.

(31) René Dumont, *Op. Cit.*

(32) Dudley Seers, Andrés Bianchi, Richard Jolly y Max Nolff, *Cuba, the Economic and Social Revolutioon,* Chapel Hill, Carolina del Norte, 1964.

(33) K. S. Karol, *Les guérrilleros au Pouvoir*, L'itinéraire Politique de la révolution cubaine, Paris, 1970.

(٣٤) يتولى سعر السكر الثابت، الذي تضمنه الدول الاشتراكية، دوراً حاسماً في هذا الصدد. ويلعب نفس الدور كذلك كسر الحصار المفروض من قبل الولايات المتحدة، وقد أصبح هذا الحصار حطاماً من خلال التبادل التجاري المكثف مع اسبانيا وغيرها من دول أوربا الغربية. ويقدم ثلث الصادرات الكوبية دولارات، أي، عملات صعبة يمكن تحويلها إلى البلاد؛ ويخصص الباقي للتبادل مع الاتحاد السوفيتي ومنطقة الروبل. ويتضمن نظام التجارة هذا بدوره صعوبات معينة : فالتوربينات السوفيتية للمحطات الكهربية - الحرارية ذات نوعية ممتازة، مثل كل المعدات الثقيلة التي ينتجها الاتحاد السوفيتي، لكن لا يحدث نفس الشيء بالنسبة السلع الاستهلاكية للصناعات الخفيفة والمتوسطة.

www.ibtesama.com/vb

(35) Informe de Cuba a la Conferencia Regional de la FAO. Versión de Prensa Latina, 13 de octubre de 1970.

(٣٦) كان إلسوورث بانكر Ellswarth Bunker ، رئيس شركة ناشيونال شوجار ريفيننج كومباني، هو المبعوث الخاص لليندون جونسون إلى الدومينيكان بعد التدخل العسكري. وتم إنقاذ مصالح الناشيونال شوجار في هذا البلد تحت نظرة بانكر الساهرة: انسحبت قوات الاحتلال ليتركوا في السلطة، في أعقاب إنتخابات ديمقراطية جداً، خواكين بالاجير Joaquín Bala- guer ، الذي كان الذراع اليمنى لتروخيو Trujillo طوال فترة دكتاتوريته الوحشية. وكان سكان سانتو دومينجو قد حاربوا في الشوارع وفي البيوت، بالعصي، والسكاكين، والبنادق، ضد الدبابات، ومدافع البازوكا، وطائرات هليكوبتر القوات الأجنبية، مطالبين بعودة الرئيس المنتخب دستورياً، خوان بوش Juan Bosch ، إلى السلطة، بعد أن أسقطه انقلاب عسكري. ان التاريخ، المتهكم، يتلاعب بالنبوءات. ففي اليوم الذي استهل فيه خوان بوش رئاسته الوجيزة، بعد ثلاثين سنة من طغيان تروخيو، حمل ليندون جونسون Lynlon Johnson ، الذي كان في ذلك الوقت نائباً لرئيس الولايات المتحدة، حمل إلى سانتو دومينجو التهاني الرسمية لحكومته؛ كان ذلك بمثابة سيارة اسعاف.

(37) L. Capitan y Henri Lorin, ***El trabajo en América, antes y después de Colon***, Buenas Aires, 1948.

(38) Sergio Bagú, ***Op. Cit.***

(39) Daniel P. Mannix y M. Cowley, ***Historia de la trata de negros***, Madrid, 1962.

(40) Eric Williams. ***Capitalism and Slavery***, Chapel Hill, Carolima del Norte, 1944.

(41) Daniel P. Mannix y M. Cowley, ***Op. Cit.***

(٤٢) لم يكن أول قانون يحظر العبودية صراحة في البرازيل برازيلياً، بل كان إنجليزياً، وليس ذلك من قبيل الصدفة. وقد صوّت عليه البرلمان البريطاني في ٥ أغسطس عام ١٨٤٥ :

- Osny Duarte Pereira, ***Quem Faz as leis no Brasil ?***, Río de Janeiro,

www.ibtesama.com/vb

1963.

(43) Daniel P. Mannix y M. Cowley, ***Op. Cit.***

(44) Fernando Ortiz,***Op. Cit.***

(45) Philip Reno, ***El drama de la Guayana británica***. Un pueplo desde la esclavitud a la lucha por el socialismo, Monthly Review. núm. 17/18, Buenos Aires, enero - Febrero de 1965.

(46) Edison Carneiro, ***O quilombo dos palmares***, Río de Janeiro, 1966.

(47) Nina Rodrigues, ***Os aficanos no Brasil***, Riode Janeiro, 1932.

(48) Décio de Freitas, ***A guerra dos escravos***, inédito.

(٤٩) كان إستيبان مونتيخو Esteban Montejo قد تجاوز عمره قرناً من الزمان حين حكى قصته لميجيل بارنت : Mignel Barnet (***Biografía de un cimarrón***, Buenos Aires, 1968.

(50) Roberto C. Simonsen, ***História econo^mica do Brasil*** (1500 1820) São Paulo, 1962.

(٥١) Manuel Moreno Fraginals, ***Op. Cit.*** : في يوم خميس العهد، قرر الكونت دي كاسا بايونا Conde de Casa Bayona أن يتواضع أمام عبيده. وفي فورة حماسه المسيحي، غسل أقدام اثني عشر عبداً وأجلسهم ليأكلوا معه على مائدته، وكان ذلك هو العشاء الأخير حرفياً. ففي اليوم التالي، ثار العبيد وأشعلوا النار في المعمل. وقد علقت رؤوسهم فوق إثنتي عشرة حربة، في وسط معمل التكرير.

(52) Eduardo Galeano, ***Los dioses y los diablos en las favel as de Río***, en Amaru, núm. 10, Lima,; unio de 1969.

(53) Roddfo Teófilo, ***Historia de se^ca do Ceará*** (1877 - 1880), Río de Janeiro, 1922.

(٥٤) وكالة فرانس بروس، بتاريخ ٢١ أبريل ١٩٧٠. وفي عام ١٩٢٨، كان تجوال راعي بقر عبر الدروب المكلسة السرتون Sertáo ، وراء كتابة واحدة من أفضل الروايات في تاريخ البرازيل الأدبي.

www.ibtesama.com/vb

ولم يتوقف سوط الجفاف الذي يجلد لا يتفونديات تربية الماشية في داخل البلاد، والخاضعة بدورها لعامل تكرير السكر على الشريط الساحلي، كذلك لم تتغير نتائجه. ما زال عالم حيوات يابسة Vidas secas سليماً لم يمس : البيغاء يقلد نباح الكلب، لأن أصحابه لم يعودوا يستخدمون صوتهم الانساني تقريباً.

- Gracillano Ramos, *Vidas secas*, La Habana, La Habana, 1964.

(55) Paulo Schilling, *Un nuevo genocidio*, en Marcha, núm. 1.501, Montevideo, Julio 10 de 1970.

وفي اكتوبر عام ١٩٧٠، إستنكر أساقفة بارا Pará أمام رئيس البرازيل الاستغلال الوحشي لعمال الشمال الشرقي من جانب الشركات التي تشق الطريق عبر الأمازون، وتطلق عليها الحكومة «عمل القرن».

(56) Aurélio Pinheiro, *A margem do Amazonas*, São Paulo, 1937.

(57) Rodolfo Teófilo, *Op. Cit.*

(٥٨) إقتطع من بوليفيا نحو مائتي الف كيلو متر مربع. وفي عام ١٩٠٢، تلقت تعويضاً عبارة عن مليونين من الجنيهات الاسترلينية وخطاً حديدياً يتيح لها الوصول إلى نهري ماديرا Madeira والأمازون.

(٥٩) في أوائل القرن، قدمت الجبال التي تكسوها أشجار المطاط للبيرو الرهبة بأن تصبح إلدورادو جديدة. وقد كتب فرنسيسكو جارثيا كالديرون Francisco Garía Calderón في البيرو المعاصرة *El Perú Contemporáneo* ، حوالي عام ١٩٠٨، أن المطاط هو ثروة المستقبل الضخمة. وفي رواية الدار الخضرا، La casa verde (برشلونة، ١٩٦٦)، يعيد ماريو بارجاس ليوسا تشكيل المناخ المسموم في إيكيتوس وفي الغابة، حيث كان المغامرون يخدعون الهنود ويخدعون بعضهم بعضاً. وقد إنتقمت الطبيعة، فقد كان لديها الجذام وغيره من الأسلحة.

(60) Domingo Alberto Rangel, *El proceso del capitalismo contemporáneo en Venezuela*, Caracas, 1968.

(61) Domingo Alberto Rangel, *Capital y desarrollo*, Tomo I : La Venezuela agraria, Caracas, 1969.

www.ibtesama.com/vb

(٦٢) يطلق لقب «كولونيل» بسهولة في البرازيل على اللاتيفونديين التقليديين، وبالتالي، على كل الشخصيات الهامة. والفقرة الواردة مقتبسة من رواية چورج أمادو، سان چورج دوس إليوس São Jorge des Ilhéus (مونتفيديو، ١٩٤٦). وفي المقابل فإنه «حتى الصبية لم يكونوا يلمسون ثمار الكاكاو. كانوا يحسون بالخوف من تلك الثمار الصفرا.، ذات الثراة الصلبة، التي تهملهم سجناء حياة الثمار واللحم اللذيذ هذه»، اذ أنه، في العمق، «كان الكاكاو هو السيد الأكبر الذي يخشاه حتى الكولونيل». (چورج أمادو، كاكاو، بوينوس آيرس، ١٩٣٥). وفي رواية أخرى، هي : جابرييلا، قرنفل وقرفة Gabriela, clavo y canela ، تتحدث إحدى الشخصيات عن اليوس عام ١٩٢٥، رافعة اصبعها مؤكداً : «ولا توجد حالياً، في شمال البلاد، مدينة ذات تقدم أسرع». واليوم، ليست اليوس حتى ظل ما كانت.

(٦٣) في إشارة إلى إرتفاعات الاسعار بالنسبة للكاكاو والبن، تقول اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية التابعة للأمم المتحدة (CEPAL) أن لها «سمة عابرة نسبياً وأنها تتبع «بدرجة كبيرة فترات فواصل بين المحاصيل»».

- CEPAL, ***Estudio económico de América Latina***, 1969. tomo II : La economia de América Latina en 1969, Santiago de Chile, 1970.

(64) Roberto C. Simonsen, ***Op. Cit.***

(65) Caio Prado Júnior, ***Formacáo do Brasil contempor^aneo***, Sáo Paulo, 1942.

(66) Comité Interamericano de Desarrollo Agrícola, ***Guatemala. Tenencia de la Tierra y desarrollo socioeconómico del sector agricola***, Washington, 1965.

(68) Comité Interameri cano de Desarrollo Agrícola, Perú. ***Tenencia de la Tierra y desarrollo socioeconómico del sector agricola***, Washington. 1966.

(69) Alonso Agúilar M. y Fernando Carmana, ***México :, riqueza y miseriay*** México, 1968.

(70) Mario Arrubla, ***Estudios Sobre el subdesarrollo colombiano***, Medellín, 1969 :

www.ibtesama.com/vb

ويقسم الثمن على النحو التالي : ٤٠ في المائة من أجل الوسطاء، والمصدرين والمستوردين؛ و ١٠ بالمائة من أجل ضرائب كلتا الحكومتين، و١٠ في المائة من أجل متعهدي النقل؛ و٥ بالمائة للدعاية التي يقوم بها المكتب الأمريكي للبن، في واشنطن؛ و ٢٠ بالمائة من أجل ملاك المزارع، و٥ بالمائة لأجور العمال.

(71) Banco Cafetero, ***La Industria Cafetera en Colambia***, Bogotá 1962.

(72) ***Panorama económico Lattinoamericano***, núm. 87, La Habana, septiembrede 1963.

(73) Pierre Monbeig, ***Pionniers et planteurs de Sáo Paulo***, París, 1952.

(74) Datos del Banco Central, Instituto Brasileiro do Café y FAO, Revista Fator, núm 2, Río de Janeiro, Noviembre - diciembre de 1968.

(75) Cid Silveira, طبقاً للتحقيق الذي أجرته لجنة التجارة الفيدرالية ؛ ***Café : um drama na economia nacional***, Río de Janeiro, 1962.

(76) CEPAL, ***El comercio internacional y el desarrollo de América Latina***, México - Buenos Aires, 1964.

(77) Roberto. C. Simonsen, ***Op. Cit.***

(78) Mario Arrubla, ***Op. Cit.***

(79) Luis Eduardo Nieto Arteta, ***Ensayos sóbre economía colombiana***, Medellín. 1969.

(80) Germán Guzmán Campos, Orlando Fals Borda y Eduardo Uma´na Luna, ***La Violencia en Colombia***. Estudio de un Proceso social. Bogotá. 1963 - 64.

(81) Germán Guzman, ***La violencia en colombia*** (parte descriptive), 1986.

(82) Naciones Unidas, Análisis y proyecciones del desarrollo económico, III. en ***El desarrollo económico de Colombio***, Nueva York. 1957.

(٨٢) ويجد الأستاذ غرمان راما أن بعض هذه المعاهد الأكاديمية الموقرة تحتفظ في مكتبتها، كأنهم

www.ibtesama.com/vb

تراث ثقافي، بالمجموعة المجلدة من المختار من ريدرز دايجست :

- Germán W. Rama, ***Educación y movilidad social en colombia***, Revista "ECO" núm. 116, Bogotá, diciembre de 1969.

(84) Edelberto Torres - Rivas, ***Procesos y estructuras de una sociedad dependiente*** (Centroamérica), Santiogo de Chile, 1959.

(85) Carlos Guzmán Bockler y Jean - Loup Herbert, ***Guatemala: una interpretación histórico - social***, México, 1970.

(86) Darcy Ribeiro, ***Las Américas y la Civilización***, tomo III : Los Pueblos trasplantados. Civilizacion y desarrollo, Buenos Aires, 1970.

(87) Gregorio Selser, ***Diplomacia, garróte y dólares en América Latina***, Buenos Aires, 1962.

(88) Claude Julien, ***L' Empire Americain***, París, 1968.

(89) Publicado en Common Sense, noviembre de 1935. V. Leo Huberman, ***Man's Worldly Goods. the story of the wealth of Nations***, Nueva York, 1936.

(90) William Krehm, ***Democracia y tiranías en el Caribe***, Buenos Aires, 1959.

(٩١) هذا هو موضوع رواية ألبارو ثيبيدا ساموديو Álvara Cepeda Samudio، الدار الكبيرة La casa grande (بوينوس آيرس، ١٩٦٧)، وكذلك يشغل أحد فصول رواية مائة عام من العزلة (بوينوس آيرس، ١٩٦٧) لجابرييل جارثيا ماركث ، ومن المؤكد أنه كان حلماء، أصر المسئولون.

(٩٢) تضم المجموعة روايات الريح القوية Viento Fuerte ، والبابا الأخضر، وعيون المدفونين Los ojos de los enterrados ، وهي الثلاثية التي نشرت في بوينوس آيرس في الخمسينات، وفي الريح القوية، تقول إحدى الشخصيات، وهي المستر بيلي، بصورة تنبؤية : ولو أننا بدلا أن ننشئ مزارع جديدة، إشترينا من المنتجين الخاصين فاكهتهم، فسوف

www.ibtesama.com/vb

تكسب الكثير نحو المستقبل». وهذا هو ما يجرى حالياً فى جواتيمالا ؛ فاليونايتيد فروت - وهى الآن يونايتيد براندز - تمارس إحتكارها للموز من خلال آليات العصرين، الأكثر كفاءة والأقل خطراً من الانتاج المباشر. ويجدر بالذكر أن إنتاج الموز إنخفض بحدة خلال عقد الستينات، بدءاً من لحظة أن قررت اليونايتيد فروت بيع و / أو تأجير مزارعها فى جواتيمالا، والتى كان يتهددها خطر قرارات التحريض الإجتماعى.

(93) Edelberto 'Torres - Rivas, *Op. cir.*

(94) Gregrio Selser, ***Sandino, general de Hombres Libres***, Buenos Aires, 1959.

(95) Carleton Beals, ***América ante América***, Santiago de Chile, 1940.

(96) William Krehm, ***Op. Cit.***

- وقد قضى كريم سنوات طويلة فى أمريكا الوسطى كمراسل لمجلة «تايم» الأمريكية الشمالية.

(97) Eduardo Galeano, ***Guatemala, País ocupado***, México, 1967.

(٩٨) خطاب أمام جمعية باعة الكتب الامريكية، فى واشنطن، فى ١٠ يونيو ١٩٦٣. أورده

- David Wise y Thomas Ross, ***El gobierno invisible***. Buenas Aires, 1966.

(99) J. P. y G. P. Robertson, ***La Argentina en la época de la Revolucion***. cartas sóbre el Paraguay, Bueuas Aires, 1920.

(100) Washington Reyes Abadie, Óscar H. Bruschera y Tabaré Melogno, ***El Ciclo Artiguista***, tomo IV, Montevideo, 1968.

(101) Nelson de la Torre, Julio C. Rodrí guez y Lucía Sala de Touron. ***Artigas: tierra y revolución***, Montevideo, 1967.

(102) Nelson de la torre, Julio C. Rodríguez y Lucía Sala de Touron, ***Op. Cit.*** De los mismos autores, ***Evolución económica de la Banda Oriental***, Montevideo, 1967, y Estructura económico - Social de la Colonia, Montevideo, 1968.

(103) Vivian Trías. ***Reforma agraria en el Uruguay***. Montevideo, 1962.

www.ibtesama.com/vb

– ويقدم هذا الكتاب سجلاً للأوليجاركية الأورجوايية، عائلة عائلة.

(104) Eduardo Galeano, ***Uruguay : Promise and Betrayal, en Latin America : Reform or Revolution?***, ed. Por. J. Petras y M. Zeitlin, Nueva York, 1968.

(105) Instituto de Eonomaía, ***El proceso económico del Uruguay***, contribución al estudio de su evolución y perspectivas, Montevideo, 1969 :

– في فترات إزدهار الصناعة القومية، التي تحميها وتدعمها الدولة بشدة، كان جزء كبير من أرباح الريف يتجه نحو المصانع الوليدة. وحين دخلت الصناعة دورة الأزمة الطاحنة، تحولت أرباح رأسمال تربية الماشية إلى وجهات أخرى. نهبت من الغطاء القومي أكثر قصور بونتادل إستي بذخاً ولاجدوى، وأطلقت المضاربة المصرفية، فيما بعد، حتّى من يصطادون في مياه التضخم العكرة. لكن رؤوس الأموال هربت، في المحل الأول : رؤوس الأموال والأرباح التي ينتجها البلد، عاماً إثر عام. وفيما بين ١٩٦٢ و ١٩٦٦، حسب البيانات الرسمية، طارت من أورجواي ٢٥٠ مليوناً من الدولارات باتجاه المصارف الآمنة في سويسرا والولايات المتحدة . وكذلك البشر، البشر من الشباب، هبطوا من الريف إلى المدينة، منذ عشرين عاماً، ليقدموا أذرعهم للصناعة النامية، واليوم يمضون، براً أو بحراً، نحو الخارج. وواضح أن حظهم مختلف. فرؤوس الأموال تُستقبل بأذرع مفتوحة؛ أما المهاجرون فينتظرهم مصير صعب ، المنفى والنوم في العراء، المغامرة غير المضمونة. وأورجواي عام ١٩٧٠، الذي يرتجف نتيجة أزمة ساحقة، لم يعد الواحة الاسطورية للسلام والتقدم الذي وعدوا به المهاجرين الأوربيين، بل بلداً مضطرباً يحكم بالهجرة على نفس سكانه. ينتج العنف ويصدر البشر، بصورة طبيعية مثلما ينتج ويصدّر اللحم والصوف.

(106) Gennan Wettstein y Juan Rudolf, ***La sociedad rural***, en la colección Nuestra Tierra, núm. 16, Moonteviseo, 1969.

(107) Jesús Silva Herzog, ***Breve historia de la Revolución mexicana***, Méxiico Buenas Aires, 1960.

(108) John Kenneth Turner, ***México Bárbaro***, publicado en Estados Unidos en 1911; México, 1967.

www.ibtesama.com/vb

(109) John Kenneth Turner, *Op. Cit.*

- كانت المكسيك هي البلد المفضل لإستثمارات أمريكا الشمالية : وكان يتجمع فيها منذ نهاية القرن الماضي أقل قليلاً من ثلث رؤوس أموال الولايات المتحدة المستثمرة في الخارج. وفي ولاية شيهواهوا Chi-huahua وغيرها من الأقاليم الشمالية، كان ويليام راندولف هيرست William Randolph-hearst ، المواطن كين الشهير في فيلم ويلز، يمتلك أكثر من ثلاثة ملايين هكتار.

- Fernando Carmona, *El drama de América Latina.* El caso de México, México, 1964.

(110) John Womack Jr. *Zapata y la Revolución mexicana*, México, 1969.

(111) John Womack Jr., *Op. Cit.*

(112) Fernando Carmona, *Op. Cit.*

(113) Edmundo Flores, Adónde va la economía de México?; en Comercio exterior, vol xx, núm. 1, México, enero de 1970.

(114) Ana María Flores, *La magnitud del hambre en México*, México, 1961.

(115) Alonso Aguilar M. y Fernand Carmona, *Op. Cit.*

- راجع كذلك لنفس المؤلفين مع

- Guillermo Monta´no y Jorge Carrión, *El milagro Mexicano*, México, 1970.

(116) Rodolfo Stavenhagen, Fernando Paz Sánchez, Cuauhtémoc, Cárdenas y Arturo Bonilla, *Neolatifundismo y explotación. De Emiliano Zapata a Anderson Clayton & Co.*, México, 1968.

(117) Carlos Fuentes, *La muerte de Artemio Cruz*, México, 1962.

(118) FAO, *Anuario de la producción*, vol. 19, 1965.

(119) Alberto Baltra Cortés, *Problemas del subdesarrollo económico latinoamericano*, Buenos Aires, 1966.

(120) D.F. Maza Zavala, *Explosión demográfica y crecimiento económico*, Caracas, 1970.

www.ibtesama.com/vb

(121) Paul Bairoch, ***Diagnostic de L'évolution économique du Tiers Monde***, 1900 - 1966, Paris, 1967.

(122) Rui Facó, ***Cangaceiros e fanáticos***, Rio de Janeiro, 1965.

(١٢٣) يمثل السهل المصنّع، من وجهة نظر الرأسمالي مربي الماشية، نقلاً لرأس المال إلى استثمار أعلى، وأكثر مخاطرة، وأقل ربحاً في نفس الوقت من الاستثمار التقليدي في الماشية الكثيفة. وهكذا تدخل المصلحة الخاصة للمنتج في تناقض مع مصلحة المجتمع في مجموعه : فنوعية الماشية وربحيتها لا يمكن زيادتهما، عند نقطة معينة، إلا من خلال زيادة خصوبة التربة. والبلاد تحتاج إلى أن تنتج الأبقار لحماً أكثر والأغنام صوفاً أكثر، لكن أصحاب الأرض يكسبون أكثر مما يكفي عند مستوى الربحية الحالي. والنتائج التي توصل إليها معهد الاقتصاد في جامعة أورجواي (العمل المذكور آنفاً) يمكن تطبيقها، بمعنى معين، على الأرجنتين أيضاً.

(124) Dardo Cúneo, ***Comportamiento y crisis de la clase empresaria***, Buenos Aires, 1967.

(125) CEPAL, ***Estudio económico de América Latina***, Santiago de Chile, 1964 y , 1966, y El uso de fertilizantes en América Latina, Santiago de Chile, 1966.

(126) Darcy Ribeiroo, ***Las Américas y La civilización***, tomo II : Loa pueblos nuevos, Buenos Aires, 1969.

(127) Edward C. Kirkland, ***Historia económica de Estados Unidos***, México, 1941.

(128) Celso Furtado, ***Um Projeto para o Brasil***, Río de Jabneiro, 1969.

(١٢٩) إن لويس هانكه Lenis Hanke والمؤلفين الآخرين لكتاب : هل للأمريكتين تاريخ مشترك؟ Do the Americas Have a Common History? (نيويورك، ١٩٦٤)، يطلقون العنان لخيالهم، عبثاً، في محاولة إيجاد أوجه تماثل بين العمليتين التاريخيتين للشمال والجنوب.

(130) Sergio Bagú, ***Op. Cit.***

www.ibtesama.com/vb

المنابع الدفينة للسلطة

■ إقتصاد أمريكا الشمالية يحتاج إلي معادن أمريكا اللاتينية كما تحتاج الرئتان إلي الهواء

كان رواد الفضاء قد طبعوا أول آثار اقدام آدمية على سطح القمر، وفي يوليو عام ١٩٦٩ أعلن والد المشروع، ويرنر فون براون Werner Von Braun، للصحافة أن الولايات المتحدة تعتزم إقامة محطة فضائية بعيدة، لأغراض قريبة جداً: «من هذه المنصة الرائعة للمراقبة - أعلن - سيمكننا فحص كل ثروات الارض: آبار البترول المجهولة، ومناجم النحاس والزنك ... »

يظل البترول هو الوقود الرئيسي لعصرنا، ويستورد الأمريكيون الشماليون سُبع البترول الذي يستهلكون، ومن أجل قتل الفيتناميين، يحتاجون إلى طلقات، وتحتاج الطلقات إلى نحاس: والولايات المتحدة تشترى خارج حدودها خُمس النحاس الذي تستهلكه. ويثير نقص الزنك قلقاً متزايداً باستمرار: ويأتي من الخارج نحو نصفه، ولا يمكن صنع الطائرات بدون الألومنيوم، ولا يمكن صنع الألومنيوم بدون البوكسيت: ولا تكاد الولايات المتحدة تملك بوكسيت. ومراكز تعدينها الضخمة - بيتسبرج، وكليفلاند، وديترويت - لا تجد الحديد الكافي في مناجم مينسوتا، التي قاربت على النضوب، كذلك لا تجد منجنيزاً في الاراضي القومية: والاقتصاد الامريكي الشمالي يستورد ثلث الحديد وكل المنجنيز الذي يحتاجه، ومن أجل انتاج محركات الدفع النفاث، لا يجدون في باطن أرضهم نيكل ولا كروم، ولتصنيع أنواع الصلب الخاصة، لابد من التنجستان: ويستوردون رُبعه.

هذا الاعتماد، المتزايد، على الامدادات الاجنبية، يحدد تطابقاً متزايداً أيضاً، بين مصالح الرأسماليين الامريكيين الشماليين في أمريكا اللاتينية، وبين الامن القومي للولايات المتحدة. يبدو الاستقرار الداخلي للقوة الاعظم في العالم وثيق الارتباط بالاستثمارات الامريكية الشمالية جنوبي نهر الريو برافو. ونصف هذه الاستثمارات تقريباً مخصص لاستخراج البترول ولاستغلال الثروات التعدينية، «والتي لا غنى عنها بالنسبة لاقتصاد الولايات المتحدة في السلم مثلما في الحرب»[1] ويحدد رئيس المجلس

www.ibtesama.com/vb

الدولي للغرفة التجارية للبلد الشمالي الأمر على النحو التالي: «تاريخياً، فإن أحد الأسباب الرئيسية لاستثمار الولايات المتحدة في الخارج هو تنمية الموارد الطبيعية، وخصوصاً المعادن، وبوجه أخص، البترول. ومن البديهي تماماً أن دوافع هذا النوع من الاستثمارات لا يمكن الا أن تزيد. فاحتياجاتنا من المواد الأولية تتزايد باستمرار بقدر تزايد السكان وارتفاع مستوى المعيشة. وفي نفس الوقت، فإن مواردنا المحلية تنضب... »[٢] إن المعامل العلمية للحكومة، والجامعات، والشركات الضخمة تفوق الخيال بالمعدل المحموم لاختراعاتها واكتشافاتها. لكن التكنولوجيا الجديدة لم تجد وسيلة للإستغناء عن المواد الأساسية التي تقدمها الطبيعة ، والطبيعة وحدها .

وفي نفس الوقت، تضعف الاجابات التي يستطيع أن يقدمها باطن الاراضي القومية على تحدي النمو الصناعي للولايات المتحدة [٣].

■ باطن الأرض أيضاً ينتج إنقلابات ، وثورات ، وحكايات جاسوسية ، ومغامرات في الغابة الأمازونية:

في البرازيل ، أسقطت مناجم الحديد الرائعة في وادي پاراوپيبا Paraopeba رئيسين، هما جانيو كوادروس Janio Quadros وجواو جولارت Joao Goulart ، قبل أن يتنازل عنها، بود، لشركة هانا ما ينتج كومباني Hanna Mining Co. الماريشال كاستيلو برانكو Castelo Branco، الذي قفز الى السلطة عام ١٩٦٤، وقبل بضع سنوات، كان صديق آخر سابق لسفير الولايات المتحدة، هو الرئيس أوريكو دوترا Eurico Dutra (٤٦ - ١٩٥١)، قد منح شركة بيتلهم ستيل Bethlehem Steel، الاربعين مليون طن من المنجنيز التي يضمها منجم ولاية أمابا Amapa، الذي يعد أحد أكبر المناجم في العالم، وذلك مقابل حصول الدولة على أربعة بالمائة من دخول التصدير؛ ومنذ ذلك الحين، أخذت بيتلهم تنقل هذه الجبال الى الولايات المتحدة بحماس يثير الخوف من أنه بعد خمس عشرة سنة من الآن لن يتبقى لدى البرازيل منجنيز يكفي لامداد صناعتها التعدينية. وبخلاف ذلك، فإنه من بين كل مائة دولار تستثمرها بيتلهم في استخراج المعادن، تتمتع ثمانية وثمانون دولاراً بكرم الحكومة البرازيلية: إعفاءات من الضرائب بإسم «تنمية الاقليم». وكما يتضح، لم تفد بشيء

www.ibtesama.com/vb

ثروة الذهب المفقود في ميناش جيرايش - «ذهب أبيض، ذهب أسود، ذهب علن»، كما كتب الشاعر مانويل بانديرا: فالبرازيل تواصل استنزاف نفسها مجاناً من المصادر الطبيعية للتنمية [٤]. وقد سيطر الدكتاتور رينيه باريينتوس Rene Barrintos، من جانبه، على بوليفيا عام ١٩٦٤ ، وبين المذابح المتتالية لعمال المناجم ، منح شركة اخوان فيليبس Philips Brothers امتياز منجم ماتيلده Matilde ، الذي يحتوي على رصاص ، وفضة ، وكميات كبيرة من الزنك بدرجة نقاوة تفوق درجة نقاوة المناجم الامريكية الشمالية اثنتي عشرة مرة . وصرّح للشركة بنقل الزنك الخام ، لتنقيته في مصانع تكريرها بالخارج ، مقابل أن تدفع للدولة ما لايقل عن واحد ونصف بالمائة من قيمة بيع المعدن [٥]. وفي البيرو ، عام ١٩٦٨ ، فقدت بشكل غامض الصفحة رقم أحد عشر من الاتفاق الذي وقعه الرئيس بيلاونده تيري Belaúnde Terry مع إحدى الشركات التابعة لشركة إستاندارد أويل ، وقد اسقط الجنرال بيلاسكو الفارادو Velasco Alvarado الرئيس ، وأمسك بأعنة البلاد ، وأمم ابار ومعمل تكرير الشركة ، وفي فنزويلا ، بحيرة البترول الكبيرة لشركتي استاندارد أويل وجالف ، تستقر أكبر بعثة عسكرية أمريكية شمالية في امريكا اللاتينية. والانقلابات المتكررة في الارجنتين تقع قبل أو بعد كل امتياز بترولي ، ولم يكن النحاس بعيداً بحال عن المساعدة العسكرية غير المتناسبة التي كانت تتلقاها تشيلي من البنتاجون حتى الانتصار الانتخابي لقوى اليسار بزعامة سلفادور الليندي؛ فقد كانت الاحتياطيات الامريكية الشمالية من النحاس قد انخفضت بأكثر من ستين في المائة فيما بين عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٩، وفي عام ١٩٦٩، في مكتبه بها فانا، أخبرني التشي جيفارا أن كوبا في عهد باتيستا لم تكن بلداً للسكر فقط : فالمناجم الكوبية الضخمة للنيكل والمنجنيز توضح أفضل، في تقديره، غضب الامبراطورية الاعمى ضد الثورة. ومنذ هذه المعادلة ، تقلصت احتياطيات الولايات المتحدة من النيكل الى الثلث؛ أممت الشركة الامريكية الشمالية نيكرو - نيكل Nicro Nickel وهدد الرئيس جونسون Johnson شركات التعدين الفرنسية بمقاطعة شحناتهم الى الولايات المتحدة اذا إشتروا المعدن الكوبي.

وكانت المعادن وثيقة الصلة بسقوط حكومة الاشتراكي تشيدى جاجان Cheddi Jagan ، الذي كان قد حصل من جديد في أواخر عام ١٩٦٤ ، على غالبية الاصوات فيما كان يسمى حينذاك بإسم جوايانا البريطانية. والبلاد التي تحمل اليوم اسم جويانا هي رابع منتج عالمي للبوكسيت وتحتل المركز الثالث بين منتجي المنجنيز الامريكيين

www.ibtesama.com/vb

اللاتين، وقد تولت وكالة المخابرات المركزية دوراً حاسماً في إسقاط جاجان. وقد اعترف أرنولد زاندر ، أكبر مديري الاضراب الذي قام بمهمة الاستفزاز والذريعة لإنكار النصر الانتخابي لجاجان ووضع الشراك أمامه، اعترف علناً ، بعد ذلك، بأن نقابته كانت قد تلقت فيضاً من الدولارات من إحدى مؤسسات وكالة المخابرات المركزية بالولايات المتحدة[٦] . وضمنت الحكومة الجديدة الا تتعرض للخطر مصالح شركة الومنيوم كومبانى أوف أمريكا Aluminium Company Of America في جويانا: واستطاعت الشركة أن تواصل الحصول على البوكسيت، دون مشاكل، وأن تواصل بيعه لنفسها بنفس اسعار عام ١٩٣٨، رغم أن سعر الالومنيوم قد تضاعف منذ ذلك الحين[٧].لم يعد العمل معرضاً للخطر. بينما يساوي بوكسيت اركنساس ضعف قيمة بوكسيت جويانا. لا تملك الولايات المتحدة الا القليل جداً من البوكسيت في اراضيها؛ وبالمقابل، فإنها بأستخدام مادة أولية أجنبية ورخيصة جداً، تنتج نحو نصف الالومنيوم المصنع في العالم.

من أجل تزويد نفسها بالجزء الاكبر من المعادن الاستراتيجية التي تعتبر ذات قيمة حاسمة لقدرتها الحربية، تعتمد الولايات المتحدة على المصادر الاجنبية. «إن محرك الدفع النفاث، والتوربيني الغازي، والمفاعلات النووية لها اليوم تأثير ضخم على الطلب على المعادن التي لا يمكن الحصول عليها الا في الخارج»، هذا ما يقوله ماجدوف في هذا الصدد[٨]. إن الحاجة الملحة الى المعادن الاستراتيجية، التي لاغنى عنها من أجل ضمان القوة العسكرية والذرّية للولايات المتحدة، تبدو مرتبطة بوضوح بعمليات شراء الارض الواسعة، بوسائل خداعية بشكل عام، في منطقة الأمازون البرازيلية. ففي خلال عقد الستينات، قامت شركات امريكية شمالية عديدة، يقودها من أيديها المغامرون والمهربون المحترفون، بالنقر في إندفاع Rush محموم على هذه الغابة الهائلة. قبل ذلك وبفضل اتفاق عقد عام ١٩٦٤، حلقت طائرات القوات الجوية للولايات المتحدة فوق الاقليم وصورته كله.

استخدمت اجهزه قياس ومبض لتحديد مناجم المعادن المشعة عن طريق ارسال موجات ضوئية ذات كثافة متغيرة، وأجهزة قياس كهرومغناطيسية لعمل صور بالاشعة لباطن الارض الغني بالمعادن غير الحديدية وأجهزة قياس مغناطيسية لاكتشاف وقياس الحديد. ووضعت البيانات والصور التى تم الحصول عليها خلال مسح اتساع وعمق ثروات اقليم الامازون الخفية، وضعت بين أيدي الشركات الخاصة المهتمة بالموضوع، وذلك بفضل المساعي الحميدة لإدارة المسح الجيولوجي Geological Survey لحكومة

www.ibtesama.com/vb

الولايات المتحدة [٩]. فى هذا الاقليم الشاسع تم التحقق من وجود الذهب، والفضة، والماس، والجبسيت، والهيماتيت، والمجنتيت، والتنتالوم، والتيتانيوم، والثوريوم، واليورانيوم، والكوارتز، والنحاس، والمنجنيز، والرصاص، واكاسيد السلفات، وأكاسيد البوتاسيوم، والبوكسيت، والزنك، والزركونيوم، والكروم، والزئبق. يبلغ من صفاء السماء وانفتاحها من الغابة البكر لما توجروسُّو Mato Grosso حتى سهول جنوبى جوياس Goias أنه يمكن رؤية الشمس الساطعة ونصف دستة من البروق والرعود البعيدة فى نفس الوقت، حسب ما أبدته مجلة تايم من نشوة فى طبعتها الاخيرة الامريكية اللاتينية عام ١٩٦٧.

كانت الحكومة قد قدمّت اعفاءات ضريبية وإغراءات أخرى من أجل استعمار المساحات البكر لهذا الكون السحرى والبدائى. وحسب ما تقوله مجلة تايم، كان الرأسماليون الاجانب قد اشتروا، قبل ١٩٦٧، بسعر سبعة سنتات للفدان، مساحة تفوق مجموع أراضى كونكتيكت، ورود أيلاند، وديلاوير، وماساشوستس، ونيوهامبشاير. قال مدير الوكالة الحكومية لتنمية الامازون: «يجب أن نبقى الابواب مفتوحة جيداً أمام الاستثمار الاجنبى، لأننا نحتاج الى أكثر مما يمكننا الحصول عليه» ولتبرير المسح الجوى من جانب الطيران الامريكى الشمالى، كانت الحكومة قد أعلنت من قبل أنها تفتقر الى الموارد. هذا هو المعتاد فى أمريكا اللاتينية: يجرى دائماً تسليم الموارد باسم نقص الموارد.

وقد استطاع الكونجرس البرازيلى إجراء تحقيق انتهى بتقرير ضخم حول الموضوع [١٠]. يعدد التقرير حالات بيع أو إغتصاب لأراضى مساحتها عشرون مليون هكتار، تمتد بطريقة غريبة بحيث أنها، حسب ما تقول لجنة التحقيق، «تكون حزاماً يعزل الامازون عن بقية البرازيل». ويظهر «الاستغلال غير المشروع لمعادن ثمينة جداً» فى التقرير بإعتباره واحداً من الدوافع الاساسية للرغبة الامريكية الشمالية العارمة فى فتح حدود جديدة داخل البرازيل. وتؤكد شهادة هيئة وزارة الحربية، التى يضمّها التقرير، على «مصلحة الحكومة الامريكية الشمالية نفسها فى الاحتفاظ، تحت سيطرتها، بامتداد واسع من الاراضى لاستخدامها فيما بعد، سواء لاستغلال المعادن، خصوصاً المعادن المشعة، أو كقاعدة لاستيطان موجّه». ويؤكد مجلس الامن القومى: «مما يثير الشك حقيقة أن المساحات المحتلة، أو التى فى سبيلها الى الاحتلال، من جانب عناصر أجنبية، تتطابق مع الاقاليم الخاضعة لحملات تعقيم البرازيليات بواسطة

www.ibtesama.com/vb

الاجانب». وبالفعل، وحسب ما تقول صحيفة كوريّو دامانيا Correio Da Manha فإن «أكثر من عشرين بعثة تبشيرية أجنبية، من الكنيسة البروتستانتية للولايات المتحدة أساساً، تحتل الامازون، وتستقر في أغنى النقاط بالمعادن المشعة، والذهب، والماس... وتنشر على نطاق واسع موانع الحمل، من قبيل العوازل التى توضع فى الرحم، وتعلم الانجليزية للهنود الذي يلقنون مبادئ الدين ... ويطوّق مناطقهم عناصر مسلحة بحيث لا يستطيع أحد النفاذ اليها»(١١). وغنى عن الذكر أن الامازون هي أكبر المناطق اتساعاً بين كل صحراوات الكوكب التى يسكنها الانسان ، وقد تم تطبيق تحديد النسل في هذه المساحة الهائلة الخالية ، من أجل تجنب المنافسة الديموجرافية للبرازيليين القليلين جداً الذين يعيشون ويتجددون في أركان نائية من الغابة أو من الأراضي المستوية الشاسعة.

ومن جانبه، أكد الجنرال ريوجراند ينوكرويل Riograndino Kruel أمام لجنة التحقيق البرلمانية، أن «حجم تهريب المواد التى تحتوى على ثوريوم ويورانيوم يبلغ رقماً فلكياً هو مليون طن »، وقبل ذلك ببعض الوقت، فى سبتمبر عام ١٩٦٦، كان كرويل، رئيس الشرطة الفيدرالية، قد شجب «التدخل غير المناسب والمنهجى» لأحد قناصل الولايات المتحدة في المحاكمة التى تجرى ضد أربعة مواطنين أمريكيين شماليين متهمين بتهريب معادن ذرية برازيلية. وفي رأيه، فإن ضبط أربعين طناً من المعدن المشع معهم يكفى لإدانتهم. وبعد قليل، هرب ثلاثة من المهربين من البرازيل بطريقة غامضة. لم يكن التهريب ظاهرة جديدة، رغم أنه تكثف بشكل كبير. إذ تفقد البرازيل كل عام أكثر من مائة مليون من الدولارات، نتيجة التهريب غير المشروع للماس الخام فقط(١٢). لكن التهريب لا يصبح ضرورياً، في الواقع، إلا بدرجة نسبية. فالامتيازات القانونية تنتزع من البرازيل بارتياح ثرواتها الطبيعية المذهلة. وحتى لانورد سوى مثال واحد آخر، فإن حزاماً ضخماً، هو أكبر منجم للنيوبيوم في العالم، ويقع في أراكسا Araxa، يتبع أحد فروع شركة النيوبيوم كوربوريشن Niobium Corporation، في نيويورك. ومن النيوبيوم تأتى عدة معادن تستخدم، بسبب مقاومتها لدرجات الحرارة العالية، فى انشاء المفاعلات النووية، والصواريخ، وسفن الفضاء، والاقمار الصناعية، أو الطائرات النفاثة، وبجانب ذلك، تستخرج الشركة كذلك مع النيوبيوم، كميات كبيرة من التنتالوم، والثوريوم، والبورانيوم، والبيروكلورو والمعادن النادرة بدرجة نقاوة عالية.

www.ibtesama.com/vb

■ كيميائي ألماني يهزم المنتصرين في حرب الباسيفيكي

ان حكاية النترات، صعودها وسقوطها، تكشف عن الدوام الوهمي لفترات الرخاء الامريكي اللاتيني في السوق العالمية: اللقمة العابرة دوماً للأمجاد والثقل الباقي دوماً للكوارث.

عند أواسط القرن الماضي، كانت نبوءات مالتوس السوداء تحوم فوق العالم القديم. كان السكان الاوربيون يتزايدون بصورة تسبب الدوار وكان لابد من منح حياة جديدة للتربة المنهكة حتى يمكن لانتاج الغذاء أن يزداد بنسبة مماثلة، وقد كشف الجوانو* Guano عن خصائصه المخصبة للارض في المعامل البريطانية؛ وبدءاً من عام ١٨٤٠ بدأ تصديره على نطاق واسع من الساحل البيرواني. كانت طيور البحر والنوارس، التي تتغذى على أسراب السمك الوفيرة التي تجلبها التيارات التي تلعق الضفاف، كانت قد ظلت تراكم، فوق الجزر والجزر الكبيرة، منذ اوقات سحيقة، جبالاً من الفضلات الغنية بالنتروجين، والنوشادر، والفوسفات، والاملاح القرية: وظل الجوانو نقياً على سواحل بيرو التي لا يبللها المطر[١٣]. وبعد قليل من الانتشار الدولي للجوانو، اكتشفت الكيمياء الزراعية أن الخصائص المخصبة للنترات اكبر، وفي عام ١٨٥٠، كان استخدامه كسماد في الحقول الاوربية قد اصبح استخداماً كثيفاً جداً. كانت أراضي القارة العجوز المخصصة لزراعة القمح، والتي أنهكها التآكل، تتلقى في نهم شحنات نترات الصودا القادمة من مناجم النترات البيروانية في تاراباكا Tarapaca، ثم من مقاطعة انتوفاجاستا Antofagasta البوليفية[١٤]. بفضل النترات والجوانو، اللذان يرقدان على سواحل الباسيفيكي «ويكادان أن يكونا في متناول السفن القادمة للبحث عنهما»[١٥]. إبتعد شبح الجوع عن أوربا.

ظلت أوليجاركية ليما، التي لا مثيل لها في ترفعها وبذخها، تغترف الثروة بكلتا يديها وتراكم رموز سلطتها في القصور والاضرحة المرمرية من مرمر كارارا والتي شيدتها العاصمة وسط الصحراوات الرملية. تاريخياً، كانت عائلات ليما الكبرى قد إزدهرت على حساب فضة بوتوسي، والآن تحولت لتعيش على براز الطيور وعلى الندف البيضاء اللامعة لمناجم النترات.

* الجوانو، هو سماد طبيعي من ذرق الطيور البحرية، أو من فضلات مصانع تعليب الاسماك - م.

www.ibtesama.com/vb

إعتقدت البيرو أنها مستقلة، لكن انجلترا احتلت مكان اسبانيا ، كتب مارياتيجي «وأحست البلاد أنها غنية. واستخدمت الدولة قروضها بلا حساب، عاشت في البذخ، مرتهنة مستقبلها لمصادر التمويل الانجليزية»، وفي عام ١٨٦٨، حسب ما يقول روميرو Romero، كانت نفقات وديون الدولة قد فاقت بكثير قيمة المبيعات للخارج، كانت احتياطيات الجوانو تعتبر ضماناً للقروض البريطانية، وكانت أوروبا تتلاعب بالاسعار؛ كان جشع المصدّرين يحدث الدمار؛ فما راكمته الطبيعة على الجزر طوال آلاف طويلة من السنين كـان يبـدّد في سنوات قليلة. وفي هذه الاثناء، وفي سـهـول النترات، كما يحكي برموديث، كان العمال يعيشون في أخصاص «بائسة، أعلى بالكاد من الانسان، ومبنيّة بالاحجار، وكتل النترات والطين، وذات حجرة واحدة».

وسرعان ما امتد استغلال النترات ليشمل مقاطعة انتوفاجاستا البوليفية، رغم أن التجارة لم تكن بوليفية بل بيروانية، بل وتشيلية قبل كونها بيروانية. وحين حاولت حكومة بوليفيا فرض ضريبة على مناجم النترات التي تعمل في أراضيها، غزت كتائب جيش تشيلي المقاطعة لتظلّ فيها الى الابد. حتى ذلك الحين، كانت الصحراء تقوم بدور منطقة إمتصاص النزاعات الكامنة بين تشيلي، والبيرو، وبوليفيا. وقد أطلقت النترات عنان الحرب. اندلعت حرب الباسيفيكي عام ١٨٧٩ ودامت حتى عام ١٨٨٣. فالقوات المسلحة التشيلية ، التي كانت قد احتلت، عام ١٨٧٩، الموانى البيراونية لاقليم النترات، وهي موانى باتيوس Patillos، وايكيكي Iquique، وبيساجوا Pisagua، وخونين Junin، دخلت ليما منتصرة في النهاية، وفي اليوم التالي استسلمت قلعة كاياو Callao. وسببت الهزيمة تمزيق البيروونزيفها. فقد الاقتصاد القومي مورديه الاساسيين، وأصاب الشلل القوى المنتجة، وانخفض سعر النقود، وتوقف الاقتراض الخارجي[١٦]. ولم يجلب الانهيار معه، كما أوضح مارياتيجي، تصفية للماضي: فقد ظلت بنية الاقتصاد الاستعماري سليمة لم تمس، برغم افتقارها الى مصادر البقاء. أما بوليفيا، فلم تنتبه، من جانبها، إلى ما فقدته في الحرب؛ فقدت أهم منجم للنحاس في العالم في الوقت الحاضر، منجم تشوكيكاماتا Chuquicamata الذي يقع بالضبط في مقاطعة أنتوفاجاستا، التي اصبحت تشيلية، لكن، ماذا عن المنتصرين؟

كانت النترات واليود تمثل خمسة بالمائة من دخول الدولة التشيلية عام ١٨٨٠؛ وبعد عشر سنوات، كان أكثر من نصف الايرادات المالية يأتي من تصدير النترات من الاراضي المفتوحة. وفي نفس الفترة، تزايدت الاستثمارات الانجليزية في تشيلي أكثر

www.ibtesama.com/vb

من ثلاث مرات: تحول اقليم النترات الى مصنع بريطاني[١٧]. استولى الانجليز على النترات باستخدام وسائل غير مكلفة . كانت حكومة البيرو قد صادرت معامل النترات في ١٨٧٥ ودفعت ثمنها بسندات؛ ودهورت الحرب قيمة هذه السندات، بعد خمس سنوات، إلى عشر قيمتها، واغتنم الفرصة بعض المغامرين الجسورين، مثل جون توماس نورث John Thomas North وشريكه روبرت هارفي Robert Harvey. وبينما التشيليون، والبيروانيون، والبوليفيون يتبادلون الطلقات في ميدان المعركة، تفرّغ الانجليز لامتلاك السندات، بفضل قروض بنك بالباراييسو Valparaiso وغيره من البنوك التشيلية التي تقدم لهم القروض دون صعوبة. كان الجنود يحاربون من أجلهم، دون أن يعرفوا وعلى الفور، عوضت الحكومة التشيلية تضحية نورث، وهارفي، وانجليس Inglis، وجيمس James، وبوش Bush، وروبرتسون Robertson، وغيرهم من رجال الأعمال المجتهدين: ففي ١٨٨١ طرحت إعادة مصانع النترات الى اصحابها الشرعيين، بعد أن إنتقل نصف السندات الى الايدي الساحرة للمضاربين البريطانيين. ولم يخرج من انجلترا ولا دانق لتمويل هذا النهب.

عند مستهل عقد التسعينات، كانت تشيلي توجّه الى انجلترا ثلاثة أرباع صادراتها ، وتتلقى من انجلترا نصف وارداتها تقريباً. كانت تبعيتها التجارية تفوق حينذاك التبعية التجارية التي تعاني منها الهند، كانت الحرب قد اسلمت تشيلي الاحتكار العالمي للنترات الطبيعية ، لكن ملك النترات كان جون توماس نورث، وكانت إحدى شركاته، وهي ليفربول نيترات كومباني Liverpool Nitrate Company، تدفع أرباحاً قيمتها أربعون في المائة. وكان هذا الشخص قد نزل من السفينة في ميناء بالباراييسو، عام ١٨٦٦، وليس في جيب بذلته المليئة بالتراب سوى عشرة جنيهات استرلينية؛ وبعد ثلاثين عاماً، كان الامراء والدوقات، ابرز السياسيين والصناعيون الكبار يجلسون على مائدة قصره في لندن. كان نورث قد أخترع لنفسة لقب كولونيل واشترك ، كما يليق بفارس من نوعه، في حزب المحافظين وفي فرقة كنت الماسونية. كان اللورد دورشستر Lord Dorchester، واللورد راندولف تشرشل، المركيز ستوكبول Stockpole يحضرون حفلاته الباذخة، التي كان نورث يرقص فيها متنكراً في زي هنري الثامن[١٨]. وفي هذه الاثناء، وفي مملكته النائية للنترات، لم يكن العمال التشيليون يعرفون الراحة يوم الاحد، وكانوا يعملون حتى ست عشرة ساعة يومياً ويتقاضون أجورهم على شكل بطاقات تفقد نحو نصف قيمتها في متاجر الشركة.

www.ibtesama.com/vb

وفيما بين عامي ١٨٨٦ و ١٨٩٠ ، وتحت رئاسة خوسيه مانويل بالماثيدا jose Manuel Balmaceda، أنجزت دولة تشيلي، كما يقول راميرث نيكولتشيا «خطوة التقدم الاكثر طموحاً في تاريخها كله». حفز بالما ثيدا تطور بعض الصناعات، وبنى مرافق عامة هامة، وجدد التعليم، واتخذ اجراءات لكسر احتكار شركة السكك الحديدية البريطانية - في تارابا كا وتعاقد مع ألمانيا على أول وآخر قرض لم تتلقاه تشيلي من انجلترا خلال كل القرن الماضي. وفي عام ١٨٨٨، أعلن أن من الضروري تأميم مناطق انتاج النترات من خلال تكوين شركات تشيلية، ورفض أن يبيع للانجليز أراضي انتاج النترات التي تملكها الدولة. وبعد ثلاث سنوات اندلعت الحرب الاهلية.

وسارع نورث وزملاؤه الى تمويل المتمردين [١٩]. وأغلقت السفن الحربية البريطانية الشواطئ التشيلية، بينما طنطنت الصحف في لندن ضد بالماثيدا، «والدكتاتور من أسوأ طراز» و "السفاح". وقد انتحر بالماثيدا، بعد هزيمته، وأبلغ السفير الانجليزي وزارة خارجيته بأن : «الجالية البريطانية لا تخفي رضاها عن سقوط بالماثيدا، الذي يعتقد أن انتصاره كان سينطوي على أضرار جسمية بالمصالح التجارية البريطانية». وعلى الفور، تضاءلت استثمارات الدولة في الطرق، والسكك الحديدية، وفي التوطين، والتعليم والاشغال العامة، بينما الشركات البريطانية توسع ممتلكاتها.

عشية الحرب العالمية الاولى، كان ثلثا الدخل القومي لتشيلي يأتيان من تصدير النترات، سهول انتاج النترات كانت اشد ضيقاً وغربة من أي وقت مضى. لم يكن الرخاء قد أفاد في تطوير وتنويع البلاد، بل إنه، على العكس، قد زاد من حدة تشوهاتها البنيوية. كانت تشيلي بمثابة ملحق للاقتصاد البريطاني: لم يكن من حق أهم مورد للأسمدة للسوق الاوربية أن يحيا حياته الخاصة. وعندئذ، هزم كيميائي الماني، من معمله، الجنرالات الذين انتصروا، قبل سنوات، في ميادين القتال. فاستكمال طريقة هابر - بوش Haber - Bosch لانتاج النترات بالتقاط النيتروجين من الهواء، أزاح النترات بصورة حاسمة وأنتج السقوط الفجائي للاقتصاد التشيلي. كانت أزمة النترات هي أزمة تشيلي، كانت جرحاً عميقاً، لأن تشيلي كانت تعيش من النترات وللنترات - وكانت النترات في ايد أجنبية.

في صحراء تاماروجال Tamarugal الجافة، حيث توهجات الارض تحرق العين، كنت شاهداً على دمار تاراباكا. كان هنا مائة وعشرون مكتباً للنترات خلال فترة الازدهار، والآن لم يتبق سوى مكتب واحد يعمل، وفي سهول الهامبا ليس هناك لا رطوبة ولا

www.ibtesama.com/vb

حوام، بحيث أنه لم تُبع فقط الآلات باعتبارها خردة، بل بيعت كذلك الواح سرو أوريجون التي كانت في أفضل البيوت، وألواح كربونات الزنك، وحتى المسامير والصواميل السليمة. نشأ عمال متخصصون في فك قرى بأكملها: وكانوا وحدهم من يجدون عملاً في هذه الاتساعات المهدمة أو المهجورة. شاهدت الاطلال والثقوب، والقرى الشبحية، وخطوط السكك الحديدية الميتة لشركة نيترات ريلوايز، وأسلاك البرق التي صارت خرساء، وهياكل مكاتب النترات وقد مزقتها قصف الاعوام، وصليبات الجبانات التي تضربها الريح في الليل، والتلال المائلة الى البياض التي ظلت تشيدها مخلفات النترات بجوار الانفاق. «هنا كانت النقود تفيض واعتقد الجميع أن ذلك لن ينتهي أبداً»، هكذا حكى لي السكان الذين بقوا على قيد الحياة ، يبدو الماضي جنة» بالمقارنة مع الحاضر، وحتى أيام الاحد، التي لم تكن موجودة بالنسبة للعمال عام ١٨٨٩، والتي كسبوها فيما بعد بأذرع مفتوحة في نضال الروابط، فإنهم يتذكرونها بكل بهائها: كل يوم أحد في سهول الپامپا المنتجة للنترات - حكى لي عجوز بالغ الشيخوخة - كان بالنسبة لنا عيداً قومياً، عيد الثامن عشر من سبتمبر كل اسبوع» أما ايكيكي Iquique، أكبر موانى النترات، «ميناء من الدرجة الاولى» حسب لقبة الرسمي، فقد كان مشهد أكثر من مذبحة للعمال، لكن كان يأتي الى مسرحه البلدي، المبني على طراز الحقبة الجميلة Belle epoque، أفضل مغني الاوبرا الاوربية قبل أن يذهبوا إلى سانتياجو.

■ أسنان من النحاس في جسد تشيلي

لم يتأخر النحاس كثيراً في احتلال مكان النترات كدعامة رئيسية للاقتصاد التشيلي ، بينما كانت الهيمنة البريطانية تفسح مكاناً لسيطرة الولايات المتحدة ، وعشية أزمة عام ١٩٢٩ ، كانت الاستثمارات الامريكية الشمالية قد ارتفعت فعلاً الى أكثر من أربعمائة مليون دولار ، مخصصة بكاملها تقريباً لاستغلال ونقل النحاس. وحتى الانتصار الانتخابي لقوى الوحدة الشعبية عام ١٩٧٠ ، ظلت المناجم الكبرى للمعدن الاحمر في أيدي شركة أناكوندا كوبر مـا ينينج كومبانى Anaconda Copper Minig Co. وشركة كونيكوت كوبر كومبانى Kennecott Copper Co.، وهما شركتان وثيقتي الصلة فيما بينهما بوصفهما جزئين من كونسورتيوم عالمي واحد. وخلال نصف

www.ibtesama.com/vb

قرن، كانت كلتاهما قد اعادتا اربعة آلاف مليون من الدولارات الى بلدهما الام من تشيلي، دما دفاقاً مهرّباً عبر مفاهيم مختلفة، وكانت قد حققتا، طبقاً لنفس أرقامهما المتضخمة، استثماراً إجمالياً لم يتجاوز ثمانمائة مليون، كلها تقريباً مصدرها هو الأرباح المنتزعة من البلاد[٢٠]. وظل النزيف يتزايد كلما ازداد الانتاج، حتى جاوز المائة مليون دولار سنوياً خلال الفترة الاخيرة، كان ملاك النحاس هم ملاك تشيلي. وفي يوم الاثنين ٢١ من ديسمبر عام ١٩٧٠، تحدث سلفادور الليندي من شرفة قصر الحكومة لجموع متوقدة؛ فأعلن أنه وقّع مشروع الاصلاح الدستوري الذي سيجعل تأميم الصناعة المنجمية الضخمة ممكناً. وقال أنه في عام ١٩٦٩، حققت اناكوندا في تشيلي أرباحاً قيمتها ٧٩ مليون دولار، تعادل ثمانين بالمائة من ارباحها في العالم كله: ورغم ذلك، اضاف، فإن لاناكوندا في تشيلي أقل من سدس استثماراتها الخارجية. إلا أن الحرب البكتريولوجية لليمين، حملة الدعاية التي تستهدف زرع الرعب من أجل تجنب تأميم النحاس وغيره من الاصلاحات الهيكلية التي اعلنها اليسار، كانت مكثفة تماماً مثلما في الانتخابات السابقة.

عرضت الصحف دبابات سوفيتية ثقيلة تحيط بقصر الرئاسة المسمى لامونيدا La Moneda؛ وعلى جدران سانتياجو ظهر محاربو العصابات الملتحين وهم يدفعون بالشباب الابرياء نحو الموت؛ وكان جرس الباب يرن في كل منزل، وتشرح سيدة: «لحضرتك أربعة أطفال؛ سيذهب إثنان الى الاتحاد السوفيتي واثنان الى كوبا». لكن كان كل هذا عبثاً؛ فالنحاس «يرتدي پونشو* ومهاميز» كما يعلن الرئيس الليندي: يعود النحاس ليصبح تشيلياً.

أما الولايات المتحدة، المفروسة السيقان في شرك حروب جنوب شرق آسيا، فلم تخف استياءها الرسمي تجاه تتابع الاحداث في جنوبي سلسلة جبال الانديز. لكن تشيلي ليست في متناول حملة مباغتة لجنود المارينز. وفي نهاية الامر، فإن الليندي رئيس بكل شروط الديمقراطية التمثيلية التي يَعظ بها البلد الشمالي رسمياً. أن الامبرياليه تمر بالمراحل الاولى لدورة جديدة حاسمة بدت علاماتها بوضوح في الاقتصاد، فمهمتها كشرطي عالمي تزداد تكاليفاً وصعوبة. وماذا عن حرب الاسعار؟ يباع الانتاج التشيلي الان في اسواق متنوعة وباستطاعته أن يفتح اسواقاً جديدة

* البونشو Poncho: كلمة مأخوذة عن الاراوكانية وتعني دثاراً مربعاً من الصوف يوضع على الاكتاف وله فتحة في المنتصف تنفذ منها الرأس بينما يغطي الجسم كله - م.

www.ibtesama.com/vb

واسعة بين البلدان الاشتراكية، وتفتقر الولايات المتحدة الى الوسائل التي تمنع، على نطاق عالمي ، مبيعات النحاس التي يتأهب التشيليون لاستعمادتها، والمؤكد أن وضع السكر الكوبي قبل اثنتي عشر عاماً كان مختلفاً تماماً، اذ أنه كان موجّهاً بكامله الى السوق الامريكية الشمالية ومعتمداً تماماً على الاسعار الامريكية الشمالية. حين كسب ادواردو فراي Eduardo Frei انتخابات عام ١٩٦٤ ارتفع سعر النحاس على الفور بارتياح ظاهر؛ وحين فاز أليندي بانتخابات عام ١٩٧٠، أخذ سعر النحاس، الذي كان يهبط، يزداد هبوطاً. لكن النحاس، المعرض عادةً لتقلبات شديدة الحدة في اسعاره، قد تمتع خلال السنوات الاخيرة باسعار مرتفعة نسبياً ولما كان الطلب يفوق المعروض، فإن الندرة تمنع هبوط المستوى الى مستوى بالغ الانخفاض. ورغم أن الالومنيوم قد احتل مكانه بدرجة كبيرة كموصل للكهرباء ، فإن الالومنيوم ايضاً يتطلب نحاساً، وبالمقابل لم يمكن العثور على بدائل أرخص وأكثر فعالية لتحل محله في صناعة الصلب أو في الصناعة الكيميائية، ومازال المعدن الاحمر هو المادة الاوليه الاساسية في مصانع البارود، والنحاس الاصفر، والاسلاك [٢١].

على طول سفوح سلسلة الجبال ، تملك تشيلي أكبر احتياطيات النحاس في العالم، ثلث الاجمالي المعروض حتى الآن. ويظهر النحاس التشيلي عادة مرتبطاً بمعادن أخرى، مثل الذهب، والفضة، والموليبدينوم، وهذا عامل اضافي لحفز استغلاله. وفيما عدا ذلك، فإن العمال التشيليين رخيصون بالنسبة للشركات: بتكاليف تشيلي البالغة الانخفاض، تمول شركتا أناكوندا وكينيكوت بصورة متزايدة تكاليفها المرتفعة في الولايات المتحدة، بنفس الطريقة التي يدفع بها النحاس التشيلي ، عن طريق «النفقات في الخارج» أكثر من عشرة ملايين دولار سنوياً للإبقاء على مكتب نيويورك. وفي عام ١٩٦٤، لم يكن متوسط الاجر في المناجم التشيلية يبلغ ثمنُ الاجر الاساسي في مصانع تكرير كينيكوت في الولايات المتحدة ، رغم أن انتاجية العمال هنا وهناك كانت على نفس المستوى [٢٢]. لكن ظروف المعيشة لم تكن متساوية، ولاهي الآن. فعمال المناجم التشيليون، بوجه عام يعيشون في ممرات ضيقة قذرة، معزولين عن اسرهم، التي تسكن بيوتاً بائسة في الخارج؛ ومعزولين كذلك، بالطبع، عن الموظفين الاجانب، الذين يعيشون في كون منفصل في المناجم الكبرى، في دول صغيرة داخل الدولة، حيث لا يتم الحديث الاّ بالانجليزية وتنشر حتى صحف من أجل استخدامها الخاص. وقد ازدادت انتاجية العمال، في تشيلي، بقدر ما ميكنت الشركات وسائل الاستغلال، ومنذ عام ١٩٤٥، ازداد إنتاج

www.ibtesama.com/vb

النحاس بنسبة خمسين بالمائة، لكن عدد العمال المشتغلين في المناجم انخفض بنسبة الثلث.

سوف يضع التأميم نهاية لوضع الامور الذي اصبح لا يحتمل بالنسبة للباقي، وسيتيح تجنب أن تتكرر، مع النحاس، تجربة النهب والسقوط في الفراغ التي عانت منها تشيلي خلال دورة النترات، لأن الضرائب التي تدفعها الشركات لا تعوض بأية حال الانضباب الذي لا يلين للموارد التعدينية التي وهبتها الطبيعة لكنها لن تجددها. ومن ناحية أخرى، فقد انخفضت الضرائب، بالمعايير النسبية، منذ انشاء نظام الضرائب المتناقصة وفقاً لزيادات الانتاج، عام ١٩٥٥، ومنذ «إضفاء الطابع التشيلي» على النحاس والذي فرضته حكومة فراي. ففي عام ١٩٦٥، حول فراي الدولة الى شريك لشركة كينيكوت وسمح للشركات بمضاعفة أرباحها بما يقل قليلاً عن ثلاثة أضعاف وذلك من خلال نظام ضريبة مناسب لها تماماً. وتطبق الضرائب، في النظام الجديد، على سعر متوسط قدره ٢٩ سنتاً من الدولار للرطل، رغم أن السعر قد ارتفع، بفعل الطلب العالمي الكبير الى ستين سنتاً. وخسرت تشيلي، من خلال الفرق في الضرائب بين السعر الافتراضي والسعر الحقيقي، كمية ضخمة من الدولارات، كما اعترف رادوميرو توميك ذاته Radomiro Tomic، وهو المرشح الذي اختارته الديمقراطية المسيحية ليخلف فراي في فترة الرئاسة التالية. وفي عام ١٩٦٩، عقدت الحكومة اتفاقاً مع اناكوندا لتشتري منها ٥١ في المائة من الاسهم على دفعات نصف سنوية، وبشروط آثارت فضيحة سياسية جديدة وأعطت دفعة قوية لنمو قوى اليسار. كان رئيس أناكوندا قد قال لرئيس تشيلي قبل ذلك بقليل، حسب الرواية التي نشرتها الصحافة: «يا صاحب السعادة: ان الرأسماليين لايحتفظون بممتلكاتهم لدوافع عاطفية؛ بل لأسباب اقتصادية. من الشائع أن تحتفظ اسرة ما بدولاب ملابس لأنه كان يخص جداً من الاجداد، لكن الشركات ليس لها أجداد. وبإمكان أناكوندا أن تبيع كل ممتلكاتها. إلا أن ذلك يعتمد على الثمن اللذي تدفعونه لها».

■ عمال مناجم القصدير، تحت الأرض وفوقها

منذ أقل من قرن بقليل، كان رجل يكاد يموت من الجوع يصارع الصخور في قلب فيافي هضبة الالتيبلانو البوليفية. انفجر الديناميت، وحتى اقترب ليلتقط قطع الاحجار

التي تناثرت نتيجة الانفجار ، ظل مشدوهاً. كان في يدية قطع لامعة من أغنى عرق للقصدير في العالم. وفي فجر اليوم التالي ، ركب حصانة الى هوانوني Huanuni. أكد تحليل المينات قيمة الاكتشاف، كان بالإمكان نقل القصدير من عرق المنجم الى الميناء مباشرة، دون حاجة للقيام بأي عملية تركيز. أصبح هذا الرجل ملك القصدير، وحين مات، أكدت مجلة فورتشون Fortune أنه كان واحداً من أغنى اصحاب الملايين المتعددي الملايين في كوكبنا. كان إسمه سيمون باتينيو Simon Patino ومن أوربا. ظل لسنوات طويله يضع ويسقط الرؤساء والوزراء في بوليفيا ، ويخطط جوع العمال، وينظم مذابحهم، ويشعّب ويوسع ثروته الشخصية: كانت بوليفيا بلداً وجُد لخدمته.

وإبتداء من الايام الثورية لابريل عام ١٩٥٢ ، أممت بوليفيا القصدير. لكن تلك المناجم البالغة الثراء كانت قد اصبحت فقيرة في ذلك الحين. وفي تل خوان ديل باي Tuan Del Valle، حيث اكتشف باتينيو الشظية الرائعة، كانت نقاوة القصدير قد إنخفضت مائة وعشرين مرة. ومن بين الـ ١٥٦ الف طن من الصخر التي تخرج كل شهر من أنفاق المنجم لايمكن الحصول الأعلى أربعمائة. ويبلغ مجموع طول الانفاق ، بالكيلو مترات، مسافة تفوق ضعف المسافة التي تفصل بين المنجم ومدينة لاباث: فالتل، من الداخل، عبارة عن عشرة تمل تثقبة ردهات، وممرات، وانفاق، ومداخن لانهائية. يكاد يتحول الى قشرة فارغة. وكل عام يفقد قليلاً من ارتفاعة. فالانهيار البطئ يأكل قمته: إنه يبدو عن بعد، مثل ضرس تالف.

لم يحصل انتينور باتينو Antenor Patino على تعويض معقول عن المناجم التي اعتصرها والده فحسب، بل حصل كذلك على السيطرة على سعر ووجهة القصدير الذي انتزعت ملكية. «مستر باتينيو هو الملك الدمث للقصدير البوليفي»، هكذا ستظل تقول أعمدة الاجتماعيات بعد سنوات طويلة من التأميم[٢٢]. فالتأميم، المكسب الرئيسي لثورة عام ١٩٥٢، لم يغير دور بوليفيا في التقسيم الدولي للعمل. فقد استمرت بوليفيا تصدّر المعدن الخام، ويكرر كل المعدن تقريباً في أفران ليفربول لشركة ويليامز، وهارفي، وشركاهما Willams, Harvey and Co.، التابعة لباتينيو. ليس تأميم مصادر انتاج أية مادة أولية كافياً، كما تبين التجربة المؤلمة، ويمكن لاى بلد أن يظل محكوماً عليه بالعجز كما كان الامر دائماً، رغم أنه اصبح اسمياً مالك باطن أرضه، لقد انتجت بوليفيا على طول تاريخها، معادن خاماً وخطباً بليغة. تتوافر البلاغة مع البؤس؛ ومنذ الازل، كرس الكتاب المبتذلون والدكاترة مرتدى معاطف

www.ibtesama.com/vb

الفراك انفسهم لتبرئه المذنبين. فمن بين كل عشرة بوليفيين، لازال ستة «لا يعرفون القراءة، ولا يتردد نصف الاطفال على المدرسة. وأخيراً، في عام ١٩٧١، كان لابد لبوليفيا من امتلاك وتشغيل معمل صهر القصدير الخاص بها، الذي اقيم في أورورو Oruro في ختام تاريخ لا ينتهي من الخيانات، والتخريب، والمؤامرات، والدم المسفوك[٢٤]. هذا البلد الذي لم يستطيع، حتى الآن، أن ينتج سبائكة الخاصة، ينتج نفسة، بالمقابل، ترف المحافظ على ثمانية كليات للحقوق تهدف الى تخريج مصاصي دماء الهنود.

يُحكى أنه، منذ قرن، أجبر الدكتاتور ماريانو ملجاريخو Mariano Melgarejo سفير انجلترا على شرب برميل كامل من الشيكولاتة، عقاباً له على احتقار كاس من نبيذ الذرة. واقتيد السفير على ظهر حمار، وهو راكب بالمقلوب، عبر الشارع الرئيسي لمدينة لاباث. وأعيد الى لندن. ويقال أن الملكة فكتوريا الغاضبة، طلبت حينئذ خريطة لأمريكيا الجنوبية، ورسمت صليباً بالطباشير فوق بوليفيا ونطقت: "بوليفيا غير موجودة". وبالفعل، بالنسبة للعالم، لم تكن بوليفيا موجودة ولا وجدت بعدها: لم يكن نهب الفضة، وبعدها، استنزاف القصدير سوى ممارسة لحق طبيعي للبلدان الغنية. وفي نهاية المطاف، تدل علب الصفيح على الولايات المتحدة مثلماً يدل عليها شعار النسر أو رسم التفاحة. لكن علبة الصفيح ليست مجرد رمز من رموز البوب POP في الولايات المتحدة: لانها كذلك رمز، رغم أنه غير معروف لتسمم السليكوز في مناجم القرن العشرين أو هوانوني: علبة الصفيح تحتوي على قصدير، وعمال المناجم البوليفيون يموتون برئاتهم متعفنة لكي يستطيع العالم أن يستهلك القصدير الرخيص. بينما يحدد سعره نصف دسته من البشر، ماذا تعني، بالنسبة لمستهلكي الاطعمة المحفوظة ومضاربي البورصة، الحياة القاسية لعامل المنجم في بوليفيا؟

يشتري الامريكيون الشماليون الجزء الاكبر من القصدير الذي يكرر في كوكبنا: ومن اجل الحفاظ على الاسعار المنخفضة، يهددون بشكل دوري، بأن يطرحوا في السوق احتياطياتهم الضخمة من المعدن، المشتراة بأقل من سعرها بكثير، بأسعار «المساهمة الديمقراطية»، خلال سنوات الحرب العالمية الثانية. وطبقاً لبيانات منظمة الاغذية والزراعة FAO، يستهلك المواطن الامريكي الشمالي المتوسط لحماً ولبناً يفوق خمس مرات وبيضاً يفوق عشرين مرة ما يستهلكة المواطن البوليفي. واستهلاك عمال

www.ibtesama.com/vb

المناجم أقل بكثير من المتوسط القومي المنخفض. وفي جبانة كاتابي Catavi، حيث يجهل العميان من أجل الموتى مقابل قطعة نقود، يؤلم المرء أن يجد، بين الشواهد الداكنة للبالغين، عدداً لا يحصى من الصلبان البيضاء تعلو المقابر الصغيرة. فمن بين كل طفلين يولدان في المناجم، يموت واحد بعد أن يفتح عينيه بقليل. أما الآخر، الذي يظل على قيد الحياة، فسوف يكون عامل منجم حين يكبر بالتأكيد. وقبل أن يبلغ سن الخامسة والثلاثين، لن تكون له رئتان.

تطقطق جدران الجبانة. تحت القبور، حفرت أنفاق لانهائية، أنفاق ذات فوهة ضيقة تسع بالكاد الرجال الذين يدخلون، مثل القوارض، بحثاً عن المعدن. وقد تراكمت مناجم جديدة للقصدير على السفوح عبر السنين: كومْث أطنان فوق اطنان من الرواسب في أكوام ضخمة رمادية أضافت، بهذه الطريقة، قصديراً إلي قصدير المشهد. وحين يسقط المطر، الذي يهطل بعنف من السحب القريبة، يرى المرء المتعطلين يتشبثون بالارض على طول بايا جرا Llallagua، حيث يسكر الرجال بصورة يائسة في الحانات: أنهم يجمعون ويزنون عيار قطع الرصاص التي يحملها المطر. هنا، فإن القصدير اله من الصفيح يحكم البشر والاشياء، ويوجد في كل مكان. ولايوجد القصدير فحسب في احشاء تل باتينيو القديم - فثمة قصدير، ينم عنه البريق الاسود لحجر القصدير، حتى في الجدران الطينية للمعسكرات. كذلك يوجد قصدير في الطين المصفر الذي يتقدم مكتسحاً نفايات المنجم كما يوجد في المياه التي تفيض، مسمّمة، من الجبل: يوجد قصدير في الارض وفي الصخر، علي السطح وفي باطن الارض، في رمال وفي صخور مجرى نهر الريو سيكو Rio Seco. في هذه الاراضي المجدبة والصخرية، على ارتفاع يقرب من اربعة آلاف متر، حيث لا ينبت العشب وحيث كل شئ ، بما في ذلك البشر، له لون القصدير الداكن، يعاني البشر بصبر صومهم الاجباري ولا يعرفون عهد العالم. فهم يعيشون في معسكرات، مكوّنين في منازل من حجرة واحدة ذات أرضية طينية؛ وتنفذ الريح القاطعة من الشقوق. ويكشف تقرير جامعي عن منجم كولكيري Colquiri عن أنه، من بين كل عشرة شباب ذكور تم استجوابهم، ينام سته في نفس الفراش مع أخواتهم، ويضيف: «يحس كثير من الاباء باستياء حين يلاحظهم ابناؤهم خلال ممارسة الجنس». ولاتوجد حمامات، والمراحيض هي اعشاش عامة صغيرة تغطيها الاوساخ والذباب: ويفضل الناس الخرابا ، تلك الاماكن القفر المكشوفة، حيث يتغير الهواء على الاقل برغم وجود القمامة والبراز المتراكم والخنازير التي تلعب هانئة. وخدمة

www.ibtesama.com/vb

الماء أيضاً جماعية: لابد من انتظار لحظة وصول الماء، والاسراع بعمل طابور، وتلقي الماء من الحوض العمومي في أوعية البنزين والجرار. والطعام قليل وسيئ، ويتكون من حبّات بطاطا، وشعرية، وأرز، وبطاطس مهروسة، وذرة مطحونة وبعض اللحم القديد.

كنا في أعماق تل خوان ديل باي. كان العواء النفاذ للصفارة، التي تدعو العمال الى الوردية الاولى، قد دوّى في المعسكر منذ عدة ساعات. كنا ونحن نتجول في الانفاق، قد عبرنا من الحرارة الاستوائية إلى البرودة القطبية وإلى الحرارةْ من جديد، دون أن نخرج لحظة، خلال عدة ساعات، من نفس الجو المسموم. بأستنشاق ذلك الهواء الكثيف - من الرطوبة، والغازات، والتراب، والدخان -، كان بامكان المرء أن يدرك السبب في أن عمال المناجم يفقدون، خلال سنوات قليلة ، حاستي الشم والذوق. كان الجميع يمضغون وهم يعملون، أوراق نبات الكوكا مع الرماد، وهذا بدوره يمثل جزءاً من عملية الابادة، لأن الكوكا، كما هو معروف، بإخمادها الجوع واخفائها التعب، تأخذ في إخماد جهاز التنبيه الذي يعتمد عليه الكائن ليظل على قيد الحياة. لكن التراب كان أسوأ ما في الامر. كانت الخوذات تبعث زحاماً من دوائر الضوء التي ترقش النفق الاسود وتتيح، في مرورها، رؤية ستائر التراب الابيض الكثيف: تراب السليكا الذي لا مفر منه. يلفنا النفس القاتل للارض شيئاً فشيئاً. وبعد مرور عام تظهر أولى الاعراض، وخلال عشر سنوات ينتقل المرء الى الجبانة. في داخل المنجم تستخدم أجهزة ثقب سويدية من أحدث طراز، لكن نظام التهوية وظروف العمل لم تتحسن مع مرور الزمن. على سطح الارض، يستخدم العمال المستقلون معاول وشواكيش ثقيلة تزن اثنى عشر رطلاً ليصارعوا الصخر، مثلما كانوا يفعلون بالضبط منذ مئة سنة، كما يستخدمون أوعية صحن ، ومصافي، ومناخل لتركيز المعدن في الساحة. يكسبون دراهم قليلة ويعملون كالحيوانات. إلا أن الكثيرين منهم يتمتعون، على الاقل، بميزة الهواء الطلق. أما في داخل المنجم، بالمقابل، فإن العمال سجناء محكوم عليهم، دون استثناء، بالموت خنقاً.

كان ضجيج المثاقيب قد هدأ والعمال يرتاحون بينما ننتظر انفجار اكثر من عشرين شحنة ديناميت، فالمنجم يهب ايضاً ميتات عاجلة وذات ضجيج: قد يأتي الموت بسبب الخطأ في عد الانفجارات، أو إذا تأخر الفتيل في الاشتعال اكثر مما يجب. وقد يحدث ايضاً اذا انفصلت صخرة سائبة، يطلق عليها اسم توخو Tojo، وسقطت فوق الرأس. أو يحدث بجحيم المدافع الرشاشة : ففي ليلة عيد القديس خوان عام ١٩٦٧ جرت آخر

www.ibtesama.com/vb

واحدة من سلسلة طويلة من المذابح. ففى الفجر اتخذ الجنود اماكنهم فى التلال، على ركبهم، وأطلقوا امصاراً من الطلقات فوق المعسكرات التى تضيئها مشاعل العيد[٢٥]. لكن الموت البطئ الصامت هو تخصص المنجم . وتقيؤ الدم، والسعال، والاحساس بثقل من الرصاص فوق الظهر وبانقباض حاد فى الصدر هى العلامات التى تعلن عنه. وبعد التحليل الطبى تأتى المشاوير البيروقراطية التى لا تنتهى. وهم يعطون مهلة ثلاثة اشهر لاخلاء المنزل.

هل قد توقفت ضجة المثاقيب وسرعان ما سيصك الانفجار بتلك العرق المخزى بلون القهوة وشكل الافعى. عندئذ يمكننا الحديث. كانت كرة الكوكا تنفخ خد كل عامل ومن ملتقى الشفاه يجرى اللعاب المائل الى الاخضرار. ومر عامل، مسرعاً، وهو يتر الطين بين قضبان الردهة الحديدية. قالوالى «هذا جديد، أرأيت؟ ينطلون الجيش الذى يرتديه وصداره الاصفر يبدو شاباً فتياً. لقد دخل الساعه فقط ويعمل بحماس. مازال كالبلطة، مازال لا يحس».

أما التكنوقراط والبيروقراطيون فلايموتون من التسمّم السليكوني، بل يعيشون عليه. والمدير العام للكوميبول Comibol، هيئة التعدين البوليفية، يتقاضى مائة ضعف ما يتقاضاه العامل. ومن تل ينحدر بشدة صوب مجرى النهر، عند أطراف باياجوا، يمكن رؤية سهل ماريا بارثولا Maria Barzola. وهو يسمى بهذا الاسم تكريماً لعاملة مناضلة سقطت منذ ثلاثين عاماً، على رأس مظاهرة، وعلم بوليفيا قد خاطته الى جسمها دفعات طلقات المدافع الرشاشة. ووراء سهل ماريا بارثولا يمكن رؤية افضل ملعب للجولف فى بوليفيا: وهو الملعب الذى يستخدمه المهندسون وكبار الموظفين فى كاتابى. فى عام ١٩٦٤ ، خفض الدكتاتور رينيه بارّينتوس Rene Barrientos الى النصف أجور التجويع لعمال المناجم، وفى نفس الوقت رفع رواتب الفنيين والبيروقراطيين الكبار، ومرتبات كبار الموظفين من الاسرار، اسرار وبالدولار. وهناك مجموعة خبراء كلية القدرة، تتشكل من فنيين من البنك الامريكى المشترك للتنمية، والتحالف من اجل التقدّم والبنك الاجنبى المقرض، توجه نصائحها صناعة التعدين المؤممة لبوليفيا، بصورة تهمل من كوميبول. عن هذا المد، وقد تحولت الى دولة داخل الدولة، دعاية حية ضد تأميم أى شئ. حلت محل سلطة الطغمة الاوليجاركية سلطة الاعضاء العديدين فى «طبقة جديدة» كرست جهودها لتخريب صناعة المناجم المملوكة للدولة من الداخل. لم يكتف المهندسون بأن تسفوا كل مشاريع

www.ibtesama.com/vb

وخطط اقامة مصنع صهر قومى، بل أنهم اسهموا كذلك فى أن تظل مناجم الدولة حبيسة حدود المناجم القديمة لباتينيو، وأراماير Aramayo، وهو خشيلد Hochschild، فى عملية إنضاب متسارع للاحتياطيات. وفيما بين أواخر عام ١٩٦٤ وأبريل من عام ١٩٦٩، إخترق الجنرال بارّيَنتوس حاجز الصوت فى سرعة تسليم موارد جوف الارض البوليفية الى رأس المال الامبريالى، بتواطؤ صريح من الفنيين والمديرين. وقد قصّ سيرخيو الماراث، فى أحد كتبه[٣٦]، حكاية منح امتياز سهول التصدير لشركة انترناشيونال ماينيج بروسسينج كومبانى .International Mining Processing Co برأسمالها المعلن الذى لا يبلغ بالكاد خمسة آلاف دولار، حصلت الشركة ذات الاسم الطنان على عقد يتيح لها أن تربح اكثر من تسعمائة مليون .



www.ibtesama.com/vb

■ أسنان من الحديد في جسد البرازيل

تدفع الولايات المتحدة ثمنا للحديد الذي تتلقاه من البرازيل أو فنزويلا أرخص من ثمن الحديد الذي تستخرجه من باطن أرضها ذاته . لكن ذلك ليس مفتاح تفسير إستماتة أمريكا الشمالية للسيطرة على مناجم الحديد في الخارج : فامتلاك أو السيطرة على المناجم خارج الحدود يمثل ، أكثر من كونه عملاً تجارياً ، ضرورة للأمن القومي . فباطن الأرض الامريكي الشمالي أخذ ، كما رأينا ، في النضوب. وبدون الحديد لايمكن صنع الصلب بينما خمسة وثمانين بالمائة من الانتاج الصناعي للولايات المتحدة يحتوى ، بطريقة أو بأخرى ، على الصلب. وفي عام ١٩٦٩ ، حين إنخفضت إمدادات كندا ، انعكس ذلك على الفور في زيادة واردات الحديد من أمريكا اللاتينية.

إن تل بوليفار ، في فنزويلا ، من الثراء بحيث أن التربة التي تقتطعها منه شركة يو إس ستيل US Steel ، تفرغ مباشرة في مخازن السفن المتجهة إلى الولايات المتحدة ، وتبقى على جوانبه ، بالعين المجردة ، الجروح العميقة التي تقتحمها فيه الجرارات : وتقدر الشركة أنه يحتوى على نحو ثمانية آلاف مليون دولار من الحديد. وفي عام واحد ، هو عام ١٩٦٠ ، إقتسمت شركتا يو إس ستيل وبيتلهم ستيل أرباحاً زادت على ثلاثين بالمائة من رؤوس أموالهما المستثمرة في الحديد في فنزويلا وهذه الارباح الموزعه تساوى قيمة كل الضرائب المدفوعة للدولة الفنزويلية خلال الاعوام العشر المنقضية منذ عام ١٩٥٠ [٢٧]. ولما كانت كلتا الشركتين تبيع الحديد لمصانعها التعدينية في الولايات المتحدة، فليس لديهما أقل إهتمام بالدفاع عن الاسعار؛ بل على العكس، يناسبهما أن تكون المادة الاولية أرخص ما يمكن. إن السعر الدولي للحديد ، الذي انخفض في منحنى رأسي فيما بين ١٩٥٨ و ١٩٦٤، قد استقر نسبياً خلال الاعوام الماضية ومازال راكداً؛ وفي هذه الاثناء ، لم يتوقف سعر الصلب عن الارتفاع. إن الصلب ينتج في مراكز العالم الغنية، والحديد ينتج في الاطراف الفقيرة، يدفع الصلب أجور «ارستقراطية عمالية» بينما يدفع الحديد ، يوميات مجرد الكفاف.

بفضل معلومات حصل عليها وعممها ، في عام ١٩١٠ مؤتمر دولي للجيولوجيا اجتمع في ستوكهولم ، استطاع رجال الاعمال في الولايات المتحدة أن يقدروا ، للمرة الاولى ، أبعاد الكنوز المخفيّة تحت أرض سلسلة من البلدان، كان أحدها ، وربما اكثرها ثراءً ، هو البرازيل. وبعد أعوام طويلة ، في عام ١٩٤٨، خلقت سفارة الولايات المتحدة

www.ibtesama.com/vb

وظيفة جديدة في البرازيل ، هي وظيفة الملحق التعديني ، الذي واجه منذ البداية كمية من العمل تساوي على الاقل عمل الملحق العسكري أو الثقافي : عمل بلغ من كثرته أن سرعان ما تم تعيين ملحقين تعدينيين اثنين بدلاً من واحد [٢٨]. وبعد قليل تلقت بيتلهم ستيل من حكومة دوترا Dutra مناجم المنجنيز الرائعة في أمابا . وفي عام ١٩٥٢ ، حظر الاتفاق العسكري الموقع مع الولايات المتحدة على البرازيل بيع المواد الاولية ذات القيمة الاستراتيجية – مثل الحديد – الى الدول الاشتراكية .

وكان هذا احد أسباب السقوط التراجيدي للرئيس جيتوليو فارجاس Getulio Vargas الذي عصى هذا الالزام وباع الحديد الى بولندا وتشيكوسلوفاكيا ، عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٤ ، بأسعار تفوق الاسعار التي كانت تدفعها الولايات المتحدة. وفي عام ١٩٥٧ ، اشترت هانا ما يتينج كومباني ، مقابل ستة ملايين دولار ، غالبية أسهم شركة بريطانية ، هي سان جون ما يننج كومباني Saint John Mining ، التي كانت متخصصة في استغلال ذهب ميناش جيرايش منذ زمن الامبراطورية البعيد. كانت شركة سان جون تعمل في سهل باراوبيبا ، حيث يكمن اكبر تركز للحديد في العالم أجمع ، يقدر بمائتي الف مليون من الدولارات . لم تكن الشركة الانجليزية مؤهلة قانونيا لاستغلال هذه الثروة الرائعه ، كذلك لم تكن شركة هانا ، وفقاً لشروط دستورية وقانونية واضحة يعددها دوارتي بيريرا Duarte Pereira في كتابه حول الموضوع. لكن تلك كانت ، كما عُرف فيما بعد ، صفقة القرن.

كان جورج همفري George Humphrey، مدير ورئيس هانا ، عضواً بارزاً في تلك الحين في حكومة الولايات المتحدة كسكرتير للخزانة ومدير للإكسيمبانك Eximbank، وهو البنك الرسمي لتمويل عمليات التجارة الخارجية . وكانت سان جون قد طلبت قرضاً من الاكسيمبانك : ولم يحالفها الحظ حتى استولت هانا على الشركة. ومنذ ذلك الحين إنطلقت اعنف الضغوط على حكومات البرازيل المتعاقبة. أما مديرو ، ومحامو ومستشارو هانا – لوكاس لوبيز ، وجوزيه لويز بولهوس بدريرا ، وروبرتو كامبوس ، وماريو دا سيلفا بينتو ، وأوتاثيو دي بولهوس – فكانوا كذلك أعضاء على أعلى مستوى ، في حكومة البرازيل ، واستمروا في احتلال مناصب الوزراء ، والسفراء ، أو مديري الخدمات في الدورات التالية. لم تسئ هانا اختيار هيئة أركانها . صار التعسف يشتد تدريجياً ، من أجل إعطاء هانا حق استغلال الحديد التابع ، فعلياً ، للدولة . وفي ٢١ أغسطس عام ١٩٦١ ، وقع الرئيس جانيوكوا دروس قراراً يلغي التراخيص غير القانونية الممنوحة

www.ibtesama.com/vb

لشركة هانا وأعاد مناجم ميناش جيرايش الى الرصيد القومي . وبعد أربعة أيام ، أجبر الوزراء العسكريون كوادروس على التنحّي: «ثارت قوى رهيبة ضدي ... » هكذا ذكر نص خطاب التنحّي.

وأحبطت الانتفاضة العسكرية التي قادها ليونيل بريزولا Leonel Brizola في بورتو اليجري Porto Alegre انقلاب العسكريين ووضعت في السلطة نائب الرئيس لكوادروس ، جواو جولارت Joao Goulart . وفي يوليو عام ١٩٦٢ ، حين أراد أحد الوزراء تطبيق المرسوم القاتل ضد شركة هانا - والذي تم تشويهه في الجريدة الرسمية - ، أرسل سفير الولايات المتحدة ، لنيكولن جوردون Lincoln Gordon ، برقية الى جولارت يحتج فيها بشدة على الهجوم الذي تنوي الحكومة شنه ضد مصالح شركة امريكية شمالية. وقد أكدت السلطة القضائية صلاحية قرار كوادروس ، لكن جولارت تردد .

وفي هذه الاثناء ، كانت البرازيل تتخذ الخطوات الأولى في سبيل انشاء ميناء وسيط للمعادن في البحر الادرياتيكي ، بهدف تزويد عدة بلدان أوربية ، اشتراكية ورأسمالية ، بالحديد : وكان البيع المباشر الحديد ينطوي على تحد لا يحتمل بالنسبة للشركات الكبرى التي تتحكم في الاسعار على مستوى العالم. ولم يتحقق الميناء مطلقاً، لكن طبقت اجراءات وطنية أخرى - مثل الكبح المفروض على الاستنزاف الذي تمارسه أرباح الشركات الاجنبية ، وقدمت فتيلاً للموقف السياسي المتفجر. ظل سيف ديموقليس الذي يمثله قرار كوادروس معلقاً فوق رأس هانا . وأخيراً، انفجر الانقلاب، في آخر أيام مارس عام ١٩٦٤ ، في ميناش جيرايش، التي كانت، بالصدفة ، موقع مناجم الحديد المتنازع عليها . وكتبت مجلة فورتشون تقول: «بالنسبة لشركة هانا ، جاءت الانتفاضة العسكرية التي أسقطت جولارت في الربيع الماضي مثل انقاذ في آخر لحظة يقوم به رئيس الفرسان»[٢٩].

واحتل رجال شركة هانا منصب نائب رئيس البرازيل ومناصب ثلاثة وزراء . وفي نفس يوم التمرد العسكري ، نشرت الواشنطن ستار إفتتاحية تنبؤية على الأقل: أعلنت "ثمة وضع يمكن فيه لانقلاب جيد وفعّال ، على الطراز القديم ، من جانب القادة العسكريين المحافظين، أن يخدم أفضل مصالح كل من الامريكتين »[٣٠]. لم يكن جولارت قد تنحّى بعد ، ولم يكن قد غادر البرازيل ، حين لم يعد ليندون جونسون Lyndon Johnson قادراً على تمالك نفسه فارسل برقية التهنئة، الشهيرة الى رئيس الكونجرس البرازيلي ، الذي تولى مؤقتاً رئاسة البلاد : «لقد راقب الشعب الامريكي الشمالي بقلق

www.ibtesama.com/vb

الصعوبات السياسية والاقتصادية التى كانت تمر بها أمتكم العظيمة ، وأعجب بالرغبة الحازمة للمجتمع البرازيلي في حل هذه الصعوبات في اطار من الديمقراطية الدستورية وبدون صراع مدني»[٣١]. وكان قد مر أكثر من شهر بقليل حين القى السفير لينكولن جوردن ، الذى كان يتجول ، في بهجة ، بين المعسكرات ، خطاباً في مدرسة الحرب العليا ، يؤكد فيه أن انتصار مؤامرة كاستيلو برانكو Castelo Branco « يمكن أن يندرج، مع عرض برنامج مارشال ، وحصار برلين ، وهزيمة العدوان الشيوعي في كوريا وحل ازمة الصواريخ في كوبا ، كواحد من أهم لحظات التحول الهامة في تاريخ العالم عند منتصف القرن العشرين» [٣٢]. وكان أحد الأعضاء العسكريين لسفارة الولايات المتحدة قد قدم مساعده مادية للمتآمرين ، قبل قليل من وقوع الانقلاب [٣٣]. وكان جوردون نفسه قد ألمح لهم بأن الولايات المتحدة سوف تعترف بحكومة مستقلة لو استطاعت البقاء يومين في ساو باولو [٣٤]. ولا يستحق الأمر عناء الاسهاب في الشهادات المتعلقة بأهمية المعونة الاقتصادية للولايات المتحدة في تطور وبداية الاحداث، لكننا سنتناولها فيما بعد ، أو بالمساعدة الامريكية الشمالية على المستوى العسكرى أو النقابي [٣٥].

وبعد أن تعبوا من القاء كتب المؤلفين الروس امثال دستويفسكي وتولستوي، وجوركي في النيران أو في قاع خليج جوانابارا Guanabara ، وبعد أن حكموا بالنفي، أو السجن، أو الاعدام على عدد لا يحصى من البرازيليين ، انتقلت دكتاتورية كاستيلو برانكو المتباهية الى العمل : سلمت الحديد وكل ما عداه . وتلقت شركة هانا مرسومها بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٦٤ . لم تكفل هدية عيد الميلاد هذه للشركة كل الضمانات لكي تستغلّ في سلام مناجم باروابيبا فحسب، بل ساندت كذلك خطط الشركة لتوسيع ميناء خاص بها على بعد ستين ميلاً من ريودى جانيرو، وكذلك لانشاء سكة حديدية مخصصة لنقل الحديد . وفي اكتوبر عام ١٩٦٥ كونت هانا كونسورتيوم مع بيتلهم ستيل لكي تستغلا بشكل مشترك الحديد المسلّم لهما. هذا النوع من التحالفات ، الشائع في البرازيل ، لا يمكن عقده في الولايات المتحدة ، لأن القوانين هناك تحظره [٣٦]. كان لنيكولن جوردون النبيلة قد وضع خاتمة للمهمة ، كان الكل سعداء وانتهت الحكاية ، وانتقل ليرأس جامعة في بلتيمور. وفي ابريل عام ١٩٦٦ ، عين جونسون خلفه، جون تونيل John Tuttill ، في ختام عدة أشهر من التردد ، وأوضح أنه قد تأخر لأن من الضرورى العثور على اقتصادى جيد من أجل البرازيل.

www.ibtesama.com/vb

ولم تتخلف يو إس ستيل، لماذا يتركونها دون دعوتها على العشاء؟ قبل مضى وقت طويل ، شاركت الشركة الحكومية ، لاكو مبانيا فالى دو ر يو دوسى La Companhia Vale Do Rio Doce ، التى تحولت بدرجة كبيرة ، إلى اسمها الرسمى المستعار. بهذه الطريقة حصلت اليو إس ستيل ، مكتفية بما لا يزيد على تسعة وأربعين بالمائة من الاسهم ، بإمتياز مناجم حديد جبال كاراجاس Carajas، فى الامازون. وحجمها ، كما يؤكد الفنيون، يضاهى التاج الحديدى لهانا – بيتلهم فى ميناش جيرايش. وكما هى العادة ، أضافت الحكومة أن البرازيل ليس لديها رؤوس الاموال للقيام بالاستغلال لحسابها هى.

■ البترول ، واللعنات ، والإنجازات

يمثل البترول ، مع الغاز الطبيعى ، الوقود الاساسى لكل ما يسيّر العالم المعاصر، كما يُعدّ مادة أولية متزايدة الاهمية بالنسبة للصناعات الكيميائية والمواد الاستراتيجية اللازمة للنشاطات العسكرية. وما من قطب آخر يجتذب رؤوس الاموال الاجنبية بقدر ما يفعل «الذهب الاسود» كما لا يوجد مصدر آخر له هذه الارباح الرائعه. والبترول هو الثروة المحتكرة اكثر من سواها فى كل النسق الرأسمالى. وما من رجال أعمال يتمتعون بالسلطة السياسية التى تمارسها ، على نطاق عالمى ، الشركات البترولية الضخمة ، إن ستاندارد أويل Standard Oil وشل Shell تصنعان وتعزلان الملوك والرؤساء ، وتمولان مؤامرات القصور والانقلابات ، وتحت ايديهما جنرالات، ووزراء، وجيمس بوندات بلا عدد فى كل الأنحاء وبكل اللغات. إنهما تحددان مسار الحرب والسلام. وستاندارد أويل كومبانى أوف نيوجرسى هى أكبر شركة صناعية فى العالم الرأسمالى؛ وخارج الولايات المتحدة لاتوجد اية شركة صناعية أقوى من رويال داتش شل Royal Dutch Shell: تبيع الشركات الشقيقة البترول الخام للشركات التابعة ، التى تكرره وتبيع مواد الاحتراق للفروع لتوزيعها: لا يخرج الدم ، فى كل الدائرة ، خارج جهاز الدورة الداخلى للكارتل الذى يملك علاوة على ذلك أنابيب البترول وجزءاً كبيراً من الاسطول البترولى فى البحار السبعة. ويتم التلاعب بالاسعار ، على نطاق عالمى، لتقليل الضرائب المدفوعة وزيادة الارباح المحصلة: ويتزايد سعر البترول الخام دائماً أقل مما يتزايد سعر البترول المكرر.

ويحدث مع البترول ، مثلما يحدث مع البن أو اللحم ، أن البلدان

www.ibtesama.com/vb

الغنية تكسب من تكبُّد عناء إستهلاكه أكثر بكثير مما تكسب الدول الفقيرة من إنتاجه. والفرق بينهما هو واحد لعشرة: فمن الأحد عشر دولاراً التي تمثل قيمة مشتقات برميل واحد من البترول ، تتلقى البلدان المصدرة لاهم مادة أولية في العالم دولاراً واحداً بالكاد ، من مجموع الضرائب وتكاليف الاستخراج، بينما بلدان المنطقة المتقدمة، حيث تقع المقار الرئيسية للشركات البترولية ، تجني عشر دولارات، في مجموع جماركها الخاصة وضرائبها، التي تعادل ثمانية اضعاف ضرائب البلدان المنتجة ، ومن تكاليف وأرباح النقل ، والتكرير ، والتجهيز، والتوزيع التي تحتكرها الشركات الكبرى (٣٧).

ويتمتع البترول الذي ينتج في الولايات المتحدة بسعر مرتفع ، كذلك فإن أجور عمال البترول الامريكيين الشماليين مرتفعة نسبياً، إلا أن اسعار بترول فنزويلا والشرق الاوسط ظلت تنخفض، منذ عام ١٩٥٧ ، على طول عقد الستينيات وعلى سبيل المثال كان متوسط سعر برميل البترول الفنزويلي هو ٢,٦٥ دولاراً عام ١٩٥٧ ، وبينما أكتب هذا الفصل ، في أواخر عام ١٩٧٠ ، أصبح السعر هو ١,٨٦ دولاراً. وتعلن حكومة رافاييل كالديرا Rafael Caldera أنها ستحدد من جانب واحد ، سعراً أعلى بكثير ، لكن السعر الجديد لن يبلغ بأية حال ، حسب الارقام التي يوردها المعلقون ويرغم الفضيحة التي تبشر بها، مستوى عام ١٩٥٧ ، والولايات المتحدة هي ، في آن واحد ، أكبر منتج وأكبر مستورد للبترول في العالم، وخلال الحقبة التي كان يجيء خلالها الجزء الاكبر من البترول الخام الذي تهيمه الشركات الضخمة من التربة الامريكية ، ظل السعر مرتفعاً، وخلال الحرب العالمية الثانية ، تحولت الولايات المتحدة الى مستورد ، وبدأ الكارتل في تطبيق سياسة جديدة للاسعار : ظل السعر يهبط بانتظام ، إنعكاس غريب لـ «قوانين السوق»: سعر البترول يتدهور، رغم أن الطلب العالمي لايكف عن التزايد، بقدر ما تتضاعف المصانع، والسيارات، ومحطات توليد الطاقة، وثمة تناقض آخر: فرغم أن سعر البترول ينخفض، فإن سعر مواد الاحتراق الذي يدفعه المستهلكون يرتفع في كل مكان . وهناك اختلال شديد في التناسب بين سعر الخام وسعر المشتقات. كل هذه السلسلة من الامور العبيثة عقلانية تماماً؛ وما من ضرورة للجوء الى القوى الغيبية من أجل العثور على تفسير. السبب هو أن تجارة البترول في العالم الرأسمالي هي، كما رأينا في يد كارتل مطلق القدرة، وقد ولد الكارتل عام ١٩٢٨ ، في إحدى قلاع شمال اسكتلندا التي يحوطها الضباب، حتى

www.ibtesama.com/vb

اتفقت ستاندارد أويل أف نيوجرسي ، وشل ، والانجلو - ايرانيان ، المسماه الآن باسم بريتيش بتروليوم British Petroleum ، على اقتسام الكوكب. وقد انضمت الى اللواء التي تسير الكارتل فيما بعد ستاندارد أويل نيويورك ، وستاندارد أويل كاليفورنيا ، وجالف Gulf ، وتكساكو Texaco [٣٨]. وقد انقسمت ستاندارد أويل ، التي انشأها روكفللر Rockefeller عام ١٨٧٠ ، إلى خمس وثلاثين شركة عام ١٩٩١ ، بسبب تطبيق قانون شيرمان ضد التروستات؛ والاخت الكبرى ، في أيامنا ، لعائلة ستاندارد العديدة الافراد هي شركة نيو جرسي. ومبيعاتها من البترول، مضافة الى مبيعات ستاندارد أويل نيويورك وأويل كاليفورنيا ، تبلغ نصف إجمالي مبيعات الكارتل الاجمالية في أيامنا. ويبلغ من حجم الشركات البترولية لمجموعة روكفللر أنها تكسب مالا يقل عن ثلث مجموع الارباح التي تنتزعها الشركات الامريكية الشمالية من كل الانواع، من العالم كله. وشركة نيو جرسي، وهي شركة عابرة للقوميات من النوع النمطي، تحصل على غالبية أرباحها خارج الحدود؛ وأمريكا اللاتينية تقدم لها أرباحاً أكثر من الولايات المتحدة وكندا معاً: فنسبة أرباحها، جنوبي نهر الريو برافو ، أعلى اربع مرات [٣٩]. ولقد أنتجت الشركات التابعة في فنزويلا ، عام ١٩٥٧، أكثر من نصف الارباح التي جنتها ستاندارد أويل أوف نيوجرسي في كل مكان، وفي نفس تلك السنة ، قدمت الشركات التابعة في فنزويلا لشركة شل نصف أرباحها في العالم كله [٤٠].

هذه الشركات العابرة للقوميات لاتنتمي الى الامم العديدة التي تعمل على اراضيها: فهي عابرة للقوميات، بالاحرى، بقدر ما تجذب، من أركان الارض الاربعة شلالات ضخمة من البترول والدولارات الى مراكز سلطة النظام الرأسمالي. وهي لاتحتاج، بالتأكيد، إلى تصدير رؤوس أموال من اجل تمويل توسع أعمالها: فالارباح المنتزعة من البلدان الفقيرة لا تتجه في خط مستقيم الى المدن القليلة التي يقطنها غالبية حملة الاسهم فحسب، بل يعاد استثمارها جزئياً كذلك لتنشيط وتوسيع شبكة العمليات العالمية. وتتضمن بنية الكارتل إخضاع بلدان عديدة واختراق حكوماتها العديدة: يمتص البترول رؤساء ودكتا توريين، ويزيد من حدّة التشوهات الهيكلية في المجتمعات التي يُخضعها لخدمته. إن شركات البترول هي التي تقرر ، بقلم رصاص فوق خريطة العالم، ماهي المناطق التي يجب أن تُستغل وما هي مناطق الاحتياطي، وهي التي تحدد الاسعار التي يجب أن يتقاضاها المنتجون ويدفعها المستهلكون. إن الثروة الطبيعية لفنزويلا وغيرها من البلدان الامريكية اللاتينية التي تملك بترولاً في جوف أرضها، والتي هي أهداف للهجوم

www.ibtesama.com/vb

والنهب المنظم ، قد تحولت الى الاداة الرئيسية لاستعبادها السياسي وانحطاطها الاجتماعي. وهذه قصة طويلة من الانهيارات واللعنات، وسوء السمعة والتحديات.

وكانت كوبا تقدم، بطرق فرعية، أرباحاً دسمة لستاندارد أويل أوف نيوجرسي. كانت شركة نيوجرسي تشتري البترول الخام من شركة كريول بتروليوم Creole Petroleum، الشركة التابعة لها في فنزويلا، وتكرره وتوزعه في الجزيرة، كل ذلك بالاسعار التي تناسبها تماماً في كل مرحلة من المراحل. وفي اكتوبر عام ١٩٥٩، في ذروة الفوران الثوري، رفعت وزارة الخارجية الامريكية مذكرة رسمية الى هافانا عبرت فيها عن قلقها على مستقبل الاستثمارات الامريكية الشمالية في كوبا: كانت قد بدأت عمليات قصف طائرات «القرصنة» القادمة من الشمال ، وكانت العلاقات متوترة. وفي يناير عام ١٩٦٠، أعلن أيزنهاور تقليل حصة كوبا من السكر، وفي فبراير وقّع فيديل كاسترو إتفاقاً تجارياً مع الاتحاد السوفيتي لتبادل السكر بالتبرول وغيره من المنتجات باسعار جيدة بالنسبة لكوبا . ورفضت شركة نيوجرسي، وشل، وتكساكو تكرير البترول السوفيتي: وفي يوليو تدخلت الحكومة الكوبية وأممتهما دون أي تعويض . وبدأت الشركات الحصار بزعامة ستاندارد أويل أوف نيوجرسي. أضيفت مقاطعة الفنيين المؤهلين الى مقاطعة قطع الغيار الضرورية للآلات ومقاطعة السفن. كان النزاع اختباراً للسيادة[41]، خرجت منه كوبا منتصرة. ففي آن واحد، كفت عن أن تكون نجمة ضمن مجموعة النجوم في علم الولايات المتحدة ومن أن تكون ترساً في الدولاب العالمي لستاندارد أويل.

وقبل عشرين عاماً ، كانت المكسيك قد عانت من حظر دولي فرضته ستاندارد أويل أوف نيوجرسي ورويال داتش شل . ففيما بين عامين ١٩٣٩ و ١٩٤٢ ، طرح الكارتل مقاطعة الصادرات المكسيكية من البترول والامدادات الضرورية للآبار ومصافي التكرير. فقد كان الرئيس لازارو كارديناس قد أمم الشركتين. وقد قام نيلسون روكفللر Nelson Rockefeller ، الذي كان قد تخرج في الاقتصاد عام ١٩٣٠ بأطروحة كتبها حول فضائل شركته ستاندارد أويل ، قام بزيارة المكسيك للتفاوض بشأن اتفاق ، لكن كارديناس لم يتراجع. أما ستاندارد وشل اللتان كانتا تقتسمان الاراضي المكسيكية ، الاولى تأخذ الشمال والثانية الجنوب ، فلم تكتفيا برفض قبول قرار المحكمة العليا تطبيقاً لقوانين العمل المكسيكية، بل دمرتا المنابع الشهيرة في فاخادي أورو Faja De Oro بسرعة رهيبة، وأجبرتا المكسيكيين على أن يدفعوا ، مقابل بترولهم ذاته ، أسعاراً

www.ibtesama.com/vb

أعلى من سعر هذا البترول نفسه في الولايات المتحدة وفي أوربا [٤٢]. وخلال أشهر قليلة، كانت حمّى التصدير قد انصبت بوحشية آباراً كثيرة كان يمكنها أن تظل تنتج لمدة ثلاثين أو أربعين عاماً. كتب أوكونور يقول: «إنتزعوا من المكسيك أغنى احتياطياتها، ولم يتركوا لها سوى مجموعة من معامل التكرير العتيقة، والحقول المنهكة، وشحاذي مدينة تامبيكو Tampico وذكريات مرّة». وخلال أقل من عشرين عاماً، كان الانتاج قد إنخفض الى الخمس. كان من نصيب المكسيك صناعة باليه، موجهة نحو الطلب الاجنبي، وأربعة عشر ألف عامل: مضى الفنيون، واختفت حتى وسائل النقل. حوّل كارديناس استعادة البترول الى قضية قومية كبرى، وتخطى الازمة بقوة الخيال والشجاعة، وشركة بيميكس Pemex، البترول المكسيكية، وهي الشركة التي انشئت عام ١٩٣٨ لتتولى كل الانتاج والسوق، هي اليوم اكبر شركة غير أجنبية في كل امريكا اللاتينية. ومن الارباح التي تنتجها بيميكس، دفعت الحكومة المكسيكية تعويضات ضخمة للشركات، فيما بين ١٩٤٧ و ١٩٦٢، رغم أن «المكسيك»، كما يقول خسوس سيلبا هر تسوج Jesus Silva Herzog، «ليست هي المدينة لتلك الشركات القرصانة، بل إنها هي الدائن الشرعي» [٤٣]. وفي عام ١٩٤٩، استخدمت ستاندارد أويل الفيتو (حق النقض) ضد قرض - كانت الولايات المتحدة ستقدمه لشركة بيميكس، وبعد سنوات طويلة، وبعد أن إندملت الجروح بفعل التعويضات السخية، مرت بيميكس بتجربة مماثلة مع البنك الدولي للتنمية.

كانت أورجواي هي البلد الذي أقام أول معمل تكرير حكومي في امريكا اللاتينية. وقد ولدت Ancap، الادارة القومية للمحروقات، والكحول، والبورتلاند، عام ١٩٣١، وكان من مهامها الرئيسية تكرير وبيع البترول الخام. وكانت رداً قومياً على تاريخ طويل من انتهاكات التروست في منطقة الرّيودي لابلاتا. وبشكل موازٍ تعاقدت الدولة على شراء بترول رخيص من الاتحاد السوفيتي. وعلى الفور، موّل الكارتل حملة غاضبة لتحقير الشركة الصناعية الحكومية لاورجواي وبدأت مهمة الابتزاز والتهديد. جرى تأكيد أن أورجواي لن تجد من يبيعها الالات وأنها ستبقى دون بترول خام، وأن الدولة اسوأ مدير، وأن تستطيع تولى تجارة بهذا التعقيد. وكان انقلاب القصر في مارس عام ١٩٣٣ يفوح برائحة البترول: فقد الغت دكتاتورية جابرييل تيرا Gabriel Terra حق الـ ANCAP (الادارة القومية للمحروقات، والكحول، والبورتلاند) في احتكار استيراد المحروقات، وفي يناير عام ١٩٣٨ وقّعت الاتفاقيات السرية مع الكارتل، تلك الاتفاقيات المشئومة التي ظل الجمهور يجهلها لمدة ربع قرن ومازالت سارية حتى الآن. وحسب موادّها، فإن

www.ibtesama.com/vb

البلاد ملزمة بشراء أربعين بالمائة من البترول الخام دون طرح عطاءات وحيث تحددها ستاندارد أويل، وشل، وأطلانتيك Atlantic، وتكساكو وذلك بالأسعار التي يصدرها الكارتل. وعلاوة على ذلك، فإن الدولة التي تحتفظ بإحتكار التكرير، تدفع كل نفقات الشركات، بما في ذلك الدعاية، والاجهزة المتميزة، والاثاث الفاخر في مكاتبها[٤٤]. يتغنى التليفزيون قائلاً: هذا هو التقدم؛ ولا يكلف القصف الدعائي ستاندارد أويل سنتيماً واحداً. ويتولى محامي بنك الجمهورية مهمة العلاقات العامة لستاندارد أويل، وتدفع الدولة له كلاً المرتبين.

هناك، حوالي عام ١٩٣٩، كان معمل تكرير ANCAP يشمخ، ظافراً، بأبراجه التي يتصاعد منها اللهب: كانت الشركة قد شوهت بشدة بعد موادها بقليل، كما رأينا، لكنها كانت لاتزال تمثل مثالاً للتحدي الظافر ضد ضغوط الكارتل. وقد زار مونتفيديو رئيس المجلس القومي لبترول البرازيل، الجنرال هورتا باربوزا Horta Barbosa، وإمتلأ حماساً بالتجربة: كان معمل تكرير أورجواي قد دفع كل نفقات انشائه تقريباً خلال العام الأول من العمل. وبفضل جهود الجنرال باربوزا، علاوة على حماس غيره من العسكريين الوطنيين، استطاعت بتروبراز Petrobras، الشركة الحكومية البرازيلية، أن تبدأ عملياتها عام ١٩٥٣ استجابة لصيحة O Pertroleo's Nosso! (البترول لنا!). وحالياً، نجد أن بتروبراز هي أكبر شركة في البرازيل[٤٥]، وهي تنقب عن، وتستخرج، وتكرر البترول البرازيلي. لكن بتروبراز شوهت كذلك. إنتزع منها الكارتل مصدرين كبيرين للربح: الأول هو توزيع البنزين، والزيوت، والكيروسين، والسوائل الاخرى، وهي تجارة رائعة تديرها شل، وإسو Esso، وأطلانتيك بالتليفون دون صعوبات كبيرة وينتزع بلغ من جودتها أن هذا القطاع، بعد صناعة السيارات، هو أقوى بنود الاستثمار الامريكي الشمالي في البرازيل؛ والثاني، هو صناعة البتروكيماويات، النبع السخي للارباح، التي خرجت من التأميم، منذ سنوات قليلة، بفضل دكتاتورية الماريشال كاستلو برانكو. ومؤخراً، شن الكارتل حملة صاخبة لسلب احتكار التكرير من بتروبراز. ويذكِّر المدافعون عن بتروبراز بأن المبادرة الخاصة، التي كان المجال مفتوحاً أمامها، لم تهتم بالبترول البرازيلي قبل عام ١٩٥٣[٤٦]. ويحاولون أن يعيدوا الى ذاكرة الجمهور الضعيفة فاصلاً عظيم الدلالة على النوايا الحسنة للاحتكارات. في نوفمبر عام ١٩٦٠، أوكلت بتروبراز الى اثنين من الفنيين البرازيليين قيادة مراجعة شاملة للحقول الرسوبية في البلاد. ونتيجة لتقاريرهما تقدمت ولاية سرجيبي Sergipe في الشمال الشرقي الى الطليعة في الانتاج البترولي،

www.ibtesama.com/vb

وقبل ذلك بقليل، في أغسطس، كان الفني الامريكي الشمالي والتر لينك Walter Link، الذي كان الجيولوجي الاول لدى ستاندارد أويل أوف نيوجرسي، قد تلقى من الحكومة البرازيلية نصف مليون دولار مقابل جمل من الخرائط وتقرير مسهب حدد الطبقة الرسوبية لسرجيبي بأنها «غير مؤثرة»: حتى ذلك الحين كانت تعتبر من المرتبة «ب»، لكن لينك خفضها الى المرتبة «جـ». وبعد ذلك عُرف أنها من المرتبة (أ)(٤٧). وحسب ما يقول اوكونور، فلقد عمل لينك طول الوقت باعتباره عميلاً لستاندارد، مصمماً مقدماً على الا يجد بترولاً حتى تظل البرازيل معتمدةً على وارداتها من الشركة التابعه لروكفللر في فنزويلا.

كذلك تؤكد الشركات الاجنبية وأصدقاؤها المحلية في الارجنتين على الدوام أن باطن الارض يحتوي على قليل من البترول، رغم أن أبحاث الفنيين في YPF، حقول البترول الحكومية، قد اشارت بكل تأكيد الى أن نحو نصف الاراضي القومية تحتوي على بترول، وان هناك كذلك بترول وفير في الرصيف القاري لساحل الاطلنطي، وفي كل مرة يصبح فيها من الموضة الحديث عن فقر التربة الارجنتينية، توقع الحكومة امتيازاً جديداً لصالح احد اعضاء الكارتل. وقد كانت الشركة الحكومية، YPF، ضحية لتخريب متصل ومنهجي، من مولدها حتى الآن. كانت الارجنتين، حتى سنوات قريبة، واحداً من آخر المواقع التاريخية للنزاع الامبريالي بين انجلترا، في افولها البائس، والولايات المتحدة الصاعدة. ولم تمتنع اتفاقيات الكارتل شل وستاندارد أويل من التنازع حول بترول هذا البلد بوسائل عنيفة أحياناً: وثمة سلسلة من المصادفات البليغة في الانقلابات التي جرت على طول الاربعين سنة الاخيرة. كان الكونجرس الارجنتيني يتأهب للتصويت على قانون تأميم البترول، في ٦ سبتمبر ١٩٣٠، حين أسقط انقلاب خوسية فيليكس أوريبورو Jose Felix Uriburu الزعيم الوطني ابيوليتو ايرجوين Hipolito Yrigoyen. وسقطت حكومة رامون كاستيو Ramon Castillo في يونيو عام ١٩٤٣، حين كانت بسبيل التوقيع على اتفاقية تنشيط استخراج البترول من جانب رؤوس الاموال الامريكية الشمالية. وفي سبتمبر عام ١٩٥٥، توجه خوان دومينجو بيرون الى المنفى حين كان الكونجرس على وشك إقرار امتياز لشركة كاليفورنيا أويل كومباني. وقد أثار أرتورو فرونديزي Arturo Frondizi أزمات عسكرية عديدة وحادة، في القوات الثلاث، بإعلانه الدعوه الى طرح عطاءات تقدم كل باطن أرض البلاد للشركات المهتمة باستخراج البترول: وفي أغسطس عام ١٩٥٩ تم إعلان التخلي عن العطاءات. وإنبعث الامر على

www.ibtesama.com/vb

الذي ثم اصبح معدوماً في اكتوبر عام ١٩٦٠. وقد حقق فرونديثي عدة امتيازات لصالح شركات الكارتل الامريكية الشمالية، ولم تكن المصالح البريطانية - الحاسمة في البحرية وفي القسم «الملون» من الجيش - غريبة عن سقوطه في ١٩٦٢. وقد الغى ارثورو إيليا Arturo Illia الامتيازات وأسقط عام ١٩٦٦؛ وفي العام التالي، أصدر خوان كارلوس أونجانيا Juan Carlos Ongania قانوناً لمركبات الهيدروكربون حبذ المصالح الامريكية الشمالية في النزاع الداخلي.

لم يثر البترول انقلابات في امريكا اللاتينية فحسب. فقد أثار كذلك حرباً، هي حرب التشاكو Chaco (١٩٣٢ - ١٩٣٥)، بين افقر شعبين في امريكا الجنوبية: «حرب الجنوب المرامة» هكذا وصف رينيه ثاباليتا Rene Zavaleta المذبحة الوحشية المتبادلة بين بوليفيا والباراجواي [٤٨]. في ٣٠ مايو عام ١٩٣٤ هز سناتور لويزيانا، هوي لونج Huey Long الولايات المتحدة بخطاب عنيف كشف فيه أن ستاندارد أويل أوف نيوجرسي قد اثارت النزاع وأنها موّلت الجيش البوليفي حتى تستولي، بواسطته، على التشاكو الباراجوايي، الضروري لمد خط أنابيب من بوليفيا حتى الريو، والذي يفترض، بالاضافة الى ذلك، إنه غني بالبترول: «لقد مضى هؤلاء المجرمون الى هناك واستأجروا قتلتهم» هكذا اكد [٤٩]. وسار رجال الباراجواي الى المذبح، بدورهم، تدفعهم شركة شل: وكلما تقدموا نحو الشمال، كان الجنود يكتشفون الابار التي حفرتها ستاندارد في منطقة النزاع. كان نزاعاً بين شركتين، عدوتين وفي نفس الوقت شريكتين في اطار الكارتل، لكنهما لم تكونا هما اللتان تذرفان دمهما. وأخيراً، كسبت الباراجواي الحرب لكنها خسرت السلام، وقد ترأس سبرويل برادن Spruille Braden، قوّاد ستاندارد أويل الشهير، لجنة المفاوضات التي حفظت لبوليفيا، ولروكفللر، عدة الاف كيلو متر مربع كان يطالب بها الباراجوايون.

وعلى مقربة شديدة من آخر مواقع تلك المعارك تقع آبار البترول والحقول الواسعة للغاز الطبيعي التي فقدتها شركة جالف أويل كومباني، شركة عائلة ميللون Mellon، في بوليفيا في اكتوبر عام ١٩٦٩. وقد صاح الجنرال الفريدو أوباندو Alfredo Ovando عند اعلان التأميم من شرفات قصر كيمادو Quemado قائلاً: «لقد انتهى بالنسبة للبوليفيين زمن الاحتقار». وقبل ذلك بخمسة عشر يوماً، حين لم يكن قد تولى السلطة بعد، كان أوباندو قد أقسم أن يؤمم شركة جالف، أمام مجموعة من المثقفين الوطنيين، كان قد حرّر المرسوم، ووقعه، واحتفظ به، دون تاريخ، في ظرف. وقبل ذلك بخمسة شهور، في

منطقة كانيادن دل أركي Canadon del Arque، كانت الطائرة الهليكوبتر للجنرال رينيه باريئتوس قد اصطدمت باسلاك التلغراف وتحطمت، لم يكن الخيال بقادر على أن يخترع ميْتة كاملة بهذا الشكل، كانت الهليكوبتر هدية شخصية من جالف أويل كومباني، بينما يخص التلغراف الدولة، كما هو معروف، واحترقت مع باريئتوس حقيبتان مليئتان بالنقود كان يحملهما لتوزيعهما، ورقة عملة إثر ورقة ، على الفلاحين، كما أخذت بعض المدافع الرشاشة التي لم تحترق تماماً في اطلاق مطر من الرصاصات حول الهليكوبتر المحترقة، بحيث لم يستطع أحد الاقتراب لانقاذ الدكتاتور بينما يحترق حياً.

وعلاوة على اصدار مرسوم التأميم، ألغي أو باندو قانون البترول، المسمىّ بقانون دافنبورت تكريماً للمحامي الذي حرّره بالانجليزية، ومن أجل وضع هذا القانون، كانت بوليفيا، قد حصلت، عام ١٩٥٦ ، على قرض من الولايات المتحدة، وبالمقابل، فإن الاكسيمبانك Eximbank، بنك نيويورك الخاص، والبنك الدولي كانا يردّان دائماً بالرفض على طلبات القروض من أجل تطوير الـ YPF، الشركة البترولية الحكومية، فقد كانت الحكومة الامريكية الشمالية تتبنى دائماً قضية الشركات البترولية الخاصة(٥٠). وطبقاً للقانون، تلقت جالف، في ذلك الحين، ولمدة أربعين عاماً، امتياز استغلال أغنى حقول البترول في كل البلاد. وحدد القانون مشاركة مضحكة للدولة في أرباح الشركات: بنسبة لاتكاد تبلغ أحد عشر بالمائة، ولسنوات طويلة، جعلت الدولة نفسها شريكة في نفقات الشركة صاحبة الامتياز ، لكنها لم تكن تملك أي سيطرة على هذه النفقات، ووصل الامر الى موقف متطرف بشأن الهبات: فقد كانت كل المخاطر من نصيب شركة YPFB، بينما لا تتحمل جالف أية مخاطر. وفي خطاب النوايا الذي وقّعته جالف أواخر عام ١٩٦٦، خلال دكتاتورية باريئتوس ، تقرر فعلياً، أنه في العمليات المشتركة مع YPFB، ستستعيد شركة جالف كل رؤوس أموالها المستثمرة في استكشاف ايه منطقة، اذا لم يتم العثور على بترول، واذا ظهر البترول، تتم استعادة النفقات من خلال الاستغلال التالي، لكنها ستفيد من البداية خصماً من حساب الشركة الحكومية. ويكون من حق جالف أن تحدد هذه النفقات حسب ما يناسبها(٥١). وفي نفس خطاب النوايا هذا ، نسبت جالف لنفسها، بكل هدوء ، ملكية منابع الغاز، التي لم تسلم لها ابداً. ويحتوى باطن الأرض البوليفي على غاز أكثر من البترول، قام الجنرال باريئتوس بحركة لصرف الانتباه: وكانت كافية. جرة قلم تحدّد مصير مخزون الطاقة الرئيسي لبوليفيا . لكن المهمة لم تكن قد اكتملت.

www.ibtesama.com/vb

. قبل عام من مصادرة الجنرال الفريدو أوباندو لشركة جالف في بوليفيا، كان جنرال وطني آخر، هو خوان بيلاسكو الباراردو Juan Velasco Alvarado، قد أمم حقول ومصافي شركة انترناشيونال بتروليوم كومباني .International Petroleum Co، التابعة لستاندارد أويل أوف نيوجرسي، في البيرو. كان بيلاسكو قد استولى على السلطة على رأس طغمة عسكرية، وعلى قمة موجه أثارتها فضيحة سياسية ضخمة: كانت حكومة فرناندو بيلاوندي تيري قد فقدت الصفحة الاخيرة من اتفاقية تالارا، المعقودة بين الدولة وانترناشيونال بتروليوم كومباني (IPC). هذه الصفحة التي تبخرت بصورة غامضة، الصفحة الحادية عشرة، كانت تتضمن ضمان الحد الادنى للسعر الذي يجب أن تدفعه الشركة الامريكية الشمالية مقابل البترول الخام القومي في معامل تكريرها. ولم تنته الفضيحة عند هذا الحد. ففي نفس الوقت، تكشّف أن فرع ستاندارد أويل قد احتال على بيرو بأكثر من ألف مليون دولار خلال نصف قرن، وذلك من خلال الضرائب والالتزامات التي تهربت منها ومن خلال اشكال متعددة أخرى من التزوير والفساد. وكان مدير انترناشيونال بتروليوم كومباني (IPC) قد إجتمع مع الرئيس بيلاوندي في ستين مناسبة قبل التوصل الى الاتفاق الذي أثار التمرد العسكري؛ وخلال عامين، وبينما المفاوضات مع الشركة تتقدم، وتنقطع وتبدأ من جديد، أوقفت وزارة الخارجية الامريكية كل أنواع المساعدة لبيرو[٥٢]. ولم يبق فعلياً وقت لاستئناف المساعدة، لأن الاستسلام حدد مصير الرئيس المدان، وحين قدمت شركة روكفللر احتجاجاً أمام المحكمة التشريعية البيروانية، كان الناس يلقون بالدراهم على وجوه محاميها.

أن امريكا اللاتينية صندوق مفاجآت، اذ لا تنضب ابداً قدرة هذا الاقليم المعذّب من العالم على الادهاش، ففي جبال الانديز، عاودت القومية العسكرية صعودها بقوة، مثل نهر دفين مختلف من زمن طويل. ونفس الجنرالات الذين ينتهجون اليوم، في عملية متناقضة، سياسة إصلاح وإثبات ذات وطني، هم الذين صفوا مقاتلي العصابات قبل قليل. هكذا اعاد المنتصرون أنفسهم، رفع كثير من رايات من سقطوا. وكان العسكريون البيروانيون قد قصفوا بالنابالم بعض مناطق مقاتلي العصابات، عام ١٩٦٥، وكانت انترناشيونل بتروليوم كومباني، فرع ستاندارد أويل أوف نيوجرسي، هي التي زودتهم بالبنزين والخبرة الفنية من أجل تصنيع القنابل في القاعدة العسكرية في لاس بالماس Las Palmas، بالقرب من ليما[٥٣].

www.ibtesama.com/vb

■ بحيرة ماراكايبو في منقار الطيور الجارحة المعدنية الضخمة

رغم أن مساهمة فنزويلا في السوق العالمية قد إنخفضت الى النصف في الستينات، فإن فنزويلا مازالت، عام ١٩٧٠، أكبر مصدّر للبترول. ومن فنزويلا يأتي نحو نصف الارباح التي تجنيها رؤوس الاموال الامريكية الشمالية من كل امريكا اللاتينية. إنها واحدة من أغنى بلدان الكوكب، وايضاً واحدة من افقرها وواحدة من اعنفها. إنها تحقق أعلى دخل للفرد في أمريكا اللاتينية، وتمتلك أكمل وأحدث شبكة طرق: وبالنسبة لعدد السكان، ليس هناك بلد آخر في العالم يشرب كل هذه الكميات من الويسكي الاسكتلندي. والاحتياطيات من البترول، ومن الغاز والحديد التي تقدمها تربتها للاستغلال الفوري يمكنها أن تضاعف عشر مرات ثروة كل مواطن فنزويلي. وفي أراضيها الشاسعة البكر يمكن استيعاب كل سكان المانيا أو انجلترا. وقد استخرجت الصفارات، خلال نصف قرن، ارباحاً بترولية هائلة بحيث تعادل ضعف موارد خطة مارشال لتعمير اوروبا؛ ومنذ تفجرت أول بئر بترولية بشلالات من البترول، تضاعف عدد السكان ثلاث مرات وتضاعفت الميزانية القومية مائة مرة، لكن جزءاً كبيراً من السكان، الذين يتنازعون فضلات الاقلية المسيطرة ، لايتغذى أفضل مما كان يفعل خلال الحقبة التي كانت البلاد تعتمد فيها على الكاكاو والبن [٥٤].

وقد كبرت كاراكاس، العاصمة، سبع مرات خلال ثلاثين عاماً؛ المدينة البطريركيه ذات الافنية الرطبة، والميدان الرئيسي والكاتدرائية الصامتة أخذت تنبت فيها ناطحات السحاب كلما نمت ابراج البترول في بحيرة ماراكايبو Maracaibo. وهي الان كابوس ذو هواء مكيف، كابوس صاخب أسرع من الصوت، أحد مراكز ثقافة البترول التي تفضل الاستهلاك على الخلق وتضاعف الاحتياجات المصطنعه لكي تخفي الاحتياجات الحقيقة. تحب كاراكاس المنتجات النايلون والاغذية المعلبة، ولا تسير إطلاقاً، بل تتحرك فقط بالسيارة، وقد سممت هواء السهل النقي بغازات المحركات؛ وكاراكاس تنام بصعوبة، اذا لا يمكن اطفاء نهم الكسب والشراء، الاستهلاك والانفاق، نهم تملك كل شئ. ومن منحدرات التلال، يتأمل اكثر من نصف مليون من المنسيين، من عششهم الصفيح المكدسة بالقمامة، يتأملون تبديد الاخرين. وتبرق الالاف والآلاف من السيارات من آخر

طراز في شوارع العاصمة الذهبية. وعشية الاعياد، تصل السفن الى ميناء لاجوايرا La Guaira محملة بالشمبانيا الفرنسية، والويسكي الاسكتلندي، وقابات من اشجار عيد الميلاد تاتي من كندا، بينما نصف اطفال وشباب فنزويلا حتى الان، عام ١٩٧٠، وحسب الاحصاءات، يظلون خارج قاعات التعليم .

تنتج فنزويلا كل يوم ثلاثة ملايين ونصف مليون برميل من البترول من أجل ادارة الآلة الصناعية العالم الرأسمالي، لكن الفروع العديدة لستاندارد أويل، وشل، وجالف، وتكساكو لا تستغل أربعة أخماس مناطق امتيازاتها، التي ما زالت احتياطيات لم تمس، ولا يعود الى البلاد ابداً اكثر من نصف قيمة الصادرات. وتشيد كراسات دعاية شركة كريول (ستاندارد أويل) بأريحية الشركة في فنزويلا، بنفس التعبيرات التي كانت الشركة الملكية الجيبوثكوانية Real Compania Guipuzcoana تستخدمها لتنسب لنفسها الفضائل في أواسط القرن الثامن عشر؛ والارباح المنتزعه من هذه البقرة الحلوب الضخمة لا يمكن أن تقارن، بالنسبة لرأس المال المستثمر، الا مع الارباح التي كان يجنيها في الماضي تجار العبيد والقراصنة. فما من بلد انتج هذا القدر للرأسمالية العالمية في هذا الزمن القصير: فقد استنزفت فنزويلا ثروة تتجاوز، حسب ما يقول راتنغل، الثروة التي اغتصبها الإسبان من بوتوسي أو الانجليز من الهند. وقد كشف المؤتمر القومي الاول للاقتصاديين أن الارباح الحقيقية للشركات البترولية في فنزويلا قد ارتفعت، عام ١٩٦١، إلى ٣٨ في المائة، وإلى ٤٨ في المائة عام ١٩٦٢، رغم أن نسبة الارباح التي تعلنها الشركات في ميزانياتها كانت ١٥ و ١٧ في المائة على التوالي، ويدخل الفرق في حساب سحر المحاسبة والتحويلات الخفية. في الآلة المعقدة لتجارة البترول، بأنظمتها المتعددة والمتزامنة للاسعار، يكون من الصعوبة بمكان تقدير حجم المكاسب التي تختفي وراء الانخفاض المصطنع في سعر البترول الخام، الذي يتدفق، من بئر البترول وحتى مضخة البنزين، في نفس الشرايين على الدوام، وخلف الارتفاع المصطنع في نفقات الانتاج، حيث تسجل مرتبات خرافية ونفقات دعاية شديدة التضخم. ومن المؤكد، حسب الارقام الرسمية، أن فنزويلا لم تسجل، خلال العقد الاخير، دخول استثمارات خارجية جديدة ، بل سجلت على العكس ، تقلصاً منتظماً في الاستثمارات. تعاني فنزويلا من نزف اكثر من ستمائة مليون دولار سنوياً ، معترف بها باعتبارها «أرباحاً لرأس المال الاجنبي». والاستثمارات الجديدة الوحيدة هي التي تاتي من الاربا ح التي تقدمها البلاد. وفي هذه الاثناء تنخفض نفقات إستخراج البترول

بمنحنى رأسي، لأن الشركات تستخدم أيدي عاملة أقل باستمرار. وفيما بين عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٢ فقط انخفض عدد العمال بأكثر من عشرة آلاف عامل؛ وظل في العمل مايزيد قليلاً على ثلاثين ألفاً، وفي اواخر ١٩٧٠ أصبح البترول لا يستخدم اكثر من ثلاثة وعشرين الف عامل. وبالمقابل ، أرتفع الانتاج بدرجة كبيرة خلال العقد الاخير.

ونتيجة للبطالة المتزايدة، زادت حدة ازمة حقول البترول في بحيرة ماراكايبو. فالبحيرة غابة من الابراج، وداخل الدمامات الحديدية المتقاطعة، يولد الدوران الدقيق لانابيب الحفر، منذ نصف قرن، كل رفاهية وكل بؤس فنزويلا. وبجوار انابيب الحفر تحترق شعلات اللهب ، التحرق دون عقاب الغاز الطبيعي الذي تمنح البلاد نفسها ترف اضاعته الي الجو. وتوجد انابيب حفر حتي في قلب البيوت أو على نواصي الشوارع في المدن التي تفتحت كالمطر، مثل البترول، على شواطئ البحيرة: هناك يصبغ البترول باللون الاسود الشوارع والملابس، والاغذية والجدران، وحتى محترفات الحب تحمل اسماء مستعارة من البترول: مثل "شبكة الأنابيب" أو "الصمامات الأربعة"، "الونش" أو "القالب". واسعار الملابس والطعام هنا أعلى منها في كاراكاس. إن هذه القرى الحديثة، الحزينة منذ مولدها والمتسارعه رغم ذلك ببهجة الربح السهل، قد اكتشفت بالفعل انه لا مستقبل امامها . فحين تموت الابار، يتحول البقاء على قيد الحياه الي عمل من أعمال المعجزات: تبقى هياكل البيوت، والمياه المزيتة بسم يقتل الاسماك ويلعق المناطق المهجورة. كذلك يمسك الشقاء بتلابيب المدن التي تعيش على استغلال الابار العاملة، بسبب عمليات الفصل الجماعي والميكنه المتزايدة. «من هنا مّر البترول من فوق رؤوسنا»، هكذا قال أحد سكان لاجونياس Lagunillas عام ١٩٦٦ . وكابيماس Cabimas التي كانت على مدى نصف قرن اكبر مصدر للبترول في فنزويلا، والتى امدت كاراكاس والعالم كثيراً من الرفاهية، ليس فيها حتى مجاري، وفيها بالكاد زوج من الشوارع المسفلتة.

كانت النشوه قد انبعثت من سنوات طويلة. فحوالي عام ١٩١٧ ، كان البترول يوجد في فنزويلا، جنباً الي جنب مع اللاتيفونديات التقليدية، تلك الحقول الشاسعه غير المسكونه والاراضي الخاملة حيث يراقب اصحاب الضياع انتاج قوة العمل بجلد الاجراء ويدفنهم احياء حتى الخصر. وفي أواخر عام ١٩٢٢ ، تدفق بئر لاروسا La Rosa، التي كان يصب مائة الف برميل يومياً، وهبّت العاصفة البترولية. نبتت العقارات والروافع في بحيرة ماراكايبو، التي غزتها فجأه الآلات الغريبة والرجال ذوي الخوذات الفلينية؛ وتدفّق

الفاتحون واستقروا فوق الارض التي تغلي، بين الالواح وعلب الزيت، ليقدموا اذرعتهم للبترول. ورنت لهجات أوكلا هوما وتكساس لاول مرة في السهول والغابات، حتى في أقصى القرى. وفي لحظة ظهرت ثلاث وسبعون شركة، وكان ملك كرنفال الامتيازات هو الدكتاتور خوان بيثنتي جوميث Juan Vicente Gómez، وهو مربي ماشية من جبال الانديز شغل سنوات حكمة السبع والعشرين (١٩٠٨ - ١٩٣٥) في خلق الاعمال والابناء. وبينما تدفقت الشلالات السوداء زاخرة، كان جوميث يخرج من جيوبه الممتلئة أسهماً بترولية يكافئ بها أصدقاءه وأقاربه وحاشيته، والطبيب الذي يعتني له بالبروستاتا، والجنرالات الذين يعتنون بحماية ظهره، والشعراء الذين يتغنون بأمجاده، وكبير الاساقفة الذي منحه تراخيص استثنائية لكي يأكل اللحم أيام الجمعة الحزينة. وكست القوى الكبرى صدر جوميث بأوسمة براقة: فقد كان من الضروري تغذية السيارات التي تغزو طرق العالم. وكان أصدقاء الدكتاتور الاثيرون يبيعون الاسهم لشل أو لستاندارد أويل أو جالف؛ وأطلق تبادل النفوذ والرشاوى المضاربة وفقر التربة. جرى إجلاء المجتمعات الهندية عن اراضيها وفقد كثير من عائلات المزارعين ممتلكاتهم، لحسن الحظ أو لسوئه. وقد أعدّ قانون البترول الصادر عام ١٩٢٢ ممثلو ثلاث من شركات الولايات المتحدة. كانت حقول البترول مطوقة وبها شرطة خاصة. ويمنع الدخول لمن لا يحملون بطاقة العمل في الشركات؛ وكان المرور ممنوعاً حتى في الطرق التي يعبرها البترول الى الموانئ. وحين مات جوميث عام ١٩٣٥، قطع عمال البترول الاسلاك الشائكة التي تحيط بالحقول وأعلنوا الاضراب.

وفي عام ١٩٤٨، مع سقوط حكومة رومولو جاييجوس Romulo Gallegos، إغلقت دورة الاصلاح التي بدأت قبل ثلاث سنوات، وسرعان ما قلّص الجنرالات المنتصرون إشراف الدولة على البترول الذي تستخرجه فروع الكارتل. وتحولت تخفيضات الضرائب، عام ١٩٥٤، إلى أكثر من ثلاثمائة مليون دولار من الارباح الاضافية لشركة ستاندارد أويل. في عام ١٩٥٣، كان أحد رجال الاعمال بالولايات المتحدة قد أعلن في كاراكاس: « هنا نتمتع بحرية أن نفعل بنقودك ما يحلو لك، وبالنسبة لي، تساوي هذه الحرية أكثر من كل الحريات السياسية والمدنية مجتمعة »(٥٥). وحين أسقط الدكتاتور ماركوس بيريث خيمينث Marcos Perezjimenez عام ١٩٥٨، كانت فنزويلا بئر بترول كبيرة تحيطها السجون وغرف التعذيب، وتستورد كل شئ من الولايات المتحدة: السيارات والثلاجات، واللبن المركز، والبيض، والخس، والقوانين والمراسيم. وفي عام ١٩٥٧، أعلنت كبرى

www.ibtesama.com/vb

شركات روكفللر، وهي شركة كريول، أرباحاً كانت تبلغ نصف استثماراتها الاجمالية، وقد رفعت العصبية الثورية للحكومة الضرائب على الدخل المفروضة على الشركات الكبرى، من ٢٥ إلى ٤٥ بالمائة. ورداً على ذلك، فرض الكارتل خفضاً فورياً لسعر البترول الفنزويلي وبدأ طرد العمال بالجملة. وبلغ من انخفاض السعر، أنه برغم زيادة الضرائب وزيادة حجم البترول المصدّر، عام ١٩٥٨، جنت الدولة دخلاً يقل عن العام السابق بستين مليون دولار.

ولم تؤمم الحكومات التالية الصناعية البترولية، لكنها كذلك لم تقدم، حتى عام ١٩٧٠، إمتيازات جديدة للشركات الاجنبية لإستخراج الذهب الاسود. وفي هذه الاثناء، سارع الكارتل من انتاج حقوله في الشرق الادنى وفي كندا؛ وفي فنزويلا توقف فعلياً استكشاف آبار جديدة، وتجمد التصدير. وفقدت سياسة عدم منح امتيازات جديدة معناها بقدر ما عجزت شركة البترول الفنزويلية، الجهاز الحكومي، عن تولي المسئولية الشاغرة. وبالمقابل، إكتفت الشركة الحكومية بحفر بضعة آبار قليلة هنا وهناك، مؤكدة أن وظيفتها لا تتعدى تلك التي أوكلها اليها الرئيس روميولو بيتانكور Romulo Betancourt: «عدم بلوغ حجم الشركة الضخمة، بل القيام بدور الوسيط في المفاوضات بشأن الصيغة الجديدة للامتيازات»، ولم توضع الصيغة الجديدة موضع التطبيق، رغم الاعلان عنها عدة مرات.

وفي نفس الوقت فإن النفخة الصناعية التي اكتسبت شكلاً وقوة منذ نحو عقدين من الزمان قد اخذت تكشف عن اعراض واضحة للنضوب، وتحيا عجزاً معروفاً تماماً في امريكا اللاتينية: فالسوق الداخلية، المحدودة بسبب فقر الاغلبية، ليست قادرة على المحافظة على التطور التصنيعي ابعد من مدى معين. ومن ناحية اخرى، بقي الاصلاح الزراعي، الذي استهلته حكومة العمل الديمقراطي، بقي قبل منتصف الطريق الذي وعد بأن يقطعه، في وعود خالقيه. وتشترى فنزويلا من الخارج، ومن الولايات المتحدة بالدرجة الاولى، جزءاً كبيراً من الاغذية التي تستهلكها. فالطبق التقليدي، مثلاً، وهو اللوبية، يأتي بكميات كبيرة من الشمال، في اكياس تلمع عليها كلمة "Beans" بالانجليزية.

إن سلبادور جارمنديا Savador Garmendia، الروائي الذي أعاد ابتكار الجحيم الجاهز الصنع لكل ثقافة الغزو هذه، ثقافة البترول، قد كتب لي خطاباً، في منتصف عام ١٩٦٩ يقول فيه: «هل رأيت حفّاراً، ذلك الجهاز الذي يستخرج البترول الخام؟ إن له شكل طائر أسود ضخم تصعد رأسه المدببة وتهبط بتثاقل، ليلا ونهاراً، دون أن تتوقف

www.ibtesama.com/vb

لحظة واحدة: انه الطير الجارح الوحيد الذى لا يأكل برازاً. ماذا سيحدث حين نسمع الضوضاء المميزة لانبوبة المص حين ينفد السائل؟ إن الافتتاحية الموسيقية الغريبة قد بدأت تسمع بالفعل في بحيرة ماراكايبو، حيث نبتت بين عشية وضحاها قرى رائحة بها دور للسينما، وسوبر ماركت، ومواخير، وأوكار عاهرات وقمار، وحيث لم تكن للنقود قيمة. منذ وقت قصير قمت بجولة هناك وأحسست بمخلب في معدتي. فرائحة الموت والفردة القوى من رائحة الزيت. القرى شبه مهجورة، متآكلة، متقرحة بالخراب، والشوارع مليئة بالوحل، والمتاجر انقاض. وهناك غوّاص قديم لدى الشركات يغوص يومياً، مزوداً بمنشار زخرفة، ليقطع اجزاء من شبكات المواسير المهجورة ويبيعها كحديد خردة. وقد بدأ الناس في الحديث عن الشركات كمن يتذكر اسطورة ذهبية. انهم يحيون على ماضٍ أسطورى كالسير على الحبال به ثروات تبدد في ضربة زهر وحفلات سكر تدوم سبعة ايام. وفي هذه الاثناء، تظل انابيب الحفر تدور ويظل مطر الدولارات يسقط على ميرافلورس Miraflores، قصر الحكومة، ليتحول الى طرق سريعة وغيرها من وحوش الاسمنت المسلح. ويعيش ستون في المائة من المواطنين هامشيين عن كل شئ، وفي المدن تزدهر طبقة وسطى ذاهلة ذات مرتبات عالية، تكدس حولها أشياء بلا نفع، تعيش وقد خلبت لبها الدعاية وتبدى حمقها وفساد ذوقها بصورة صاخبة. منذ قليل أعلنت الحكومة بضوضاء هائلة انها قد استأصلت الامية. والنتيجة: في المهرجان الانتخابي الاخير، اظهر تعداد من يجهلون الكتابة مليوناً من الاميين بين سن الثامنة عشرة والخمسين ».



www.ibtesama.com/vb

الهوامـــش

(1) Edwin Lieuwen, ***The United States and the Challenge to Security in Latin America***, Ohio, 1966.

(2) Philip Courtney, en un trabojo presentado ante et II Congreso Internacional de Ahorroe Inversion, Bruselas, 1959.

(3) Harry Magdoff, ***La era del imperialismo***, en Monthly Review, selecciones en castellano, Santiago de Chile, evero - febrero - de 1969, Claude Julien, L'Empire Américan, París, 1969.

(٤) بالمقابل، إنتبهت حكومة المكسيك في الوقت المناسب إلي أن البلاد، وهي أحد المصّدرين الأساسيين للكبريت في العالم، أخذت تفرغ منه. كانت شركتا تكساس جالف سلفر Texas Gulf Sulfur وبان أمريكان سلفر Pan American Sulfur قد أكدتا أن الاحتياطيات التي تتمتع بها إماكن إمتيازاتهما تفوق ست مرات ماهي عليه في الحقيقة. وقد قررت الحكومة، عام ١٩٦٥، الحد من المبيعات للخارج.

(5) Sergio Almaraz Paz, ***Réquiem Para una república***, La Paz, 1969.

(6) Claude Julien, ***op. cit.***

(٧) توفي آرثر ديفيز Arthur Dovis، رئيس الومنيوم كومباني خلال زمن طويل، توفي عام ١٩٦٢ بترك ميراثه وقيمته ثلاثمائة مليون دولار للمؤسسات الخيرية، بشرط صريح هو عدم انفاق هذه الثروة خارج أراضي الولايات المتحدة. ولم تستطع جويانا حتي بهذه الطريقة أن تنقذ ولو جزءاً من الثروة التي إنتزعتها منها الشركة.

(Philip Reno, ***Aluminium Profits and Caribbean People***, en Monthly Review, Nueva York, octubre de 1963, y del mismo autor, ***El drama de la Guayana*** Británica. Un pueblo desde la esclavitud a la lucha por el socialismo, en Monthly Review, selecciones en Castellano, Buenos Aires, encro - febrero. de 1965.

(8) Harry Magdoff, ***op. cit.***

(9) Hermano Alves, ***Aerofotogrametria***, en Correio de Manhá, Río de Janeiro, 8de Junio de 1967.

(١٠) تقرير اللجنة البرلمانية للتحقيق في بيع الأراضي البرازيلية لأشخاص عينية أو إعتبارية أجنبية، برازيليا، ٣ يونيو ١٩٦٨.

www.ibtesama.com/vb

(11) ***Correio de Manhã***, Río de Janeiro, 30 de Junio de 1968.

(12) Paulo R. Schilling, ***Brasil para extranjeros***, Montevideo, 1966.

(13) Ernst Samhaber, ***Sudamérica, biografía de un continente***, Buenos Aires, 1946.

إن الطيور المنتجة للجوانو هي أثمن طيور العالم، كتب روبرت كوشمان موري Robert Cushman Murphy بعد الانبهار بكثير، «بسبب ربحها بالدولارات في كل وجبة»، وهي تفوق، قال، قبّرة شيكسبير التي كانت تغني على شرفة جولييت، وتفوق الحمامة التي حلقت فوق سفينة نوح، وتفوق، بالطبع، السنونوات الحزينة لبيكير Bécquer

(Emilio Romero, ***Historia económica del Perú***, Buenos Aires, (1949)

(14) Óscar Bermúdez, ***Historia del salitre desde sus orígenes hasta la Guerra del Pacífico***, Santiago de chile, 1963.

(15) José Carlos Mariátegui, ***Siete Ensayos de Interpretación de la Realidad Peruana***, Montevideo, 1970.

(١٦) فقدت البيرو مقاطعة تاراباكا التي تستخرج النترات وبعض جزر الجوانو الهامة، لكنها إحتفظت بمكامن الجوانو على الساحل الشمالي . وقد ظل الجوانو هو السماد الأساسي للزراعة البيروانية حتى قضى صعود دقيق الأسماك بدءاً من عام ١٩٦٠، حتى قضى على طيور الأطيش [طائر بحري اكل للأسماك – م] والنوارس . استولت شركات الأسماك، الأمريكية الشمالية في غالبيتها، بسرعة على ضفاف الأنشوجة القريبة من الساحل من أجل تغذية خنازير وطيور الولايات المتحدة وأوربا بالدقيق البيرواني، وأخذت الطيور المنتجة للجوانو تقتفي اثار الصيادين في البحر إلى مدى تزايد بعداً وكانت تسقط في البحر لعدم قدرتها على العودة . وكانت طيور أخرى لا تمضي إلى البحر ، وهكذا أمكن، عام ١٩٦٢، رؤية أسراب طيور الأطيش تبحث عن غذاء في الشارع الرئيسي في ليما : وحين لم تعد تستطيع التحليق، بقيت طيور الأطيش ميتة في الشوارع.

(17) Hernán Ramirez Necochea, ***Historia Del Imperialismo en chile***, Santiago de Chile, 1960.

(18) Hernán RanEurez Nocochea, ***Balmaceday la Contrarrevolución de 1891***, Santiago de Chile, 1969.

(١٩) تزعم الكونجرس المعارضة للرئيس وكان ضعف كثير من أعضائه تجاه الجنيهات الاسترلينيه معروفاً . كانت رشوة التشيليين، وفق ما يقول الانجليز، «إحدى عادات البلد» . هكذا عرفها روبرت

www.ibtesama.com/vb

مارتي، عام ١٨٩٧، وهو شريك نورث، أثناء القضية التي رفعها ضده وضد آخرين من مديري شركة نيترات ريلويز .The Nitrate Railways Co بعض حملة الأسهم الصغار، فأثناء تفسيره لإنفاق مائة ألف جنيه بهدف الرشوة، قال مارتي : «إن جهاز الإدارة العامة في تشيلي، كما تعرف سيادتكم، بالغ الفساد ... لا أقول أن من الضروري رشوة القضاء، لكنني أعتقد أن كثيرين من أعضاء مجلس الشيوخ، التشيلي للوارد، قد جنوا بعض النفع من جزء من هذه الأموال مقابل أصواتهم، وأنها خدمت في منع الحكومة من رفض الاستماع إلي احتجاجاتنا ومطالبنا ».
(Hernán Ramírez Necochea, *Op. Cit.*) .

(٢٠) كانت ذات الشركتين تصنعان المعدن التشيلي في مصانعها البعيدة، وتظهر أناكوندا أمريكان براس Anaconda American Brass، وأناكوندا واير أند كابل Anaconda Wire and Cable وكوبنيكوت واير أند كابل Kennecott Wire and Cable بين الشركات الرئيسية للبرونز والأسلاك في العالم كله.

José Cademartori, ***La Economía Chilena,*** Santiago de Chile, 1968.

(21) R. I. Grant - Suttie, ***Sucedáneos del Cobre***, en Finanzasy Desarrollo, Revista del FMI Yel BIRD, Washington, Junio de 1969.

(22) Mario Veray Elmo Catalan, ***La Encrucijade del Cobre***, Santiago de Chile, 1965.

(٢٣) وصفته النيويورك تايمز الصادرة في ١٣ أغسطس ١٩٦٩ بهذه العبارة، حين كانت تصف بنشوة الإجازة التي قضاها دوق ودوقة وندسور في القلعة التي ترجع إلي القرن السادس عشر والتي يملكها باتينيو عند مشارف لشبونة. «يروق لنا أن نمنح الخدم بعض الهدوء والسلام»، إعترفت السيدة بذلك، وهي تشرح لشارلوت كورتيس برنامج اليوم.

بعد ذلك، يحين وقت الإجازة في الجبل في سويسرا، اندفع المصورون والصحفيون ليقفزوا على الدوقين وعلى فناني الموضة في سان موريتز. فقدت مليونيره في الخمسين لتوها زوجها الثاني، نائب رئيس شركة فورد، وتبتسم أمام فلاشات المصورين : تعلن زواجها القريب لشاب يمسكها من ذراعها وينظر بعيون حانقة، وإلي جانبهما زوج آخر من أعضاء المجتمع الراقي. الرجل قصير القامة ذو ملامح هندية، حواجب كثيفة، وعيون قوية، وأنف أفطس، ووجنات بارزة. مازال أنتينور باتينيو يبدو بوليفياً. وفي إحدي المجلات يظهر انتينور باتينيو متنكراً في زي أمير شرقي، يرتدي العمامة وكل شيء بين عدة أمراء حقيقيين إجتمعوا في قصر البارون الكسيس دي ريديه : هم أميرة الدنمارك مارجاريتا، والأمير إنريكي، وماريا بيادي سابويا وابن أختها الأمير ميجيل دي بوربون - بارما، والأمير

لويكوليتس وغيرهم من العمال.

(٢٤) حين أعلن الجنرال ألفريدو أوبادو Alfredo Ovado ، في يوليو عام ١٩٦٦، أنه قد توصل إلي إتفاق مع شركة كلوخنر Klochner الألمانية لإقامة أفران الدولة، قال انه سيكون ثمة مصير جديد «لتلك المناجم البائسة التي لم تفد، حتي الآن، سوي في فتح فجوات في رئات إخواننا عمال المناجم، وهؤلاء الرجال الذين يهبون حياتهم من أجل المعدن، كما يقول سيرخيو الماران (*Elpodery La caída. Elesta'no en La Historia de Bolioia*, La Paz - Cochabamba, 1967) ، «لا يملكونه، ولم يملكوه أبداً، لا قبل ولا بعد ١٩٥٢، لأن ما يحدث هو أن التصدير لا يساوي شيئاً في الاستفادة المباشرة منه ما لم يكن في شكل سبائك لامعه. والمعدن، هذا التراب الثقيل ذي المظهر الطيني، لا يفيد بالتأكيد في شئ سوي أن يُلقي في فوهة فرن».

وقد حكي الماران قصة أحد الصناعيين، هو ماريانو بيرو Mariano Peró ، الذي شن حرباً بمفرده، علي طول أكثر من ثلاثين عاماً، حتي يُكرر التصدير البوليفي في أورورو وليس في ليفربول. وفي عام ١٩٤٦، وبعد أيام قليلة من سقوط الرئيس الوطني جوالبرتو بياروِيل Gualberto Villarroel ، دخل بيرو إلي القصر المحترق ، جاء ليأخذ سبيكتين من القصدير. كأنتا أول سبيكتين تنتجان من معمل صهره في أورورو، ولم يعد ثمة معني في أن يستمر هذان الرمزان، اللذان يجسدان الأمة، في تزيين مكتب رئيس الجمهورية. كان بياروِيل قد شنق علي عمود نور في ميدان موريو وأعيدت سلطة الطغمة الأوليجاركية بدءاً من سقوطه. أخذ ماريانو بيرو السبيكتين ومضي بهما . وكانتا ملطختين بدم جاف.

(٢٥) «حين أحس بنفسي، أجدني سكران. أري الناس ثلاثة، أو أربعة. لا أستطيع أن آكل وحدي، أنا طفل، أنا، طفله . أن ساتورنينو كوندوري، البناء العجوز لمعسكر عمال منجم القرن العشرين، مازال ممدداً منذ أكثر من ثلاث سنوات علي فراش في مستشفي كاتابي. وهو أحد ضحايا مذبحة ليلة القديس خوان، عام ١٩٦٧ . ولم يكن حتي قد احتفل علي الاطلاق. فقد عرضوا أن يدفعوا له ثلاثة أضعاف إذا عمل يوم السبت ٢٤. وهكذا قرر، بخلاف الآخرين جميعاً، الآ ينخرط في اللهو والخمر . وأوي إلي فراشه مبكراً . وفي تلك الليلة حلم بأن فارساً يقذفه بالشوك في جسمه : «قذفني بالشوك خمخمة» . استيقظ عدة مرات، لأن مطر الرصاص انطلق علي المعسكر منذ الخامسة صباحاً». تحطم جسمي، تفتت، وأمسكت بخناقي شبه رعشة. كنت مفزوعاً. كنت مفزوعاً، هكذا، قالت لي زوجتي : هيا، اهرب بجلدك. لكنني، ماذا فعلت؟ لم أخرج إلي أي مكان . هيا . إذهب . إذهب » قالت لي. كان ثمة إطلاق رصاص بالليل. ماذا يكون ذلك، ماذا يكون، تاتا – تاتا – تاتا –

www.ibtesama.com/vb

تاتا . وأنا أفيق وأنام على فترات، وحتى بهذه الطريقة لم أقلت. قالت لي زوجتي : حسنا إذهب، حسناً إذهب . إهرب. ماذا سيفعلون بي، أنا بناء خصوصي، ماذا سيفعلون بي». إستيقظ حوالي الثامنة صباحاً . إنتصب فوق السرير . إخترقت الرصاصة السقف، وإخترقت قبة إمرأته وبعدلت في جسمه ومزقت عموده الفقري».

(26) Sergio Almaraz Paz, ***Op. Cit.***

(27) Salvador de La Plaza, en el Volumen Colective ***Perfiles de la Economia Venezolana***, Caracas, 1964.

(28) Osny Duarte Pereira, ***Ferro e Independencia. Um Desafio a Dignidade Nacional***, Rio de Janeiro, 1967.

(29) ***Immovable Mountains***, en Fortune, Abril de 1965.

(30) Citado Por Mário Pedrosa, ***A Opcao Brasileira***, Rio de Janeiro, 1966.

(31) De Lyndon Johnson a Rainieri Mazzili, 2de Abril de 1964, Versión de Associated Press.

(32) Según Infomé el Diario O Estado de Sáo Paulo. 4de maye de 1964.

(33) José Stacchini, ***Mobiliza,cáo de audácia***, Sáo Poulo, 1965.

(34) Philip Siekman, ***When Executives Turned Revolutionaires***, en Fortune, Julio de 1964.

(٣٥) راجعوا الشهادات أمام لجنة الشئون الخارجية بمجلس نواب الولايات المتحدة، التي أوردها هاري ماجدوف في عمله المذكور سابقاً، وكذلك المقال المهم ليوجين ميثفين Engene Methvin ، في مختاراته من ريدرز دايجست بالاسبانية، عدد ديسمبر ١٩٦٦ : «وحسب رواية ميثفين، فإنه بفضل الخدمات العديدة للمعهد الأمريكي لتطوير النقابة الحرة، ومقره واشنطن، إستطاع الانقلابيون تنسيق تحركات قواتهم بالبرق، وكانا النظام العسكري الجديد المعهد الأمريكي لتطوير النقابية الحرة بتعيين أربعة من خريجيه دليقوموا بتطهير النقابات التي يسيطر عليها العمر .... ».

(٣٧) وفق البيانات التي نشرتها منظمة الدول المصدّرة للبترول:

Francisco Mieres, ***El Petróleo y la Problemática Estructural Venezolano***, Caracas, 1969.

(٣٨) تقرير مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة، الوقائع السرية للكارتل البترولي، بوينوس آيرس، ١٩٦١.

www.ibtesama.com/vb

. *Actas Secretas del Cártel Petrolero*, Buenos Aires, 1961, y Harvey O'connor, ***El Imperio del Petróleo***, La Habana, 1961.

(39) Paul A. Baran y Paul M. Sweezy, ***El Capital Monopolista***, México, 1970.

(40) Francisco Mieres, ***Op. Cit.***

(41) Michael Tanzer, ***The Political Economy of International Oil and The Underdeveloped Countries***, Boston, 1969.

(42) Harvey O'connor, ***La Crisis Mundial del Petróleo***, Buenos Aires, 1963.

– ومازالت هذه الظاهرة مألوفة في بلدان عديدة . ففي كولومبيا، مثلاً، حيث يصدر البترول بحرية ودون دفع أية ضرائب، تشتري معامل التكرير الحكومية البترول الكولومبي من الشركات الأجنبية بزيادة ٣٧ في المائة عن السعر العالمي، وعليها أن تدفع بالدولار (Raúl Alameda Ospina en . Larevista Esquina, Bogotá, Enere de '68)

(43) Jesús Silva Herzog, ***Historia de la Expropia Ción de las Empresas Petroleras***, México, 1964.

(44) Vivian Trías, ***Imperialismo y Petróleo en el Uruguay***, Montevideo, 1963.

– راجع كذلك خطاب النائب إنريكي إرّو Enríque Erro في محضر جلسات مجلس النواب، رقم ١٢١١، مجلد ٥٧٧، مونتفيديو، ٨ سبتمبر ١٩٦٦.

(٤٥) تحتل بتروبراز المركز الأول ضمن قائمة أكبر خمسمائة شركة، والتي نشرت في :

- Conjuntura Economica, Vol 24, Núm 9, Rio de Janeiro, 1970.

(٤٦) تصريحات المهندس مارسيو ليتي كارساريتو، في :

- Correio da Manhá, Rio de Janeiro, 28 de Enero de 1967.

(٤٧) نشرت كوريّو دامانيا Correio da Manhá جزءاً كبيراً من الوثيقة في طبعتها الصادرة يوم ١٩ فبراير ١٩٦٧.

(48) René Zavaleta Mercado, ***Bolivia. El Desarrollo de la Conciencia Nacional***, Montevideo, 1967.

(٤٩) لم يقصر السناتور لونج نعتاً في وصف ستاندارد أويل : فقد دعاها مجرمة، وصالحة شرهة ولصة، وناقلة محلية، وناقلة أجنبية، ومتآمرة دولية، وعصابة من قاطعي الطرق واللصوص المتوحشين، ومجموعة من المخربين واللصوص.

www.ibtesama.com/vb

وأعيد نشر ذلك في مجلة Guarania ، بوينيس ايرس ، نوفمبر ١٩٣٤ .

(٥٠) تتعدد الأمثلة في التاريخ القريب أو البعيد. ففي ٢٨ ديسمبر ١٩٥٠، أبلغ ايرفينج فلورمان Irving Florman ، سفير الولايات المتحدة في بوليفيا دونالد دوسون Donald Dawson ، من البيت الأبيض بأنه : «منذ وصلت إلي هنا ، عملت بدأب في مشروع الفتح الكامل لصناعة البترول البوليفية لتدخل الشركات الخاصة الأمريكية الشمالية، وفي مساعدة برنامجنا للأمن القومي علي نطاق واسع». وكذلك : «عرفت أن سيادتك سيهمك سماع أن صناعة بترول بوليفيا وكل هذه البلاد برمتها مفتوحتان جيداً الآن أمام المبادرة الحرة الأمريكية الشمالية. لهذا، فإن بوليفيا هي أول بلد في العالم قام بإلغاء التأميم، أو بتأميم مقلوب، وإنني لأحس بالفخر لأنني استطعت إتمام هذه المهمة لبلدي وللإدارة». وقد أعيد نشر الصورة الفوتوغرافية لهذا الخطاب المأخوذ من مكتبة هاري ترومان، في مجلة NACLA Newslrtter ، في نيويورك، في فبراير عام ١٩٦٩.

(٥١) استجواب مارثيلو كيروجاسانتا كروث، يومي ١١ و ١٢ أكتوبر ١٩٦٦ في مجلس النواب، نشر المجلة التشريعية Revista Jurídica ، طبعة غير عادية، كوتشابامبا، ١٩٦٧.

(٥٢) حين تفجرت الفضيحة، لم تلتزم سفارة الولايات المتحدة بالصمت الحكيم. فقد بلغ الأمر بأحد موظفيها أن يؤكد عدم وجود أي أصول لاتفاقية تالارا :

(Richard N. Goodwin, ***"El Conflicto Con La IPC : Carta de Perú"***, Reproducido de The New Yorker Por Comercio Exterior, México, Julio de 1969.)

(53) Georgie Anne Geyer, ***Seized U.S. Oil Firm Made Napalm***, en el New York Post, 7 de Abril de 1969.

(٥٤) من أجل كتابة هذا الفصل، استخدم المؤلف علاوة علي الكتب المذكورة أنفا لهارفي أوكونور وفرنثيسكو ميريس، الكتب التالية :

- Orlando Araújo, ***Operacion Puerto Rico Sobre Venezuela***, Caracas, 1967, Federico Brito, ***Venezuela Siglo xx***, La Habana, 1967; M. A. Falcon Urbano, ***Desarrolloe Industrialización de Venezuela***, Caracas, 1969; Elena Hochman, Héctor Mujica y Otros, Venezuela 1.^{0}, Caracas, 1963; William Krehm, ***Democracia y Tiraníasen el Caribe***, Buenos Aires, 1959; Los Ensayos de D. F. Maza Zavala, Salvador de la Plaza, Pero, Pedro Esteban Mejía y Leonardo Montiel Ortega en el Volumen Citado en

www.ibtesama.com/vb

la Nota 27; Rodolfo Quintero, ***La Cultura Del Petróleo***, Caracas, 1968; Domingo Alberto Rangel, ***El Proceso Del Capitalismo Contemporáneo en Venezuela***, Caracas, 1968; Arturo Uslar Pietri, tiene Un Porvenir Lajuventud Venezolana ?, en Cuadernos Americanos, México, Marzo - Abril de 1968; y Naciones Unidas - CEPAL, ***Estudio Económico de America Latina***, 1969, Nueva York - Santiago de Chile, 1970.

(55) Time, Edición Para América Latina, 11 de Septiembre de 1953.



www.ibtesama.com/vb

الباب الثانى

التنمية رحلةٌ غرقاها
أكثر من مُبحِريهـا

www.ibtesama.com/vb

حكاية الموت السابق للأوان

■ البوارج البريطانية تحمي الإستقلال من الرَّبو

عندما كان جورج كاننج، داعية الامبراطورية البريطانية، يحتفل في عام ١٨٢٣ بانتصاراتها التي حققتها على صعيد عالمي، وجد القائم بالأعمال الفرنسي نفسه مضطراً إلى ابتلاع المهانة المتضمنة في هذه الملاحظة: "ليكن من نصيبكم مجد الانتصار الذي تتلوه الكارثة والخراب، وليكن من نصيبنا التجارة غير المجيدة في منتجات الصناعة وازدهار لايكف عن النمو ... لقد مضى عهد الفروسية، وخلفه عهد الاقتصاديين ومحاسبين". كانت لندن تدخل فترة ابتهاج طويلة؛ كانت الهزيمة قد لحقت بنابليون قبل ذلك ببضع سنوات، وكان الستار ينفتح على عهد السلام البريطاني. وفي أمريكا اللاتينية، جرى تأمين قوة كبار ملاك الأرض وتجار الموانئ الأغنياء إلى الأبد عن طريق الاستقلال، في مقابل الخراب الوشيك للبلدان التي وحدت حديثاً. وكانت المستعمرات الاسبانية السابقة والبرازيل أسواقاً مزدهرة بالنسبة إلى المنسوجات الانجليزية والجنيهات الاسترلينية التي حققت أرباحاً كبيرة. ولم يخطئ كاننج عندما كتب في عام ١٨٢٤: "لقد تحقق الفعل، وانغرست الأبرة، وأصبحت أمريكا الاسبانية حرة؛ وإذا لم ندبر أمورنا تدبيراً سيئاً محزناً، فسوف تكون انجليزية"[1].

لقد أدى المحرك البخاري، والنول الآلي، وتحسين آلات النسيج إلى المسارعة بنضج الثورة الصناعية البريطانية. وقد تضاعف عدد المصانع والبنوك؛ وأدى المحرك الذي يعمل عن طريق الاحتراق الداخلي إلى تحديث الملاحة وأبحرت السفن إلى أقصى المناطق. مما أدى إلى توسيع الصناعة البريطانية. وكان الاقتصاد البريطاني يدفع المنسوجات القطنية ثمناً لجلود ريو دي لابلاتا، وأسمدة ونترات البيرو، ونحاس تشيلي، وسكر كوبا، وبن البرازيل. وطوال القرن التاسع عشر، كانت الصادرات الصناعية، ورسوم الشحن، والتأمين، والفوائد على القروض، وأرباح الاستثمارات تغذي الازدهار البريطاني. والواقع أن جانباً كبيراً من التجارة المشروعة بين اسبانيا ومستعمراتها، قبل حروب الاستقلال، كان تحت سيطرة بريطانية - علاوة على التدفق المتواصل للسلع المهربة إلى السواحل الأمريكية اللاتينية، والتي كانت تجارة العبيد تشكل ستاراً لها من الناحية العملية، ولم تكن الغالبية الساحقة من السلع المارة عبر الجمارك الأمريكية

www.ibtesama.com/vb

اللاتينية اسبانية. والواقع أن احتكار اسبانيا لم يوجد قط: "لقد خسر المتروبول المستعمرة بالفعل قبل عام ١٨١٠ بوقت طويل، ولم تكن الثورة غير اعتراف سياسي بهذه الحقيقة الواقعية"[٢].

كانت القوات البريطانية قد استولت على ترينداد دون أن يقتل منها غير جندي واحد، لكن قائد الحملة، السير رالف أبيركرومبي، كان واثقاً من أن الفتوحات العسكرية الأخرى في أمريكا الاسبانية لن تكون بهذه السهولة. فبعد ذلك بوقت قصير، فشلت الغزوات البريطانية لريو دي لابلاتا. وقد أكدت الهزيمة رأي أبيركرومبي والخاص بعدم فعالية الحملات المسلحة وتضوع ساعة الدبلوماسيين والتجار وأصحاب البنوك: إن نظاماً امبيرالياً جديداً في المستعمرات الاسبانية سوف يتيح لبريطانيا الفرصة للاستحواذ على تسعة أعشار التجارة الأمريكية الأسبانية[٣]. كانت البلاد الأمريكية اللاتينية تتأجج بحمى الاستقلال؛ وبعد عام ١٨١٠، طبقت لندن سياسة ملتوية وذات وجهين كانت تتقلب تبعاً للحاجة إلى تأمين سيادة التجارة البريطانية، والحيلولة دون سقوط أمريكا اللاتينية في أيدي الولايات المتحدة أو فرنسا، وتفادي العدوى اليعقوبية في البلدان حديثة الاستقلال.

وعندما تشكل المجلس الثوري في بوينوس أيريس في ٢٥ مايو ١٨١٠، حيته البوارج البريطانية بدفعة من طلقات المدافع من الريو، وأدلى قبطان البارجة "موتين" بكلمة حارة نيابة عن صاحب الجلالة، وأدخل الاحتفال الفرح إلى قلوب البريطانيين. لم تنتظر بوينوس ايريس أكثر من ثلاثة أيام لكي تلغي بعض القيود على التجارة مع الأجانب؛ وبعد ذلك باثني عشر يوماً خفضت الضرائب على المبيعات الخارجية من الجلود والدهون أو الشحوم الحيوانية من نسبة ٥٠ في المائة إلى نسبة ٧,٥ في المائة. وبعد ذلك بستة أسابيع، ألغي الحظر المفروض على تصدير العملات الذهبية والفضية، حتى يتسنى تدفقها بسهولة إلى لندن. وحلت إدارة ثلاثية محل المجلس في سبتمبر ١٨١١، وجرى مرة أخرى تخفيض الضرائب المفروضة على الصادرات والواردات وإلغاؤها في بعض الحالات. وبعد ١٨١٣، عندما أعلنت الجمعية الوطنية أنها السلطة ذات السيادة، جرى إعفاء التجار الأجانب من الالتزام ببيع سلعهم من خلال رجال أعمال أرجنتينيين: "أصبحت التجارة حرة حقا"[٤] وفي عام ١٨١٢، أبلغ التجار البريطانيون وزارة الخارجية البريطانية بأنهم قد نجحوا في إحلال المنسوجات البريطانية محل المنسوجات الألمانية والفرنسية؛ وقد نجحوا أيضاً في احلالها محل إنتاج مصانع

www.ibtesama.com/vb

النسيج الأرجنتينية، والذي خنقه ميناء التجارة الحرة. وقد حدث الشيء نفسه مع تنويعات في أماكن أخرى من أمريكا اللاتينية.

لقد تدفق من يوركشاير، ولانكشاير، وتشيشيوت هيلز، ويلز تيار لاينقطع من المنسوجات القطنية ومنسوجات الصوف ومن السلع المصنوعة من الحديد والجلد، والخشب، والخزف. وأغرقت أنوال مانشستر، ومسابك شيفيليد ومعامل خزف ووريشستر وستافورد شاير الأسواق الأمريكية اللاتينية. وأدت التجارة الحرة إلى إثراء الموانئ التي تعيا على التصدير، ورفعت إلى عنان السماء تبذير أوليجاركيات عازمة على التمتع بكل ترف معروف، لكنها دمرت الصناعة المحلية الناشئة وأحبطت توسع السوق الداخلية. كانت بعض الصناعات الضعيفة والمتخلفة من الناحية التقنية قد نمت في المستعمرات رغم القيود التي فرضتها المتروبول، وكانت آخذة في الصعود عشية الاستقلال مع ارتخاء القيود الجائرة التي فرضتها إسبانيا ومع مساعدة الحرب في أوروبا على إيجاد نقص في الامدادات، وفي السنوات الأولى للقرن التاسع عشر، كانت المصانع تتماثل للشفاء من الضربة التي وجهها إليها المرسوم الملكي لعام ١٧٧٨ والذي أجاز التجارة الحرة بين الموانئ الاسبانية والأمريكية. وكان طوفان السلع الأجنبية الذي ترتب على ذلك قد سحق إنتاج المستعمرات من المنسوجات والخزف، والسلع المعدنية، ولم يكن أمام الحرفيين وقت طويل لمعاودة الوقوف على أقدامهم: ثم فتح الاستقلالُ الباب على مصراعيه أمام المنافسة الحرة من جانب الصناعات الأوروبية المتقدمة بالفعل. وفي ظل السياسات الجمركية المتذبذبة التي اتبعتها حكومات الاستقلال، واصلت الصناعات الأمريكية اللاتينية مسيرتها المترنحة، حيث كانت إحدى رجليها في القبر وحيث لم تكن أمامها إمكانية لنمو متواصل طويل الأجل.

■ أبعادُ قتل الصناعة في مهدها

في مستهل القرن التاسع عشر، قَدَّرَ الكسندر فون همبولت قيمة المصانع المكسيكية – ومعظمها مصانع للنسيج – بنحو سبعة أو ثمانية ملايين بيسو. وكان يجري إنتاج الملابس المصنوعة من الصوف ومن القطن في ورش متخصصة: كان في كيريتارو أكثر من مائتي نول وألف وخمسمائة عامل؛ وكان ألف ومئتان من عمال نسيج القطن يعملون في بويبلا[٥]. وفي البيرو، لم تكن المنتجات الرديئة التي كانت المستعمرة تنتجها

www.ibtesama.com/vb

على مستوى جودة المنسوجات التى كان السكان الأصليون ينتجونها فى زمن بيثارو، لكن أهميتها الاقتصادية كانت عظيمة الغاية"[٦]. وكانت الصناعة تستند إلى تسخير الهنود الذين كانوا يُحتجزون فى الورش منذ ما قبل الفجر وحتى وقت متأخر من الليل. لقد كان هذا التطور - الذى قضى عليه الاستقلال - هشاً لكنه كان يتميز بثقل معين فى أياكوتشو، وكاكاموروسا، وتارما؛ أما جماعة باكايكاسا، "التى شكلت مؤسسة واحدة عظيمة للنسيج تشمل اكثر من ألف عامل"، فلم يعد لها وجود، بينما تتلاشى من الوجود باوكاركولا، التى كانت تزود منطقة واسعة بالبطانيات المصنوعة من الصوف "وفى الوقت الحاضر لايوجد هناك معمل واحد"[٧]. وفى تشيلى، إحدى ممتلكات أسبانيا الأكثر بعداً، كانت العزلة مؤاتية لتطور النشاط الصناعى منذ بدايات حياة المستعمرة. لقد كان لديها معامل الغزل، ومعامل النسيج، ومدابغ للجلود، وكانت جميع سفن بحار الجنوب متجهزة بتجهيزات من حبال الأشرعة والصوارى التشيلية، وكانت تشيلى تنتج سبائك معدنية، من أوانى التقطير والمدافع إلى الحلى، وأدوات المائدة الجميلة، والساعات، وكانت تبنى الزوارق والمركبات[٨]. وفى البرازيل، أيضاً، أدت الواردات الأجنبية إلى محو صناعات النسيج والصناعات المعدنية، التى كانت قد خطت خطواتها الأولى المتواضعة فى القرن الثامن عشر، وكانت كلتا الصناعتين قد تمكنتا من الإزدهار رغم العقبات التى فرضتها لشبونة، لكن الملكية البرتغالية، التى جرى تنصيبها فى ريو دى جانييرو، كانت بعد عام ١٨٠٧ العوبة بأيدى البريطانيين وكانت قوة لندن من نوع مختلف. وقد كتب كايو برادو فقال أنه "قبل فتح الموانئ، كانت نواقص التجارة البرتغالية توفر حاجزاً واقياً لصناعة محلية صغيرة - صحيح أنها كانت صناعة حرفية بائسة، إلاَّ أنها كانت كافية لإشباع جانب من الطلب المحلى. ولم يكن بوسع هذه الصناعة أن تصمد أمام المنافسة الحرة من الخارج، ولو فيما يتعلق بأقل المنتجات شأناً"[٩].

وكانت بوليفيا أهم مركز للنسيج تابع لريو دى لابلاتا. ووفقاً لما ذكره فرانثيسكو دى بيدما، حاكم الولاية، فقد كان ثمانون ألف إنسان يعملون فى كوتشابامبا فى أواخر القرن فى صنع الملابس الصوفية والقطنية ومفارش الموائد. كما كانت أورورو ولاباث تحوزان مصانع توفر، جنباً إلى جنب المصانع الموجودة فى كوتشابامبا، البطانيات، والبونشوات، والملابس الداخلية المدفئة للسكان، وللقوات النظامية، وللحاميات على الحدود. ومن موخوس وتشيكيتوس وجوارايوس كانت ترد أجمل الملابس المصنوعة من الكتان ومن القطن، والقبعات المصنوعة من القش، وفراء البيكونيا والحملان، والسيجار.

www.ibtesama.com/vb

يشهد كتاب صدر بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لاستقلال بوليفيا بأن كل هذه الصناعات قد اختفت في وجه المنافسة من جانب منتجات أجنبية مماثلة[١٠].

وفي الأرجنتين، كان الساحل هو المنطقة الأكثر تخلفاً والأقل كثافة من حيث عدد السكان إلى أن نقل الاستقلال مركز الجذب الاقتصادي والسياسي من الداخل إلى بوينوس أيريس. وفي بداية القرن التاسع عشر لم يكن يحيا في بوينوس أيريس، وسانتا في، وانتري ريوس غير عشر السكان[١١]. وكانت صناعة أهلية جنينية قد أخذت تتطور ببطء في الوسط والشمال في الوقت الذي لم تكن توجد فيه "حرفة أو صناعة واحدة" على الساحل، كما لاحظ لاراميندي، المسئول عن الشئون المالية، في عام ١٧٩٥. وكانت ورش النسيج تنتج ثلاثة أنواع من البونشوات، وكانت المصانع تنتج مربات متينة، والسيجار، والسجائر، والأحذية والأخمصة الجلدية في توكومان وسانتياجو ديل ايستيرو - وكلاهما اليوم جيبان للتخلف. وكانت كل أنواع الملابس، والمنسوجات الصوفية الجميلة، وملابس رجال الدين السوداء تجئ من كاتاماركا؛ وكانت كوردوبا تنتج أكثر من سبعين ألف بونشو، وعشرين ألف بطانية، وأربعين ألف ياردة اسبانية من الملابس الداخلية في السنة، جنباً إلى جنب الأحذية والسلع الجلدية وأحزمة الابحار وعارضات الأشرعة، والسجاد والجلد القرطبي. وكانت المدابغ وورش السراجة المهمة في كورينتس. وقد اشتهرت سالتا بسروجها الجميلة؛ وكانت مندوثا تنتج مابين مليوني وثلاثة ملايين لتر من الخمور سنوياً، منافسة في ذلك خمور الأندلس؛ وكانت سان خوان تقطر ٢٥٠,٠٠٠ لتر من الروم سنوياً؛ وكانت مندوثا وسان خوان، الواقعتان بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ، "حلق" التجارة الأمريكية الجنوبية[١٢].

كان الوكلاء التجاريون من مانشستر، وجلاسجو، وليفربول يجوبون أرجاء الأرجنتين ويعدون نماذج من بونشوات سانتياجو وكوردوبا وسلع كورينتيس الجلدية، إلى جانب الركابات الخشبية المحلية. وكانت بونشوات الأرجنتين تكلف سبعة بيسوات، بينما كانت بونشوات يوركشاير تكلف ثلاثة بيسوات. والحال أن صناعة النسيج الأكثر تقدماً في العالم سرعان مافازت على منتجات الأنوال المحلية، وقد حدث الشئ نفسه مع الأحذية طويلة الرقبة، والمهمازات، والمواجز الحديدية، واللجامات، بل والإبر. وقد حاق الخراب بمقاطعات الأرجنتين الداخلية وسرعان ماهبت ضد ديكتاتورية ميناء بوينوس أيريس. كان كبار التجار (ايسكالادا، بيلجرانو، بورييدون، بيهتيس، لاس هيراس، ثيريينيو) قد تولوا السلطة المنتزعة من اسبانيا[١٣]. وقد مكنتهم التجارة من شراء

www.ibtesama.com/vb

المنسوجات المريرية والمدى الانجليزية، وملابس لوفييه الجميلة، ومخرمات الفلاندرز، والسيوف السويسرية، والجن الهولندي، ولحوم أفخاذ خنازير ويستفاليا، وسيجار هامبورج، وفي مقابل ذلك، كانت الأرجنتين تصدر الجلود، والشحوم الحيوانية، والعظام، واللحوم المملحة، وقد وسع مربّو الماشية في مقاطعة بوينوس أيريس أسواقهم بفضل التجارة الحرة. والحال أن وودباين باريش، القنصل البريطاني في لابلاتا، قد وصف في عام ١٨٣٧ الجاوشو على النحو التالي: "خذوا كل معداته - تأملوا كل متعلقاته - ما الذي ليس بريطانياً فيها فيما عدا الأشياء المصنوعة من الجلد الخام؟ إن كانت زوجته ترتدي عباءة، فمن المرجح بنسبة عشرة إلى واحد أنها قد صنعت في مانشستر؛ إن الغلاية التي يطهو فيها طعامه، والآنية الخزفية التي يأكل منها، والسكين، والبونشو الذي يرتديه، والمهماز، واللجام كلها مستوردة من انجلترا"[١٤]. بل إن الأرجنتين كانت تستورد أحجار أرصفتها من بريطانيا.

وحوالي الفترة ذاتها، ذكر جيمس واطسون ويب، سفير الولايات المتحدة في ريو دي جانييرو: "في جميع مزارع البرازيل، يرتدي السيد وعبيده ملابس انتجها العمل الحر، وتسعة أعشارها بريطانية. إن بريطانيا تقدم كل الرساميل اللازمة للتحسينات الداخلية في البرازيل، وتنتج كل الأدوات التي يستخدمها الجميع، من المجراف إلى كل مايفوقه أهمية، كما تنتج كل السلع الترفيّة والعملية تقريباً، من الدبّوس إلى أغلى الملابس. إن المنتوجات الخزفية البريطانية، والسلع البريطانية المصنوعة من الزجاج، أو الحديد، أو الخشب منتشرة انتشار المنتوجات البريطانية المصنوعة من الصوف والملابس القطنية البريطانية. وتزود بريطانيا العظمى البرازيل بسفنها البخارية والبحرية، وتمهد وتصون شوارعها، وتضيء مدنها بالغاز، وتبني سككها الحديدية، وتستغل مناجمها، وهي ممولها، وتنشئ شبكة اتصالاتها التلغرافية، وتنقل بريدها، وتصنع أثاثها، ومحركاتها، وعرباتها..."[١٥].

لقد أدى انطلاق التجارة الحرة إلى انفلات زمام تجار الميناء: ففي تلك السنوات كانت البرازيل تستورد أيضاً التوابيت المكسوّة بالفحل، لاستقبال الموتى، وسروج الركوب، وثريات الكريستال، والكاسارولات ومزلجات التزحلق على الجليد - والتي تعد أكثر الأشياء غرابة بالنسبة إلى السواحل الاستوائية؛ وكذلك محافظ الجيب (مع أن البرازيل لم تكن لها عملات ورقية) وكمية يتعذر تبريرها من الأدوات الحسابية[١٦]. لقد فرضت معاهدات التجارة والملاحة الموقعة في عام ١٨١٠ ضريبة على الواردات

www.ibtesama.com/vb

الانجليزية أقل من الضريبة المفروضة على الواردات البرتغالية وقد ترجمت نصوصها من الانجليزية ترجمة شنيعة بحيث أن كلمة "policy" (سياسة) مثلاً، قد حولت بسحر ساحر إلى الكلمة البرتغالية المقابلة لكلمة "Police" (شرطة)[١٧]. وكان البريطانيون في البرازيل يتمتعون بنظام قضائي خاص بهم مما حررهم من ولاية المحاكم القومية عليهم: لقد كانت البرازيل "عضواً غير رسمي في الامبراطورية الاقتصادية لبريطانيا العظمى"[١٨].

وقد شهد رحالة سويدي في بالباراييسو في منتصف القرن البذخ والتفاخر اللذين انتجتهما التجارة الحرة في تشيلي. وقد كتب يقول: "إن السبيل الوحيد إلى الصعود في العالم هو الخضوع لإملاءات مجلات الموضة الباريسية، للفراك الأسود وكل الاكسسوارات المرتبطة به .. إن السيدة تشتري قبعة جديدة تجعلها تشعر بأنها باريسية بشكل ظاهر العيان، بينما يرتدي الزوج ربطة عنق غالية، غير مرسلة ويتخيل أنه قد بلغ ذروة الثقافة الأوروبية"[١٩]. وكانت ثلاث أو أربع احتكارات بريطانية قد استولت على سوق النحاس التشيلي وتلاعبت بالأسعار بما يتمشى مع أنسب مصالح المسابك في سوانسي، وليفربول، وكارديف. وقد أبلغ القنصل البريطاني العام حكومته في عام ١٨٣٨ بـ "النمو الهائل" في مبيعات النحاس، المصدر "أساساً، وإن لم يكن بالكامل، في سفن بريطانية أو لحساب بريطانيين"[٢٠]. وقد احتكر رجال الأعمال البريطانيون التجارة في سانتياجو وبالباراييسو، وكانت تشيلي السوق الثانية بين أهم أسواق المنتجات البريطانية في أمريكا اللاتينية.

إن موانئ أمريكا اللاتينية الكبيرة، والتي كانت ثروات أراضيها وباطن أراضيها تمر بها في طريقها إلى مراكز القوة البعيدة، كانت تبنى كأدوات لفتح البلدان التي تخصّها والسيطرة عليها، وكقنوات لاستنزاف دخل الأمم. وبينما كانت الموانئ والعواصم تحاول أن تبدو مثل باريس أو لندن، كانت الصحراء الجرداء تمتد خلفها.

■ الحماية والتجارة الحرة في أمريكا اللاتينية: تحليق لركاس آلامان الذي لم يدم طويلاً

أدى اتساع الأسواق الأمريكية اللاتينية إلى تسارع تراكم رأس المال في رياض رعاية الصناعة البريطانية. لقد كان المحيط الأطلسي لبعض الوقت الطريق الرئيسي للتجارة العالمية وقد استثمر البريطانيون استثماراً ذكياً موقع جزيرتهم - المحاطة

www.ibtesama.com/vb

بالموانىء والواقعة فى منتصف الطريق بين بحر البلطيق والبحر المتوسط، والمواجهة للسواحل الأمريكية. كانت بريطانيا تنظم نظاماً عالمياً وكانت تتحول إلى مصنع هائل يزود المعمورة بالمنتجات: لقد كان العالم كله يزودها بالمواد الخام ويحصل منها على السلع المصنعة التى تنتجها. وكانت الامبراطورية تملك أكبر ميناء وأقوى جهاز مالى فى عصره، وأعلى مستوى من مستويات التخصص التجارى، واحتكاراً عالميا فى مجالى التأمين والشحن، وسيطرة على سوق الذهب الدولية. وقد أشار فردريك ليست، أبو الاتحاد الجمركى الألمانى، ذات مرة، إلى أن التجارة الحرة هى السلعة الرئيسية التى تصدرها بريطانيا. وما من شئ أثار غضب البريطانيين الشديد كالحماية، وقد عبروا أحياناً من هذا الغضب بلغة عنيفة، مثلما حدث خلال حرب الأفيون ضد الصين. لكن المنافسة الحرة لم تصبح حقيقة ظاهرة فى نظرهم إلا بعد أن تأكدوا من أنهم القوة الأقوى، وبعد أن طوروا صناعة نسيجهم تحت مظلة أكثر تشريعات الحماية صرامة فى أوروبا. ففى الأزمنة الأولى الصعبة، عندما كانت الصناعة البريطانية ماتزال بعيدة عن الصدارة، كان يحكم على الانجليزى الذى يضبط وهو يصدّر الصوف الخام بقطع يده اليمنى، وكان يشنق إذا عاود اقتراف هذه الخطيئة. وكان من المحظور دفن جثة دون الحصول سلفاً على شهادة من قسيس الأبرشية بأن الكفن جاء من مصنع بريطانى[٢٢].

وقد كتب ماركس يقول: "إن جميع الظواهر المدمرة التى تقود إليها المنافسة غير المحدودة فى بلد واحد، يعاد إنتاجها بمقاييس أكثر جسامة فى السوق العالمية"[٢٣]. وقد حدث دخول أمريكا اللاتينية فى الفلك البريطانى - الذى لن تتركه إلاّ لكى تدخل فى الفلك الأمريكى - ضمن هذا الإطار العام، وقد توطدت ضمنه تبعية البلدان المستقلة الجديدة. لقد ترتبت آثار محزنة على التداول الحر للسلع، وعلى التداول الحر للأموال من أجل السداد وتحويل رأس المال.

كتب تشابت أوروتكو يقول أن فيثينتى جيريرو قد صعد إلى سدة السلطة فى المكسيك فى عام ١٨٢٩ "على اكتاف بأس الحرفيين، الذى أشعل ناره الديماجوجى الكبير لورنثو دى ثافالا الذى أطلق جماهير جائعة، يائسة على المحال المتخمة بالمنتوجات البريطانية"[٢٤]. وسرعان ما سقط جيريرو وسط لامبالاة العمال، لأنه لم يكن يريد أو لم يكن قادراً على وقف تدفق السلع الأوروبية، "التى أدت وفرتها إلى إنتشار البطالة بين الجماهير الحرفية المدينية والتى كانت تتمتع قبل الاستقلال - خاصة فى فترات الحرب فى أوروبا - بقسط متواضع من يسر الحال". وكانت الصناعة المكسيكية تشكو من غياب

www.ibtesama.com/vb

الرساميل، وقوة العمل، والتقنيات الحديثة، ولم تكن منظمة تنظيماً كافياً، وكانت تفتقر إلى وسائل المواصلات والنقل إلى الأسواق ومنها وإلى مصادر الإمداد. وقد كتب الونسو أجيلار - يقول: "لعل الشيء الوحيد الذي كانت لديها وفرة منه هو التدخل، والقيود، وكافة أنواع العقبات"[٢٥]. على أن الصناعة، كما أشار إلى ذلك فون مومبولت، قد نمت عندما كانت التجارة الخارجية راكدة، وعندما كانت المواصلات البحرية عرضة للتوقف أو عرضة لاعتراض سبيلها. وقد بدأت صناعة الصلب واستخدام الحديد والزئبق، وقد أضافت الليبرالية التي صاحبت الاستقلال آلام جديدة إلى التاج البريطاني وأدت إلى شلل ورش صناعة النسيج والصناعات التعدينية في مكسيكو سيتي، وبويبلا، وجوادالاخارا.

لقد حذّر لوكاس آلامان، وهو سياسي محافظ قدير، في الوقت المناسب من أن أفكار آدم سميث تتضمن سماً قاتلاً بالنسبة إلى الاقتصاد القومي، ومهد، بوصفه وزيراً، لإنشاء بنك للائتمان والتسليف لتشجيع التصنيع هو بنك آبيّو. وكان بوسع المكسيك، عن طريق فرض ضرائب على المنسوجات القطنية الأجنبية، شراء الآلات والمعدات من الخارج لكي تلبي حاجاتها الخاصة من الملابس القطنية. فقد كانت البلاد تملك المادة الخام والطاقة المائية - الأرخص من الفحم - وكان بوسعها تدريب عمال جيدين بسرعة. وقد بدأ البنك أعماله في عام ١٨٣٠ وسرعان ما وصلت آلات غزل ونسج القطن الحديثة من أفضل المصانع الأوروبية؛ كما استأجرت الدولة خبراء أجانب في تقنيات النسيج. وفي عام ١٨٤٤ انتجت مصانع بويبلا الكبيرة ١,٤ مليون قطعة من القطن الثقيل. وتجاوزت الطاقة الصناعية الجديدة للبلاد الطلب الداخلي؛ ولم يكن بوسع السوق الاستهلاكية في "مملكة اللامساواة"، المؤلفة في معظمها من هنود جوعى، دعم النمو الصناعي الجامح. وقد اصطدم الجهد الرامي إلى كسر البنية الكولونيالية الموروثة بهذا الحائط. على أن الصناعة كانت قد أصبحت حديثة إلى درجة أن مصانع النسيج الأمريكية الشمالية كان متوسط مغازلها أقل من متوسط المغازل في المكسيك في عام ١٨٤٠[٢٦]. وبعد ذلك بعشر سنوات، كان قد تم ما هو أكثر من مجرد قلب النسبة. ذلك أن انعدام الاستقرار السياسي، والضغط من جانب التجار البريطانيين والفرنسيين وشركائهم المحليين الأقوياء، وهزال السوق الداخلية التي خنقها مقدماً اقتصاد التعدين والملكيات الزراعية الكبيرة، قد دمر التجربة. وبحلول عام ١٨٥٠، كانت صناعة النسيج المكسيكية قد توقفت عن التقدم، وكان مؤسسو بنك الائتمان والتسليف قد وسعوا مجال

www.ibtesama.com/vb

عملهم، وعندما زال البنك، كانت انشاءاته تشمل أيضاً مصانع المنسوجات الصوفية، ومصانع السجاد، ومصانع إنتاج الورق والحديد. وقد أكد ايستيبان دي أنتونيانو على حاجة المكسيك إلى خلق صناعة آلات قوية بأسرع ما يمكن "للتصدي للأنانية الأوروبية". وتكمن المأثرة العظيمة لثورة التصنيع التي قام بها الامان وأنتونيانو في أن كلاًّ من الرجلين قد استعاد التطابق بين "الاستقلال السياسي والاستقلال الاقتصادي، وأشاد بالتصنيع بوصفه الدفاع الوحيد ضد أمم قوية وعدوانية"[٢٧]. وقد أصبح الامان نفسه من رجال الصناعة، حيث شيد أكبر مصنع للنسيج في المكسيك في ذلك الوقت (وهو مايزال قائماً إلى اليوم ويحمل اسم كوكولابان)، ونَظَّمَ رجالَ الصناعةِ الآخرين كجماعة ضغط ضد حكومات التجارة الحرة المتعاقبة[٢٨]. لكن الامان، المحافظ والكاثوليكي، لم يمس قط المسألة الزراعية لأنه كان يشعر بالارتباط بالنظام القديم من الناحية الايديولوجية. وهو لم يدرك أن التنمية الصناعية كان لابد لها من أن تظل معلقة في الهواء دون مرتكزات دعم، في ذلك البلد الموبوء بالملكيات الزراعية الكبيرة التي لاتحصى وبالبؤس الشامل.

■ خراب المتمردين وميراث الكراهية الذي خلّفهُ مانويل دي روساس

الحماية في مواجهة التجارة الحرة، البلد في مواجهة الميناء: تلك هو جوهر النضال في الحروب الأهلية الأرجنتينية في القرن التاسع عشر. إن بوينوس أيريس، التي لم تكن في القرن السابع عشر أكثر من قرية كبيرة مؤلفة من أربعمائة بيت، قد سادت الأمة برمتها بعد ثورة مايو والاستقلال. لقد كانت الميناء الوحيد: وكان كل مايدخل البلاد أو يخرج منها مجبراً على المرور عبره. واليوم تتضح التشوهات التي فرضتها هيمنتها على الأمة: إن العاصمة وضواحيها تستوعب أكثر من ثلث سكان البلاد وتلعب بأشكال مختلفة دور المدير لحاجات المقاطعات. وفي تلك الفترة، باحتكارها لايرادات الجمارك والبنوك وإصدار النقود، ازدهرت بوينوس أيريس ازدهاراً سريعاً جداً على حساب المقاطعات الداخلية. لقد استحوذت على ايرادات الجمارك القومية - وهي تكاد تشكل كل دخل المدينة الميناء - لحسابها الخاص، وأنفقت أكثر من نصفها على الحروب ضد المقاطعات - التي كانت بهذه الطريقة تدفع ثمن دمارها[٢٩].

www.ibtesama.com/vb

لقد كان البريطانيون يراقبون حركة الملاحة بالمنظارات المكبرة من نوافذ الغرفة التجارية التى أنشئت فى عام ١٨١٠ فى بوينوس ايريس، وقد زودوا سكان المدينة بالملابس الجميلة، والأزهار الاصطناعية وأربطة الأحذية، والمظلات، والأزرار والشيكولاته، بينما كان تدفق البونشوات والركابات المنتجة فى المصانع ينشر الخراب عبر البلاد. إن تقدير القيمة التى أعطتها السوق العالمية آنذاك لجلود ريو دى لابلاتا يتطلب من المرء العودة إلى عصر لم تكن فيه اللدائن والألياف الاصطناعية موجودة، ولو كخيال فى ذهن كيميائى. ولم يكن بمقدور شئ أن يعادل السهول الساحلية الخصيبة بالنسبة إلى إنتاج الماشية على نطاق كبير. وقد اكتشف، فى عام ١٨١٦، نظام جديد لحفظ الجلود إلى أجل غير مسمى عن طريق معالجتها بالزرنيخ، وفى الوقت نفسه، كانت المجازر تزدهر وتتزايد أضعافاً مضاعفة. كانت البرازيل، وجزر الأنتيل، وأفريقيا تفتح أسواقها للحوم المجمدة المستوردة، ولما كان ذلك المنتوج قد كسب مستهلكين أجانب، فقد استشعر الأرجنتينيون التغير. وهكذا فرضت الضرائب على استهلاك اللحوم الداخلى واستبعدت اللحوم من التصدير؛ وفى غضون سنوات قليلة، زاد سعر العجول ثلاث مرات وزادت أسعار حظائر تربية الماشية من قيمة أراضيها. لقد كان الجاوشو قد اعتادوا صيد العجول بحرية تحت السماء المكشوفة للمراعى غير المسورة، كما اعتادوا أكل أفضل اللحوم ونبذ كل مايتبقى باستثناء التزامهم الوحيد بتسليم الجلد إلى المالك. لكن الأمور تغيرت. فقد تضمنت إعادة تنظيم الإنتاج خضوع الجاوشو المترحل لتبعية وعبودية جديدة: إن مرسوماً صدر فى عام ١٨١٥ قد اعتبر كل ريفى غير مالك خادماً، ملزماً بأن يحمل بطاقة هوية يدقق فيها سيده كل ثلاثة أشهر. فهو إما أن يكون خادماً أو أن يكون متشرداً، وكان المتشردون يجندون، بالقوة، فى كتائب حرس الحدود[٣٠]. إن كريول الأيام الخوالى الجسور، والذى كان وقوداً للمدافع فى الحروب الوطنية، قد حُوِّل إلى منبوذ، أو خادم ذليل بائس، أو نفر حقير فى الجيش، وإلاّ فإنه كان يحمل سلاحاً وينضم إلى عصابات المونتونيرا المتمردة[٣١]. إن الجاوشو العنيف هذا، المحروم من كل شئ عدا الاعتزاز والغضب، قد عزز قوى حملات الفرسان التى تحدت مراراً جيوشاً جيدة التسليح مرسلة من بوينوس أيريس. وقد أدى انتشار مراعى تربية الماشية الرأسمالية فى السهول الساحلية الرطبة إلى اخضاع البلد كله لتصدير الجلود واللحوم، وسار يداً بيد مع ديكتاتورية ميناء التجارة الحرة. وحتى هزيمته ونفيه، كان خوسيه أرتيجاس القائد البارز لنضال جماهير الكريول ضد التجار وكبار ملاك الأراضى المرتبطين

www.ibtesama.com/vb

بالسوق العالمية؛ وقد تمكن فيليبي باريلا بعد ذلك بسنوات من اشعال نيران تمرد كبير في شمالي الأرجنتين لأن المرء، كما قال، "يكون متسولاً بلا بلد، أو حرية أو حقوق عندما يكون ريفياً". وقد اجتذب تمرده استجابة من المناطق الداخلية بأسرها. لقد كان آخر المتمردين؛ وقد مات في عام ١٨٧٠، مصاباً بالسل ومعوزاً [٣٢]. وفي التاريخ الذي يُدرَّس في المدارس الأرجنتينية، فإن هذا المدافع عن "الاتحاد الأمريكي" - حلم إحياء الوطن العظيم المجزأ - مازال يعتبر قاطع طريق مثله في ذلك مثل ارتيجاس الذي كان ينظر إليه النظرة ذاتها حتى وقت قريب.

أمَّا باريلا، الذي ولد في قرية ضائعة بين جبال كاتاماركا، فقد كان شاهداً حزيناً للتعاسة التي انزلها الميناء المتغطرس البعيد بمقاطعته. وفي عام ١٨٢٤، عندما كان باريلا في الثالثة من عمره، لم يكن بوسع كاتاماركا دفع نفقات النواب الذين أرسلتهم إلى المؤتمر التأسيسي في بوينوس أيريس. وكانت ميسيونس، وسانتياجو ديل ايسترو، ومقاطعات أخرى في مأزق مماثل. وقد أشار مانويل أنطونيو أثيبيدو، نائب كاتاماركا، إلى "التقتير المشئوم" الذي أحدثته المنافسة الأجنبية: "لقد كان على كاتاماركا أن تقف موقف المتفرج بلاحول أو قوة، في حين أن زراعتها بدائية وباهظة التكاليف، وصناعتها لاتجد مستهلكين لمنتوجاتها ... وتكاد تكون تجارتها الآن غير موجودة" [٣٣]. وفي عام ١٨٣٠، لخص البريجادير جنرال بيدرو فيريّه، النائب من مقاطعة كورّينتيس، النتائج المحتملة للحماية التي دعا إليها:

"أجل، من المؤكد أن عدداً قليلاً من الأثرياء سوف يحرمون من تناول الخمور والمشروبات الكحولية الجميلة مع عشائهم ... أمَّا بالنسبة إلى الطبقات الأقل يسراً فإن الفارق سوف يكون من الصعب رصده في الخمور والمشروبات الكحولية التي تشربها الآن، على أن الفارق سوف يكون ملحوظاً في الأسعار، وسوف ينخفض الاستهلاك، وهو أمر ليس سيئاً إلى هذا الحد. أن ريفيينا لن يرتدوا البونشوات الانجليزية كما أنهم لن يحملوا كرات ولا أربطة الصيد البريطانية؛ إننا لن نستورد الملابس، والأشياء الأخرى التي يمكننا صنعها بأنفسنا؛ لكن أحوال كافة الجماعات الأرجنتينية، من الناحية الأخرى، سوف تبدأ في أن تكون أقل بؤساً وسوف يكف الشقاء المريع المحكوم علينا به الآن عن ملاحقتنا" [٣٤].

وفي خطوة مهمة نحو إعادة بناء الوحدة القومية التي مزقتها الحرب، فرضت حكومة خوان مانويل دي روساس تعريفة جمركية تهدف إلى توطيد الحماية الجمركية

www.ibtesama.com/vb

بشكل حاسم. وقد حظرت استيراد المنتجات المصنوعة من الحديد والصفائح المعدنية المجمدرة، ومعدات ركوب الخيل، والبونشوات، والأحزمة، والنطاقات الصوفية أو القطنية، والملابس الصوفية الخشنة والمنتجات الزراعية، وعجلات العربات، والشموع المصنوعة من الشحوم الحيوانية، والأمشاط، وفرضت رسوماً مرتفعة على المركبات الكبيرة، والأحذية، والملابس، والأسرجة، والفواكه المجففة، والمشروبات الكحولية. ولم تكن هناك ضريبة على اللحوم المنقولة في سفن أرجنتينية، وجرى تشجيع السراجة وزراعة التبغ. وسرعان ماتجلت آثار ذلك، فحتي معركة كاسيروس التي أدت إلى سقوط روساس في عام ١٨٥٢، كانت السفن التي بنيت في ترسانات كورّينتيس وسانتا في تبحر عبر الأنهار، وازدهر أكثر من مائة مصنع في بوينوس أيريس، وأشاد جميع الرحالة بالمستوى الممتاز للمنسوجات والأحذية المصنوعة في كوردوبا وتوكومان، ولسيجار سالتا ومنتجات مرفيبيا، والخمور ولأنواع البراندى التي كانت تنتجها ميندوثا وسان خوان. وكان صناع الأثاث الفاخر في توكومان يصدرون منتجاتهم إلى تشيلي، وبوليفيا، وبيرو[٣٥]. وبعد عشر سنوات من صدور القانون، حطمت مدافع البوارج البريطانية والفرنسية السلاسل الممدودة عبر نهر ريو بارانا لفتح الممرات المائية الداخلية التي كان روساس قد أحكم إغلاقها. وجاء الحصار في أثر الغزو.

وكانت عشرة نداءات من يوركشاير، وليفربول، ومانشستر، وليدز، وهاليفاكس، وبرادفورد، وقعّها ألف وخمسمائة من رجال البنوك، والتجار والصناعيين، قد حثت الحكومة البريطانية على اتخاذ تدابير ضد القيود المفروضة على التجارة في لابلاتا. وقد كشف الحصار عن حدود الصناعات القومية التي كانت عاجزة من إشباع الطلب الداخلي، رغم التقدم الذى أحرزته في ظل قانون التعريفة الجمركية. فمنذ عام ١٨٤١، كان الإنتاج الصناعي يتميز بالهزال بدلاً من أن يكتسب قوة. وكان روساس يمثل بالدرجة الأولى مصالح أولئك المسيطرين على تربية الماشية في مقاطعة بوينوس أيريس، ولم تكن البورجوازية الصناعية موجودة أو لم تخلق لحفز تطور رأسمالية قومية حقيقية: لقد كانت المزرعة الكبيرة لتربية الماشية تحتل صدارة المسرح الاقتصادي، ولم يكن بالإمكان تطبيق سياسة صناعية تطبيقاً مستقلاً ونشيطاً دون القضاء على جبروت مالك المزرعة الكبير المتجه إلى التصدير. ومن الناحية الأساسية، ظل روساس منسجماً دائماً مع طبقته. "فالفارس الأحسن في المقاطعة[٣٦]، عازف الجيتار، الراقص والخيّال السريع المرموق، الذى كان يمضغ بعض أوراق العشب في الليالي المظلمة العاصفة

www.ibtesama.com/vb

ليحدد موقعه، كان هو نفسه صاحب مزرعة كبيرة تنتج اللحوم المجففة والجلود، وكان كبار ملاك الأراضي قد جعلوه رئيساً لهم. ولايمكن للأسطورة السوداء التي نسجت فيما بعد حول أسمه أن تخفي الطابع الوطني والشعبي لكثير من تدابيره الإدارية[٣٧]، لكن التناقضات الطبقية تفسر غياب أية سياسة صناعية دينامية، متواصلة - باستثناء الجرامة الجمركية. ولايمكن رد هذا الغياب إلى حالات عدم الاستقرار وحالات نقص الامدادات الناشئة عن الحروب الداخلية والحصار الأجنبي لأنه أليس صحيحاً أن أرتيجاس قد تمكن قبل ذلك بعشرين سنة، في معمان ثورة معاصرة، من الجمع بين إصلاح زراعي عميق وسياسات هادفة إلى تصنيع وتوحيد البلاد؟ لقد قارنت بيبيان ترياس، في كتاب مهم[٣٨]، الحماية التي فرضها روساس بسلسلة التدابير التي مدها أرتيجاس من باندا أورينتال (أوروجواي الآن)، بين عامي ١٨١٣ و ١٨١٥، لتحقيق استقلال حقيقي لمنطقة ولاية لابلاتا. والحال أن روساس لم يمنع الأجانب من التجارة في السوق الداخلية، ولم يرد إلى الأمة إيرادات التعريفة الجمركية التي واصلت بوينوس أيريس الاستحواذ عليها، كما لم ينه ديكتاتورية الميناء الواحد والوحيد. لكن تأميم التجارة الداخلية والغاء احتكار ميناء وجمارك بوينوس أيريس كانا حجر الأساس - جنباً إلى جنب المسألة الزراعية - لسياسة أرتيجاس. وكان أرتيجاس يريد ملاحة حرة في الممرات المائية الداخلية، لكن روساس لم يعط المقاطعات قط هذا المفتاح إلى باب التجارة الخارجية. كما ظل روساس مخلصاً بصفة أساسية لمقاطعته المحظوظة. ورغم كل هذه الحدود، ماتزال قومية وشعبوية "الجاوشو الأزرق العينين" تستثير الكراهية ضمن صفوف الطبقات الحاكمة في الأرجنتين. فروساس مايزال "مذنباً بخيانة الوطن" - كما ذكر قانون صادر في عام ١٨٥٧ لم يتسن الغاؤه قط - وماتزال البلاد ترفض فتح مقبرة لعظامه، المدفونة في أوروبا. إن الصورة الرسمية المرسومة له هي صورة قاتل مجرم.

ومع القضاء على هرطقة روساس، أعادت الأوليجاركية اكتشاف مصيرها. لقد افتتح رئيس لجنة المعرض الزراعي في عام ١٨٥٨ المعرض بهذه الكلمات: "إننا نرضى متواضعين، إذ مانزال في طفولتنا، بارسال منتجاتنا وموادنا الخام إلى الأسواق الأوروبية حتى تتسنى إعادتها إلينا مصنعة من خلال الوسائل القوية التي تملكها أوروبا. إن المواد الخام هي ماتريده أوروبا، لكي تحولها إلى مصنوعات فنية"[٣٩].

وكان الكاتب اللامع دومينجو فاوستينو سارميينتو وغيره من الكتاب الليبراليين

لايرون في المونتونيرا الريفية غير رمز للبربرية، والتخلف، والجهل. المفارقة التاريخية التي تضع الريف في مواجهة الحضارة المدينية، البونشو والمئزر في مواجهة الفراك، الحربة والسكين في مواجهة القوات النظامية، الأمية في مواجهة المدرسة(٤٠). وقد كتب سارمينتو إلى الرئيس بارتولومي ميتري في عام ١٨٦١ يقول: "لاتحاول الاقتصاد في نزف دم الجاوشو، فهو الشئ الإنساني الوحيد فيهم. وهو سماد يجب إفادة البلاد به". لقد كان هذا الاحتقار والكره تعبيراً عن روح معادية للوطنية ومخرية بالاقتصاد السياسي على نحو واضح. وقد قال سارمينتو: "نحن لسنا صناعيين ولسنا ملاحين، وسوف تزودنا أوروبا لقرون عديدة بمصنوعاتها في مقابل موادنا الخام"(٤١). واعتباراً من عام ١٨٦٢، شن ميتري حرب إبادة ضد المقاطعات وقادتها الأخيرين. وقد وضع سارمينتو على رأس الحملة، واتجهت القوات شمالاً لقتل الجاوشو "أسوأ الحيوانات التي تسير على قدمين". وفي لاريوخا، أبدى المتمردون تحت قيادة الجنرال "إل تشاتشو" بنيالوثا، جنرال السهول الذي امتد نفوذه إلى ميندوثا وسان خوان، صموداً من الصمودات الأخيرة ضد بوينوس أيريس، التي شعرت أنه قد آن الأوان للقضاء على بنيا لوثا. لقد قطعوا رأسه وعلقوها بمسمار في ساحة بلازا دي أولتا. واستكملت السكك الحديدية والطرق الرئيسية سقوط لاريوخا الذي كان قد بدأ مع ثورة ١٨١٠: ذلك أن التجارة الحرة قد جرت أزمة على حرفييها كما عمقت بؤس المنطقة المزمن.

وفي القرن العشرين، يهرب فلاحو لاريوخا من قراهم في الجبال وفي السهول ويتدفقون على بوينوس أيريس لكي يعرضوا قوة عملهم: وشأنهم في ذلك شأن فلاحي المقاطعات الفقيرة الأخرى، لايصلون إلى أبعد من مشارف المدينة، حيث يستقرون إلى جانب سبعمائة ألف من السكان الآخرين لـ "المدن البائسة" ويقيمون أودهم قدر الإمكان بفتات من مائدة مأدبة العاصمة الفخيمة. وقبل سنوات قليلة، سأل سوسيولوجيون المائة والخمسين شخصاً الباقين من إحدى قرى لاريوخا ما إذا كانوا قد لمسوا أي تغير في أحوال جيرانهم السابقين الذين رحلوا ويعودون في زيارات. وقد قال أولئك الذين بقوا بنبرة حسد: نعم، إن بوينوس أيريس قد حسنت ملابس المهاجرين، وطرائق تعاملهم، وأسلوب حديثهم. كما وجد البعض أن المهاجرين قد أضحى لون بشرتهم "أكثر بياضاً"(٤٢).

www.ibtesama.com/vb

■ كيف قضت حرب التحالف الثلاثي ضد الباراجواي على المحاولة الناجحة الوحيدة للتنمية المستقلة

جلس الرجل إلى جواري في صمت، وقد كشف ضوء الظهيرة القوي عن ملامح وجهه الذي يتميز بأنف حاد ووجنتين بارزتين. كنا قد غادرنا الحدود الجنوبية متجهين إلى آسونثيون في باص لعشرين شخصاً اتسع بسحر ساحر لخمسين، وقد توقفنا في إحدى المحطات بعد ساعات قليلة. جلسنا في باحة مرصوفة مكشوفة تحت ظلال أوراق الأشجار المكتنزة. كانت تمتد أمامنا الروعة المراوغة للأرض الحمراء الواسعة، المقفرة، التي لم تمسها يد إنسان. ومن أفق إلى أفق لم يزعج شيء شفافية نسيم باراجواي. دخناً. ظلم صاحبي، وهو فلاح يتحدث بالجوارانية، كلمات حزينة قليلة بالإسبانية وقال: "نحن أهل باراجواي فقراء وقليلون". وأوضح لي أنه كان قد ذهب إلى انكارناثيون بحثاً عن عمل إلاّ أنه لم يجد أي عمل، وكان قد تمكن من تدبير بيسوات قليلة لشراء تذكرة العودة إلى بلده. وقبل ذلك بسنوات، عندما كان فتياً، كان قد جرب حظه في بوينوس أيريس والبرازيل الجنوبية. وها قد جاء موسم جمع القطن ويرحل كثيرون من أجراء أوروجواي إلى الأرجنتين، مثلما يفعلون كل عام. "لكنني في الثالثة والستين. كل هؤلاء الناس يبحثون عن عمل – إن قلبي لا يقوى على احتمال ذلك".

في السنوات العشرين الماضية، رحل نصف مليون من سكان باراجواي عن بلدهم مرة وإلى الأبد. فالفقر يطرد سكان البلد الذي كان، قبل قرن واحد، البلد الأكثر تقدماً في أمريكا الجنوبية. واليوم يصل عدد سكان باراجواي بالكاد إلى ضعف ما كان عليه آنذاك، وهي مع بوليفيا، واحد من أفقر البلدان وأكثرها تخلفاً في نصف الكرة الأرضية الغربي. وتنبع المحن التي يمر بها سكان باراجواي من حرب إبادة تعد أكثر فصول تاريخ أمريكا الجنوبية خزياً: وقد سموها بحرب التحالف الثلاثي. إذ اشتركت البرازيل، والأرجنتين وأوروجواي في اقتراف جريمة الإبادة. وهي لم تترك حجراً على حجر، كما لم تترك ذكوراً وسط الأنقاض. ومع أن بريطانيا لم تشارك بشكل مباشر في هذا العمل المروع، إلاّ أن الغنيمة قد انتهت إلى جيوب التجار، ورجال البنوك، والصناعيين البريطانيين. وقد جرى تمويل الغزو من البداية إلى النهاية من جانب بنك لندن، والأخوة بارنج، وبنك روتشيلد، عن طريق قروض ذات معدلات فائدة باهظة رهنت مصير البلدان الظافرة[٤٣].

www.ibtesama.com/vb

قبل تدميرها، كانت باراجواى تتميز بكونها حالة استثنائية فى أمريكا اللاتينية – فهى البلد الوحيد الذى لم يكن رأس المال الأجنبى قد شوهه. وكانت ديكتاتورية جاسبار رودريجث دى فرانثيا (١٨١٤ – ١٨٤٠) الحديدية، الطويلة، قد رعت عملية تنمية مستقلة، متواصلة فى رحم العزلة. لقد شغلت الدولة الأبوية كلية الجبروت مكان بورجوازية قومية لاوجود لها فى تنظيم الأمة وتوجيه مواردها ومصيرها. وكان فرانثيا قد استخدم الجماهير الفلاحية فى سحق أوليجاركية باراجواى، وكان قد وطد السلم الداخلى عن طريق إقامة كوردون صحى بين باراجواى والبلدان الأخرى التابعة لولاية لابلاتا القديمة –واستخدمت المصادرات وعمليات النفى، والسجن، والاضطهاد والغرامات – ليس لتوطيد القوة الداخلية لكبار ملاك الأراضى والتجار، وإنما من أجل تدميرها. كما أنّ الحريات السياسية وحق المعارضة لم تكن موجودة ولن تظهر إلى الوجود فيما بعد، إلاّ أن انعدام الديمقراطية فى تلك المرحلة التاريخية لم يزعج غير الأشخاص الذين كان الحنين يجرفهم إلى الامتيازات الضائعة. ولم تكن هناك ثروات خاصة كبيرة عندما مات فرانثيا، وكانت باراجواى هى البلد الأمريكى اللاتينى الوحيد الذى لايعرف التسول والجوع، والسرقة[٤٤]؛ وقد وجد رحالة تلك الفترة واحة من الدعة وسط مناطق تعصف بها حروب متواصلة. وقد أبلغ العميل الأمريكى هو بكنز حكومته فى عام ١٨٤٥ بأنه "لايوجد فى باراجواى طفل ليس بوسعه القراءة والكتابة". كما أنها البلد الوحيد الذى لم يضطر إلى تثبيت أنظاره على الجانب الآخر للمحيط. ولم تكن التجارة الخارجية محور الحياة القومية، ولم يكن المذهب الليبرالى، التعبير الايديولوجى عن السوق العالمية، يملك رداً على موقف التحدى الذى اتخذته باراجواى – التى أجبرتها عزلتها الداخلية على النمو اعتماداً على الداخل – منذ بداية القرن. وكان من شأن القضاء على الأوليجاركية أن يساعد الدولة على تجميع مواردها الاقتصادية الرئيسية فى يديها، وتنفيذ هذه السياسة الانمائية الداخلية المبنية على الاعتماد على الذات.

–والحال أن الحكومات المتعاقبة التى عملت فى ظل كارلوس أنطونيو لوبث وأبنه فرانثيسكو سولانو قد واصلت المهمة وأضفت الحيوية عليها. وكان الاقتصاد يحقق نمواً كاملاً. وعندما ظهر الغزاة فى الأفق فى عام ١٨٦٥، كان فى باراجواى شبكات التلغراف وسكة حديدية، ومصانع عديدة تنتج مواد البناء، والمنسوجات، والملابس الكتانية، والبونشوات، والورق والحبر، والأوانى الخزفية، والبارود. وقد قدم مائتان من الفنيين الأجانب، الذين دفعت الدولة رواتب سخية لهم، مساهمة حاسمة. واعتباراً من عام

www.ibtesama.com/vb

١٨٥٠ ، كان مسبك ايبيكوى ينتج البنادق، ومدافع الهاون، وذخيرة من كافة الأعيرة، وكانت الترسانة الموجودة في أسونثيون تنتج المدافع البرونزية ومدافع هاوتزر، والذخيرة. وكانت صناعة الصلب، شأنها في ذلك شأن كافة الأنشطة الاقتصادية الرئيسية الأخرى، تخص الدولة. وكان للبلد أسطول تجاري، وكانت ترسانة أسونثيون تنتج الكثير من السفن التي ترفع علم باراجواي في بارانا وعبر المحيط الأطلسي والبحر المتوسط. وقد احتكرت الدولة التجارة الداخلية احتكاراً يكاد يكون كاملا؛ وكانت تورد الماتي والتبغ إلى الجزء الجنوبي من القارة وتصدر أخشاباً ثمينة إلى أوروبا. وقد حقق الميزان التجاري فائضاً كبيراً. ومع توافر عملة قوية ومستقرة، كانت باراجواي ثرية بما يكفي لتنفيذ أشغال عامة ضخمة دون اللجوء إلى رأس المال الأجنبي. وهى لم تكن مدينة للخارج بمليم واحد، وقد تمكنت مع ذلك من الاحتفاظ بأفضل جيش في أمريكا الجنوبية، ومن استئجار فنيين بريطانيين لخدمة الدولة بدلاً من وضع الدولة في خدمتهم، ومن ارسال بعض الطلاب الجامعيين لاستكمال دراساتهم في أوروبا. ولم يجر تبديد الفائض الاقتصادي من الإنتاج الزراعي على يد أوليجاركية (لم يكن لها وجود)؛ كما أنه لم يذهب إلى جيوب سماسرة أو حيتان قروض، ولم يعزز أرباح شركات الامبراطورية البريطانية العاملة في مجالى الشحن والتأمين. وخلاصة القول أن الاسفنج الامبريالى لم يشفط الثروة التي أنتجها البلد. وكانت نسبة ثمانية وتسعين في المائة من أراضي باراجواى ملكية عامة: وقد منحت الدولة حيازات للفلاحين في مقابل شغلها بصفة دائمة وفلاحتها دون أن يكون لهم حق في بيعها. كما كانت هناك أربع وستون "مزرعة وطنية" وهى مزارع كبيرة تديرها الدولة إدارة مباشرة. وقد ساعدت شبكات الري، والسدود، والقنوات، والجسور والطرق الجديدة، مساعدة مهمة في زيادة الإنتاج الزراعي. وجرى إحياء تقليد السكان الأصليين الخاص بزراعة محصولين في السنة، والذى كان الفاتحون الأسبان قد تخلوا عنه. ومما لاشك فيه أن التشجيع النشيط للتقاليد اليسوعية قد ساهم في هذه العملية الإبداعية[٤٠].

وقد اتبعت الدولة سياسة حماية متشددة – جرى تعزيزها أكثر في عام ١٨٦٤ – لحماية الصناعة القومية والسوق الداخلية؛ وأغلقت الممرات المائية الداخلية في وجه السفن البريطانية التي كانت تمطر بقية أمريكا اللاتينية بسيل من منتجات مانشستر وليفربول. ولم تنقذ دوائر التجارة البريطانية قلقها، ليس فقط لأن هذه القلعة الأخيرة للمقاومة القومية في قلب القارة قد بدت منيعة حصينة، وإنما أيضاً وبوجه خاص بسبب

www.ibtesama.com/vb

المثل المطير الذي يضربه مثاد باراجواي لجيرانها. فالبلد الأكثر تقدمية في أمريكا اللاتينية يبني مستقبله دون استثمارات أجنبية، ودون قروض البنوك البريطانية، ودون نعم التجارة الحرة.

إلا أنه مع تقدم باراجواي، تقدمت أيضاً حاجتها للخروج من عزلتها. وكانت التنمية الصناعية تستدعي صلات أوثق ومباشرة أكثر مع السوق الدولية ومع مصادر التقنيات المتقدمة. وكانت باراجواي محاصرة من الناحية الفعلية من الارجنتين من جانب ومن البرازيل من الجانب الآخر، وكان بوسعهما خنقها عن طريق اغلاق مصبات الأنهار (مثلما فعل ريفادافيا وروساس) أو عن طريق فرض ضرائب تعسفية على مرور سلعها. وعلى أية حال، فقد كان من الضروري لتوطيد الدولة الأوليجاركية محو الفضيحة التي يثيرها هذا البلد الكريه، المكتفي ذاتياً والمعترض على الرضوخ للتجار البريطانيين.

والحال أن ادوارد ثورنتون، الوزير البريطاني المفوض في بوينوس أيريس، قد لعب دوراً رئيسياً في التحضير للحرب. وعندما كانت على وشك النشوب، شارك كمستشار حكومي في اجتماعات مجلس وزراء الأرجنتين، حيث كان يجلس إلى جوار الرئيس ميتري، وقد حيك شرك الاستفزازات والخدع، والذي انتهى باتفاق برازيلي - أرجنتيني حسم مصير باراجواي، تحت رعاية ثورنتون الأبوية. وقد غزا فينانثيو فلوريس أوروجواي، حيث ساعده في تدخله جارتاها الكبيرتان، وبعد مذبحة بيساندو أقام حكومة في مونتفيديو تأتمر بأوامر ريو دي جانيرو وبوينوس ايريس. وكان التحالف الثلاثي آخذاً في التبلور. لقد كان سولانو لوبث، رئيس باراجواي، قد هدد بالحرب في حالة شن هجوم على أوروجواي؛ وكان يعرف أن ذلك الهجوم سوف يلف كماشة تخنق بلاده، المطوقة بالجغرافيا وبالعدو. وبرغم ذلك، يزعم المؤرخ الليبرالي لفرايم كاردوزو بوقاحة أن لوبث لم يقف في وجه البرازيل إلا لأنه قد أهين إهانة شخصية: لقد رفض الامبراطور طلبه يد إحدى بناته. وكان الصدام حتمياً، لكنه كان من تدبير عطارد(*) لا بسبب كيوبيد(**).

وقد وصفت صحف بوينوس أيريس لوبث بأنه "أتيلا أمريكا". وكانت المقالات الافتتاحية تنادي صارخة: "يجب قتله قتل الزواحف". وفي سبتمبر ١٨٦٤، أرسل ثورنتون تقريراً سرياً مطولاً إلى لندن، مرسلاً من أسونثيون، وقد وصف باراجواي كما

(*) إله التجارة والقول المعسول والغش واللصوصية عند الرومان. - المترجم.

(**) إله الحب عند الرومان، نظير ايروس عند الإغريق. المترجم.

www.ibtesama.com/vb

وبصف نائتي الجحيم، لكنه وضع التأكيد في مقامه: "إن رسوم الاستيراد على كل السلع تقريباً تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ في المائة من القيمة، ولكن بما أن هذه القيمة تحسب على أساس السعر الجاري للسلع، فإن الرسم المدفوع غالباً ما يصل إلى نسبة تتراوح بين ٤٠ و ٤٥ في المائة من السعر المحدد في الفاتورة هذا بينما تتراوح رسوم التصدير بين ١٠ و ٢٠ في المائة من القيمة ...". وفي أبريل ١٨٦٥، كانت صحيفة "ذي ستاندارد" اليومية الصادرة بالانجليزية في بوينوس آيريس، ترحب بالفعل بإعلان الارجنتين الحرب على باراجواي، التي قالت أن رئيسها قد "انتهك كافة أعراف الأمم المتحضرة"، وكانت تعلن أن سيف الرئيس الأرجنتيني ميتري "سوف يستند في مسيرته الظافرة، بالإضافة إلى ثقل الأمجاد الماضية، إلى الهجوم الكاسح للرأي العام في قضية عادلة". وقد وقعت المعاهدة مع البرازيل وأوروجواي في أول مايو ١٨٦٥؛ ونشرت شروطها الوحشية بعد سنة في صحيفة التايمز اللندنية، التي حصلت على النص من مقرضين مصرفيين في الأرجنتين والبرازيل، لقد قَسَّمَ منتصرو المستقبل إسلاب المغلوب مقدماً. فقد وعدت الأرجنتين بمجمل أراضي ميسيونيس والتشاكو الواسعة؛ ووعدت البرازيل بشريحة سمينة غربي حدودها. أما أوروجواي، التي تحكمها حكومة عميلة لكل من الدولتين، فلم توعد بشيء.

وقد أعلن ميتري أنه سوف يستولي على اسونثيون في خلال ثلاثة أشهر، لكن الحرب استمرت خمس سنوات. لقد كانت الحرب مذبحة من بداية إلى نهاية سلسلة الحصون المدافعة عن نهر الباراجواي. وكان "الطاغية المقيت" سولانو لوبث تجسيداً بطولياً للإرادة القومية في البقاء؛ وإلى جانبه وقف شعب باراجواي، الذي لم يعرف الحرب على مدار نصف قرن، مستبسلاً مستشهداً. لقد حارب الرجال والنساء الصغار والكبار، كالأسود. وكان الأسرى الجريحون ينزعون ضمادات جروحهم لينزف منها الدم حتى لايجبروا على القتال ضد إخوتهم. وفي عام ١٨٧٠، اتجه لوبث إلى الغابات، على رأس جيش من الأشباح، من الشيوخ والأطفال الذين وضعوا على ذقونهم لحى مستعارة لكي يخلقوا انطباعاً من بُعْدٍ بأنهم رجال. وقد انقضت القوات الغازية على أطلال اسونثيون والمدى في أسنانها. وعندما أنهت الرصاصات والحراب أخيراً رئيس باراجواي في أحراش ثيرّو كورا، كان مايزال بوسعه أن يقول: "إنني أموت مع بلادي!" — وكان ذلك صحيحاً. فقد ماتت باراجواي معه بالفعل. كان لوبث قد سبق له أن أصدر الأوامر بإعدام أخيه وأسقف صحبه في قافلة الموت هذه. وقد جاء الغزاة لتخليص شعب

www.ibtesama.com/vb

باراجواي، وقضوا على هذا الشعب. فعندما بدأت الحرب، كان عدد سكان باراجواي في ضخامة عدد سكان الأرجنتين، ولم يبق في عام ١٨٧٠ غير ٢٥٠,٠٠٠، أي أقل من السدس وكان ذلك هو انتصار الحضارة. والحال أن المنتصرين، وقد استنزفتهم التكاليف الباهظة للجريمة، قد ارتموا في أحضان رجال البنوك الذين كانوا قد موّلوا المغامرة. على أن امبراطورية بيدرو الثاني العبودية، والتي كانت جيوشها مليئة بالعبيد والأسرى، قد كسبت أكثر من عشرين ألف ميل مربع من الأرض - بالإضافة إلى قوة العمل لأن الأسرى الذين اقتيدوا من باراجواي للعمل في مزارع البن في ساو باولو قد عوملوا معاملة العبيد. أما أرجنتين الرئيس ميتري، الذي كان قد سحق قادته الاتحاديين، فقد فاز بستة وثلاثين ألف ميل مربع من أراضي باراجواي، إلى جانب أسلاب أخرى: لقد كتب يقول: "سوف تقتسم الأسرى ومعدات الحرب الأخرى بصورة مناسبة". أما أوروجواي، حيث قتل ورثة أرتيجاس أو هزموا وصعدت أوليجاركية إلى سدة الحكم، فقد شاركت في الحرب كشريك أصغر دون أن تفوز بشيء. والحال أن بعض جنود أوراجواي الذين أرسلوا إلى حملة باراجواي كان يجري شحنهم في السفن وأيديهم مقيدة. وقد أدى الإفلاس المالي للبلدان الثلاثة إلى تعميق اعتمادها على بريطانيا. إن مذبحة باراجواي قد تركت بصماتها عليها إلى الأبد[٤٦].

لقد أدت البرازيل الدور الذي حدده لها البريطانيون، عندما نقلوا العرش البرتغالي إلى ريو دي جانيرو، وكانت تعليمات اللورد كاننج إلى السفير، الفيكونت سترانجفورد، في أوائل القرن التاسع عشر، واضحة كل الوضوح: فلتجعل من البرازيل سوقاً للمنتوجات البريطانية الموجهة إلى الاستهلاك في أمريكا الجنوبية بأسرها. وقبل وقت قليل من خوض الحرب، أدلى الرئيس الأرجنتيني، عند افتتاحه خط سكك حديدية بريطانية جديداً، بكلمة حماسية: "ماهي القوة المحركة لهذا التقدم؟ أيها السادة، إنها رأس المال البريطاني!". وفي باراجواي المهزومة، فإن الذي اختفى ليس هو مجرد السكان وأجزاء شاسعة من الأرض، وإنما أيضاً التعريفة الجمركية، والمسابك والأنهار المغلقة في وجه التجارة الحرة، والاستقلال الاقتصادي، وضمن حدودها المختزلة، غرس الفاتحون التجارة الحرة والملكية الزراعية الكبيرة. لقد جرى نهب كل شيء وبيع كل شيء: الأراضي والغابات، المناجم، مزارع الماتي، مباني المدارس. ونصبت قوات الاحتلال حكومات عميلة متعاقبة في أسونثيون. ولم تكد الحرب تنتهي حتى سقط أول قرض أجنبي في تاريخ باراجواي على الأنقاض التي يتصاعد منها الدخان. وطبيعي أنه كان

www.ibtesama.com/vb

قرضاً بريطانياً. لقد كانت قيمته الاسمية مليون جنيه استرليني، إلا أن ما وصل باراجواي كان أقل من نصف هذا المبلغ بكثير، وفي السنوات التالية، أدت إعادة التمويل إلى زيادة الدين إلى أكثر من ٣ مليون جنيه استرليني. وكانت حرب الأفيون قد انتهت في عام ١٨٤٢ بتوقيع معاهدة في نانكين تبيح التجارة الحرة، وتكرس حق التجار البريطانيين في ادخال المخدر دون قيود إلى الصين؛ والآن ارتفع علم التجارة الحرة فوق باراجواي أيضاً. وجرى التخلي عن زراعة القطن وتوضت مانشستر إنتاج المنسوجات؛ ولم تعد الصناعة القومية إلى الحياة قط.

إن حزب الكولورادو الذي يحكم باراجواي الآن، يتاجر بذكرى الأبطال، لكن ميثاق تأسيسه يحمل توقيعات اثنين وعشرين من خائني سولانو لوبث، من "المحاربين القدماء" الذين عملوا مع قوات الاحتلال البرازيلية. إن الديكتاتور ألفريدو ستروسنر، الذي قضى السنوات الخمس عشرة الأخيرة في تحويل باراجواي إلى معسكر اعتقال مترامي الأطراف، قد تلقى تدريبه العسكري على يد الجنرالات البرازيليين، الذين أعادوه إلى باراجواي بأعلى الدرجات وأكثر الاشادات حرارة: "إنه جدير بمستقبل عظيم ...". وخلال عهده، أنعم ستروسنر على البرازيل وعلى سادتها الأمريكيين بالمكانة المهيمنة التي كانت تحتلها المصالح الأنجلو - أرجنتينية في العقود السابقة. والحال أن البرازيل والأرجنتين، اللتين "حررتا" باراجواي بهدف التهامها، قد تناوبتا التمتع بثمار النهب منذ عام ١٨٧٠. لكنهما قد أرغمتا من جانب القوة الامبريالية السائدة على أن تحملا صليبيهما. لقد حملت باراجواي عبء الامبريالية والامبريالية من الباطن. وكانت الامبراطورية البريطانية تمثل الحلقة الرئيسية في سلسلة التبعيات، أما اليوم، فإن الولايات المتحدة، التي تفهم جيداً الأهمية الجغرافية السياسية لهذا البلد الواقع في قلب أمريكا الجنوبية، تحتفظ بمستشارين لاحصر لهم يدربون القوات المسلحة ويقدمون لها المشورة، ويطبقون الخطط الاقتصادية، ويعيدون صوغ الجامعة بما يتفق وأهواءهم، ويبتدعون سياسة "ديمقراطية" جديدة للبلاد، ويكافئون خدمات النظام السخية بقروض مرهقة[٤٧]. كما أن باراجواي، مستعمرة لمستعمرات أخرى. إن حكومة ستروسنر، مستخدمة الإصلاح الزراعي كذريعة، قد ألغت الحظر القانوني المفروض على بيع الأراضي المتاخمة للحدود للأجانب، وقد وقعت أراضي الدولة نفسها اليوم في أيدي ملاك مزارع البن البرازيليين. لقد عبرت الموجة الغازية نهر ريو بارانا بتواطؤ من الرئيس، وبالاشتراك مع كبار ملاك الأراضي المتكلمين بالبرتغالية. وعندما وصلتُ إلى حدود

www.ibtesama.com/vb

باراجواي الشمالية الشرقية التي دخلت عليها التعديلات، كانت معي أوراق بنكنوت تحمل صورة سولانو لوبث المهزوم، لكنني اكتشفت أن أوراق البنكنوت التي تحمل صورة الامبراطور بدرو الثاني المنتصر هي وحدها المتداولة. فبعد مرور قرن، ماتزال نتيجة حرب التحالف الثلاثي تتميز بحالية ملحة. إن حرس الحدود البرازيلي يطلب جوازات سفر من مواطني باراجواي الذين لايريدون سوى التحرك في بلدهم. والأعلام والكنائس برازيلية. كما أن القرصنة البرية تستولي على شلالات جوايرا، أعظم مصدر محتمل للطاقة في أمريكا اللاتينية كلها: وهي تسمى الآن – بالبرتغالية – سيتي كيداس. وقد أعلن أن البرازيل سوف تبني هنا أعظم محطة للطاقة المائية في العالم.

والامبريالية من الباطن لها ألف وجه. فعندما قرر الرئيس جونسون في عام ١٩٦٥ اغراق الشعب الدومينيكاني في بحر من الدماء، أرسل ستروسنر بعض جنود باراجواي لمساعدته. وفي سخرية خبيثة، سميت الكتيبة "كتيبة المارشال سولانو لوبث". وكان جنود باراجواي تحت إمرة جنرال برازيلي، لأن البرازيل هي التي تلقت إنعامات يهوذا: لقد قاد الجنرال باناسكو الفيم المتواطئين الأمريكيين اللاتينيين العسكريين في المجزرة. وهناك أمثلة مماثلة أخرى. لقد منحت باراجواي البرازيل امتيازاً نفطياً في أراضيها، لكن استثمارات توزيع الوقود والاستثمارات البتروكيميائية في البرازيل في أيد أمريكية. وتهيمن البعثة الثقافية البرازيلية على كلية الفلسفة والتربية في جامعة باراجواي، لكن الأمريكيين الشماليين يديرون الآن جامعات البرازيل. والأركان العامة لجيش باراجواي لاتتلقى المشورة من فنيي البنتاجون وحدهم وإنما أيضا من الجنرالات البرازيليين الذين، بدورهم، يعدون بالنسبة إلى البنتاجون كصدى بالنسبة إلى صوت. ومن خلال قنوات التهريب المفتوحة، تغزو المنتجات الصناعية البرازيلية سوق باراجواي، لكن مصانع ساو باولو التي تنتجها تخص الشركات الأمريكية منذ اعصار نزع التأميم الذي ثار في السنوات الأخيرة.

ويعتبر ستروسنر نفسه وريث لوبث. ولكن كيف يمكن أن توضع باراجواي قرن مضى على قدم وساق مع باراجواي اليوم، سوق تهريب حوض لايلاتا ومملكة الفساد الذي صار مؤسسة؟ إلا أنه بينما كان التصفيق والهتاف العاصفان يحييان في تظاهرة سياسية اعلان الحزب الحاكم تمسكه بباراجواي لوبث وباراجواي ستروسنر، شرع غلام ينادي علانية على سجائر مهربة أمام طاولة للبيع: وسرعان ماتدافع الجمهور المحموم بعصبية على سجائر كنت، ومارلبورو، وكاميل، وبنسون أندهيدجز. أما الطبقة

www.ibtesama.com/vb

المتوسطة الهزيلة في أسونثيون فهي تشرب ويسكي بالانتاين بدلاً من روم الباراجواي، ويرى المرء في الشوارع سيارات فارهة من أحدث طراز مصنوعة في الولايات المتحدة أو أوروبا، دخلت البلاد عن طريق التهريب أو بعد سداد رسم جمركي تافه، تسير إلى جانب عربات تجرها الثيران تحمل الفاكهة ببطء إلى السوق؛ الأرض تجرى فلاحتها بالمحاريث الخشبية بينما التاكسيات فورد من طراز إمبالا موديل عام ١٩٧٠. ويعرِّف ستروسنر التهريب بأنه "ضريبة السلام": فالجنرالات يملأون جيوبهم ولايحيكون مؤامرات. وطبيعي أن الصناعة تدخل مرحلة الاحتضار قبل أن يتسنى لها النمو. بل إن الدولة لاتنفذ المرسوم الذي ينص على إعطاء الأولوية لاستخدام المنتجات المحلية في الانفاق العام. والانتصارات الوحيدة التي تعلن عنها الحكومة بفخار في هذا المجال هي مصانع كوكاكولا وبيبسي كولا وكراش التي أنشئت في أواخر عام ١٩٦٦ كمساهمة أمريكية في تقدم شعب باراجواي.

وتعلن الدولة أنها لن تتدخل بشكل مباشر في إنشاء المشروعات إلاً "عندما لايبدي القطاع الخاص اهتماماً"[٤٨]، ويبلغ البنك المركزي صندوق النقد الدولي بأنه قد "قرر إنشاء نظام سوق للتبادل الحر وإلغاء القيود المفروضة على التجارة وعلى المعاملات النقدية". ويشرح كتيب نشرته وزارة الصناعة والتجارة للمستثمرين أن البلاد تمنح "تنازلات خاصة لرأس المال الأجنبي". فالمشروعات الأجنبية معفاة من الضرائب والرسوم الجمركية وذلك "لخلق مناخ ملائم للاستثمار". وقد استرجع الناشيونال سيتي بنك أوف نيويورك كل رساميله المستثمرة في سنة واحدة من النشاط الاستثماري في أسونثيون. ويستولي البنك الأجنبي على المدخرات القومية ويقدم قروضاً خارجية إلى باراجواي، وهي قروض تزيد من تشوه اقتصادها وتزيد من رهن سيادتها. وفي الريف، تملك نسبة ١,٥ في المائة من الملاك نسبة ٩٠ في المائة من الأرض الزراعية، بينما لايزرع غير أقل من ٢ في المائة من المساحة الاجمالية للأرض. أما خطة الاستيطان الرسمية في مثلث كاجوازو فهي تقدم للفلاحين الجائعين قبوراً أكثر من المكاسب[٤٩]. إن الوطن يحرم أطفاله من حق العمل والخبز اليومي ويهاجر سكان باراجواي هجرات جماعية.

إن أفران مسبك ايبيكوي، حيث صنع المدفع الذي استخدم في الدفاع عن الوطن الذي تعرض للغزو، قد أنشئت في مكان يسمى الآن مينا - كوي، التي تعني بالجوارانية "كان منجماً". وهناك، وسط المستنقعات والبعوض، قرب حائط متداع،

www.ibtesama.com/vb

مايزال بوسعك أن ترى قاعدة مدفعة نسفها الغزاة قبل قرن مضى، وقطعاً من الصلب المدني كانت جزءاً من البناء. والحال أن الفلاحين الأشقياء القلائل الذين يحيون في المنطقة لايعرفون أية حرب سببت الدمار، لكنهم يقولون إن بوسع المرء أحياناً أن يسمع في الليل أصوات الآلات والمطارق، وقصف المدافع، وصيحات الجنود. لقد أحرز التحالف الثلاثي نجاحاً فائقاً.

كيف شوهت القروض والسكك الحديدية اقتصاد أمريكا اللاتينية

في تقرير يبدو أنه ناشئ عن دراية جيدة بما آلت إليه الأمور، كتب رينيه شاتوبريان، وزير خارجية فرنسا في ظل لويس الثامن عشر: "لقد تحولت المستعمرات الأسبانية في ساعة التحرر إلى شئ شبيه بمستعمرات بريطانية"[50]. وقد استشهد ببعض الأرقام، وقال إن بريطانيا، بين عامي ١٨٢٢ و ١٨٢٦، قدمت إلى المستعمرات الاسبانية المحررة عشرة قروض تصل قيمتها الاسمية إلى حوالي ٢١ مليون جنيه استرليني، إلا أنه بعد خصم الفائدة وعمولات الوسطاء لم يصل إلى أمريكا اللاتينية بالفعل غير نحو ٧ مليون جنيه استرليني. وفي الوقت نفسه، أنشئ أكثر من أربعين شركة مساهمة في لندن لاستغلال الموارد الطبيعية لأمريكا اللاتينية – المناجم، الزراعة – ولإنشاء مشروعات خدمة عامة. وانتشرت البنوك في بريطانيا: ففي عام واحد، ١٨٣٦، أنشئ أكثر من ثمانية وأربعين بنكاً. وظهرت السكك الحديدية البريطانية في بنما نحو منتصف القرن، وفي عام ١٨٦٨، دشنت مؤسسة بريطانية أول خط للترام في أمريكا اللاتينية في مدينة ريسيف البرازيلية. كما كان بنك أوف إنجلاند يمول الخزانات الحكومية بصورة مباشرة[51]: وكانت السندات العامة الأمريكية اللاتينية توزع بنشاط، بأزماتها ورواجاتها، في السوق المالية البريطانية. ولما كانت الخدمات العامة للدول الجديدة في أيد بريطانية، فقد واجهت هذه الدول منذ انبثاقها تدفقاً للانفاقات العسكرية كما كان عليها أن تواجه حالات عجز في مدفوعاتها الخارجية. وكانت التجارة الحرة تنطوي على زيادة جنونية في الواردات، خاصة واردات السلع الكمالية، وكانت الحكومات تستدين، وهو ماكان يدعو بدوره إلى قروض جديدة، حتى تتمكن أقلية من العيش في ترف. وكانت البلاد ترهن مستقبلها مقدماً، مبتعدة عن الحرية الاقتصادية والسيادة

www.ibtesama.com/vb

السياسية. وباستثناء الحالة في باراجواي (التي جرى سحق محاولتها المعاكسة)، كانت العملية متشابهة في كافة أنحاء أمريكا اللاتينية - ومازالت متشابهة، مع أن الدائنين والآليات قد تغيرت. وقد أصبحت الحاجة إلى التمويل الخارجي ضرورية، شأنها في ذلك شأن حاجة المدمن إلى المورفين. لقد كان يجرى فتح ثغرات بهدف سدها. كما أن تدهور المعدلات التجارية للتبادل ليس ظاهرة تخص أيامنا. فوفقاً لسيلسو فورتادو[٥٢]، هبطت أسعار الصادرات البرازيلية بنسبة ٤٠ في المائة بين ١٨٢١ و ١٨٣٠ وبين ١٨٤١ و ١٨٥٠. بينما ظلت أسعار الواردات الأجنبية ثابتة: وكانت اقتصاديات أمريكا اللاتينية الضعيفة تعوض الهبوط باللجوء إلى القروض.

يقول روبرت شتيرب: "إن ماليات هذه الدول الفتية ليست على ما يرام... إنها مضطرة إلى اللجوء إلى التضخم، الذي يؤدي إلى تخفيض القيمة الشرائية للعملة، وإلى قروض جائرة. ولابد من القول إن تاريخ هذه الجمهوريات هو تاريخ التزامات اقتصادية تتحملها تجاه عالم المال الأوروبي الذي يستوعب كل شيء"[٥٣]. والواقع أن حالات اشهار الإفلاس، وتأجيل السداد، وإعادة التمويل المستميتة حالات متكررة. فالجنيهات الاسترلينية تتلاشى بالسرعة التي تتلاشى بها المياه بين الأصابع. ومن قرض المليون جنيه استرليني الذي تفاوضت عليه حكومة بوينوس آيريس مع مؤسسة بارنج برانرز في عام ١٨٢٤، لم تحصل الأرجنتين إلاّ على ٥٧٠,٠٠٠ جنيه استرليني، ولم يكن ذلك المبلغ من عملات ذهبية (كما نص على ذلك العقد) وإنما من عملات ورقية. وكان القرض عبارة عن حوالات بشأن طلبات مرسلة إلى رجال أعمال بريطانيين في بوينوس آيريس، لم يكن لديهم عملات ذهبية يدفعون بها لأن مهمتهم الحقيقية كانت تتمثل في ارسال كل المعادن النفيسة التي تصل إليهم إلى لندن. وهكذا حصلت الأرجنتين على ورق بينما كان عليها أن تدفع ذهباً. ولم تتمكن الأرجنتين من الغاء الدين، الذي كانت عمليات إعادة التمويل قد ضخمته إلى ٤ مليون جنيه استرليني، إلاّ في أوائل هذا القرن[٥٤]. وكانت مقاطعة بوينوس آيريس قد رُهِنَتْ بالكامل - كل ايراداتها، كل أراضيها العامة - ضماناً للسداد. وكما قال وزير المالية في الفترة التي جرى التعاقد فيها على القرض: "لسنا في موقف يسمح لنا باتخاذ تدابير ضد التجارة الخارجية، خاصة البريطانية، لأننا مرتبطون بتلك الأمة بديون ضخمة وسوف نعرض أنفسنا للقطيعة من شأنها أن تلحق ضرراً جسيماً...". إن استخدام الديون كأداة للابتزاز، كما يمكننا أن نرى، ليس بدعة أمريكية جديدة.

www.ibtesama.com/vb

وقد طوقت مثل هذه العمليات الربوية الأمم الحرة بالقضبان. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، كانت خدمة الدين الأجنبي قد استوعبت نحو ٤٠ في المائة من ميزانية البرازيل، ووقع كل بلد في المصيدة ذاتها. وشكلت السكك الحديدية ركناً حاسماً آخر من أركان قفص التبعية الحديدي: فعندما كانت الرأسمالية الاحتكارية مزدهرة، نقلت النفوذ الامبريالي إلى أبعد الساحات الخلفية للاقتصاديات الكولونيالية. وكان جانب كبير من القروض يذهب إلى تمويل إنشاء سكك حديدية بهدف نقل المعادن والمواد الغذائية إلى محطات التصدير. لقد شيدت خطوط السكك الحديدية ليس من أجل ربط المناطق الداخلية الواحدة بالأخرى، وإنما من أجل ربط مراكز الإنتاج بالموانئ، وما يزال تصميمها يشبه أصابع كف مفتوحة: وهكذا كانت السكك الحديدية، التي جرى الترحيب بها بوصفها طلائع لتحقيق التقدم، عقبة أمام تشكل وتطور سوق داخلية. كما حققت الأمم الامبريالية ذلك بوسائل أخرى، خاصة عن طريق سياسة تعريفة جمركية تتمشى مع متطلبات النموذج البريطاني. وعلى سبيل المثال، كانت رسوم الشحن المفروضة على السلع المنتجة في داخل الارجنتين أعلى بكثير من الرسوم المفروضة على السلع غير المصنعة. أما رسوم النقل عن طريق السكك الحديدية فقد صارت لعنة جعلت من المستحيل إنتاج السجائر في مناطق زراعة التبغ، أو الغزل والنسج في مناطق الصوف، أو تصنيع الأخشاب في مناطق الغابات[55]. صحيح أن السكك الحديدية الأرجنتينية قد ساعدت على تطور صناعة الأخشاب في سانتياجو ديل ايسيترو، لكن ذلك قد رافقته نتائج جعلت كاتبا محلياً يئن: "آه، ليت سانتياجو هذه لم تكن توجد بها شجرة قط!"[56].

لقد كانت عارضات السكك الحديدية تصنع من الخشب، وكان الفحم النباتي يستخدم كوقود؛ وقد أدت معسكرات نشر الأشجار التي أنشأتها السكك الحديدية إلى تمزيق المجتمعات الريفية، وتدمير الزراعة وتربية الماشية عن طريق تدمير المراعي وأشجار الظل وأدت إلى استعباد أجيال عديدة من سكان سانتياجو في الغابات، وزادت من التخلخل السكاني. ولم يتوقف النزوح الجماعي، وماتزال سانتياجو ديل ايسيترو إلى اليوم واحدة من أفقر مقاطعات الأرجنتين. وعندما تحولت السكك الحديدية إلى استخدام البترول، أغرقت المنطقة في أزمة عميقة.

ولم يكن رأس المال البريطاني هو الذي مد الخطوط الأولى عبر الأرجنتين، والبرازيل، وتشيلي، وجواتيمالا، والمكسيك، وأوروجواي، ولاقي باراجواي، كما رأينا: لكن السكك الحديدية التي شيدتها دولة باراجواي، بمساعدة فنيين أوروبيين، قد انتقلت إلى

www.ibtesama.com/vb

أيد بريطانية بعد الهزيمة. وسارت السكك الحديدية البلدان الأخرى في الدرب عينه دون أن تنتج مليماً واحداً من استثمارات جديدة؛ وعلاوة على ذلك، فإن عقود الدول قد حرصت على أن تكفل الشركات مستوى حد أدنى من الربح تجنباً للمفاجآت المحتملة في السارة. وبعد عقود، في نهاية الحرب العالمية الثانية، عندما لم تعد السكك الحديدية تدر المزيد من الأرباح وانحدرت إلى هجر نسبي لاستخدامها، قامت السلطات العامة باستردادها. والحال أن كل الدول تقريبا قد اشترت الحديد الخردة من البريطانيين وأممت بذلك خسائر الشركات.

وعندما كانت السكك الحديدية زاهرة، كانت الشركات البريطانية تحصل في أغلب الأحيان على امتيازات ملحوظة في الأراضي الواقعة على أحد جانبي الطريق، بالإضافة إلى الطريق نفسه وحق بناء خطوط فرعية جديدة. وكانت الأرض ثروة استثمارية إضافية. وقد أدت منحة خرافية للسكك الحديدية البرازيلية في عام ١٩١١ إلى حرق عدد لاحصر له من الأكواخ وإلى طرد أو موت الأسر الفلاحية في منطقة الامتياز. وكان ذلك هو ما فجَّرَ تمرد "الكونتيستادو"، أحد أعظم تفجرات الغضب الشعبي في التاريخ البرازيلي.

■ الحماية والتجارة الحرة في الولايات المتحدة: لم يكن النجاح من عمل يدٍ خفية

عندما كان التحالف الثلاثي يعلن دمار باراجواي الوشيك في عام ١٨٦٥، كان الجنرال أوليسيس. جرانت يحتفل باستسلام الجنرال روبرت لي في آبوماتوكس. لقد جلبت الحرب الأهلية الانتصار إلى الصناعيين الشماليين – دعاة الحماية السافرين – على زراع القطن والتبغ الجنوبيين دعاة التجارة الحرة. وهكذا تزامن نشوب الحرب التي رسمت مصير أمريكا اللاتينية الكولونيالي مع نهاية الحرب التي مكنت الولايات المتحدة من توطيد موقعها كقوة عالمية. وكما قال الرئيس جرانت الذي انتخب فور إنتهاء الحرب:

> "لقد اعتمدت انجلترا لقرون على الحماية، بل ومضت بها إلى أقصى حد، وكسبت من ورائها نتائج مرضيه. ولاشك أنها مدينة بقوتها الحاضرة لهذا النظام. وبعد قرنين، وجدت انجلترا أن من المناسب اعتماد مبدأ حرية التجارة لأنها ترى أن الحماية لم يعد بوسعها أن تعود عليها بشيء. حسناً

www.ibtesama.com/vb

إذاً، أيها السادة، إن معرفتي ببلادي تدفعني إلى الاعتقاد بأن أمريكا سوف تعتمد هي الأخرى مبدأ حرية التجارة، ولكن بعد قرنين، عندما تكون قد كسبت من الحماية كل ما يمكنها تقديمه[٥٧].

قبل قرنين ونصف من ذلك الكلام، كانت الرأسمالية الانجليزية اليافعة قد أرسلت رجالها، ورساميلها، وأسلوب حياتها، وحوافزها، ومشاريعها إلى مستعمراتها الأمريكية الشمالية. إن المستعمرات الثلاث عشرة وهي صمامات أمان للفائض السكاني الأوروبي، سرعان ما أجبرت على تعويض "عاهة" فقر أرضها وباطن أرضها، وطورت منذ البداية فلسفة تصنيع لم يفعل المتروبول شيئاً يذكر لإحباطها. ففي عام ١٦٣١، دشن المستوطنون الذين وصلوا حديثاً إلى بوسطن مركباً شراعياً ذا صار واحد يزن ثلاثين طناً، هو "نعمة الخليج"، الذي بنوه بأنفسهم، ومنذ ذلك الحين فصاعداً نمت صناعة السفن بسرعة. وكان شجر السنديان الأبيض، الموجود بوفرة في الغابات، مثالياً بالنسبة إلى صنع هياكل وأبدان السفن؛ وكانت متون السفن، والأعمدة الأمامية للسفن، والصواري تصنع من خشب الصنوبر. وقد دعمت ماساشوسيتس إنتاج خيوط القنب لصنع الأشرعة والحبال، كما شجعت الإنتاج المحلي لأقمشة القنب وللأشرعة. وإلى شمالي وجنوبي بوسطن كانت السواحل مليئة بترسانات مزدهرة. وكانت الحكومات الكولونيالية تقدم إعانات وعلاوات تشجيعية لكافة أنواع الصناعة. وكانت هناك حوافز لتشجيع إنتاج خيوط الكتان والصوف، المواد الأولية لمنسوجات خشنة، إن لم تكن زاهية جداً، كانت تقي من تقلبات الأحوال الجوية وكانت قومية. ولاستغلال مستودعات الحديد في لين، دخل المسبك الأول حيز العمل في عام ١٦٤٣؛ وسرعان ما أخذت ماساشوسيتس تزوّد المنطقة كلها بالحديد. وعندما بدا العائق إلى إنتاج المنسوجات غير كاف، اختارت هذه المستعمرة اللجوء إلى الاكراه: فقد فرضت في عام ١٨٥٥ عقوبات قاسية على أية أسرة لاتقوم بتشغيل متواصل لعجلة غزل واحدة على الأقل. وفي الفترة نفسها كان على كل ناحية في فيرجينيا أن تختار أطفالاً من بينها لتعلّم صناعة النسيج. كما كان من المحظور تصدير الجلود، حتى يمكن استخدامها محلياً لإنتاج الأحذية الطويلة الرقبة، والأحزمة والأسرجة.

وقد كتب المؤرخ الاقتصادي ادوارد كيركلاند[٥٨] يقول إن المعوقات التي لابد للصناعات الكولونيالية من مواجهتها تأتي من كل اتجاه باستثناء السياسة الكولونيالية البريطانية. (٣٢). والواقع أن البعد مسافة ثلاثة آلاف ميل وصعوبات المواصلات قد

www.ibtesama.com/vb

جعلت التشريعات المحتملة تفقد كل مفعولها تقريبا وشجعت الاتجاه إلى الاكتفاء الذاتي. ولم تكن المستعمرات الشمالية ترسل إلى انجلترا ذهباً، أو فضة، أو سكراً، في حين أن حاجاتها الاستهلاكية قد أدت إلى زيادة في الواردات كان يتعين وقفها بطريقة ما. وكانت التجارة عبر المحيط غير كبيرة؛ ولذا كانت تنمية الصناعات المحلية ضرورية للبقاء. ولم يكن اهتمام انجلترا بتلك المستعمرات في القرن الثامن عشر كبيراً بحيث أنها لم تمكنت من ادخال أحدث تقنيات المتروبول في مصانعها، محولة المواثيق الكولونيالية المقيدة إلى قصاصات من الورق. وكان ذلك بعيداً عن أن يكون صحيحاً بالنسبة إلى المستعمرات الأمريكية اللاتينية، التي كانت تسلم هواءها، وماءها، وملحها إلى الرأسمالية الأوروبية الصاعدة وكانت تحصل في مقابل ذلك على وفرة من أجمل وأغلى السلع الكمالية لتدليل طبقاتها الحاكمة. وكانت الأنشطة الوحيدة المتوسّعة في أمريكا اللاتينية هي الأنشطة الموجهة نحو التصدير، وقد استمر الحال على هذا النحو في القرون التالية: إن المصالح الاقتصادية البورجوازية التعدينية والعقارية لم تتطابق قط مع الحاجة إلى التنمية الاقتصادية الداخلية. وكان رجال الأعمال أقل ارتباطاً بالعالم الجديد من ارتباطهم بالأسواق الخارجية فيما يتعلق بالمعادن والمواد الغذائية التي يريدون بيعها وبالمصادر الخارجية للسلع المصنعة التي يريدون شراءها.

وعندما أعلنت الولايات المتحدة استقلالها، كان عدد سكانها مثل عدد سكان البرازيل. والحال أن المتروبول البرتغالي - المتخلف تخلف المتروبول الاسباني - قد صدّر تخلفه إلى المستعمرة. وطوال القرن الثامن عشر، اندرج اقتصاد البرازيل في السيمفونية البريطانية كمورد للذهب إلى الامبراطورية. وقد انعكست هذه الوظيفة في البنية الطبقية للمستعمرة. وخلافاً للحال في الولايات المتحدة، لم تكن الطبقة الحاكمة في البرازيل مؤلفة من مزارعين، ومستثمرين صناعيين، ورجال أعمال محليين. والحال أن المفسّرين الرئيسيين لمُثل الطبقة الحاكمة في كل من البلدين، الكسندر هاملتون والفيكونت دي كايرو (أحد الشخصيات الرئيسية التي لعبت دوراً مؤثراً في فتح الموانئ في عام ١٨٠٨)، قد عبرا عن الاختلاف تعبيراً واضحاً[٥٩]. لقد كان كل منهما، في انجلترا، من اتباع آدم سميث، إلاّ أنه بينما أصبح هاملتون من أنصار التصنيع وأحد المشجعين لحماية الدولة للصناعة القومية، كان كايرو يؤمن باليد الخفية التي حركت سحر الليبرالية: دعه يعمل ، دعه يمر، دعه يبيع.

وبطول نهاية القرن الثامن عشر، كانت الولايات المتحدة تملك ثاني أسطول

www.ibtesama.com/vb

تجارى فى العالم، وكان هذا الأسطول يتألف من سفن مبنية بالكامل فى ترساناتها، وكانت مصانع النسيج والصلب فيها تحقق نمواً متصاعداً. وسرعان مادارت عجلة صناعة الآلات فيها، مما أنهى احتياج مصانعها إلى شراء سلع رأسمالية من الخارج. وكان حجاج ماى فلاور المتحمسون قد أرسوا الأساس لأمة فى ريف نيوإنجلاند؛ وكانت بورجوازية صناعية قد نمت وازدهرت بشكل متواصل على طول ساحل خلجانها العميقة ومصبات أنهارها العظيمة. وفى هذا، كما رأينا، فإن تجارة جزر الأنتيل - بما فى ذلك بيع العبيد الأفارقة - قد لعبت دوراً رئيسياً، لكن الانجاز الامريكى ماكان ليحدث لولا أن شرارة لهب قومى مضطرم قد أشعلت أواره منذ البداية. وقد دعا جورج واشنطون فى كلمته الوداعية إلى أن تنتهج الولايات المتحدة سبيلاً مستقلاً[٦٠]. وكان ايمرسون قد أعلن فى عام ١٨٣٧: "لقد طال سماعنا لندآهات أوروبا ... إننا سوف نسير على أقدامنا نحن؛ وسوف نعمل بأيدينا نحن؛ وسوف نعبر عما يجول بخواطرنا نحن"[٦١].

وقد أدت الانفاقات العامة إلى توسيع السوق الداخلية. فقد بنت الولايات الطرق، والسكك الحديدية، والجسور والقنوات[٦٢]. وفى منتصف القرن، شاركت ولاية بنسلفانيا فى تدشين أكثر من مائة وخمسين مشروعاً من مشاريع الاقتصاد المختلط، بالإضافة إلى تدبير المائة مليون دولار المستثمرة فى الاشغال العامة. كما أن العمليات العسكرية التى انتزعت أكثر من نصف أراضى المكسيك قد ساهمت مساهمة هامة فى تقدم البلاد، لكن الولاية شاركت فى عملية التنمية بما هو أكثر من استثمار الرساميل والتكاليف العسكرية للتوسع؛ وكان قد جرى تدشين سياسة حماية صارمة فى الشمال. أما كبار ملاك الأراضى فى الجنوب فقد كانوا، خلافاً لذلك، من أنصار التجارة الحرة. وكان إنتاج القطن يتضاعف كل عشر سنوات، وبرغم أنه قد عاد على البلاد بكاملها بدخل تجارى ضخم وكان يغذى مصانع النسيج الحديثة فى ماساشوسيتس، إلا أنه كان يعتمد على الأسواق الأوروبية بالدرجة الأولى. وكانت الارستقراطية الجنوبية، شأنها فى ذلك شأن الارستقراطية الأمريكية اللاتينية، مرتبطة بالسوق العالمية بالدرجة الأولى؛ وكانت نسبة ٨٠ فى المائة من الأقطان المغزولة فى المصانع الأوروبية تجيئ من كدح العبيد الجنوبيين. وعندما أضيف الغاء العبودية إلى الحماية الصناعية الشمالية، أدى التناقض إلى اشتعال الحرب. لقد كان الشمال والجنوب يواجه أحدهما الآخر كعالمين متعارضين، وعصرين تاريخيين، وفلسفتين متناحرتين من المصير القومى. وقد كسب القرن العشرون

حرب القرن التاسع عشر هذه.

لقد آن الأوان لكي يغني كل حر......

فقد مات الملك القطن العجوز ووري التراب»

هكذا غنّى أحد شعراء الجيش الظافر[١٣]. وبعد هزيمة الجنرال لي، أصبحت القداسة من نصيب الرسوم الجمركية، التي كانت قد زيدت خلال الحرب للحصول على ايرادات وظلت سارية المفعول لحماية صناعة الظافرين. وأيد الكونجرس تعريفة "ماكنلي" الحمائية المتطرفة في عام ١٨٩٠، وأدى مرسوم دنجلي إلى زيادة الرسوم الجمركية زيادة هائلة أخرى في عام ١٨٩٧ . وبعد ذلك مباشرة، شعرت البلدان الأوروبية المتقدمة أنها مضطرة لإقامة حواجز جمركية ضد غزو السلع الامريكية المنافسة منافسة خطيرة. وكانت كلمة "تروست" قد سكت في عام ١٨٨٢: إذ كانت الاحتكارات التي تتقدم بخطى عملاقة قد سيطرت على البترول والصلب، والمواد الغذائية والسكك الحديدية، والتبغ[١٤].

وكان جرانت قد شارك في نهب المكسيك قبل الحرب الأهلية؛ وقد أصبح بعد الحرب رئيساً من أنصار الحماية: لقد لعب كل الأدوار التي تندرج في سياق عملية التأكيد القومي نفسها. وكانت الصناعة الشمالية تقود أوركسترا التاريخ، ويوصفها السيد السياسي الدولة، كانت ترعى مصالحها من مقعد السلطة. أما الحدود الزراعية فقد اتجهت غرباً وجنوباً على حساب الهنود والمكسيكيين، لكنها شغلت المساحات المفتوحة الجديدة بحيازات صغيرة، لا بملكيات زراعية كبيرة. والحال أن الأرض الموعودة لم تجتذب الفلاحين الأوروبيين وحدهم؛ إن صناعاً ينتمون إلى أكثر الحرف تنوعاً وعمالاً مدربين في مجالات الميكانيكا، والمعادن، وإنتاج الصلب قد جاءوا أيضاً من أوروبا لإثراء عملية التصنيع الجارية في البلاد. وبحلول نهاية القرن، كانت الولايات المتحدة قد أصبحت القوة الصناعية القائدة؛ ففي غضون ثلاثين سنة بعد الحرب الأهلية كانت مصانعها قد ضاعفت طاقتها الإنتاجية سبع مرات. وكانت تنتج من الفحم مثل ماتنتجه بريطانيا، وكانت تنتج من الصلب ضعف ماتنتجه بريطانيا وكان طول خطوط سككها الحديدية يزيد تسع مرات عن طول خطوط السكك الحديدية البريطانية. لقد كان مركز العالم الرأسمالي آخذاً في الانتقال.

وبعد الحرب العالمية الثانية، بدأت الولايات المتحدة في تقليد بريطانيا في تصدير مذهب التجارة الحرة والمنافسة الحرة، حتى يتسنى للشعوب الأخرى أن تستهلك منتجاتها. وقد برز صندوق النقد الدولي والبنك الدولي معاً لكي يحرما البلدان النامية

www.ibtesama.com/vb

من حق حماية صناعاتها القومية، ولتثبيط تدابير الدول فى تلك البلدان. وجرى اضفاء خصائص علاجية سحرية على المشروع الخاص. لكن الولايات المتحدة لم تتخل عن سياسة اقتصادية ماتزال حمائية بصورة صارمة، وتصغى باهتمام لصوت التاريخ: فلم يجر خلط المرض بالعلاج قط فى الشمال.



www.ibtesama.com/vb

الهوامش

(1) Willian W. Kaufmann, ***La politica británic y la independencia de la América Latina*** (1804 - 1828), Caracas, 1963.

(2) Manfred Kossok, ***El virreinato del Rio de la Plata. Su estructura económico-social***, Buenos Aires, 1959.

(3) H. S. Ferns, ***Gran Bretaña y argentina en el siglo XIX***, Buenos Aires, 1966.

(4) ***Ibid.***

(5) Alexander von Humbldt, ***Ensayo sobre el reino de la Nueva España***, México, 1944.

(6) Emilio Romero, ***Historia económica del Perú***, Buenos Aires, 1949.

(7) ***Ibid.***

(8) Hernán Ramírez Necochea, ***Antecedentes económicos de la independencia de Chile***, Santiago de Chile, 1959.

(9) Caio Prado Júnior, ***Historia económica del Brasil***, Buenos Aires, 1960.

(10) The University Society, ***Bolivia en el primer centenario de su independencia***, La Paz, 1925.

(11) Luis C. Alen Lascano, ***Imperialismo y comercio libre***, Buenos Aires, 1963.

(12) Pedro Santos Martínez, ***Las industrias durante el virreinato (1776 - 1810)***, Buenos Aires, 1969.

(13) Ricardo Levene, introducción a ***Documentos Para la historia argentina, 1919***, en Obras completas, Buenos Aires, 1962.

(14) Woodbine Parish, ***Buenos Aires y las Provincias del Rio de la Plata***, Buenos Aires, 1958.

(15) Paulo Schilling, ***Brasil para extranjeros***, Montevideo, 1966.

(16) Alan K. Manchester, ***British Preeminence in Brazil: its Rise and Decine,***

www.ibtesama.com/vb

Chapel Hill, Carolina del Norte, 1933.

(17) Celso Furtdo, ***Formación económica del Brasil***, México - Buen Aires, 1959.

(18) J. F. Normano, ***Evolução econômica do Brasil***, São Paulo, 1934.

(19) Gustavo Beyhaut, ***Raíces contemporáneas de América Latina***, Buenos Aires, 1964.

(20) Hernán Ramírez Necochea, ***Historia del imperialismo en Chile***, Santiago de Chile, 1960.

(٢١) دعا هذا الاقتصادي الألماني، المولود في عام ١٧٨٩، في الولايات المتحدة وفي بلاده، إلى الحماية والتنمية الصناعية، وقد انتحر في عام ١٨٤٦، إلا أن أفكاره قد وجدت صدى بعيداً لها في كل من البلدين.

(22) Claudio Véliz, ***La mesa de tres patas, en Desarrollo económico***, vol. 3, núms. 1 y 2, Santiago de Chile, septiember de 1963.

(٢٣) "إذا كان دعاة التجارة الحرة لايمكنهم أن يفهموا كيف يمكن لأمة أن تثري على حساب أمة أخرى، فليس في ذلك ما يدعونا إلى الاستغراب، لأن هؤلاء السادة يرفضون أيضاً أن يفهموا كيف يمكن لطبقة داخل بلد واحد أن تثري على حساب طبقة أخرى". كارل ماركس، حول مسألة التجارة الحرة، في بؤس الفلسفة، موسكو، دون تاريخ.

(24) Luis Chávez Orozco, ***La industria de transformación mexicana (1821 - 1867)***, en Banco Nacional de Comercio Exterior, Colección de documentos para la historia del comercio exterior de México, tomo VII, México, 1962.

(25) Alonso Aguilar Monteverde, ***Dialéctica de la economía mexicana***, México, 1968.

(26) Jan Bazant, ***Estudio sobre la productividad de la industria algodonera mexicana en 1843 - 1845*** (Lucas Alamán y la Revolución industrial en México), en Banco Nacional de Comercio Exterior, op. cit.

(27) Luis Chávez Orozco, ***op. cit.***

(٢٨) في عام ١٨٥٠، نشرت في مجلة إل سيجلو (القرن التاسع عشر) بيانات مختلفة تدعو إلى فرض الحماية: "بانتهاء فتح الحضارة الاسبانية وقرون سيطرتها العسكرية الثلاثة، دخلت المكسيك عصراً

www.ibtesama.com/vb

جديداً، يمكن أن يسمى هو أيضاً فتحاً، لكنه فتح علمي وتجاري ... إن قوته هي الملاحة التجارية، وعقيدته هي الحرية الاقتصادية المطلقة؛ ومبدأه الجبار مع الشعوب الأقل تقدماً هو قانون التبادل ... إنهم يقولون لنا: "فلتحضروا إلى أوروبا أية منتجات يمكنكم إحضارها (ولكن فيما عدا تلك التي نحظرها)؛ وفي المقابل، دعونا نحضر لكم المنتجات التي يمكننا إحضارها، مع أنها قد تدمر صناعاتكم" ... إننا لو تبنينا المذاهب التي تسمح لهم (سادتنا عبر المحيط والريو جراندي) بأن يقدموا دون أن يأخذوا، فقد لاتستفيد خزانتنا كثيراً ... لكننا بذلك لن نشجع عمل الشعب المكسيكي بل عمل الشعوب الانجليزي والفرنسي والسويسري والامريكي الشمالي».

(29) Miron Burgin, *Aspectos económicos del federalismo argentino*, Buenos Aires, 1960.

(30) Juan Alvarez, *Las guerras civiles argentinas*, Buenos Aires, 1912.

(٣١) إن عصابة المونتونيرا «تولد في السهول كزوبعة، وهي تضرب، وتهدر، وتسحق كزوبعة، ثم تتوقف وتتلاشى فجأة كزوبعة». (داريو دي لافيجاديات).

وفي كتاب «مارتين فييرو»، وهو أكثر الكتب شعبية في الأرجنتين، يصوغ خوسيه إرناندث (الذي كان جندياً اتحادياً) محنة الجاوشو المنفي في ملاذه والذي تضطهده السلطات، في أغنية :

يحيا النسر في عشه،
يحيا النمر في الأجمة،
والثعلب في أي كهف،
لكن الجاوشو وحده،
في حظه المتقلب،
يحيا تائها حيثما ساقه القدر
لأن :
الغياهب في انتظاره،
والسجون المروعة في انتظاره،
وليس في أي شئ يقوله حق،
مع أن له حقاً وفيراً –
حق ناقوس كنيسة خشبي،
حق القتيل.

ويلاحظ خورخي أبيلاردو راموس أن اللقبين الحقيقيين الواردين في «مارتين فييرو»، هما

إنتنورينا وجابرتنا – وهما اسمان يمثلان الأوليجاركية التي أبادت الكريول المسلحين . وقد اندمج الاسمان اليوم في العائلة التي تملك صحيفة لابرنسا اليومية .

أما الوجه الآخر لتاريخ فيرى فيظهر في كتاب ريكاردو جويرالدس «دون سيجوندو سومبرا» (١٩٢٦) : فهنا نجد الجاوشو الذي جرى تدجينه، والمرتبط بالوجه اليومي، والذي يتودد إلى سيده، والذي يعتبر نموذجاً مفيداً للفولكلور الحنين إلى الماضي والشفقة.

(٣٢) في عام ١٨٧٠ ، أغرق الغزاة الأجانب باراجوي أيضاً في حمام دم، وكانت باراجوي هي البلد الأمريكي اللاتيني الوحيد الذي لم يكن قد دخل بعد السجن الامبريالي.

(33) Miron Burgin, ***Op. Cit.***

(34) Juan Álvarez, ***Op. Cit.***

(35) Jorge Abelardo Ramos, ***Op. Cit.***

(36) José Luis Busaniche, ***Rosas visto por sus contemporáneos***, Buenos Aires, 1955.

(٣٧) في كتابة الشهير Tablas dr Sangre ، وضع خوسيه ريبيرا قائمة بجرائم روساس لكي يثير فزع الحساسيات الأوروبية . ووفقاً لمجلة أطلس (لندن) فإن بيت ممول الأمن المصرفي البريطاني قد دفع للكاتب مليماً لقاء كل جثة. وكان روساس قد ضرب الامبراطورية بقوة عندما حظر صادرات الذهب والفضة، وكان قد حل البنك الأهلي، الذي كان أداة التجارة البريطانية .

(38) Vivian Trias, ***Juan Manuel de Rosas***, Montevideo, 1970.

(39) Discurso de Gervasio A. de Posadas. Citado por Dardo Cúneo, ***Comportamiento y crisis de la clase empresaria***, Buenos Aires, 1967.

(40) Armando Raúl Bazán, ***Las bases sociales de la montonera, en Revista de historia americana y argentina***; núms. 7 y 8, Mendoza, 1962 - 63.

(41) Domingo Faustino Sarmiento, ***Facundo***, Buenos Aires, 1952.

(42) Mario Margulis, ***Migración y marginalidad en la sociedad argentina***, Buenos Aires, 1968.

(43) Para escribir este capítulo el autor consultó las siguientes obras: Juan Bautista Alberdi, ***Historia de la guerra del Paraguay*** (Buenos Aires, 1962); Pelham Horton Box, ***Los orígenes de la Guerra de la Triple Alianza*** (Buenos Aires-Asunción, 1958); Efraím Cardozo, El imperio del

www.ibtesama.com/vb

Brasil y el Río de la Plata (Buenos Aires, 1961); Julio César Chaves, ***El presidente López*** (Buenos Aires, 1955); Carlos Pereyra, ***Francisco Solano López y la guerra del Paraguay*** (Buenos Aires, 1945); Julio F. Pérez Acosta, ***Carlos Antonio López, obrero máximo. Labor administrativa y constructiva*** (Asunción, 1948); José María Rosa, ***La guerra del Paraguay y las montoneras argentinas*** (Buenos Aires, 1965); Bartolomé Mitre y Juan Carlos Gómez, ***Cartas polémicas sobre la guerra del Paraguay***, con prólogo de J. Natalicio González (Buenos Aires, 1940). También un trabajo inédito de Vivian Trías sobre el tema.

(٤٤) في التواريخ الرسمية، يجري تصوير فرانثيا على أنه بطل من أبطال الرعب. على أن التشويهات البصرية التي فرضتها الليبرالية ليست حكراً على الطبقات الحاكمة في أمريكا اللاتينية؛ ذلك أن كثيرين من المثقفين اليساريين الذين ينظرون إلى تاريخ بلادنا من خلال نظارات غربية يقبلون بعض الخرافات، والتقبلات والاستبعادات اليمينية: إن النشيد الكامل لبابلو نيرودا يشيد إشادة مؤثرة بالشعوب الأمريكية اللاتينية، لكنه يكشف بشكل واضح عن هذا الزيغ. فنيرودا لايبالي بارتيجاس أو بكارلوس أنطونيو أو بفرانثيسكو لوبث، بينما يتعاطف بدلاً من ذلك مع سارميينتو، وهو يصف فرانثيا بأنه «ملك مصاب بالجذام»، وهو ليس أكثر وداً تجاه روساس.

(٤٥) كان رهبان جمعية يسوع المتعصبون، «الحرس الأبيض للبابا»، قد أصبحوا مدافعين عن نظام العصر الوسيط ضد القوى الجديدة التي أخذت تقتحم المسرح الأوروبي. لكن الإرساليات اليسوعية في أمريكا الاسبانية قد تطورت تطوراً تقدمياً، لقد تمكنت من أن تطهر، عن طريق نكران الذات وعن طريق ضرب المثل في الزهد، كنيسة كاثوليكية كانت قد استسلمت للكسل والاستغلال الطليق للخيرات التي كان الفتح قد أتاحها لرجال الدين، وكانت ارساليات باراجواي هي التي وصلت إلى أسمى مستوى: ففي غضون ما لا يزيد كثيراً عن قرن ونصف (١٦٠٣ – ١٧٦٨)، بددت بالكامل غايات مؤسسيها. لقد استخدم اليسوعيون الموسيقى لاجتذاب الهنود الجوارانيين الذين كانوا يبحثون عن ملاذ لهم في الغابات، والذين كانوا قد مكثوا هناك بدلاً من الإنضمام إلى «العملية التمدينية» التي نشنها الولاة وكبار ملاك الأراضي. وهكذا تمكن ١٥٠,٠٠٠ جواراني من العودة إلى تنظيمهم المشاعي البدائي وإحياء فنونهم وحرفهم التقليدية. وكان نظام اللاتيفونديا غير معروف في الإرساليات؛ إذ كانت تجري زراعة الأرض لإشباع الحاجات الفردية من ناحية، ولتنمية مشاريع تخص الصالح العام، من ناحية ثانية، ولتكبير موارد الحصول على أدوات العمل الضرورية.

www.ibtesama.com/vb

التي كانت ملكية عامة، من ناحية ثالثة. وقد نظمت حياة الهنود تنظيماً ذكياً؛ وكان الموسيقيون، والحرفيون، والمزارعون، والنساجون، والمثالون، والرسامون، والبناة يجتمعون في ورش ومدارس. ولم تكن النقود معروفة؛ وكان ممنوعاً علي التجار أن يدخلوا المنطقة وكان عليهم عقد أية معاملات من فنادق علي بعد مسافة كافية. وقد خضع التاج في النهاية لضغط الولاة الكريول وطُرد اليسوعيون من أمريكا اللاتينية، وأخذ كبار ملاك الأراضي وتجار العبيد يتعقبون الهنود، وكانت الجثث تتدلي من الأشجار في مناطق الإرساليات؛ وبيعت مجموعات بشرية بأكملها في أسواق العبيد البرازيلية. وقد لجأ هنود كثيرون الي الغابات ثانية . واستخدمت مكتبات اليسوعيين وقوداً للأفران أو لصنع خراطيش البارود.

(٤٦) ما زال سولانو لوبث حياً في الذاكرة . ففي سبتمبر ١٩٦٩، عندما أعلن المتحف التاريخي القومي في ريو دي جانيرو أنه سوف يخصص لوحة لرئيس باراجواي، انتاب العسكريين الغضب. وفي حديث إلي الصحف، قال الجنرال موروباي فيلهو، الذي كان قد دشن انقلاب ١٩٦٤، «إن روح جنون تجتاح البلاد ..... إن سولانو لوبث شخصية يجب محوها إلي الأبد من تاريخنا، فهو نموذج للديكتاتور الامريكي الجنوبي العسكري. لقد كان جزاراً دمَّر باراجواي، إذ قادها إلي حرب مستحيلة».

(٤٧) قبل انتخابات ١٩٦٨، زار الجنرال ستروسنر الولايات المتحدة، وقال لوكالة الصحافة الفرنسية عندما التقيت بالرئيس جونسون، أوضحت له انني قد أديت مهمة رئيس الوزراء لمدة اثني عشر عاماً بتفويض استفتائي، وقد رد جونسون بأن ذلك يعد سبباً آخر لمواصلة اداء المهمة في الفترة القادمة.

(48) Presidencia de la Nación, Secretaría de Técnica de Planificación, *Plan nacional de desarrollo ecnómico y social*, Asunción, 1966.

(٤٩) اختار فلاحون كثيرون في نهاية الأمر العودة إلي منطقة المزارع الصغيرة في وسط البلاد أو انضموا إلي النزوح الجماعي الجديد الي البرازيل، حيث يقدمون قوة عملهم الرخيصة إلي مزارع الماتي في كوريتيبا وماتو جروسو أو مزارع البن في بارانا. أما المنطقة الأقصي فهي محنة الرائد، الذي يجد نفسه وجهاً لوجه مع الغابة، محروماً تماماً من المعرفة التقنية أو المساعدة الائتمانية، مع أراض «ممنوحة» من الحكومة يتعين عليه أن يستخلص منها ما يكفي لإطعامة وسداد ديونه – لأنه إن لم يدفع الثمن المحدد للأرض فإنه لن يحصل علي حق حيازتها .

(50) R. Scalabrini Ortiz, *Política en el Río de la Plata*, Buenos Aires, 1940.

(51) J. Fred Rippy, *British Investments in Latin America (1822 - 1949)*, Minneapolis, 1959.

www.ibtesama.com/vb

(52) Celso Furtado, ***Op. Cit.***

(53) Robert Schnerb, ***Le XIX' siécle. L'apogée de l'expansion européenne (1815 - 1914)***, tomo VI de la historia general de las civilizaciones dirigida por Maurice Grouzet, París, 1968.

(54) R. Scalabrini Ortiz, ***Op. Cit.***

(55) ***Ibid.***

(56) J. Eduardo Retondo, ***El bosque y la industria forestal en Santiago del Estero***, Santiago del Estero, 1963.

(57) Citado por André Gunder Frank, ***Capitalism and Underdevlopment in Latin America,*** Nueva York, 1967.

(58) Edward C. Kirkland, ***Historia económica de Estados Unidos***, México, 1941.

(59) Celso Furtado, ***Op. Cit.***

(60) Claude Fohlen, ***L'Amérique anglo-saxonne de 1815 á nos jours***, París, 1965.

(61) Robert Schnerb, ***Op. Cit.***

(62) Harry H. Pierce, ***Railroads of New York, A Study of Goverment Aid, 1826 - 1875***, Cambridge, Massachusetts, 1953.

(63) Claude Fohlen, ***Op. Cit.***

(٦٤) لقد أصبح الجنوب مستعمرة داخلية للرأسماليين الشماليين. وبعد الحرب، اتخذت الدعاية الموجهة إلى إنشاء مصانع الغزل في كارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية وجورجيا والاباما أبعاد حرب صليبية. لكن ذلك لم يكن إنتصاراً لقضية أدبية، ولم تكن وراء الصناعات الجديدة أية نزعة انسانية خيرية خالصة؛ لقد كان الجنوب يقدم قوة عمل وطاقة أرخص وأرباحاً فلكية، تصل أحياناً إلى نسبة ٧٥ في المائة. وقد تدفق رأس المال من الشمال لربط الجنوب بمركز جاذبية النظام. وكانت صناعة التبغ، المتركزة في كارولينا الشمالية، خاضعة للتروست دوك مباشرة، وهو التروست الذي جعل مقره الرئيس في نيوجيرسي للاستفادة من قوانين مناسبة أكثر؛ وفي عام ١٩٠٧، وقعت شركة فحم وحديد تنيسي، التي كانت تستغل حديد وفحم الاباما، تحت سيطرة تروست الصلب الأمريكي، الذي أخذ منذ تلك الحين فصاعداً في تحديد الأسعار والقضي بذلك على المنافسة المزعجة. وفي بداية القرن العشرين، كان دخل الفرد في الجنوب قد هبط إلى نصف ما كان عليه قبل الحرب الأهلية.

www.ibtesama.com/vb

بنية النهب المعاصرة

■ تعويذة عاجزة

من مجموع الاستثمارات الخاصة المباشرة في أمريكا اللاتينية والقادمة من الخارج، كانت نسبة تقل عن الخمس قادمة من الولايات المتحدة عندما كتب لينين "الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية" في ربيع ١٩١٦. فما هي الامبريالية التي عرفها لينين؟ إنها ضراوة المراكز الصناعية السامية إلى أسواق عالمية لسلعها؛ حمّى الاستيلاء على كافة المصادر المحتملة للمواد الخام: نهب الحديد، والفحم والبترول؛ السكك الحديدية التي أدت إلى ترابط السيطرة على المناطق الخاضعة للهيمنة؛ القروض الشرهة التي تقدمها الاحتكارات المالية؛ الحملات العسكرية؛ حروب الفتح. إنها امبريالية سممت كل مكان، سواء كان مستعمرة أو شبه مستعمرة، قد يجرؤ على بناء مصنع خاص به. لقد كان التصنيع امتيازاً للمتروبولات؛ أما في البلدان الفقيرة فقد كان متعارضاً مع نظام السيطرة الذي فرضته البلدان الغنية. وقد شهدت نهاية الحرب العالمية الثانية تراجعاً شاملاً للمصالح الأوروبية عن أمريكا اللاتينية، بينما أخذت الاستثمارات الأمريكية تتقدم تقدماً ظافراً. ومنذ ذلك الحين وهناك تغير مهم في بؤرة الاستثمار. فشيئاً فشيئاً، وسنة بعد سنة، أخذ رأس المال المستثمر في الخدمات العامة والتعدين يفقد أهميته، بينما زاد بالمقابل حجم الاستثمارات في البترول و، بالدرجة الأولى، في الإنتاج الصناعي. وفي الوقت الحاضر، فإن دولاراً أمريكياً من كل ثلاثة دولارات أمريكية مستثمرة في أمريكا اللاتينية يستثمر في الصناعة[1].

وفي مقابل استثمارات تافهة، تقفز فروع الشركات العملاقة فوق الحواجز الجمركية المقامة - يا للمفارقة! - ضد المنافسة الأجنبية، وتستولي على عملية التصنيع الداخلية. إنها تصدر المصانع أو، وهذا ليس نادراً، تحاصر وتبتلع المصانع القائمة بالفعل. ولكي تحقق ذلك يمكنها الاعتماد على المساعدة المتحمسة من جانب معظم الحكومات المحلية وعلى قوة الابتزاز التي تسبغها عليها المنظمات الائتمانية الدولية. إن رأس المال الامبريالي يستولي على الأسواق من الداخل، مستحوذاً على القطاعات الرئيسية للصناعة المحلية: فهو ينتزع أو ينشئ المعاقل الحاسمة التي يسيطر منها على الباقي. وتصف منظمة الدول الأمريكية العملية على النحو التالي: "ماتزال

www.ibtesama.com/vb

الاستثمارات الأمريكية اللاتينية تواصل السيطرة على الصناعات والتقنيات القائمة بالفعل والأقل تقدماً، في حين أن الاستثمارات الخاصة من الولايات المتحدة ومن بلدان صناعية أخرى أيضا على الأرجح – تزيد بسرعة مشاركتها في صناعات دينامية معينة تتطلب مستوى تقنياً عالياً نسبياً وتعد أكثر أهمية في تحديد مسار التنمية الاقتصادية[٢]. وهكذا فإن دينامية المصانع الأمريكية جنوبي الريو جراندي أكثر كثافة بكثير من دينامية الصناعة الأمريكية اللاتينية بوجه عام. أما الأرقام الخاصة بالبلدان الثلاثة الأكبر فهي بالغة الدلالة: فلو اعتبرنا عام ١٩٦١ عام أساس، نجد أن الناتج الصناعي الأرجنتيني قد وصل في عام ١٩٦٥ إلى ١١٢,٥، في حين أن مبيعات فروع الاحتكارات الأمريكية قد زادت في الفترة نفسها لتصل إلى ١٦٦,٣. وبالنسبة إلى البرازيل، فإن الأرقام المناظرة هي ١٠٩,٢ و ١٢٠؛ أما بالنسبة إلى المكسيك، فإنها ١٤٢,٢ و١٨٦,٨[٣].

وطبيعي أن اهتمام الشركات الامبريالية بالهيمنة على النمو الصناعي الامريكي اللاتيني واستثماره لحسابها لايعني عدم اهتمامها بالأشكال التقليدية للاستغلال. صحيح أن سكك حديد شركة الفواكه المتحدة في جواتيمالا لم تعد مربحة وأن التأميم الذي قامت به البرازيل لشركتي اليكتريك بوند آند شير وانترناشيونال تليفون آند تلجراف كان كسباً مجزياً لهما، إذ حصلتا على تعويضات بالذهب الخالص عن منشآت صدئة وآلات جديرة بأن تعرض في المتاحف. إلا أنه إذا ما جرى التخلي عن الخدمات العامة لحساب أنشطة أكثر ربحية، فإن المواد الخام تصبح مسألة أخرى. إذ كيف يمكن للامبراطورية أن تدير أمورها دون نفط ومعادن أمريكا اللاتينية؟ فبرغم الهبوط النسبي في الاستثمارات التعدينية، نجد أن الاقتصاد الأمريكي لايمكنه، كما رأينا، أن يدير أموره دون الإمدادات الحيوية من الجنوب ودون الأرباح المجزية التي تحققها. كما أن الاستثمارات التي تحول المصانع الأمريكية اللاتينية إلى مجرد تروس في آلة الشركات العملاقة لاتبدل التقسيم الدولي للعمل بحال من الأحوال. وليس هناك تغير في نظام الشرايين المتصلة فيما بينها والتي يجري من خلالها توزيع الرساميل والسلع بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة. وتواصل أمريكا اللاتينية تصدير بطالتها وفقرها: المواد الخام التي تحتاجها السوق العالمية، والتي يعتمد الاقتصاد الإقليمي عليها. ويواصل التبادل غير المتكافئ عمله كما في السابق: فالأجور التي لاتكفي لسد الجوع في أمريكا اللاتينية تساعد على تمويل الرواتب العالية في الولايات المتحدة وأوروبا. ومازال

www.ibtesama.com/vb

البرازيل، برغم تصنيعها، تعتمد بدرجة هامة على صادرات البن، بينما تعتمد الأرجنتين على مبيعات اللحوم، وتصدر المكسيك منتجات صناعية قليلة للغاية.

وهناك دائماً سياسيون وتكنوقراطيون مستعدون لإظهار أن غزو رأس المال الأجنبي الذي يعمل في مجال "التصنيع" يفيد المنطقة المبتلاة بالغزو. وفي هذا التصور، فإن الامبريالية حديثة الطراز تجيئ من أجل مهمة تمدينية حقيقية، وتعد نعمة تهبط على البلدان الخاضعة، أما اعلانات الحب الصادق التي تتبجح بها القوة السائدة الآن فهي تعبر عن نواياها الحقيقية. وهكذا تجد الضمائر الآثمة مايعفيها من الحاجة إلى أدلة على البراءة من الاثم، لأنه لا أحد آثم: فامبريالية اليوم تشع تكنولوجيا وتقدماً. بل إن استخدام هذه الكلمة القديمة، غير السارة، لتعريفها هو من قبيل انعدام الذوق. إلاّ أنه عندما تبدأ الامبريالية في الثناء على فضائلها، يجب أن ننظر إلى جيوبنا . وعندئذ سنكتشف أن النموذج الجديد لايجعل مستعمراته أكثر ازدهاراً، وإن كان يثري أقطاب النمو بينها، وهو لايخفف التوترات الاجتماعية والإقليمية، بل يزيد تفاقمها؛ وهو ينشر الفقر بشكل أوسع بكثير ويركز الثروة تركيزاً أضيق بكثير؛ وهو يدفع أجوراً أدنى عشرين مرة مما في ديترويت ويفرض أسعاراً أعلى ثلاث مرات مما في نيويورك؛ وهو يستولي على السوق الداخلية والمصادر الرئيسية للجهاز الإنتاجي، ويكتسب حقوق ملكية لرسم مسار وتحديد حدود التقدم؛ ويسيطر على الائتمان القومي ويوجه التجارة الخارجية حسب أهوائه. وهو ينزع التأميم لا عن الصناعة وحدها، وإنما عن الأرباح التي تحققها الصناعة أيضاً؛ ويحفز تبديد الموارد بتحويل جزء كبير من الفائض الاقتصادي إلى الخارج؛ وهو لايأتي برساميل من أجل التنمية وإنما يتولى ترحيل الرساميل. وكما أظهرت تقارير مختلفة للمجلس الاقتصادي لأمريكا اللاتينية، فإن نزف الأرباح من الاستثمارات الأمريكية المباشرة في أمريكا اللاتينية في السنوات الخمس الأخيرة كان أكبر خمس مرات من تدفق الاستثمارات الجديدة. ولتمكين الشركات من ترحيل أرباحها، ترهن البلدان الأمريكية اللاتينية نفسها للبنوك الأجنبية والمنظمات الائتمانية الدولية، مضاعفةً بذلك تدفق النزيف القادم. والنتيجة واحدة بالنسبة إلى الاستثمار الصناعي كما بالنسبة إلى الاستثمار "التقليدي".

وفي الإطار المحكم لرأسمالية عالمية مندمجة حول الشركات الأمريكية الكبيرة، يتزايد انفصال تصنيع أمريكا اللاتينية عن حاجات التقدم والتحرر الوطني. لقد حرمت التحويلة من مفعولها في الهزائم الحاسمة التي حدثت في القرن الماضي، عندما

www.ibtesama.com/vb

انتصرت الموانئ على المناطق الداخلية وسحقت التجارة الحرة الصناعات القومية الناشئة. ولم يفرز القرن العشرون بورجوازية قوية وخلاقة بما يكفي لتحمل المهمة ومواصلتها إلى نهايتها. فقد تلاشت كل محاولة في منتصف الطريق إلى الهدف. وما حدث للبورجوازية الصناعية الأمريكية اللاتينية هو ما يحدث للأقزام: لقد أصابتها الشيخوخة دون أن تنمو. والحال أن بورجوازيينا الحاليين هم مجرد وكلاء وموظفين لدى شركات أجنبية مهيمنة. وتجبرنا الحقيقة على الاعتراف بأنهم لم يفعلوا قط شيئاً يجعلهم جديرين بمصير أفضل.

■ الحراس هم من يفتحون البوابات: عقم البورجوازية القومية الأثم

تكشف البنية الحالية للصناعة في الأرجنتين والبرازيل والمكسيك – أقطاب التنمية الأمريكية اللاتينية الثلاثة التي يسرفون في مديحها – عن تشوهات مميزة لتنمية معكوسة. فقيما عدا استثناءات قليلة، أمكن بسهولة تحقيق تبعية الصناعة في بلدان أخرى، أضعف. ومن المؤكد أنه لاوجود لشئ تنافسي فيما يتعلق برأسمالية تصدر اليوم المصانع كما تصدر السلع والرساميل، وتخترق كل شئ وتجهز كل شئ: إن هذا سديم صناعي عالمي يتحقق من جانب رأسمالية في عصر الشركات متعددة القوميات، والاحتكارات العملاقة التي تستوعب كل ضرب من ضروب النشاط في كل ركن من أركان الأرض[1]. بل إن تركيز الرساميل الأمريكية في أمريكا اللاتينية أشد إحكاماً مما في الولايات المتحدة ذاتها؛ ذلك أن حفنة من الاحتكارات تسيطر على الغالبية الساحقة من الاستثمارات. وبالنسبة إلى هذه الاحتكارات، ليست الأمة مهمة يتعين القيام بها، أو علماً ينبغي الذود عنه، أو مصيراً يتوجب تحقيقه: إنها ليست أكثر من حاجز يلزم تخطيه – لأن السيادة يمكن أن تكون غير مناسبة – أو ثمرة ريانة جديدة يلذ قضمها. ولكن هل الأمة مصير يتوجب تحقيقه بالنسبة إلى الطبقات الحاكمة في كل بلد؟ إن مسيرة رأس المال الامبريالي الكبرى قد وجدت صناعة محلية لاحول لها ولاقوة وغير مدركة لدورها التاريخي. ولقد انمحت البورجوازية في فوة القوى الأجنبي دون أن تذرف دمعاً أو تنزف دماً: ومع تزايد هزال الاقتصاد الأمريكي اللاتيني المتواصل على مر العقدين الماضيين، هبط نفوذ الدولة عليه إلى أدنى مستوى له وذلك بفضل المساعي الحميدة لصندوق النقد

www.ibtesama.com/vb

الدولي. لقد دخلت الشركات الأمريكية أوروبا دخول الفاتحين وأمسكت بأعنة تنمية القارة العجوز إمساكاً حازماً بحيث أن الصناعة الأمريكية في أوروبا، فيما يقال لنا، سوف تصبح قبل فوات وقت طويل القوة الصناعية الثالثة في العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي[*]. وإذا كانت البورجوازية الأوروبية، بتقاليدها وجبروتها، لم تتمكن من وقف السيل، فإلى أي شئ يستند الأمل في أن بورجوازية أمريكا اللاتينية، في هذه المرحلة التاريخية، سوف تقود مغامرة التنمية الرأسمالية المستقلة المستحيلة؟ الواقع أن عملية نزع التأميم في أمريكا اللاتينية تعدّ أسرع وأرخص وقد ترتبت عليها نتائج أسوأ بكثير.

والحال أن نمو الصناعة الأمريكية اللاتينية قد تَحقّق في هذا القرن من الخارج، بدلاً من أن يتحقق عن طريق سياسات إنمائية قومية مخططة. وهو لم يكن تعبيراً عن عملية تفسرح القوى الإنتاجية، كما لم يكن نتيجة لتفجر لتزامات داخلية - تزامات يزعمون أنه "قد أمكن التغلب عليها" - بين كبار ملاك الأراضي وطبقة حرفية صاعدة، لأن تلك الطبقة لم تعش طويلاً. لقد ولدت الصناعة الأمريكية اللاتينية من رحم نظام تصدير المنتجات الزراعية ذاته، رداً على اختلال حاد أثاره هبوط التجارة الخارجية. وقد أدت حربان عالميتان، وخصوصاً الكساد الرأسمالي الذي تلا "يوم الجمعة الأسود" في أكتوبر ١٩٢٩، إلى تقليص صادرات المنطقة ومن ثم قدرتها على الاستيراد تقليصاً مفاجئاً وعنيفاً. وسرعان ما ارتفعت إلى عنان السماء أسعار المنتجات الصناعية الأجنبية التي أصبحت نادرة فجأة. ولم تنبثق إلى الوجود طبقة صناعية حرة من التبعية التقليدية: فقد جاء الحافز إلى الإنتاج الصناعي من الرساميل التي راكمها كبار ملاك الأراضي والمستوردون. وكان كبار مربي الماشية هم الذين فرضوا ضوابط التبادل في الأرجنتين. وفي عام ١٩٣٣، قال رئيس الجمعية الزراعية، الذي أصبح وزيراً للزراعة: "إن العزلة التي وضعنا فيها عالم مضطرب تفرض علينا أن ننتج هنا ما لم يعد بوسعنا شراؤه من البلدان التي تشتري منا"[٩]. وقد سارع ملاك مزارع البن الكبيرة إلى استثمار رساميلهم التي راكموها من التجارة الخارجية في تصنيع ساو باولو. وقد جاء في وثيقة حكومية: "خلافاً لعملية تصنيع البلدان المتقدمة بالفعل، فإن عملية تصنيع البرازيل لم تكن عملية بطيئة، جانباً من عملية عامة للتحول الاقتصادي. لقد كانت، بالأحرى، ظاهرة سريعة ومكثفة، جرى فرضها بصورة علوية على البنية الاجتماعية الاقتصادية القائمة في السابق دون أن تقود إلى تعديل هذه البنية تعديلاً كاملاً، الأمر الذي قاد إلى

www.ibtesama.com/vb

التفاوتات القطاعية والإقليمية العميقة التي تميز المجتمع البرازيلي[7].

ومنذ البداية، احتمت الصناعة الجديدة وراء حواجز جمركية حامية أقامتها الحكومات، ونمت بفضل تدابير اتخذتها الدولة لتقييد الواردات والحد منها، وتحديد أسعار صرف خاصة، وتجنب الضرائب، وشراء أو تمويل فوائض الإنتاج، وبناء الطرق لنقل المواد الخام والسلع، وخلق أو توسيع مصادر الطاقة. والحال أن الحكومات القومية وذات الشعبية العريضة، حكومات جيتوليو فارجاس (١٩٣٠ – ١٩٤٥ و١٩٥١ – ١٩٥٤)، ولاثارو كارديناس (١٩٣٤ – ١٩٤٠)، وخوان دومينجو بيرون (١٩٤٦ – ١٩٥٥) قد عبرت من حاجة الصناعة البرازيلية والمكسيكية، والأرجنتينية إلى "الانطلاق"، إلى النمو أو إلى التوطد تبعاً للمكان والفترة. ففي أمريكا اللاتينية، كانت "روح الاستثمار" التي تحدد خصائص أساسية معينة للبورجوازية الصناعية في البلدان الرأسمالية المتقدمة خاصية من خصائص الدولة، خاصة في تلك الفترات الحاسمة. وبدلاً من الطبقة الاجتماعية التي استصرخها التاريخ دون أن يجد تجاوباً يذكر، كانت حكومة الزعماء الشعبويين هي التي تجسد الأمة وقد اتاحت للجماهير مدخلاً سياسياً واقتصادياً إلى فوائد التصنيع. أما البورجوازية الصناعية التي احتضنتها هذه المحضنة فلم تختلف من حيث الجوهر عن الطبقات الحاكمة السابقة. والحال أن بيرون، مثلاً، قد استثار الذعر في صفوف الاتحاد الصناعي – الذي رأى قادته، ليس دون سبب، شبح المونتونيراس الريفية يعاود الظهور في تمرد بروليتاريا مشارف بوينوس آيريس. وقبل أن يهزم بيرون الائتلاف المحافظ في انتخابات فبراير ١٩٤٦، كان الائتلاف قد حصل على شيك شهير من قائد الصناعيين؛ وبعد ذلك بعشر سنوات، عندما سقط بيرون، اتضح لهم مرة أخرى أن التناقض مع الأوليجاركية – التي كانوا يشكلون جزءاً منها أياً كانت الأحوال – ليس أساسياً. وفي عام ١٩٥٦، شكل الاتحاد الصناعي جبهة متحدة مع الجمعية الزراعية والغرفة التجارية دفاعاً عن حرية إنشاء الاتحادات، وحرية الاستثمار، وحرية التجارة، وحرية استئجار قوة العمل[8]. وفي البرازيل، توحد قطاع مهم من البورجوازية الصناعية مع القوى التي دفعت فارجاس إلى الانتحار. وكانت التجربة المكسيكية تتميز بخصائص متميزة وكانت تعد عملية التغيير الأمريكية اللاتينية بما هو أكثر بكثير مما ساهمت به في نهاية الأمر. لقد كانت تجربة كارديناس القومية هي التجربة الوحيدة التي صارعت كبار ملاك الأراضي بتنفيذ الإصلاح الزراعي الذي كانت البلاد تتحرق إليه منذ عام ١٩١٠. وفي البلدان الأخرى – لا في الأرجنتين والبرازيل وحدهما – تركت الحكومات ذات التوجهات

www.ibtesama.com/vb

التصنيعية هيكل الملكية الزراعية الكبيرة على حاله، بحيث أنه قد واصل خنق السوق الداخلية والإنتاج الزراعي(٩).

ويمكن القول، بوجه عام، أن الصناعة قد هبطت مثلما تهبط طائرة دون أن يؤثر هبوطها على المطار: فهي لكونها مقيدة بحاجات سوق داخلية قائمة سلفاً ولكونها تخدم هذه الحاجات بالتحديد، لم تؤد قط إلى توسيع هذه السوق بما يكفي لجعل التغيرات الهيكلية الكبرى ممكنة. وكانت التنمية الصناعية تتطلب المزيد والمزيد من الواردات من الآلات، وقطع الغيار، والوقود، والمنتجات الوسيطة(١٠)، لكن الصادرات، مصدر العملة الأجنبية، لم يكن بوسعها تغطية ثمن هذه الواردات لأن الصادرات كانت تجيء من نشاط حكم عليه سادته بالتخلف. وفي ظل نظام بيرون، حققت الدولة الأرجنتينية احتكاراً لتصدير الحبوب إلا أنها لم تمس نظام ملكية الأرض؛ كما أنها لم تؤمم مصانع تعليب اللحوم التي تملكها الشركات الأمريكية والبريطانية أو مصدري الصوف(١١). وهكذا كان التحرك الرسمي نحو الصناعة الثقيلة متخاذلاً للغاية ولم تدرك الدولة في الوقت المناسب أنها إذا لم تساعد على خلق تكنولوجيا خاصة بها، فإن سياستها القومية سوف تحاول التحليق بأجنحة مقصوصة. وبحلول عام ١٩٥٣، فإن بيرون، الذي كان قد وصل إلى السلطة في مواجهة مباشرة مع السفير الأمريكي، كان يرحب بميلتون ايزنهاور ترحيباً مثيراً ويدعو إلى تعاون رأس المال الأجنبي في تشجيع الصناعات الحيوية(١٢). وكانت الحاجة إلى "مشاركة" بين الصناعة القومية والشركات الامبريالية قد أصبحت ملحة مع تسارع الاستعاضة عن السلع الصناعية المستوردة ومع احتياج المصانع الجديدة لمستويات عالية من التكنولوجيا والتنظيم. وقد ظهر الاتجاه نفسه في خطة جيتوليو فارجاس التصنيعية، وبلغ ذروته الدرامية في قرار فارجاس المأساوي الأخير. والحال أن الاحتكارات الأجنبية، بما تتمتع به من تكنولوجيا حديثة إلى أبعد حد، قد استولت بشكل ثابت وغير سري تماماً على الصناعة القومية لجميع البلدان الأمريكية اللاتينية، بما في ذلك المكسيك، عن طريق بيع التقنيات الصناعية، وحقوق استخدام العلامات المسجلة، والمعدات الجديدة. لقد استولت وول ستريت نهائياً على المكان الذي كان يحتله لومبارد ستريت، وكانت الاحتكارات الأمريكية هي التي تربعت للتمتع بمكانة القوة العظمى في المنطقة. وإلى هذا التغلغل في المجال الصناعي، أضيف تدخل متزايد باستمرار في مجالي البنوك والتجارة: لقد كان يجري ادماج السوق الأمريكية اللاتينية في السوق الداخلية للشركات متعددة القوميات.

www.ibtesama.com/vb

وفي عام ١٩٦٥، أعلن روبيرتو كامبوس، القيصر الاقتصادي لديكتاتورية كاستيلو برانكو، إن "عهد الزعماء ذوي الجاذبية الجماهيرية والمحاطين بهالة رومانسية يخلي مكانه للتكنوقراطية"[١٣]. وكانت السفارة الأمريكية قد شاركت مشاركة مباشرة في الانقلاب ضد حكومة جواو جولارت؛ والحال أن سقوط جولارت، وريث فارجاس في الأسلوب والهدف، قد أسدل الستار على الشعبوية والسياسة المتوجهة إلى الجماهير. وقد كتب إليّ صديق من ريو دي جانيرو بعد بضعة أشهر من نجاح المؤامرة العسكرية: "إننا أمة مضروبة، مسودة، مقلوبة، مسحوقة": فنزع تأميم البرازيل كان يعني حكم قبضة حديدية من جانب ديكتاتورية غير شعبية. ولم يعد يمكن الجمع بين التنمية الرأسمالية والتعبئة الجماهيرية الضخمة حول زعيم مثل فارجاس. ولاحتواء التضخم المنفلت على حساب فقر الفقراء الأعظم، كان على النظام أن يحظر الإضرابات ويدمر النقابات والأحزاب، وأن يسجن، ويعذب، ويقتل، وأن يخفض أجور العمال بأية وسيلة ضرورية. وقد أظهر استطلاع للرأي في ١٩٦٦ - ١٩٦٧ أن نسبة ٨٤ في المائة من كبار الصناعيين في البرازيل تعتقد أن سياسة حكومة جولارت الاقتصادية كانت سياسة ضارة. ولاشك أنه كان بينهم أولئك القادة البورجوازية القومية الذين حاول جولارت الاعتماد عليهم لوقف الاستنزاف الامبريالي للاقتصاد القومي[١٤]. وقد حدثت عملية قمع وخنق الشعب ذاتها في ظل نظام الجنرال خوان كارلوس أونجانيا في الأرجنتين - والواقع أنها كانت قد بدأت مع هزيمة بيرون في عام ١٩٥٥، مثلما بدأت في البرازيل مع الطلقة التي قتلت فارجاس في عام ١٩٥٤. وفي المكسيك، أيضاً، تطابق نزع تأميم الصناعة مع سياسات قمعية بشكل متزايد من جانب الحزب الذي يحتكر الحكم.

وكما لاحظ فيرناندو هنريكي كاردوزو، فإن الصناعة الخفيفة، أو "التقليدية"، والتي نمت في ظل الحماية الخيرة من جانب الحكومات الشعبوية، تتطلب استهلاكاً متزايداً من جانب الجماهير، الناس الذين يشترون القمصان أو السجائر[١٥]. لكن الصناعة "الحيوية" - إنتاج السلع الوسيطة والرأسمالية - موجهة نحو سوق محدودة، سوق تقف الاحتكارات الكبرى والدولة على رأسها: مستهلكين قلائل يحوزون موارد مالية ضخمة. والحال أن الصناعة الحيوية، والتي هي الآن في أيد أجنبية، تستند إلى الصناعة التقليدية القائمة سلفاً وتخضعها. وفي القطاعات التقليدية، منخفضة المستوى من الناحية التكنولوجية، يحتفظ رأس المال القومي ببعض القوة؛ وكلما قل ارتباط الرأسمالي بأنماط الإنتاج الدولية عن طريق التبعية التكنولوجية والمالية، كلما مال إلى

www.ibtesama.com/vb

تجميد الإصلاح الزراعي وزيادة القوة الشرائية لدى الجماهير عن طريق النضال النقابي. ومن الناحية الأخرى، فإن أولئك المرتبطين بارتباطات أجنبية أوثق، الممثلين للصناعة الحيوية، لايريدون غير تعزيز الأواصر بين جزر التنمية فى البلدان التابعة والنظام الاقتصادى العالمى، ويخضعون التحولات الداخلية لهذه الأولوية. وهنا المناحى التى تخرج منها أغنية البورجوازية الصناعية، كما تظهر من كل استطلاعات الرأى الأرجنتينية والبرازيلية الأخيرة التى يستخدمها كاردوزو كمادة أولية. فرجال الأعمال الكبار يعارضون الإصلاح الزراعي معارضة حازمة؛ وينفى معظمهم أن القطاع الصناعى له مصالح مختلفة عن مصالح القطاع الريفى ويعتقد أنه لايوجد ماهو أهم بالنسبة إلى التنمية الصناعية من تلاحم كافة الطبقات المنتجة وتعزيز الكتلة الغربية. وتعتقد نسبة ٢ فى المائة فقط من كبار الصناعيين فى الأرجنتين والبرازيل أن العمال لهم أهمية سياسية من الدرجة الأولى. وكان معظم الذين أجرى استطلاع الرأى بينهم من "المستثمرين القوميين"؛ ومعظمهم مرتبط دون أمل فى الفكاك بمراكز القوة الأجنبية عن طريق ما لاحصر له من عرى التبعية.

فهل يمكن توقع أى شئ فى هذه المرحلة؟ إن البورجوازية الصناعية طبقة سائدة مسودة بدورها من الخارج. كما أن كبار ملاك المزارع الرئيسيين على ساحل بيرو والذين تصادرهم الآن حكومة بيلاسكو الباراودو، هم فى الوقت نفسه ملاك الصناعات التحويلية الإحدى والثلاثين والكثير من المشاريع المماثلة الأخرى[١٦]. والحالة متماثلة فى كافة البلدان الأخرى: نحو مائة عائلة تملك المصانع والأراضى، الاستثمارات الكبيرة والبنوك[١٧]. وليست المكسيك استثناءً: فالبورجوازية القومية، الخاضعة للاحتكارات الأمريكية الكبيرة، تخشى ضغط الجماهير أكثر كثيراً من خشيتها من الاضطهاد الامبريالى، الذى تنمو فى احضانه دون استقلال - ودون المخيلة الابداعية التى تنسب إليها - وقد ضاعفت مصالحها مضاعفة فعالة[١٨]. وفى الأرجنتين، كان مؤسس نادى الجوكى، مركز الهيبة الاجتماعية لكبار الملاك الزراعيين، الصناعى الرئيسى أيضاً، وهكذا ولد فى نهاية القرن التاسع عشر تقليد كتب له الخلود[١٩]. إن صناعيين لهم حسابات مصرفية ضخمة يتزوجون بنات كبار ملاك زراعيين لكى يتسنى لهم دخول صالونات الأوليجاركية المقصورة عليها، أو يشترون أراضى الريف نفسه؛ ولم يكن قليلاً عدد كبار مربى الماشية الذين استثمروا فى الصناعة فوائض الرساميل المتراكمة فى أيديهم - على الأقل فى فترات الرواج. والحال أن فاوستينو فانو، الذى حقق جانباً

موفوراً من ثروته بوصفه تاجر منسوجات وصناعياً. قد رأس الجمعية الزراعية أربع مرات قبل موته في عام ١٩٦٧. وقد أعلنت الصحف في معرض رثائه: "لقد دمر فاتر التناقض المزعوم بين الزراعة والصناعة". ويجري تحويل الفوائض الصناعية إلى أبقار. وقد باع الأخوة دي تيا الأقوياء مصانع السيارات والثلاجات التي كانوا يملكونها لرأسماليين أجانب ويربون الآن ثيراناً نموذجية لمعارض الجمعية الزراعية. وقبل نصف قرن، كانت عائلة أنشورينا، التي كانت تمتلك مقاطعة بوينوس أيريس حتى حدودها، قد بنت واحداً من أكبر مصانع المعادن في المدينة.

أما في أوروبا والولايات المتحدة، فقد دخلت البورجوازية الصناعية إلى مسرح التاريخ دخولاً مختلفاً تماماً، ونمت ووطدت قوتها بشكل مختلف تماماً.

■ أي علم يرفرف على الآلات؟

مالت المرأة العجوز على النار وأخذت في تهويتها بيديها حتى تتقد. كانت محدوبة قليلاً، وذات رقبة ممدودة متجعدة. وكانت تبدو وهي في هذا الوضع أشبه ما تكون بسلحفاة سوداء شائخة. لكن من المؤكد أن الحماية التي توفرها أسمالها الرثة كانت أقل من تلك التي توفرها الصدفة للسلحفاة، وعلى أية حال، فإن السنين وحدها هي التي جعلتها بطيئة الحركة إلى هذا الحد. وخلفها، كان حائط كوخها، المبني من قطع صغيرة من الخشب والصفيح، متهالكاً تهالك شاغلته؛ وكانت تظهر خلفه أكواخ مشارف ساو باولو الفقيرة الماثلة. وأمامها، كانت المياه المعدة للقهوة تغلي في غلاية مسودة. رفعت إلى شفتيها كوزاً صغيراً من الصفيح. وقبل أن تشرب، هزت رأسها وأغلقت عينيها وقالت بالبرتغالية: "أو برازيل إي نُوسّو" - البرازيل لنا! وفي وسط المدينة ذاتها، وفي تلك اللحظة عينها، كان المدير التنفيذي لشركة يونيون كاربايد يفكر في الشيء نفسه - ولكن بلغة أخرى - وهو يرفع كأساً من الكريستال ليشرب نخب استيلاء الشركة على مصنع برازيلي آخر للدائن. ولاشك أن واحداً من الاثنين - المرأة والمدير - كان مخطئاً.

ومنذ عام ١٩٦٤، ديكتاتوريو البرازيل العسكريون المتعاقبون يستقبلون الأعياد السنوية لافتتاح مختلف المشاريع التي تملكها الدولة بالإعلان عن النزع الوشيك لتأميمها. هذا النزع الذي أصبح يسمى الآن بـ "الاستمادة". ويتدافع الوزراء للاحتفال بكل افتتاح لمصنع أجنبي. وكان القانون رقم ٥٦٫٥٧٠، المجاز في ٦ يوليو

١٩٦٥، قد احتفظ للدولة بالصناعة البتروكيميائية: أما القانون رقم ٥٦٠٥٧١، المجاز في اليوم نفسه فقد ألغى القانون رقم ٥٦٠٥٧٠، وفتح الصناعات البتروكيميائية أمام الاستثمار الخاص. وهكذا، فبشكل مباشر أو من خلال "المشاركة" مع الدولة، كسبت شركات داو كيميكال، ويونيون كاربايد، ومجموعة روكفيللر، وفيليبس بتروليوم "شريحة الفيليه الممتازة" المشتهاة أكثر من أي شئ آخر، صناعة مشتقات النفط التي كان من المتوقع أن تشهد رواجاً في السبعينيات. فما الذي حدث في الساعات القليلة الفاصلة بين القانونين؟ ستائر لايكف حفيفها، وقع أقدام في الرواق، طرقات مستميتة على الباب، مذكرات على ورق أخضر تتحرك حركة سريعة من مكتب إلى مكتب، فورة في القصر: من شيكسبير إلى بريخت، كثيرون كان لابد لهم من أن يجدوا متعة في وصف ماجرى. ويعترف وزير في الحكومة فيقول: "في البرازيل، وفيما عدا الدولة نفسها، وعدد من الاستثناءات البارزة، فإن رأس المال الأجنبي وحده هو القوي"[٢٠]. وتبذل الحكومة كل ما في وسعها لتجنب أية منافسة مزعجة مع الشركات الأمريكية والأوروبية.

وقد بدأ رأس المال الأجنبي الموجه إلى الإنتاج الصناعي يتدفق تدفقاً غزيراً على البرازيل في الخمسينيات، ولقي حافزاً قوياً من الخطة التنموية التي نفذها الرئيس جوسيلينو كوبتشيك بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٦٠. كانت تلك أيام فورة النمو، وقد انبثقت برازيليا كما لو كانت تنبثق من مرجل ساحر، وسط براري لم يكن الهنود قد سمعوا فيها بعد بوجود العجلة: لقد بنيت طرق رئيسية وسدود عظيمة؛ وكانت مصانع السيارات تنتج سيارة جديدة كل دقيقتين. لقد كان الخط البياني الصناعي يرتفع ارتفاعاً شاهقاً. وقد فتحت الأبواب على مصاريعها أمام الاستثمارات الأجنبية، وجرى التهليل لغزو الدولار، وانتشر الاحساس بحيوية التقدم. وكانت أوراق البنكنوت تجد طريقها إلى التداول قبل أن يجف حبر طباعتها؛ والحال أن القفزة إلى الأمام قد جرى تمويلها عن طريق تدابير تضخمية ومن طريق دين خارجي فادح سوف يجرى تحميل حكومات متعاقبة بأعبائه الجسيمة. وقد أدخل كوبتشيك وكفلّ نوعاً خاصاً من الكمبيو لتحويل الأرباح إلى المكاتب الرئيسية للشركات الأجنبية ولإفراد أقساط دورية لسداد قروضها الاستثمارية. فقد شاركت الدولة في تحمل المسئولية عن سداد الديون التي تعاقدت عليها هذه الشركات في الخارج، ورتبت دولاراً رخيصاً لسداد أقساط هذه الديون وفوائدها: فوفقاً لتقرير اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية[٢١]، كانت نسبة تزيد عن ٨٠ في المائة من كافة

www.ibtesama.com/vb

الاستثمارات فيما بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٦٢ عبارة عن قروض مشمولة بضمان من الدولة، وبعبارة أخرى، فإن أكثر من أربعة أخماس استثمارات هذه الشركات قد جاء من بنوك أجنبية وصار إضافة أخرى إلى عبء الديون الخارجية الثقيل الذي تنوء الدولة البرازيلية بحمله. كما منحت مزايا خاصة لاستيراد الآلات(٣٢). ولم تتمتع المشاريع القومية بالمزايا التي قدمت إلى شركتي جنرال موتورز وفولكسفاجن.

وقد تكشفت آثار نزع التأميم المترتبة على هذا الإغراء من جانب رأس المال الامبريالي في النتائج التي توصل إليها معهد العلوم الاجتماعية التابع للجامعة عندما أجرى بحثاً عن المجموعات الاقتصادية الكبرى في البرازيل(٣٣). فمن بين المجموعات التي يزيد رأسمالها عن أربعة بلايين كروزييرو، كان أكثر من نصفها أجنبياً وكان معظمها مملوكاً للولايات المتحدة؛ ومن بين المجموعات التي يزيد رأسمالها عن عشرة بلايين كروزييرو، كانت اثنتي عشرة أجنبية وخمسة برازيلية. وقد استنتج موريسيو فينهاس دي كويروز وهو يحلل نتائج البحث أنه «كلما كانت المجموعة أكبر، كلما زاد احتمال أن تكون أجنبية». ويتميز بدلالة مساوية أو أبلغ واقع أنه من بين المجموعات البرازيلية الأربع والعشرين التي يزيد رأسمالها عن أربعة بلايين كروزييرو، فإن تسع مجموعات فقط هي التي لاترتبط بأسهم مع رأس المال الأمريكي أو الأوروبي، بينما توجد إدارات أجنبية متداخلة مع إدارة مجموعتين من المجموعات التسع. وقد أظهر البحث أن عشر مجموعات اقتصادية تتمتع باحتكار فعلي في مجال كل منها، وأن ثماني مجموعات من هذه المجموعات العشر تعدّ فروعاً لشركات أمريكية شمالية كبرى.

لكن كل ذلك كان لعب أطفال بالمقارنة مع ماحدث بعد ذلك. فبين عام ١٩٦٤ ومنتصف عام ١٩٦٨، ابتلعت شركات فورد، وكريزلر، وويليز اوفرلاند، وسيمكا، وفولكسفاجن، وألفا روميو خمسة عشر مصنعاً للسيارات ولقطع غيار السيارات. وفي القطاع الكهربائي - الاليكتروني، انتقلت ثلاث شركات برازيلية مهمة إلى ملكية يابانية. والتهمت شركات معامل ويث، وبريستول مايرز، وميد جونسون، وليفر براذارز مختلف المعامل، واختزلت الإنتاج القومي من الأدوية إلى خمس سوق الأدوية. وانقضت شركة أناكوندا على المعادن غير الحديدية بينما انقضت شركة يونيون كاربايد على اللدائن، والكيميائيات، والبتروكيميائيات، واستولت شركتا اميريكان كان وأمريكان ماشين أند فاوندري وزملاء آخرون لهما على ست شركات برازيلية للآلات والمعادن: أما شركة ميتيراساو جيرال، صاحبة أحد أكبر مصانع المعادن في البرازيل، فقد اشتراها

www.ibtesama.com/vb

كونسورتيوم مؤلف من شركات بيتلهيم ستيل وتشيز مانهاتن وستاندارد أويل بثمن بخس. والحال أن لجنة برلمانية انشئت للتحقيق في الموضوع قد توصلت إلى بعض النتائج المثيرة، لكن النظام العسكري أغلق أبواب الكونجرس البرازيلي ولم تصل النتائج قط إلى الجمهور البرازيلي(٢٤).

وفي ظل حكومة الماريشال كاستيلو برانكو جرى توقيع اتفاق خاص بضمان الاستثمارات، منح الشركات الأجنبية وضعية خارجة عن إطار التشريع الوطني بالفعل؛ لقد خفضت الضرائب على أرباحها ومنحت تسهيلات ائتمانية غير عادية، بينما أزيلت الكوابح التي كانت حكومة جولارت قد فرضتها على نزح الأرباح. والحال أن الديكتاتورية قد عرضت البلاد للبيع على الرأسماليين الأجانب مثلما يعرض قوادٌ إمرأةً، ووضعت التأكيد في موضعه: "إن معاملة الأجانب في البرازيل تعد من بين المعاملات الأكثر تحرراً في العالم ... ولايسري مفعول أية قيود عامة فيما يتعلق بجنسية الملاك، أو الشركاء، أو المساهمين ... ولايوجد قيد على النسبة المئوية لرأس المال المسجل والتي يجوز ترحيلها كربح ... ولايوجد أي قيد على ترحيل الرساميل أما إعادة استثمار الأرباح فهي تعتبر زيادة للرأسمال الأصلي ...."(٢٥).

وتنافسُ الأرجنتين البرازيل على دور محظية الاستثمار الامبريالي، ولم يتخلف نظامها العسكري خلال الفترة ذاتها عن الاعلان عن المزايا التي سوف يقدمها إلى هذا الاستثمار. ففي خطابه الذي حدد فيه في عام ١٩٦٧ السياسة الاقتصادية الأرجنتينية، أكد الجنرال خوان كارلوس أونجانيا من جديد أن الفراغ تكفل فرصة متكافئة للثعلب: "إن الاستثمارات الأجنبية في الأرجنتين سوف تعامل معاملة مساوية لمعاملة الاستثمارات ذات المنشأ الداخلي، وذلك طبقاً للسياسة التقليدية لبلادنا والتي لم تتحيز قط ضد رأس المال الأجنبي"(٢٦). وكما هو الحال في البرازيل فإن الأرجنتين لاتفرض قيوداً على دخول رأس المال الأجنبي، أو على حركته داخل الاقتصاد القومي، أو على تصدير الأرباح، أو على ترحيل الرساميل؛ أما المدفوعات الخاصة بحقوق استخدام العلامات المسجلة، والعوائد، والمساعدة التقنية فهي تقدم دون خصومات ضريبية. وتعفي الحكومة الشركات من الضرائب وتتيح لها أسعار صرف خاصة، بالإضافة إلى الكثير من الحوافز والاعفاءات الأخرى. وبين عامي ١٩٦٣ و١٩٦٨، جرى نزع تأميم خمسين مشروعاً أرجنتينياً مهماً - انتقل تسعة وعشرون منها إلى أيدٍ امريكية - في قطاعات متنوعة كالصلب، والسيارات وقطع غيار السيارات، والبتروكيميائيات، والكيميائيات،

www.ibtesama.com/vb

والصناعة الكهربائية، والورق، والسجائر[٢٧]. وفي عام ١٩٦٢، كانت شركتان من شركات الاستثمار الرأسمالي الخاص، وهما سيام دى تيا وانسترياس كايسر أرختيناس، من بين الشركات الصناعية الخمس الأكبر في أمريكا اللاتينية؛ والحال أنه قد جرى في عام ١٩٦٧ التنازل منهما عن طيب خاطر لحساب رأس المال الامبريالي. ومن بين كبرى المشروعات في البلاد، فإن تلك التي تتجاوز مبيعاتها سبعة بلايين بيسو في السنة يعود نصفُ القيمة الاجمالية لمبيعاتها إلى الشركات الاجنبية، وثلث إلى الدولة، وسدس بالكاد إلى شركات خاصة ذات رساميل أرجنتينية[٢٨].

ويستثمر نحو ثلث الاستثمارات الأمريكية الشمالية في الصناعة الأمريكية اللاتينية في المكسيك، التي لاتفرض هي الأخرى أية قيود على تحويل الرساميل ونقل الأرباح؛ أما قيودها الخاصة بأسعار الصرف فهي صارخة الغياب. ومن ناحية أخرى، فإن "المكسكة" الالزامية لرأس المال، والتي يتعين بموجبها على الرعايا المكسيكيين حيازة غالبية الأسهم في بعض الصناعات، تعد، وفقاً لما ذكره وزير الصناعة والتجارة، "محل استقبال طيب بوجه عام من جانب المستثمرين الأجانب، الذين اعترفوا علانية بوجود مزايا مختلفة في إنشاء مشاريع مختلطة". وقد أردف بقوله: "يجب التنويه بأن المشاريع الشهيرة على المستوى الدولي قد تبنت هي نفسها ذلك الشكل للمشاركة في الشركات التي أنشأتها في المكسيك، كما يجب التأكيد على أن السياسة الخاصة بمكسكة الصناعة ليس فقط لم تؤد إلى تثبيط الاستثمار الأجنبي في المكسيك، بل إن تدفق الاستثمارات بعد هذا قد تجاوز رقماً قياسياً في عام ١٩٦٥، كما أن حجم الاستثمارات الذي تحقق في ذلك العام قد تم تجاوزه مرة أخرى في عام ١٩٦٦"[٢٩]. ومن بين المشروعات المائة الأكثر أهمية في المكسيك في عام ١٩٦٢، فإن ستة وخمسين كانت تحت السيطرة الكلية أو الجزئية لرأس المال الأجنبي، وكان أربعة وعشرون مشروعاً مملوكة للدولة، بينما اختص رأس المال المكسيكي الخاص بملكية عشرين مشروعاً. والحال أن هذه المشروعات العشرين لم تستأثر إلا بما يزيد قليلاً عن سبع حجم إجمالي مبيعات المشروعات المائة[٣٠]. وتسيطر الشركات الأجنبية الكبيرة الآن على أكثر من نصف الرساميل المستثمرة في مجالات الحاسبات الاليكترونية، ومعدات المكاتب، والآلات، والمعدات الصناعية؛ وقد وطدت شركات جنرال موتورز، وفورد، وكريزلر، وفولكسفاجن سيطرتها على صناعة السيارات وشبكة المصانع الإضافية التابعة لها؛ أما الصناعة الكيميائية الجديدة فهي تخص شركات دوبون، ومونسانتو، وامبريال كيميكال انداستريز

(البريطانية)، وألايد كيميكال، ويونيون كاربايد، وسياناميد؛ ومن ناحية أخرى، فإن المعامل الرئيسية تسيطر عليها شركات بارك - ديفيز، وميرك، ومعامل روس (وهي شركة فرعية تتبع شركة أبوت)، وسكويب؛ ويعد نفوذ شركة سيلانيز بلاستكس حاسماً في صناعة الألياف الصناعية؛ وتتزايد سيطرة شركات اندرسون كلايتون وانيبر براذارز على الزيوت الغذائية؛ ويشارك رأس المال الأجنبي مشاركة طاغية في إنتاج الأسمنت، والسجائر، والمطاط ومشتقاته، والأدوات المنزلية، والمواد الغذائية المتنوعة[٣١].

■ قصف صندوق النقد الدولي يسّهل إنزال الفاتحين

اعترف وزيران بالحكومة أثناء الأدلاء بشهادات أمام اللجنة البرلمانية المشكلة لدراسة نزع تأميم الصناعة البرازيلية بأن المصانع المملوكة ملكية أهلية قد وجدت نفسها في وضع غير مؤات من جراء الإجراء الذي اتخذه نظام كاستيلو برانكو والذي سمح بالتدفق المباشر للقروض الائتمانية الخارجية. وكانا يشيران إلى المرسوم رقم ٢٨٩ الصادر في أوائل عام ١٩٦٥، والذي سمح للشركات الأجنبية العاملة في البرازيل بالحصول على قروض من الخارج بفائدة تصل نسبتها إلى ٧ أو ٨ في المائة مع ترتيب خاص بأسعار الصرف تضمنه الحكومة في حالة تخفيض قيمة الكروزيرو. وكان على الشركات البرازيلية أن تدفع فائدة تصل نسبتها إلى نحو ٥٠ في المائة على القروض الائتمانية التي تحصل عليها - بصعوبة - في الداخل. والحال أن مبتكر الإجراء، روبيرتو كامبوس، قد قدّمَ هذا التفسير: "من الواضح أن العالم غير متكافئ. إن بعض الناس يولدون أذكياء والبعض الآخر يولدون أغبياء. وبعض الناس يولدون بأجسام رياضية قوية، والبعض الآخر يولدون معوقين. والعالم يتألف من مشاريع صغيرة وكبيرة. بعضها يموت مبكراً، في مقتبل العمر؛ والبعض الآخر يماطل بصورة اجرامية عبر وجود عبثي طويل. وهناك انعدام رئيسي أساسي للمساواة في الطبيعة البشرية، في وضع الأشياء. ولايمكن لآلية القروض الائتمانية أن تتجنب ذلك. أما الإدعاء بأن المشاريع القومية يجب أن تتمتع بذات الحقوق التي تتمتع بها المشاريع الأجنبية في الحصول على القروض الائتمانية الأجنبية فهو لايعدو أن يكون تجاهلاً للحقائق الأساسية للاقتصاد ..."[٣٢]. ووفقاً لهذا "البيان الرأسمالي" الموجز ولكن الغني بالمادة الفكرية، فإن شريعة الغاب هي الشريعة الطبيعية التي تحكم الحياة الإنسانية؛ أما الظلم فلاوجود له،

www.ibtesama.com/vb

لأن ما اعتدنا التعامل معه على أنه ظلم ليس غير تعبير عن التناغم المتوحش الذي يسود الكون: فالبلدان الفقيرة فقيرة لأنها ... فقيرة؛ وأقدارنا مكتوبة في لوح محفوظ ونحن لانجيئ إلى هذه الحياة إلاً لكي نحقق هذه الأقدار. فالبعض محكوم عليه بأن يطيع، والبعض الآخر مكلف بإصدار الأوامر. البعض يُعَرِّضُ رقبته للشنق، والبعض الآخر يلف حبل المشنقة. إن صاحب هذه النظرية هو مبدع سياسة صندوق النقد الدولي في البرازيل.

وكما هو الحال في بلدان أمريكا اللاتينية، فإن تطبيق صيغ صندوق النقد الدولي قد فتح الأبواب أمام دخول الفاتحين الأجانب إلى أرض محروقة بالفعل. فمنذ أواخر الخمسينيات، ساعد الركود الاقتصادي وانعدام الاستقرار النقدي، والجفاف الذي أصاب القروض الائتمانية، والهبوط في القوة الشرائية الداخلية على قلب الصناعة القومية ووضعها تحت رحمة الشركات الامبريالية. فمن خلال التعويذة السحرية الخاصة بـ "توفير الاستقرار النقدي" فرض صندوق النقد الدولي - الذي يخلط خلطاً غير نزيه بين الحمى والمرض، وبين التضخم وأزمة الهياكل القائمة - على أمريكا اللاتينية سياسة من شأنها زيادة حدة الاختلالات بدلاً من تخفيفها. فهي تحرر التجارة عن طريق حظر التبادلات المباشرة واتفاقات المقايضة؛ وتفرض انكماش القروض الائتمانية الداخلية إلى درجة الخنق، وتجمد الأجور وتثبط نشاط الدولة. وهي تضيف إلى هذا البرنامج تخفيضات حادة لقيمة النقد يفترض من الناحية النظرية أن تعيد العملة إلى قيمتها الفعلية وتحفز الصادرات. والواقع أن تخفيضات قيمة العملة ليس من شأنها إلاً أن تحفز التركيز الداخلي للرساميل في جيوب الطبقات الحاكمة وتسهيل استيعاب المشاريع القومية من جانب الأجانب الذي يلوحون بقبضة من الدولارات.

وفي أمريكا اللاتينية كلها، فإن ماينتجه النظام يقل كثيراً عن الطلب النقدي الضروري، وينشأ التضخم عن هذا العجز البنيوي. ومع ذلك، فإن صندوق النقد الدولي، بدلاً من أن يهاجم أسباب العرض غير الكافي الذي يقدمه الجهاز الإنتاجي، يطلق سلاح فرسانه ضد النتائج، بحيث يزيد من سحق القوة الشرائية الضعيفة التي تتعامل مع السوق الداخلية: ففي هذه البلدان المؤلفة من حشود بشرية جائعة، يلقي صندوق النقد الدولي باللائمة عن التضخم على التزايد المفرط للطلب. والحال أن صيغه الخاصة بتحقيق الاستقرار والتنمية لم تفشل في تحقيق الاستقرار أو في تحقيق التنمية وحسب، بل إنها، علاوة على ذلك، قد ضيقت الخناق الخارجي على هذه البلدان، وعمقت

www.ibtesama.com/vb

بؤس الجماهير المعدمة – بما يصل بالتوترات الاجتماعية إلى نقطة الغليان – وعجلت نزع التأميم الاقتصادي والمادي باسم المبادئ المقدسة لحرية التجارة، والمنافسة الحرة، وحرية الحركة للرساميل. والحال أن الولايات المتحدة، التي ترعى منظومة ضخمة للحماية – تشمل التعريفة الجمركية، والحصص النسبية، والإعانات الداخلية – لم يبد صندوق النقد الدولي قط تجاهها أية بادرة انتقادية . أما فيما يتعلق بأمريكا اللاتينية، من الناحية الأخرى، فإن صندوق النقد الدولي لايعرف المرونة: لقد ظهر إلى الوجود لإبداء عدم المرونة. وبمجرد ما أن قبلت تشيلي بعثة صندوق النقد الدولي الأولى في عام ١٩٥٤، غصت البلاد بـ "مستشاريه"؛ والحال أن معظم الحكومات تنفذ الآن توجيهاته تنفيذاً أعمى. والنتيجة أن العلاج يزيد المريض مرضاً، لاسيما إذا كانت الجرعات التي يتناولها عقاقير من القروض والاستثمارات. ويقدم صندوق النقد الدولي القروض أو يعطي الضوء الأخضر الضروري للآخرين لتقديمها . على أن صندوق النقد الدولي، الذي ولد في الولايات المتحدة، والذي يوجد مقره الرئيسي في الولايات المتحدة، والذي يخدم الولايات المتحدة، يعمل من الناحية الفعلية بوصفه مفتشاً دولياً لن تبسط البنوك الامريكية أيديها دون موافقته. كما أن البنك الدولي، ووكالة التنمية الدولية، والهيئات الخيرية الأخرى العاملة على نطاق دولي تجعل قروضها الائتمانية مشروطة بتوقيع وتنفيذ "خطابات النوايا" التي تقدمها الحكومات المتلقية لهذه القروض إلى الصندوق كلي الجبروت. والحال أن كل البلدان الأمريكية اللاتينية مجتمعة لاتملك نصف ما للولايات المتحدة من أصوات في توجيه سياسة هذا المارد الأسمى الذي يهيمن على شئون التوازن النقدي العالمي. لقد خلق صندوق النقد الدولي لكي يفرض هيمنة وول ستريت المالية على الكوكب كله، عندما حقق الدولار هيمنته كعملة دولية لأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية، وهو لم يخذل سيده قط[٣٢].

صحيح أن البورجوازية القومية الأمريكية اللاتينية، بميلها إلى العيش فوق مستوى دخلها، لم تفعل مايستحق الذكر لوقف تدفق الأجانب المحموم؛ إلا أنه صحيح أيضاً أن الشركات الامبريالية قد استخدمت سلسلة مذهلة من طرق التدمير. فمع القصف التمهيدي الذي شنه صندوق النقد الدولي والذي سَهّل التغلغل، جرى الاستيلاء على بعض المشاريع بمجرد مكالمة هاتفية، بعد هبوط حاد في سوق الأسهم، في مقابل جرعة بسيطة من الأوكسجين على شكل أسهم، أو باستدعاء دين مُعين للحصول على امدادات أو للتمتع بحقوق استخدام العلامات المسجلة، أو العلامة التجارية، أو الإبتكارات

www.ibtesama.com/vb

التقنية. والحال أن مثل هذه الديون، التي ضاعفت من حجمها تخفيضات قيمة العملة - والتي ترغم المشاريع المحلية على دفع مبالغ أكبر بالعملة القومية للوفاء بالتزاماتها الدولارية - تصبح بهذا الشكل مصيدة مميتة. أما تكلفة التبعية التكنولوجية فهي باهظة: ومن بين خبرات الشركات الفنية الخبرة في فن التهام الجار. وقد لاحظ واحد من أخر موهيكان(*) الصناعة القومية البرازيلية قبل وقت قصير من نفي الحكومة العسكرية له: "إن التجربة تبين أن الأرباح الناجمة من مبيعات شركة قومية لاتصل قط في أغلب الأحوال إلى البرازيل، بل تظل، حاملة للفوائد، في السوق المالية للبلد المشتري"(٢١). ويجمع المقرضون مستحقاتهم عن طريق الاستيلاء على منشئات وآلات المدينين. وتبين أرقام البنك المركزي البرازيلي أن مالا يقل عن خمس الاستثمارات الصناعية الجديدة في أعوام ١٩٦٥، ١٩٦٦، و١٩٦٧ لم يكن في الواقع غير تحويل لديون غير مدفوعة إلى مجال الاستثمار.

وعلى قمة الابتزاز المالي والتكنولوجي تتربع المنافسة "الحرة" الجائرة بين الأقوياء والضعفاء. وكجزء من بنية عالمية، يمكن لفرع الشركة الكبيرة أن يسمح لنفسه بترف خسارة المال لسنة، أو لسنتين، أو لأية سنوات لابد منها. وتهبط الأسعار ثم يترقب استسلام الضحية. ويتعاون البنوك في الحصار: إن المشروع القومي ليس قادراً على الوفاء بالديون خلافاً لما كان يبدو وهكذا يجري حرمانه من الامدادات وسرعان ما يرفع الراية البيضاء مستسلماً. ويتحول الرأسمالي المحلي إلى شريك أصغر أو موظف عند غالبيه. وإلا فإنه يوفق في الثروة المشتهاة أكثر من سواها - إنه يسترد ملكيته على شكل أسهم في الشركة الأجنبية وينهي عمره كقاطع كوبونات ميسور الحال. وتتمثل قصة بليغة فيما يتعلق بـ "الإغراق" السعري في قصة استيلاء شركة يونيون كاربايد على مصنع أنيسايت البرازيلي لشرائط التسجيل. ذلك أن شركة سكوتش تيب، وهي جزء من شركة مينيسوتا ما ينتج اند مانيفاكشرنج متعددة المخالب، قد بدأت في تخفيض أسعار منتجاتها بصورة ثابتة في البرازيل. وهكذا واصلت مبيعات شركة أنيسايت انخفاضها، وأوقفت البنوك قروضها الائتمانية لها. وواصلت شركة سكوتش تيب تخفيض أسعارها - بنسبة ٣٠ في المائة، ثم بنسبة ٤٠ في المائة. وعندئذ ظهرت شركة يونيون كاربايد على المسرح واشترت الشركة البرازيلية اليائسة بثمن بخس. وبعد ذلك، توصلت شركتا يونيون كاربايد وسكوتش تيب إلى اقتسام السوق القومية: لقد

(*) الموهيكان، قبيلة من الهنود الحمر توشك على الفناء. المترجم.

www.ibtesama.com/vb

اقتسمتا البرازيل، فأخذت كل واحدة منهما النصف، واتفقتا على هضم ما التهمتاه برفع سعر شريط التسجيل بنسبة ٥٠ في المائة. وكان القانون المناهض للتروستات والذي يعود إلى أيام فارجاس الماضية قد ألغي قبل ذلك بسنوات.

وتعترف منظمة الدول الأمريكية[٣٥] بأن الموارد المالية الوفيرة التي تتمتع بها فروع الشركات الأمريكية "في أوقات تتميز بالانخفاض البالغ للسيولة النقدية المتاحة للمشاريع الاستثمارية القومية، قد أتاحت للمصالح الأجنبية الاستيلاء في بعض الأحيان على بعض المشاريع الاستثمارية القومية". والواقع أن ندرة الموارد المالية، والتي زاد من احتدادها الانكماش الذي فرضه صندوق النقد الدولي فيما يتعلق بالقروض الائتمانية الداخلية، تؤدي إلى تمزيق المصانع المحلية شذر مذر. لكن وثيقة منظمة الدول الأمريكية نفسها تخبرنا أن نسبة لاتقل من ٩٥,٧ في المائة - ٨٠ في المائة في حالة الصناعات الإنتاجية - من الموارد المالية التي تحتاجها المشاريع الاستثمارية الأمريكية لمباشرة عملها ونموها الطبيعيين في أمريكا اللاتينية تجيء من مصادر أمريكية لاتينية على شكل سلفيات ائتمانية، وقروض، وأرباح يعاد استثمارها.

■ الولايات المتحدة تحمي مدخراتها الداخلية، لكنها تتصرف في مدخرات الآخرين بأريحية: غزو البنوك

من الممكن إلى حد بعيد تفسير نزح الموارد القومية إلى فروع الشركات الامبريالية بالانتشار الأخير لفروع البنوك الأمريكية التي تقطع رؤوسها في مختلف أرجاء أمريكا اللاتينية مثلما يحدث مع الطحالب بعد سقوط المطر. ويرتبط الهجوم ضد المدخرات القومية في البلدان التابعة بالعجز المزمن في ميزان المدفوعات الأمريكي، والذي يحتم تقييد استثمارات الولايات المتحدة الخاصة في الخارج، كما يرتبط هذا الهجوم بالتدهور المثير للدولار بوصفه عملة عالمية. وهكذا فإن أمريكا اللاتينية تقدم العاب والغذاء معاً بينما تقصر الولايات المتحدة مساهمتها على الابتلاع. والحال أن نزع تأميم الصناعة كان بمثابة منحة مجانية.

ووفقاً للمسح المصرفي الدولي[٣٦]، فقد كان للولايات المتحدة ٧٨ فرعاً لبنوكها في جنوبي الريو جراندي في عام ١٩٦٤، وبحلول عام ١٩٦٧، وصل عددها إلى ١٣٣؛ وكانت ودائعها في عام ١٩٦٤ لاتزيد من ٨١٠ مليون دولار، أما في عام ١٩٦٧ فقد

www.ibtesama.com/vb

وصلت إلى ١٢٧٠ مليون دولار. وفي عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩ اكتسب تقدم رجال البنوك الاجانب سرعة فائقة: إذ يوجد اليوم لبنك فرست ناشيونال سيتي وحده ١١٠ فروع منتشرة في سبعة عشر بلداً من بلدان أمريكا اللاتينية - ويشمل هذا الرقم مختلف البنوك المحلية التي تم الاستيلاء عليها مؤخراً. وقد استولى بنك تشيز مانهاتن على بنك لار برازيليرو (٣٤ فرعاً) في عام ١٩٦٢، والبنك القاري (٤٢ فرعاً، في بيرو) في عام ١٩٦٤، والبنك التجاري (١٢٠ فرعاً، في كولومبيا وبنما) وبنك أتلانتيدا (٢٤ فرعاً، في هندوراس) في عام ١٩٦٧، والبنك الأرجنتيني للتجارة في عام ١٩٦٨. وكانت الثورة الكوبية قد أممت ٢٠ وكالة مصرفية أمريكية، لكن رجال البنوك قد أفاقوا من هذه الضربة أكثر من اللازم: ففي عام ١٩٦٨ وحده جرى افتتاح أكثر من ٧٠ فرعاً بنكياً أمريكياً في أمريكا الوسطى، ومنطقة الكاريبي، والبلدان الأمريكية الجنوبية الأصغر.

ولايعرف أحد النطاق الدقيق النمو المتزامن للأنشطة الموازية - الشركات الفرعية، الشركات القابضة، شركات التمويل، الوكالات. لكن الشئ المعروف هو أن مبلغاً مساويا أو اكبر من الموارد المالية الأمريكية اللاتينية قد استوعبته البنوك التي تعد، رغم أنها لاتعمل على المكشوف كفروع، محكومة من الخارج عن طريق كتل حاسمة من الأسهم أو من طريق فتح خطوط قروض ائتمانية خارجية مشروطة.

وقد ساعد هذا الغزو المصرفي على تحويل المدخرات الأمريكية اللاتينية إلى المشاريع الاستثمارية الأمريكية المتواجدة في المنطقة، بينما يؤدي غياب القروض الائتمانية إلى خنق المشاريع الاستثمارية القومية. والحال أن إدارات العلاقات العامة بمختلف البنوك الأمريكية العاملة في الخارج تعلن دون حياء أن هدفها الرئيسي في البلدان التي تعمل فيها هو تحويل المدخرات الداخلية إلى الشركات متعددة القوميات والتي تتعامل مع مكاتبها الرئيسية[٣٧]. ويتسمح لأنفسنا بأن نحلق قليلاً في عالم الخيال: هل يمكن لبنك أمريكي لاتيني أن يحقق لنفسه تواجداً في نيويورك ويستولي على المدخرات القومية للولايات المتحدة؟ إن الوهم ينفجر: فمثل هذا العمل الشنيع محظور بصورة مطلقة سافرة. لكن البنوك الأمريكية تتصرف على هواها، من خلال فروعها العديدة، بالمدخرات القومية الأمريكية اللاتينية. وتتابع أمريكا اللاتينية استيلاء الولايات المتحدة على أموالها متابعة حزينة حنان الولايات المتحدة نفسها. وعلى أية حال، فإن بنك دي نيسكونتوس البرازيلي قد استشار حملة أسهمه، في يونيو ١٩٦٦، بشأن خطوة قومية عظمى وحيوية اقترح اتخاذها. لقد قرر طبع عبارة "نحن نثق في الرب" على

بالثقة، وقد أشار البنك في تباهٍ إلى واقع أن الدولار يحمل عبارة "نحن نثق في الرب".

أما السياسات الائتمانية للبنوك الأمريكية اللاتينية التي لم يستول عليها رأس المال الأجنبي، أو يتغلغل فيها، أو يحاصرها، فهي تتبع ذات المبادئ التي تتبعها فروع بنوك ناشيونال سيتي، وتشيز مانهاتن وبنك أوف أميركا: فهي، أيضاً، تفضل تلبية متطلبات المشاريع الاستثمارية الصناعية والتجارية الأجنبية، والتي تتمتع بضمانات راسخة وتعمل على أساس حجم كبير.

■ إمبراطورية تستورد رؤوس الأموال

افترض برنامج العمل الاقتصادي الذي طرحته الحكومة والتي أعده روبيرتو كامبوس أن رأس المال الأجنبي، تجاوباً مع سياسة سخية كهذه، سوف يتدفق على البلاد لتشجيع التنمية وسوف يساهم في تحقيق الاستقرار الاقتصادي والمالي في البرازيل[٢٨]. وقد أعلن عن استثمارات مباشرة جديدة من الخارج حجمها ١٠٠ مليون دولار سوف تصل في عام ١٩٦٥؛ إلا أنه لم يصل غير ٧٠ مليون دولار. وكانت هناك تأكيدات بأن الأرقام المستهدفة لعام ١٩٦٥ سوف يتم تجاوزها في الأعوام التالية، لكن التخمينات ذهبت سدىً. وفي عام ١٩٦٧، وصل ٧٦ مليون دولار، لكن حجم الأرباح والأنصبة المحولة، جنباً إلى جنب المدفوعات التي ذهبت إلى المساعدة التقنية، وحقوق استخدام العلامات المسجلة، والعوائد، واستخدام العلامات التجارية، فاق حجم الاستثمارات الجديدة بأكثر من أربع مرات. وعلاوة على كل ذلك، كانت هناك أيضاً التحويلات السرية. ويعترف البنك المركزي بأن ١٢٠ مليون دولار قد خرجت من البرازيل في عام ١٩٦٧ دون أن تمر بالقنوات المشروعة. وهكذا فإن ما خرج كان أكثر بكثير مما دخل. والواقع أن الاستثمارات الجديدة في السنوات الرئيسية لنزع التأميم الصناعي - ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٦٧ - كانت أدنى بكثير من المستوى الذي كانت عليه في عام ١٩٦١[٢٩]. وتستثمر معظم الرساميل الأمريكية في البرازيل في الصناعة، إلا أنها تصل إلى نسبة تقل عن ٤ في المائة من الاستثمارات الأمريكية العالمية في مجال الإنتاج الصناعي. أما في الأرجنتين فهي تصل إلى نسبة ٣ في المائة بالكاد؛ بينما تصل في المكسيك إلى نسبة لاتزيد عن ٢,٥ في المائة. إن ابتلاع كبرى المنشآت الصناعية الأمريكية اللاتينية لم ينطو على تضحيات عظيمة من جانب وول ستريت. لقد جاءت

www.ibtesama.com/vb

بدولارات قليلة وأخذت دولارات أكثر.

كتب لينين يقول: "في ظل الرأسمالية الحديثة، حيث تسود الاحتكارات، فإن تصدير رأس المال قد أصبح السمة النموذجية". أما في أيامنا، كما أشار باران وسويزي، فإن الامبريالية تستورد رأس المال من البلدان التي تعمل فيها. وخلال الفترة الممتدة من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٦٧: بلغ إجمالي الاستثمارات الأمريكية الجديدة في أمريكا اللاتينية (من غير الأرباح التي أعيد استثمارها) ٣,٩٢١ بليون دولار. أما الأرباح والأنصبة التي أرسلت إلى الخارج خلال الفترة نفسها فقد بلغ إجماليها ١٢,٨١٩ بليون دولار. لقد زادت الأرباح المنزوحة عن حجم الرساميل الجديدة المستثمرة في المنطقة بأكثر من ثلاث مرات[٤٠]. ووفقاً للجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية، فإن استنزاف الأرباح قد زاد منذ ذلك الحين عن الاستثمارات الجديدة نحو خمس مرات؛ وقد كانت الارجنتين، والبرازيل، والمكسيك من التوسع الأكبر لبوابة الهرب هذه. لكن هذه النسبة حسبية محافظة. ذلك أن جانباً مهماً من الموارد المالية المحولة على شكل دفعات لسداد الديون يعد في واقع الأمر مطابقاً لأرباح عن الاستثمارات، ولاتشمل الأرقام لا التحويلات إلى الخارج للمدفوعات من حقوق استخدام العلامات المسجلة، والعوائد، والمساعدة التقنية، ولا التحويلات غير المنظورة الأخرى والتي جرى التستر عليها عادة تحت بند "الأخطاء والتقصيرات"[٤١]. كما أن هذه الأرقام لاتأخذ بعين الاعتبار الأرباح التي تعود على الشركات عندما تضخم أسعار الامدادات التي تقدمها إلى فروعها وتضخم - بحماس مسعور - تكاليفها التشغيلية.

والحال أن المشاريع الاستثمارية تتميز بسعة الحيلة والخيال أيضاً فيما يتعلق بالاستثمارات نفسها. فالواقع أنه، مع استمرار حمى التقدم التقني في تقصير فترات تجديد رأس المال الثابت في الاقتصاديات المتقدمة، تكون معظم المنشآت ومعدات المصانع المصدرة إلى أمريكا اللاتينية قد أتمت بالفعل دورة من دورات حياتها المربحة في الأماكن الأصلية التي جاءت منها. وهكذا تكون قد استهلكت حسابيها بصورة كاملة أو بصورة جزئية. وهذا العامل في الاستثمار في الخارج يجري تجاهله: فالقيمة التي تحدد بصورة اعتباطية للآلات غالباً ماتكون جزءاً صغيراً مما هي عليه لو أخذنا في حسابنا الإهلاك الذي تعرضت له في السابق. وعلاوة على ذلك، فإن المكتب الرئيسي ليست لديه مبررات للمشاركة في نفقات إنتاج سلع في أمريكا اللاتينية كانت تباع لها في السابق من الخارج. وتتعهد الحكومات الأمريكية اللاتينية بأن تمنع هذا عن طريق

تقديم الموارد إلى الفرع المحلي، الذي يتمتع بحق الحصول على قروض ائتمانية محلية بمجرد ما أن يضع علامة على الموقع المختار لمصنعه. وهو يحصل على امتيازات خاصة بأسعار الصرف فيما يتعلق بوارداته - وهي مشتريات يشتريها المشروع الاستثماري عادة من نفسه - بل ويمكنه في بعض البلدان الاطمئنان إلى ترتيب خاص فيما يتعلق بأسعار الصرف لسداد ديونه الخارجية، والتي غالباً ماتكون ديوناً مستحقة للجناح المالي للشركة نفسها. وقد قدرت مجلة برازيلية[٤٢] أن مدخلات العملة الأجنبية عن طريق صناعة السيارات في الأرجنتين بين عامي ١٩٦١ و ١٩٦٤ كانت أزيد ثلاث مرات ونصف عن المبلغ الذي يلزم لبناء سبع عشرة محطة حرارية كهربائية وست محطات مائية كهربائية، تزيد قوتها الإجمالية عن ٢٠٠,٠٠٠ ميجاوات؛ وأنها تساوي قيمة الآلات والمعدات التي يتعين على الصناعات الديناميكية استيرادها على مدى فترة قوامها أحد عشر عاماً لإنتاج زيادة سنوية نسبتها ٢,٨ في المائة في المنتجات بالنسبة إلى الفرد الواحد من السكان.

■ التكنوقراطيون أبرع من مشاة البحرية في قطع الطريق

تحرك المشاريع الاستثمارية، بترحيلها لدولارات تفوق كثيراً الدولارات التي تدخلها، جوع المنطقة المزمن إلى الدولارات: فالبلدان "المستفيدة" يجري حرمانها من الرساميل بدلاً من رسملتها. وهنا تبدأ آلية اللجوء إلى القروض في العمل. وتعد المنظمات الائتمانية الدولية مهمة في المساعدة على القضاء على القلاع الهزيلة للصناعة المرسملة قومياً وفي توطيد هياكل الاستعمار الجديد. والحال أن "المساعدة" تعمل كفاعل الخير الذي يزود خنزيره الصغير برجل خشبية لأنه يأكل رجله الأصلية قطعة قطعة. إن العجز في ميزان المدفوعات الأمريكي هو نتيجة للإنفاق العسكري والمساعدات الخارجية، وهو سيف ديموقليس مسلط على رفاهية الولايات المتحدة. لكنه، في الوقت نفسه، يجعل تلك الرفاهية ممكنة: إن الامبراطورية ترسل مشاة بحريتها لانقاذ دولارات احتكاريها؛ وبشكل أكثر فعالية، ترسل تكنوقراطييها وقروضها لتوسيع الاستثمار والاستحواذ على المواد الخام والأسواق.

إن رأسمالية أمريكا تعبر في مركز قوتها العالمي عن تطابق واضح في المصالح بين الاحتكارات الخاصة وجهاز الدولة[٤٣]. فالشركات المتعددة القوميات تستخدم الدولة

www.ibtesama.com/vb

في مراكمة، ومضاعفة، وتركيز رأس المال، وفي تعميق الثورة التكنولوجية، وفي عسكرة الاقتصاد، وفي ضمان النجاح، بمختلف الوسائل، في الحملة الصليبية الرامية إلى إحكام السيطرة على العالم الرأسمالي. والمال أن بنك التصدير والاستيراد، ووكالة التنمية الدولية ومنظمات أخرى أصغر حجماً تشارك في هذا الدور، مثلما تشارك فيه بعض المنظمات التي يقال إنها دولية والتي تتمتع الولايات المتحدة فيها بهيمنة طاغية: صندوق النقد الدولي، وتوأمه البنك الدولي للإنشاء والتعمير، وبنك التنمية الأمريكي المشترك. فهذه المنظمات تمنح نفسها الحق في تقرير السياسة الاقتصادية للبلدان التي تطلب قروضاً ائتمانية، متقمصة انقماضاً ناجعاً على البنوك المركزية لهذه البلدان وعلى وزاراتها الحاسمين، وهي تضع أيديها على كافة البيانات الاقتصادية والمالية السرية، وتصوغ وتفرض قوانين قومية، وتمنع أو تجيز الخطوات التي تقترحها الحكومات والتي تحدد هي نهجها حتى أدق التفاصيل.

إن الاحسان الدولي لاوجود له: وهو يبدأ في الداخل، بالنسبة إلى الولايات المتحدة كما بالنسبة إلى جميع الآخرين. فدور المساعدة الخارجية محلي بالدرجة الأولى - الاقتصاد الأمريكي يساعد نفسه - وقد عرفها روبيرتو كامبوس نفسه لا سواه، عندما كان سفيراً لحكومة جولارت القومية، بأنها برنامج لتوسيع الأسواق الخارجية حتى تستوعب الفوائض الأمريكية وتخفف من فيض الإنتاج في الصناعات التصديرية للولايات المتحدة[٤٤]. وفي الأيام الأولى لمشروع التحالف من أجل التقدم، أشارت وزارة التجارة الأمريكية إلى نجاحها في إنشاء مشاريع استثمارية ومصادر توظيف جديدة للاستثمارات الخاصة في أربع وأربعين ولاية أمريكية شمالية[٤٥]. وفي يناير ١٩٦٨، أكد الرئيس جونسون للكونجرس أن نسبة تزيد عن ٩٠ في المائة من المساعدات الخارجية الأمريكية في عام ١٩٦٩ سوف تذهب إلى تمويل مشتريات من الولايات المتحدة، وأنه قد قام بصورة شخصية ومباشرة بتكثيف الجهود الرامية إلى زيادة هذه النسبة المئوية[٤٦].

وفي أكتوبر ١٩٦٩، دوت البرقيات بتصريحات كارلوس سانز دي سانتاماريا، رئيس اللجنة الأمريكية المشتركة للتحالف، الذي قال في نيويورك إن المساعدة قد تكشفت عن عمل مربح ممتاز للاقتصاد الأمريكي وللخزانة الأمريكية. فبعد أن أصبح اختلال ميزان المدفوعات الأمريكي حرجاً في أواخر الخمسينيات، أصبحت القروض مشروطة بشراء سلع صناعية أمريكية، تكلف عادةً أكثر مما تكلفه منتجات مماثلة من بلدان أخرى. ومؤخراً جداً، جرى تطبيق آليات معينة، من بينها "القوائم السلبية" للتأكد من عدم

www.ibtesama.com/vb

استخدام القروض الائتمانية من أجل تصدير سلع يمكن للولايات المتحدة بيعها فى السوق العالمية فى ظل ظروف تنافسية جيدة دون اللجوء إلى الاحسان على الذات. أما "القوائم الايجابية" التى تلت ذلك فقد ساعدت على بيع منتجات صناعية أمريكية معينة من خلال "المساعدة" بأسعار تزيد بنسب تتراوح بين ٣٠ و ٥٠ فى المائة عن أسعار السلع نفسها من مصادر أخرى.

وتتكرم "المساعدة المربوطة" (هكذا سمتها وثيقة منظمة الدول الأمريكية التى سبق الاستشهاد بها) بـ "إعانة عامة للصادرات الأمريكية". ففى البرازيل، "تواجه مبيعات مصدرى السلع الرأسمالية الامريكية منافسة متزايدة من جانب المصدرين الأخرين ... (و) تجد نفسها فى موقف غير مؤات بدرجة خطيرة مالم تتسن لها الاستفادة من التمويل الأكثر تحرراً والمتاح فى ظل مختلف برامج المساعدة"[47]. وعندما وعد ريتشارد نيكسون، فى خطاب أدلى به فى أواخر عام ١٩٦٩، بـ "فك" المساعدة، فإنه لم يشر إلاَّ إلى إمكانية مشتريات بديلة من بلدان أمريكية لاتينية. وهذا هو ماحدث مع القروض التى منحها بنك التنمية الأمريكى المشترك وعهد بها إلى صناديق العمليات الخاصة التابعة له. لكن التجربة تبين أن الولايات المتحدة - أو الفروع الأمريكية اللاتينية لشركاتها - تنتهى دائماً بأن تكون المُوَرِّدَ المختار فى العقود. كما أن القروض المقدمة من وكالة التنمية الدولية، وبنك التصدير والاستيراد، ومعظم القروض المقدمة من بنك التنمية الأمريكى المشترك تشترط نقل ما لايقل عن نصف الشحنات فى سفن أمريكية، والحال أن رسوم الشحن على السفن الأمريكية تصل إلى ضعف رسوم الشحن على خطوط الملاحة المتاحة الأخرى. كما أن المؤسسات التى تؤمن السلع المنقولة، والبنوك التى تتحقق العمليات من خلالها، عادة ماتكون مملوكة للولايات المتحدة.

وقد قدمت منظمة الدول الأمريكية تقديراً غنياً بالدلالات لحجم المساعدة الفعلية التى حصلت أمريكا اللاتينية عليها[48]. فبعد نزع القشرة عن الحبة، لابد للمرء من أن يستنتج أن نسبة ٣٨ فى المائة فقط من المساعدة الاسمية هى التى يمكن اعتبارها مساعدة فعلية. ولاتتألف المساعدة إلاَّ من مجرد خمس إجمالى القروض المجازة للصناعة، والتعدين، والمواصلات، والقروض الائتمانية التعويضية. وفى حالة بنك التصدير والاستيراد، فإن المساعدة تسافر من الجنوب إلى الشمال: إذ تقول منظمة الدول الأمريكية إن التمويل الذى يقدمه البنك لايعنى مساعدةً بل تكاليف إضافية المتعلقة بالنظر إلى الأسعار المتضخمة للسلع الأمريكية المصدرة عبر البنك.

www.ibtesama.com/vb

وتقدم أمريكا اللاتينية معظم الموارد الرأسمالية العادية لبنك التنمية الأمريكي المشترك. لكن وثائق بنك التنمية الأمريكي المشترك تحمل شعار التحالف من أجل التقدم بالإضافة إلى شارته الخاصة، والولايات المتحدة هي البلد العضو الوحيد الذي يتمتع بحق الفيتو؛ أما أصوات البلدان الأمريكية، المناظرة لمساهماتها من الرساميل فهي عاجزة عن تحقيق أغلبية الثلثين اللازمة لاتخاذ القرارات المهمة. وقد اعترف نيلسون روكفيللر، في تقريره الشهير إلى الرئيس نيكسون في أغسطس ١٩٦٩، بأنه «في حين أن حق الفيتو الذي تتمتع به الولايات المتحدة فيما يتعلق بالقروض التي يقدمها بنك التنمية الأمريكي المشترك لم يستخدم، إلا أن التهديد باستخدامه لأغراض سياسية قد أثر على القرارات». ويفرض بنك التنمية الأمريكي المشترك على معظم القروض التي يقدمها نفس الشروط التي تفرضها الهيئات الأمريكية السافرة: فالنقود يجب انفاقها على شراء سلع أمريكية، يتعين نقل ما لايقل عن نصفها في سفن ترفع علم الولايات المتحدة – ويشار إلى التحالف من أجل التقدم بشكل سافر في النشرات الدعائية. ويحدد بنك التنمية الأمريكي المشترك سياسة الهيئات التي يمسها بعصاه السحرية فيما يتعلق بالتعريفة والضرائب: فهو يقرر الرسم الذي يجب فرضه على استهلاك المياه، ويحدد ضريبة الانتفاع من مواسير المياه الرئيسية والسكن على أساس مقترحات يقدمها مستشارون أمريكيون يعينون بموافقته الكريمة. وهو يصدق على خطط العمل، ويصوغ شروط العطاءات، ويدير الموارد المالية، ويرصد أسلوب تنفيذ العمل[٤٩]. أما في مهمة إعادة تشكيل بنية التعليم العالي في المنطقة وفقاً لمعايير الاستعمار الثقافي الجديد، فقد لعب بنك التنمية الأمريكي المشترك دوراً مثمراً. فقروضه المقدمة إلى الجامعات تستبعد إمكانية تعديل القوانين واللوائح دون علمه وموافقته! وهو في الوقت نفسه، يفرض إصلاحات تربوية، وإدارية، ومالية محددة[٥٠]. وفي حالة نشوء خلاف في الرأي، يُعيِّنُ الأمينُ العامُ لمنظمة الدول الأمريكية حَكَماً.

أما عقود وكالة التنمية الأمريكية فهي لاتكتفي باشتراط شراء سلع أمريكية ونقل السلع على سفن أمريكية، وإنما تُحَرِّمُ أيضاً التجارة مع كوبا وفيتنام وتجعل الوصاية الإدارية لفنيي وكالة التنمية الدولية إلزامية. وللتعويض عن فروق الأسعار بين التراكتورات أو الأسمدة الأمريكية والتراكتورات أو الأسمدة التي يمكن الحصول عليها من السوق العالمية بأسعار أرخص، يجري النص على الغاء الضرائب والرسوم الجمركية على المنتجات المستوردة بقروض ائتمانية. وتشمل مساعدات وكالة التنمية الدولية عربات

الجيب والأسلحة الحديثة لكي تستخدمها الشرطة في حماية القانون والنظام في البلدان المعنية. وليس من المفارقات أن ثلث القروض الائتمانية يمكن تسليمه فوراً، بينما يعد الثلثان الآخران متوقفين على موافقة صندوق النقد الدولي - والذي تؤدي وصفاته عادةً إلى اشعال نيران غليان اجتماعي. وإذا لم يتمكن صندوق النقد الدولي من فك كل آليات السيادة مثلما يفك المرء ساعة اليد، فإن وكالة التنمية الدولية تسارع باشتراط إقرار قوانين ومرسومات محددة. وتعد وكالة التنمية الدولية المستودع الرئيسي للموارد المالية لمشروع التحالف من أجل التقدم. وإذا ما اكتفينا بمثال واحد لتيه الكرم والسخاء، فسوف نجد أن اللجنة الأمريكية المشتركة التابعة للتحالف قد تمكنت من إجبار حكومة أوروجواي على توقيع تعهد تنتقل بموجبه إيرادات ونفقات أجهزة الدولة، والسياسة الرسمية بشأن التعريفة، والأجور، والاستثمارات، تحت سيطرة هذه الهيئة الأجنبية[٥١]. لكن أكثر الشروط خبثاً نادراً ماتظهر في النصوص المنشورة للعقود والتعهدات، ويجري اخفاؤها في ملاحق سرية. فلم يعرف برلمان أوروجواي قط أن الحكومة قد وافقت في مارس ١٩٦٨ على الحد من صادرات الأرز في ذلك العام حتى يتمكن البلد من الحصول على الدقيق، والذرة، والسرغم بموجب قانون الفوائض الزراعية الأمريكي.

وتلمع خناجر عديدة تحت عباءة المساعدات المقدمة إلى البلدان الفقيرة. وقد اعترف تيودورو موسكوسو، الذي كان رئيساً للتحالف من أجل التقدم: "قد يحدث أن تكون الولايات المتحدة بحاجة إلى تصويت بلد معين في الأمم المتحدة أو منظمة الدول الأمريكية، ومن الممكن أن تطلب حكومة ذلك البلد (طبقاً للتقاليد المقدسة لدبلوماسية الحرب الباردة) ثمناً في مقابل ذلك"[٥٢]. والحال أن مندوب هاييتي إلى مؤتمر منظمة الدول الأمريكية في بونتا ديل ايستي في عام ١٩٦٢ قد غير تصويته في مقابل مطار جديد، وهكذا حصلت الولايات المتحدة على أغلبيتها في سعيها إلى طرد كوبا من منظمة الدول الأمريكية[٥٣]. وقد قال المدير الجواتيمالي السابق ميجيل يديجوارس فوينتيس أنه قد أضطر إلى تهديد الولايات المتحدة بحرمانها من تصويت بلاده إلى جانبها في مؤتمرات التحالف من أجل التقدم لدفع الولايات المتحدة إلى الوفاء بوعودها بشراء المزيد من سكر جواتيمالا[٥٤].

وقد يبدو غريباً للوهلة الأولى أن البرازيل كانت خلال عهد جولارت البلد الأولى برعاية برنامج التحالف من أجل التقدم. لكن الغرابة تتبدد بمجرد ما أن يدرك المرء التوزيع الداخلي للمساعدة المتلقاة: لقد زرعت قروض التحالف الائتمانية في طريق

www.ibtesama.com/vb

جولارت كالألغام المتفجرة. إن كارلوس لاسيردا، محافظ جوانابارا وزعيم اليمين المتطرف آنذاك، قد حصل على مساعدات يزيد حجمها سبع مرات عن حجم المساعدات التي حصل عليها الشمال الشرقي كله: وهكذا فإن جوانابارا، التي تضم بالكاد أربعة ملايين من السكان، قد تمكنت من إنشاء حدائق غَنَّاء للسياح على أكثر خلجان العالم إثارة، بينما ظل الشمال الشرقي قرح أمريكا اللاتينية المفتوح. وفي يونيو ١٩٦٤، بعد الانقلاب الذي نجح في وضع كاستيلو برانكو في السلطة، بيَّنَ توماس مان، وكيل وزارة الخارجية الأمريكية للشئون الدولية: "أن الولايات المتحدة قد وزعت بين المحافظين الأكفاء لولايات برازيلية معينة المساعدات التي كانت مخصصة لحكومة جولارت، رامية من وراء ذلك إلى تمويل الديمقراطية، ولم تقدم واشنطون أموالاً لميزان المدفوعات أو للميزانية الاتحادية، لأن ذلك كان من شأنه أن يفيد الحكومة المركزية بشكل مباشر"(٥٥). وكانت الإدارة الأمريكية قد قررت حرمان حكومة بيلاوندي في بيرو من أي شكل من أشكال التعاون "مالم تقدم التاكيدات المنشودة بإنتهاج سياسة متساهلة تجاه الشركة الدولية للبترول. وقد رفض بيلاوندي أن يفعل ذلك و، كنتيجة لذلك، فإنه لم يحصل حتى أواخر عام ١٩٦٥ على حصة الموارد المالية التي كانت حكومته قد اكتسبت حق توقع الحصول عليها من برنامج التحالف من أجل التقدم"(٥٦). وفيما بعد، كما هو معروف، ساوم بيلاوندي - وخسر كلاً من النفط والسلطة: وكان قد رضخ لكي يبقى. وفي بوليفيا، لم تقدم القروض الأمريكية مليماً واحداً إلى البلاد لكي تبني فرناً خاصاً بها لصهر القصدير، بحيث أن خام القصدير قد واصل الرحيل إلى ليفربول، ومن هناك، بعد صهره، إلى نيويورك. لقد أدت "المساعدة" إلى نشوء بورجوازية تجارية طفيلية، وإلى تضخم البيروقراطية، وأقامت بنايات ضخمة وطرقاً رئيسية حديثة للسيارات وأفيالاً بيضاء أخرى(*) في بلد يزاحم هاييتي على أعلى معدل لوفيات الأطفال في أمريكا اللاتينية. وقد حرمت القروض الائتمانية المقدمة من الولايات المتحدة وهيئاتها "الدولية" بوليفيا من حقها في قبول عروض سوفيتية، وتشيكية، وبولندية لإنشاء صناعة بترو - كيميائية، ولاستخراج وصهر الزنك، والرصاص، والحديد، ولإنشاء أفران لصهر القصدير والانتيمون. وفي الوقت نفسه، جرى إرغام بوليفيا على استيراد المنتوجات من الولايات المتحدة وحدها دون سواها. وعندما سقطت حكومة الحركة القومية الثورية في نهاية الأمر، بعد أن نخرت المساعدة الأمريكية دعائمها، بدأ دوجلاس هيندرسون، السفير

(*) المقصود هو الإنشاءات باهظة التكاليف قليلة العائد والفائدة. المترجم.

www.ibtesama.com/vb

الأمريكي، في حضور اجتماعات وزارة رينيه بارينتوس بصفة منتظمة[٥٧].

والحال أن القروض تحدد بدقة موازين الحرارة المناخ الاستثماري العام لكل بلد، وتساعد على تبديد الغيوم السياسية أو العواصف الثورية من سماء المليونيرات الصافية. وقد أعلن فريق من رجال الأعمال برئاسة ديفيد روكفيللر في عام ١٩٦٣: "إن الولايات المتحدة سوف ترتب برنامج مساعداتها الاقتصادية في البلدان التي تبدي استعداداً أكبر لتهيئة المناخ للاستثمارات، وسوف تسحب المساعدات من البلدان الأخرى التي لاتبدي أداءً مرضياً"[٥٨]. وينص قانون المساعدات الخارجية بشكل قاطع على حجب المساعدات عن أية حكومة "تؤمم، أو تصادر، أو تحوز ملكية أو تسيطر على ملكية تخص أي مواطن، أو أية شركة، أو جمعية، أو اتحاد أمريكي" يخص مواطنين أمريكيين بنسبة لاتقل عن ٥٠ في المائة"[٥٩]. وليس غريباً أن اللجنة التجارية التابعة لبرنامج التحالف من أجل التقدم تضم بين أعضائها الأبرز كبار مديري بنك تشيزمانهاتن، وناشيونال سيتي بنك، وستاندارد أويل، وأناكوندا، وجريس. وتمهد وكالة التنمية الدولية الطريق أمام الرأسماليين الأمريكيين بسبل مختلفة – على سبيل المثال، عن طريق اشتراط التصديق على اتفاقات تكفل الاستثمارات ضد الخسائر الممكنة من جراء الحروب، أو الثورات، أو الانتفاضات، أو الأزمات النقدية. وفي عام ١٩٦٦، وفقاً لوزارة التجارة الأمريكية، حصل المستثمرون الخاصون الأمريكيون على هذه الضمانات في خمسة عشر بلداً من بلدان أمريكا اللاتينية، بالنسبة إلى مائة مشروع تشمل أكثر من ٣٠٠ مليون دولار، بموجب برنامج وكالة التنمية الدولية لضمان الاستثمارات[٦٠].

وليست أديلا أغنية ثورية مكسيكية، بل هي أسم كونسورتيوم استثماري دولي، وقد دشنه فرست ناشيونال سيتي بنك، وستاندارد أويل أوف نيو جيرسي، وشركة فورد موتور. وقد انضمت مجموعة ميلون إلى المشروع بحماس، وكذلك فعلت شركات أوروبية كبرى لأن "أمريكا اللاتينية"، كما أشار السناتور جاكوب جافيتز، "تتيح فرصة ممتازة للولايات المتحدة لتظهر، بدعوتها أوروبا إلى "الدخول"، إنها لاتسعى إلى موقع السيطرة أو الانفراد"[٦١]. وقد قدمت أديلا في تقريرها السنوي لعام ١٩٦٨ شكراً خاصاً إلى بنك التنمية الأمريكي المشترك على القروض الموازية التي قدمها لتعزيز النشاط الاستثماري للكونسورتيوم في أمريكا اللاتينية، كما حيت الأداء المماثل للشركة المالية الدولية، وهي جناح البنك الدولي. وتعد أديلا على اتصال مستمر بكل من المؤسستين لتجنب ازدواج الجهود ولتقييم فرص الاستثمار[٦٢].

www.ibtesama.com/vb

ويمكن تقديم الكثير جداً من الأمثلة على مثل هذه التحالفات المقدسة. ففي الأرجنتين، تحولت المساهمات الأمريكية اللاتينية في موارد بنك التنمية الأمريكي المشترك إلى قروض مناسبة جداً تفيد شركة بتروسور التابعة لشركة اليكتريك بوند اندشير (أكثر من ١٠ مليون دولار لإنشاء مجمع بتروكيميائي)، وشركة أرميتال التابعة لشركة بود (فيلادلفيا) (لتمويل مصنع لقطع غيار السيارات)[٦٣]. وقد أتاحت قروض وكالة التنمية الدولية الائتمانية توسيع مصنع رينتشفيلد الكيميائي في البرازيل، وقدم بنك التصدير والاستيراد قروضاً إلى شركة ايكومي، وهي فرع لشركة بيتلهيم للصلب في البلد نفسه. وفي البرازيل أيضاً، أدت مساهمات من برنامج التحالف من أجل التقدم والبنك الدولي إلى تمكين شركة دوتش فيليبس اندستريز من إنشاء أكبر مجمع لمصانع الأسمدة في أمريكا اللاتينية في عام ١٩٦٦. وكل ذلك يحدث تحت اسم "المساعدة" - وكله يزيد من عبء الدين الخارجي الذي تتحمله البلدان المحظوظة بهذه الطريقة.

وقد عهد فيدل كاسترو، في الأيام الأولى للثورة الكوبية، بمشكلة إعادة تعزيز احتياطيات العملة الأجنبية التي كانت ديكتاتورية باتيستا قد استنزفتها إلى البنك الدولي وصندوق النقد الدولي؛ لكنهما ردا بأن عليه أولاً أن يقبل برنامجاً لتحقيق الاستقرار، وهو مايعني - كما حدث في كل مكان آخر - تقويض الدولة وتجميد الاصلاحات البنيوية[٦٤]. ويعمل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في توافق وثيق ومن أجل أهداف مشتركة؛ وقد ولدا معاً في بريتون وودز. وتتمتع الولايات المتحدة بربع الأصوات في البنك الدولي: أما بلدان أمريكا اللاتينية التي تبلغ اثنين وعشرين بلداً فهي تتمتع بأقل من العشر. ويتجاوب البنك الدولي مع الولايات المتحدة تجاوب الرعد مع البرق.

وكما يبين البنك، فإن معظم القروض تذهب إلى بناء الطرق وشبكات المواصلات الأخرى، وإلى تنمية مصادر الطاقة الكهربائية، وهي شرط جوهري لنمو المشاريع الاستثمارية الخاصة[٦٥]. والواقع أن مشاريع البنية الأساسية هذه تسهل حركة المواد الخام إلى الموانئ والأسواق العالمية وتخدم الصناعة التي نزع تأميمها بالفعل في البلدان الفقيرة. ويعتقد البنك الدولي أن

> *"الصناعة المعتمدة على المنافسة يجب تركها، إلى أقصى الحدود الممكنة من الناحية العملية، للمشاريع الاستثمارية الخاصة. ولايعني هذا أن البنك يحظر بصورة مطلقة تقديم القروض إلى الصناعات التي تملكها الحكومات، إلا أنه لن يتعهد بتمويلات كهذه إلا عندما لاتكون الرساميل*

www.ibtesama.com/vb

الخاصة متاحة، وعلمنا برتاح، بعد دراسة شاملة، إلى أن مشاركة الحكومات سوف تكون متمشية مع التشغيل الكفء، ولن يكون لها أثر معوّق لا لزوم له على توسع المبادرة الخاصة والاستثمار الخاص".

وتعد القروض مشروطة بتطبيق صيغ تحقيق الاستقرار التي يقدمها صندوق النقد الدولي وبالسداد السريع للديون الخارجية، وهي تتعارض مع سياسات السيطرة على أرباح الشركات الاستثمارية، "والتي تتميز بالميل إلى فرض القيود بحيث أن المرافق لا تتمكن من العمل على أساس سليم، ناهيك عن التوسع في المستقبل"(٦٦). ومنذ عام ١٩٦٨، حوّل البنك الدولي جانباً ملحوظاً من قروضه إلى مشروعات تعزيز تحديد النسل، والخطط التعليمية، والاستثمارات الهندسية الزراعية، والسياحة.

كما أن البنك شأنه في ذلك شأن كل أجهزة امتصاص الأموال التابعة للمؤسسات المالية الدولية الكبرى، يعد أداة ابتزاز فعالة لحساب أوساط محددة للغاية. وكان رؤساؤه منذ عام ١٩٤٦ رجال أعمال أمريكيين بارزين. فيوجين ر. بلاك رئيس البنك من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٦٢، قد أصبح فيما بعد مديراً لشركات خاصة عديدة، تعد احداها – اليكتريك بوند أند شير – أكبر احتكاري في العالم للطاقة الكهربائية(٦٧).

وقد استطاع البنك الدولي في عام ١٩٦٦، من باب المصادفة أو من أي باب آخر، أن يدفع جواتيمالا إلى قبول "اتفاق جنتلمان" مع اليكتريك بوند أند شير كشرط لتنفيذ مشروع خورون – مارينالا للطاقة الكهربائية المائية: وقد نص الاتفاق على دفع تعويض للمؤسسة عن الأضرار المحتملة في موقع حوض النهر الذي كان قد قدم لها كهدية قبل ذلك ببضع سنوات، وتضمن الاتفاق تعهداً من جانب الدولة بعدم التدخل في تحديد مؤسسة اليكتريك بوند أند شير لرسوم استهلاك الكهرباء. ومن باب المصادفة أو من أي باب آخر، تمكن البنك الدولي في عام ١٩٦٧ من اجبار كولومبيا على دفع تعويض قيمته ٣٦ مليون دولار لشركة الكهرباء الكولومبية التابعة لمؤسسة اليكتريك بوند أند شير عن معداتها العتيقة التي أممت مؤخراً. وهكذا اشترت الدولة الكولومبية مايخصها – لكن الامتياز الممنوح للشركة كان قد انقضى أجله في عام ١٩٤٤. ويعد ثلاثة من رؤساء البنك الدولي نجوماً في كوكبة جيروت روكفيللر. إن جون. ج. ماكلوي، الذي رأس البنك من عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٤٩، قد انتقل إلى مقعد مدير في بنك تشيز مانهاتن. أما خليفته، بلاك، فقد عبر الطريق في الاتجاه المقابل، إذ جاء من مجلس إدارة تشيز مانهاتن إلى البنك الدولي. وقد حل جورج د. وودز، وهو رجل آخر من رجال روكفيللر، محل بلاك في

عام ١٩٦٣. ومن باب المصادفة أو أي باب آخر، يشارك البنك الدولي مشاركة مباشرة - بعشر الرساميل وبقروض مهمة - في أكبر مشاريع روكفيللير الاستثمارية في البرازيل: أهم مجمع في أمريكا اللاتينية للصناعات البتروكيميائية، بتروكيميكا أونيياو.

ويأتي أكثر من نصف القروض التي تحصل عليها أمريكا اللاتينية - بعد صدور الضوء الأخضر من صندوق النقد الدولي - من مصادر أمريكية خاصة ورسمية. كما يقدم البنك الدولي نسبة مئوية مهمة. ويتزايد ضغط صندوق النقد الدولي والبنك الدولي أكثر فأكثر على البلدان الأمريكية اللاتينية لكي تعيد صوغ اقتصادياتها وماليتها بما يتمشى مع متطلبات سداد الدين الخارجي. لكن الوفاء بالالتزامات - جوهر حسن السلوك الدولي - يزداد صعوبة ويصبح في الوقت نفسه ضرورياً أكثر. وتتشكل المنطلقة من الظاهرة التي يسميها الاقتصاديون بـ "انهيار الديون". إنها حلقة خانقة. فالقروض تتزايد، والاستثمارات تتلو الاستثمارات، بحيث أن المدفوعات تتزايد بالنسبة إلى الأقساط، والفوائد، والحصص النسبية وغير ذلك من خدمات الديون. ولسداد هذه الديون، يجرى اللجوء إلى حقنات جديدة من الرساميل الأجنبية، مما يزيد من حجم الالتزامات، وهلمجرا، وهلمجرا. والحال أن خدمة الدين تستهلك نسبة متزايدة من دخول الصادرات التي لايمكنها، على أية حال، بسبب الهبوط المتواصل للأسعار، تمويل الواردات الضرورية، وهكذا تصبح القروض الجديدة لتمكين البلدان من الحصول على الامدادات التي تحتاج إليها ضرورية ضرورة الهواء للرئتين. وقد ذهب خمس قيمة الصادرات في عام ١٩٥٥ إلى سداد أقساط، وفوائد، وأرباح عن الاستثمارات. أما في عام ١٩٦٨، فقد وصلت هذه المدفوعات إلى نسبة ٣٧ في المائة من قيمة الصادرات(٦٨). وإذا ما واصلت أمريكا اللاتينية اللجوء إلى الرساميل الأجنبية لسد "الفجوة التجارية" وتمويل ترحيل الأرباح عن الاستثمار الامبريالي، فإن نسبة لاتقل عن ٨٠ في المائة من العملة الأجنبية سوف تظل، بحلول عام ١٩٨٠، في أيدي المقرضين الأجانب، وسوف يصل إجمالي الديون إلى مايزيد بأكثر من ست مرات عن قيمة الصادرات(٦٩). وقد تنبأ البنك الدولي بأن مدفوعات خدمة الديون سوف تؤدي في عام ١٩٨٠ إلى الإلغاء الكامل لتدفق رساميل أجنبية جديدة إلى العالم النامي. لكن الحال أن تدفق القروض الجديدة إلى أمريكا اللاتينية في عام ١٩٦٥ كان أقل بالفعل من رأس المال المستنزف على شكل أقساط وفوائد وفاءً بالتزامات سابقة.

www.ibtesama.com/vb

التصنيع لايغيّر من تنظيم عدم التكافؤ في السوق العالمية

يشكل تبادل السلع، جنباً إلى جنب القروض والاستثمارات المباشرة في الخارج، الإطار الحديدي للتقسيم الدولي للعمل. وتتبادل بلدان العالم الثالث فيما بينها مايزيد إلى حد ما عن خمس صادراتها، وتذهب ثلاثة أرباع مبيعاتها الخارجية إلى المراكز الامبريالية التي تعد هذه البلدان روافد تابعة تصب فيها[٧٠]. ويرتبط معظم البلدان الأمريكية اللاتينية في السوق العالمية بمادة أولية واحدة أو بمحصول غذائي واحد[٧١]. وتتمتع أمريكا اللاتينية بوفرة من الصوف، والقطن، والألياف الطبيعية، وبصناعة منسوجات تقليدية، لكنها لاتتمتع إلاّ بحصة نسبتها ٦,٠ في المائة في المشتريات الأوروبية والأمريكية من الغزل والأقمشة. لقد حكم على المنطقة ببيع المنتجات الأولية حتى تواصل عجلات المصانع الأجنبية الدوران؛ ويحدث أن تلك المنتجات "يجري تصديرها في معظم الأحيان من جانب كونسورتيومات قوية ذات ارتباطات دولية، تملك العلاقات الضرورية في السوق العالمية بما يمكنها من طرح منتجاتها في ظل أنسب الشروط[٧٢]" -- أنسب الشروط لها، الشروط المناسبة لمصالح البلدان المشترية: أي بأرخص الأسعار، ويوجد في الأسواق الدولية احتكار فعلي لطلب المواد الأولية ولعرض المنتجات الصناعية، في حين أن طارحي المنتجات الأساسية، وهم أيضاً مشترون للسلع المصنعة، يعملون بصورة منفصلة. إن الأوائل الملتفين حول الولايات المتحدة - التي تستهلك مثيل مايستهلكه باقي العالم كله تقريبا - والذين تهيمن الولايات المتحدة عليهم، أقوياء؛ بينما نجد أن الأخيرين معزولون وضعفاء؛ مقهورون يزاحمون مقهورين. أمّا مايسمى بالحركة الحرة للعرض والطلب في السوق العالمية فهو غير موجود؛ والموجود فعلاً هو ديكتاتورية مجموعة تتسلط على الأخرى، لحساب البلدان الرأسمالية المتقدمة دائماً. وتوجد مراكز صنع القرار، التي تتحدد فيها الأسعار، في واشنطون، ونيويورك، ولندن، وباريس، وأمستردام، وهامبورج، في اجتماعات مجالس الوزراء وفي أسواق الأوراق المالية. ولا أهمية تذكر أولا أهمية على الاطلاق لتوقيع اتفاقات دولية لحماية أسعار القمح (١٩٤٩)، والسكر (١٩٥٣)، والقصدير (١٩٥٦)، وزيت الزيتون (١٩٥٦)، والبن (١٩٦٢). وتبين نظرة سريعة إلى المنحنى الهابط للقيمة النسبية لتلك المنتجات أن الاتفاقات ليست أكثر من معاذير رمزية تقدمها البلدان القوية عندما تهبط أسعار منتجات البلدان النامية هبوطاً فاضحاً. ومانبيعه أمريكا اللاتينية يزداد رخصاً باستمرار، أمّا ماتشتريه فهو يزداد - من الناحية النسبية أيضاً - غلاءً باستمرار.

www.ibtesama.com/vb

لقد كان بوسع أوروجواي في عام ١٩٥٤ أن تشتري جراراً من جرارات فورد بثمن يعادل ثمن اثنين وعشرين ثوراً؛ أما اليوم فهي بحاجة إلى أن تدفع ثمناً يزيد عن الضعف. وقد قدر فريق من الاقتصاديين التشيليين الذين أجروا مسحاً لحساب النقابات أنه، لو كانت أسعار الصادرات الأمريكية اللاتينية قد ارتفعت منذ عام ١٩٢٨ بالمعدل نفسه الذي ارتفعت به أسعار الواردات، لحصلت أمريكا اللاتينية على زيادة تقدر بـ ٥٧ بليون دولار لقاء مبيعاتها بين عامي ١٩٥٨ و ١٩٦٧ عما حصلت عليه بالفعل[٧٣]. وبدون الرجوع إلى ذلك التاريخ البعيد، وباعتبار أسعار عام ١٩٥٠ أساساً، تقدر الأمم المتحدة أن أمريكا اللاتينية، بسبب تدهور شروط التبادل، خسرت أكثر من ١٨ بليون دولار في العقد الممتد من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٦٤. وقد استمر الهبوط بعد ذلك. والحال أن "الفجوة التجارية" - الفارق بين الاحتياجات من الواردات والدخل المتحقق من الصادرات - سوف تواصل الاتساع ما لم تتغير الهياكل الحالية للتجارة الخارجية. كما أن الهاوية تزداد عمقاً كل سنة. وإذا ماحاولت المنطقة في المستقبل المباشر أن تزيد زيادة طفيفة معدل سرعة تنميتها عن معدل السنوات الخمس عشرة الماضية - والذي كان بطيئاً للغاية - فإن احتياجات الاستيراد التي سوف تواجهها سوف تتجاوز بدرجة ملحوظة النمو المتوقع لدخلها المتحقق من الصادرات في صورة عملات أجنبية. ووفقاً للمعهد الأمريكي اللاتيني للتخطيط الاقتصادي والاجتماعي[٧٤]، فسوف ترتفع الفجوة التجارية إلى ٤,٦ بليون دولار في عام ١٩٧٥، وإلى ٨,٣ بليون دولار في عام ١٩٨٠. وهذا الرقم الأخير ليس أقل من نصف قيمة الصادرات المتوقعة لذلك العام. وهكذا فإن البلدان الأمريكية اللاتينية، وقد أجبرت على التسول، سوف تطرق باستماتة لاحد لها أبواب حيتان القروض الدولية.

ويرى أرجيري ايمانويل أن لعنة الأسعار المنخفضة لاتقع بحملها على منتجات محددة، وإنما على بلدان محددة[٧٥]. وعلى أية حال، فإن الفحم - الذي كان إلى وقت قريب أحد صادرات بريطانيا الرئيسية - لايختلف عن الصوف أو النحاس من حيث كونه مادة أولية، كما أن السكر فيه من العمل أكثر مما في الويسكي الاسكتلندي أو النبيذ الفرنسي. وتصدر السويد وكندا الألواح الخشبية، وهي مادة أولية، بأسعار ممتازة. ويرى ايمانويل أن السوق العالمية تؤسس عدم التكافؤ التجاري على مبادلة ساعات عمل أكثر في البلدان الفقيرة بساعات عمل أقل في البلدان الغنية: ومفتاح الاستغلال هو أنه في الوقت الذي يوجد فيه فارق هائل بين

www.ibtesama.com/vb

مستويات الأجور في البلدان الفقيرة ومستويات الأجور في البلدان الغنية، فإن هذا الفارق ليس مصحوباً بفوارق مماثلة في إنتاجية العمل. ويقول ايمانويل إن انخفاض الأجور هو الذي يقرر انخفاض الأسعار، لا العكس: فالبلدان الفقيرة تصدر فقرها – وتزيد في ذلك السياق من افقارها لنفسها – بينما تحصل البلدان الغنية على النتيجة المقابلة. ويرى سمير أمين[٧٦] أنه، لو كانت المنتجات التي صدرتها البلدان النامية في عام ١٩٦٦ قد أنتجتها البلدان المتقدمة بالتقنيات نفسها ولكن بمستويات أجور أعلى بكثير، لاختلفت الأسعار بدرجة كان من شأنها أن تسمح للبلدان النامية بالحصول على زيادة تقدر بـ ١٤ بليون دولار.

ومن المؤكد أن البلدان الغنية قد استخدمت حواجز التعريفات ومازال تستخدمها لحماية مستويات الأجور المرتفعة فيها في المجالات التي لاتستطيع منافسة البلدان الفقيرة فيها. وتستخدم الولايات المتحدة اتفاقات صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي والجات (الاتفاق العام بشأن التعريفات والتجارة) لفرض مبدأ حرية التجارة والمنافسة الحرة على أمريكا اللاتينية، بما يؤدي إلى اختزال التبادلات المتعددة، والحصص النسبية، وأذون الاستيراد والتصدير، والتعريفات والرسوم الجمركية. لكنها لاتمارس بحال من الأحوال ماتدعو إليه. فالولايات المتحدة، بالطريقة نفسها التي تثبط بها نشاط الدولة في البلدان الأخرى بينما تحمي الاحتكارات في الداخل عن طريق منظومة واسعة من الاعانات ودعم الأسعار، تمارس في تجارتها الخارجية سياسة حماية صارمة تستند إلى التعريفات المرتفعة والقيود القاسية. ويجرى الجمع بين الرسوم الجمركية وضرائب أخرى، والحصص النسبية وقرارات الحظر[٧٧]. فما الذي يمكن أن يحدث لمربي الماشية في وسط الغرب الأمريكي لو سمحت الولايات المتحدة بأن تدخل إلى أسواقها الداخلية – دون تعريفات ودون قرارات حظر تستند إلى اعتبارات صحية مزعومة – لحوم أفضل وأرخص من الأرجنتين وأوروجواي؟ إن خام الحديد يدخل السوق الأمريكية بحرية، إلا أنه إذا حُوِّلَ إلى كتل مصبوبة فسوف يسدد ١٦ دولاراً عن الطن الواحد، وترتفع التعريفة بما يتمشى مباشرة مع مرحلة الصقل. والشئ نفسه ينطبق على النحاس وعلى منتجات أخرى لاحصر لها: فما أن يجرى تجفيف الموز، أو تقطيع التبغ، أو تحلية الكاكاو، أو نشر الخشب، أو نزع نوى البلح، حتى تتراكم التعريفات عليها بلاهوادة[٧٨].

وفي عام ١٩٦٩، أمرت الحكومة الأمريكية بوقف المشتريات من الطماطم المكسيكية – التي تشغل ١٧٠٠٠٠ فلاح في ولاية سينالوا – إلى أن يتمكنَ زارعو الطماطم في فلوريدا من اجبار المكسيكيين على رفع الأسعار تفادياً للمنافسة.

www.ibtesama.com/vb

لكن التناقض الأكثر إثارة للروع بين النظرية والواقع في السوق العالمية قد ظهر في "حرب البن سريع الذوبان" المكشوفة في عام ١٩٦٧. فقد صار من الواضح آنذاك أن البلدان الغنية وحدها هي التي تملك الحق في أن تستغل لصالحها "المزايا النسبية الطبيعية" والتي تقرر التقسيم الدولي للعمل من الناحية النظرية. والحال أن سوق البن سريع الذوبان الآخذة في التوسع بشكل مثير تخضع لشركتي نسله وجنرال فودز؛ ومن المعتقد أن هاتين الشركتين سوف تتمكنان، قبل فوات وقت طويل، من تقديم مايزيد عن نصف البن المستهلك في العالم. وتشترى الولايات المتحدة وأوروبا حبوب البن من البرازيل وأفريقيا، وتتولايان تركيزه في معاملهما الصناعية، وتبيعانه في العالم قاطبة على شكل بن سريع الذوبان. أمّا البرازيل، أكبر منتج للبن، فهي لاتملك الحق في المنافسة من طريق تصدير بنها سريع الذوبان، مستفيدة بذلك من تكاليفه الأدنى بشكل واضح وموفرة مخرجاً لتصريف الفوائض التي أعدمتها في وقت من الأوقات والتي تخزنها الآن في مستودعات الدولة. ولاتملك البرازيل غير حق توريد البن الخام لإثراء المصانع الأجنبية. وعندما بدأت المصانع البرازيلية – مجرد عشرة مصانع من مجموع عالمي يصل إلى ١١٠ مصانع – في طرح البن سريع الذوبان في السوق الدولية، جرى اتهامها بالمنافسة الظالمة. وارتفعت شكوى البلدان الغنية إلى عنان السماء، وقبلت البرازيل فرضاً مهيناً: لقد فرضت ضريبة داخلية ضخمة على بنها السريع الذوبان لتخرجه من المنافسة في السوق الأمريكية الشمالية[٧٩].

وليست أوروبا متخلفة عن الولايات المتحدة في إقامة الحواجز الجمركية، والضريبية، والصحية ضد المنتجات الأمريكية اللاتينية. فالسوق المشتركة تراكم الرسوم على الواردات لحماية الأسعار الداخلية المرتفعة لمنتجاتها الزراعية، وتدعم في الوقت نفسه تلك المنتجات من أجل تصديرها بأسعار تنافسية: وهي تمول الدعم مما تحصل عليه من الرسوم. وهكذا تدفع البلدان الفقيرة الأموال لزبائنها الأغنياء لكي يقوموا بالمنافسة ضدها. إن سعر رطل من اللحم في بوينوس آيريس أو مونتفيديو يزيد خمس مرات عندما يتدلى من خطاف جزار في هامبورج أو ميونيخ[٨٠]. وكما اشتكى، وله الحق في ذلك، مندوب الحكومة التشيلية في مؤتمر دولي، فإن "البلدان المتقدمة مستعدة للسماح لنا بأن نبيع لها طائرات نفاثة وأجهزة كومبيوتر، لكنها ليست مستعدة للسماح لنا بأن نبيع لها أي شئ يوجد أي احتمال في أن نتمكن من إنتاجه"[٨١].

إن الاستثمارات الامبريالية في الصناعة الأمريكية اللاتينية لم تبدل بحال من

www.ibtesama.com/vb

الأحوال شروط تجارتها الدولية. وتواصل المنطقة خنق نفسها إذ تستبدل بمنتجاتها الأولية المنتجات المتخصصة التي تنتجها الاقتصاديات المتروبولية. ويتركز توسع مبيعات الشركات الامريكية جنوبي الريو جراندى في الأسواق المحلية، وليس في الصادرات. والواقع أن النسبة المصدرة قد مالت إلى الانخفاض: فوفقاً لمنظمة الدول الأمريكية، صدرت فروع الشركات الأمريكية مانسبته ١٠ في المائة من إجمالي مبيعاتها في عام ١٩٦٢ ولم تصدر بعد ذلك بثلاث سنوات غير مانسبته ٧,٥ في المائة[٨٢]. فالتجارة في المنتجات الصناعية الأمريكية اللاتينية لاتنمو إلاّ في داخل أمريكا اللاتينية: ففي عام ١٩٥٥، مثلت المنتجات الصناعية نسبة ١٠ في المائة من حجم التبادل فيما بين بلدان المنطقة؛ وفي عام ١٩٦٦، كانت النسبة قد ارتفعت إلى ٣٠ في المائة[٨٣].

والحال أن جون أبيك، رئيس بعثة فنية أمريكية في البرازيل، كان قد تنبأ في عام ١٩٥٠ فقال: "إن على الولايات المتحدة أن تستعد لـ "توجيه" التصنيع الذي سوف يحدث حتماً للبلدان النامية إذا كنا نريد تجنب صدمة تنمية اقتصادية مكثفة خارج إشراف الولايات المتحدة ... إن التصنيع، إذا لم تجر السيطرة عليه بطريقة ما، سوف يؤدي إلى اختزال مهم لأسواق الصادرات الأمريكية"[٨٤]. فعلاً، أليس من شأن التصنيع - حتى ولو كان موجهاً من الخارج - أن يحل المنتجات القومية محل السلع التي كان على كل بلد في السابق استيرادها؟ لقد لاحظ سيلسو فورتادو انه بقدر تقدم أمريكا اللاتينية في إحلال المنتجات المستوردة الاكثر تعقيداً، "فإن الاعتماد على مدخلات من المكاتب الرئيسية يميل إلى الازدياد". وبين عامي ١٩٥٧ و ١٩٦٤، زادت مبيعات فروع الشركات الأمريكية بنسبة الضعف بينما زادت وارداتها - من غير المعدات - بنسبة ثلاثة أضعاف. ويرى سيلسو فورتادو أن "هذا الاتجاه يبدو أنه يشير إلى أن الفعالية "الاحلالية" دالة هابطة للتوسع الصناعي الذي تسيطر عليه البلدان الأجنبية"[٨٥].

التبعية لاتنكسر بل تشهد تغيراً نوعياً: فالولايات المتحدة تبيع اليوم لأمريكا اللاتينية نسبة أكبر من المنتجات الاكثر تعقيداً والأعلى مستوى من الناحية التكنولوجية. وتقول وزارة التجارة الأمريكية أنه "في المدى البعيد، مع نمو الإنتاج الصناعي المكسيكي، سوف تكون الفرص أعظم أمام صادرات أمريكية اضافية من المواد الخام الصناعية أو المكونات الصناعية ...."[٨٦]. وتعد الأرجنتين، والمكسيك، والبرازيل زبائن جيدين جداً للآلات الصناعية، والآلات الكهربائية، والمحركات، والمعدات، وقطع الغيار المصنوعة في الولايات المتحدة. وتزود فروع الشركات الكبرى أنفسها بالتجهيزات

www.ibtesama.com/vb

الواردة من مكاتبها الرئيسية بأسعار مضخمة عن عمد. وكما كتب اسماعيل بتياس ويوخينيو جاستياتورو عن شركات السيارات الأرجنتينية في الأرجنتين: "إنها إذ تدفع مقابل هذه الواردات بأسعار مرتفعة للغاية، ترسل الموارد المالية إلى الخارج، وغالباً ماتكون المدفوعات من الضخامة بحيث أن المشاريع الاستثمارية لاتحقق خسائر وحسب (برغم الأسعار التي تباع بها السيارات هنا)، بل وتبدأ أيضاً في الافلاس، مع تدهور سريع للأسهم المملوكة في البلد ... والنتيجة أنه من أصل اثنتين وعشرين شركة "منشأة"، لم يبق الآن غير عشر شركات، بعضها على شفا الإفلاس"[٨٧].

وهكذا فإن الشركات الفرعية تحقق مجداً أعظم للشركات الأم التي تنتمي إليها عن طريق التهام العملات الاجنبية المحدودة التي تحوزها البلدان الأمريكية اللاتينية. ولاتختلف خطة تشغيل الصناعة التابعة اختلافاً كثيراً عن النظام التقليدي للاستغلال الامبريالي للمواد الخام. ويرى انطونيو جارثيا[٨٨] أن التصدير "الكولومبي" للبترول الخام كان على الدوام مجرد تحويل طبيعي لخام النفط من حقل نفط أمريكي شمالي إلى مراكز التكرير، والتسويق، والاستهلاك الأمريكية الشمالية، وأن التصدير "الهندوراسي" أو "الجواتيمالي" للموز كان عبارة عن تحويل تتولاه شركات أمريكية شمالية من مزارع كولونيالية معينة إلى مناطق تسويق واستهلاك أمريكية شمالية معينة. لكن المصانع "الأرجنتينية"، و"البرازيلية"، و"المكسيكية" - إنْ لم نذكر غير الأكثر أهمية - تحتل هي أيضاً موقعاً اقتصادياً لا علاقة له بموقعها الجغرافي. إنها تشكل، بالتضافر مع خيوط أخرى عديدة، شبكة دولية من الشركات التي تحول مكاتبها الرئيسية الأرباح من بلد إلى بلد، محددة فواتير المبيعات بأسعار أكثر أو أقل من الأسعار الفعلية تبعاً للوجهة التي تريد للأرباح المضي فيها[٨٩]. وهكذا تبقى العوامل الرئيسية للتجارة الخارجية في أيدي الشركات الأمريكية أو الأوروبية، التي توجه السياسات التجارية للبلدان تبعاً لمعايير تحددها حكومات وإدارات خارج أمريكا اللاتينية. وكما أن فروع الشركات الأمريكية لاتصدر النحاس إلى الاتحاد السوفيتي ولا إلى الصين، ولاتبيع النفط لكوبا، فإنها لاتحصل على المواد الخام والآلات من المصادر الأرخص والأنسب.

وطبيعي أن هذا التنسيق الفعال لأنشطة عالمية، والبعيد تماماً عن أي "تفاعل حر لقوى السوق"، لايترجم نفسه إلى أسعار أقل بالنسبة إلى المستهلكين المحليين، وإنما يترجم نفسه إلى أرباح لحملة الأسهم الأجانب. وصناعة السيارات مثال بليغ لذلك. فالبلدان الأمريكية اللاتينية تقدم قوة عمل وافرة ورخيصة للغاية وسياسة رسمية تشجع

www.ibtesama.com/vb

توسع الاستثمارات، بكل السبل - المنح المجانية من الأراضي، الرسوم الرمزية لاستهلاك الكهرباء، الخصومات الثانية من جانب الدولة لتمويل المبيعات التي تسدد أثمانها في وقت لاحق، الأموال سهلة المنال؛ وكما لو أن كل ذلك ليس كافياً، لجأت بلدان معينة إلى إعفاء الشركات من ضرائب الدخل أو المبيعات أيضاً. ويجري زيادة تسهيل السيطرة على السوق مقدماً عن طريق الهيبة السحرية التي يتم اضفاؤها، في أعين الطبقات المتوسطة، على الطرز والموديلات التي تروج لها حملات الدعاية العالمية. لكن كل هذه العوامل، بعيداً عن أن تجعل السيارات المنتجة في أمريكا اللاتينية أرخص من السيارات المنتجة في البلدان الأصلية للشركات، تجعل أسعارها أكثر تفجراً بكثير. صحيح أن الأسواق الأمريكية اللاتينية أصغر بكثير، إلا أنه صحيح أيضاً أن شهوة الشركات في هذه البلدان إلى الأرباح أكثر ضراوة مما في أي مكان آخر. إن سيارة فورد فالكون تصنع في أمريكا اللاتينية تكلف ثلاثة أضعاف ماتكلفه في الولايات المتحدة[٩٠]. ويصل سعر سيارة فاليانت أو فيات مصنوعة في الأرجنتين إلى أكثر من ضعف سعرها في الولايات المتحدة أو ايطاليا[٩١]. وينطبق الشئ نفسه على العلاقة بين سعر سيارة فولكسفاجن البرازيلية وسعر مثيلتها في ألمانيا[٩٢].

■ الربة تكنولوجيا لاتتكلم بالاسبانية

يرى رايت باتمان، عضو الكونجرس الأمريكي، أن نسبة ٥ في المائة من الأسهم في شركة كبيرة يمكن في أغلب الأحوال أن تكفي لسيطرة فرد، أو أسرة، أو مجموعة اقتصادية على هذه الشركة[٩٣]. وإذا كانت نسبة ٥ في المائة كافية للسيطرة على أحد المشاريع الاستثمارية الأمريكية الجبارة، فما هي النسبة المئوية الضرورية للسيطرة على مشروع استثماري أمريكي لاتيني؟ الواقع أن بالإمكان تحقيق السيطرة بما هو دون هذه النسبة: فالشركة "المختلطة"، وهي إحدى البقايا القليلة التي تتفاخر بها البورجوازية الأمريكية اللاتينية، لاتفعل غير تزيين الجبروت الأجنبي بمشاركة رأسمالية قومية قد تمثل الأغلبية إلا أنها غير مسيطرة أبداً على العناصر الأجنبية. وغالباً ماتدخل الدولة نفسها في مشاركة مع مشروع استثماري امبريالي يحصله وقد تحول بهذه الطريقة إلى مشروع "قومي"، على كافة الضمانات المنشودة ويمهد مناخاً يتميز بروح التعاون - بل والحنان. ويجري عادة تبرير مشاركة رأس المال الأجنبي "الصغرى" بالحاجة إلى

www.ibtesama.com/vb

التحويلات التقنية والتحويلات الخاصة بحقوق استخدام العلامات المسجلة. فالبورجوازية الأمريكية اللاتينية، وهي بورجوازية تجارية تفتقر إلى أية ميزة خلاقة، وترتبط ارتباطاً سرّياً بقوة الملكيات الزراعية الكبيرة، تسجد أمام الربة تكنولوجيا. وإذا كانت ملكية الأجانب للأسهم (مهما كانت صغيرة) والتبعية التكنولوجية (التي نادراً ماتكون صغيرة) دليلين على نزع التأميم، فكم يبلغ عدد الصنائع التي يمكن أن تعتبر قومية بالفعل في أمريكا اللاتينية؟ في المكسيك، مثلاً، غالباً مايطالب ملاك التكنولوجيا الأجانب بأسهم في مشروع استثماري، بالإضافة إلى مواقع سيطرة تقنية وإدارية حاسمة، وبيع المنتوج لوسطاء أجانب محددين، واستيراد الآلات وسلع أخرى من مكاتبهم الرئيسية، في مقابل توقيع عقود لنقل حقوق استخدام العلامات المسجلة أو "الخبرة التكنولوجية"[٩٤]. وليس في المكسيك وحدها. فقد صاغت بلدان مايسمى بمجموعة الأنديز (بوليفيا، كولومبيا، تشيلي، اكوادور، وبيرو) خطة التعامل المشترك مع رأس المال الأجنبي في المنطقة، مؤكدة على رفض العقود الخاصة بتحويل التكنولوجيا التي تتضمن بنوداً كهذه. لكنها تقترح على البلدان التي لن تقبل الخطة أن تحدد الشركات الأجنبية التي تملك حقوق استخدام العلامات المسجلة أسعار المنتجات المعتمدة على هذه العلامات، أو أن تقرر حظر تصديرها إلى مناطق محددة.

لقد أنشئ النظام الأول لبراءات الاختراع لحماية حقوق ملكية الاختراع قبل نحو أربعة قرون على يد السير فرانسيس بيكون، وكان بيكون مغرماً بالإشارة إلى أن "المعرفة قوة"، ومن ساعتها صار واضحاً أنه كان على حق. وليست هناك شمولية تتكرر في الشوامل العلمية: إنها محصورة، من الناحية الموضوعية ضمن حدود الأمم المتقدمة. ولاتطبق أمريكا اللاتينية نتائج البحث العلمي لحسابها الخاص لسبب بسيط هو أنها لاتملك أية نتائج؛ ولذا فهي محكوم عليها بمكابدة تكنولوجيا الأقوياء، التي تهجم على المواد الأولية الطبيعية وتنتزعها، وهي عاجزة عن خلق تكنولوجيا خاصة بها لدعم وحماية نموها الخاص. والحال أن استيراد تكنولوجيا البلدان المتقدمة لايجر إلى مجرد التبعية الثقافية - والاقتصادية، بشكل حاسم تماماً. فلقد تبين أيضاً، بعد أربعة قرون ونصف من تجربة انتشار واحات حديثة وسط صحاري التخلف والجهل، أنه لم يحل أية مشكلة من مشكلات التخلف[٩٥]. فمنطقة الأميين هذه تستثمر ما يقل بمائتي مرة عما تستثمره الولايات المتحدة في مجال البحوث التكنولوجية. ويوجد في أمريكا اللاتينية أقل من ألف جهاز كومبيوتر بينما يوجد في الولايات المتحدة خمسون ألف جهاز؛ وطبيعي أن النماذج

www.ibtesama.com/vb

الاليكترونية ولغات البرمجة التي تستوردها أمريكا اللاتينية مصممة وموضوعة في الولايات المتحدة. وليس التخلف الأمريكي اللاتيني مرحلة على طريق التنمية؛ بل هو الوجه المقابل للتنمية في أماكن أخرى؛ فالمنطقة "تتقدم" دون أن تحرر نفسها من بنية تخلفها، وكما يشير مانويل سادوسكي، فإن "ميزة" عدم مشاركتها في التقدم ببرامجها وأهدافها الخاصة تعد "ميزة" وهمية[٩٦]. إن رموز الازدهار رموز للتبعية. ويجرى الحصول على التكنولوجيا الحديثة بالطريقة التي كان يجرى الحصول بها على السكك الحديدية في القرن الماضي، لتكون في خدمة المصالح الأجنبية التي تصوغ وتعيد صوغ الوضعية الكولونيالية لهذه البلدان. ويقول سادوسكي "إن مايحدث لنا هو مايحدث لساعة يد تشكو من تأخير عقاربها ولايجرى ضبطها. ومع أن عقاربها تواصل التحرك إلى الأمام، فإن الفارق يزيد بين الوقت كما يبدو من خلالها والوقت الفعلي".

وتُخَرِّجُ الجامعات الأمريكية اللاتينية، على نطاق صغير، رياضيين، ومهندسين، ومنظمي برامج لايمكنهم العثور على عمل إلاّ في المنفى: إننا نمنح لأنفسنا ترف تزويد الولايات المتحدة بأفضل فنيينا وأقدر علمائنا، الذين يجرى اغراؤهم على الهجرة بالرواتب العالية وإمكانيات البحث العريضة المتاحة في الشمال. وفي الوقت نفسه، فكلما تحاول جامعة أو مركز من مراكز التعليم العالي الأمريكية اللاتينية تشجيع تطور العلوم الأساسية، وإرساء الأسس لتكنولوجيا غير منسوخة من الأنماط والشواغل الأجنبية، فإن انقلاباً يقع في الوقت المناسب يدمر التجربة بحجة أنها بؤرة للتخريب[٩٧]. والحال أن جامعة برازيليا، التي سحقت في عام ١٩٦٤، كانت مثالاً لذلك. والحقيقة هي أن الملائكة المدرعة التي تحمي النظام القائم ليست مخطئة: فالسياسة الثقافية المستقلة، عندما تكون حقيقية، تتطلب وتحفز تغيرات عميقة في كافة الهياكل القائمة.

والبديل هو الاعتماد على المصادر الأجنبية: محاكاة التقدمات التي تروجها الشركات الكبرى، التي تحتكر أحدث تقنيات إنتاج منتوجات جديدة وتحسين نوعية أو خفض تكاليف المنتوجات القائمة، وهي محاكاة تشبه محاكاة القردة للبشر. والحال أن العقل الاليكتروني يملك مناهج لاتخطئ في حساب التكاليف والأرباح وإذا تستورد أمريكا اللاتينية تقنيات إنتاج تهدف إلى توفير قوة العمل، مع أنها تتمتع بوفرة في قوة العمل وقد يشكل العاطلون قريباً الغالبية الساحقة في بلدان عديدة. وهكذا فإن عجزنا نحن يجعل تقدم المنطقة رهن مشيئة أو نزوة المستثمرين الأجانب. ولأسباب لاتخفى على أحد، تساعد الروافع التكنولوجية الشركات متعددة القوميات على السيطرة على روافع

www.ibtesama.com/vb

اقتصادنا الحاسمة الأخرى. وطبيعي أن المكاتب الرئيسية لاتقدم البتة لفروعها أحدث المبتكرات كما أنها لاتشجع استقلالاً ليس من شأنه أن يكون مناسباً لها . وقد استنتج مسح قامت به بزنس انترناشيونال لحساب بنك التنمية الأمريكي المشترك أن "من الواضح أن فروع الشركات الدولية العاملة في المنطقة لاتبذل أية جهود مهمة في اتجاه البحث والاستحداث". والواقع أن معظمها يفتقر إلى أية إدارة لهذا الغرض ولايتولى مهمة التكييف التقني إلاّ في حالات نادرة الغاية، في حين أن أقلية صغيرة أخرى من المشاريع الاستثمارية - لاتكاد توجد إلاّ في الأرجنتين، والبرازيل، والمكسيك - تقوم بأنشطة متواضعة في مجال البحوث[98] ويلاحظ راوول برييبيتش أن "المشاريع الاستثمارية الأمريكية في أوروبا تنشئ معامل وتقوم بأبحاث تساعد على تعزيز القدرات العلمية والتقنية لتلك البلدان، وهو شئ لم يحدث في أمريكا اللاتينية". ويشير إلى مسألة بالغة الخطورة: "نظراً لغياب المعارف المتخصصة (الخبرة التكنولوجية) لدى المستثمرين القوميين، فإن الجانب الأعظم من التكنولوجيا المستوردة يتألف من تقنيات متاحة في المجال العام إلاّ أنه يجرى إصدار تراخيص باستخدامها كما لوكانت معارف متخصصة"[99].

وتكلف التبعية التكنولوجية تكاليف باهظة تتخذ أكثر من شكل واحد: الدولارات المدفوعة نقداً. على سبيل المثال، برغم أن تحايل الشركات البارع على إعلان تحويلاتها إلى الخارج يجعل من العسير تقدير المبلغ. على أن الأرقام الرسمية تشير إلى أن نزف الدولارات مقابل المساعدة التقنية للمكسيك قد زاد خمسة عشر ضعفاً بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٦٤، في حين أن الاستثمارات الجديدة في الفترة نفسها لم تصل حتى إلى الضعف. وتتركز الآن ثلاثة أرباع الرساميل الأجنبية في المكسيك في صناعة المنتوجات الصناعية، بما يمثل ارتفاعاً عن الربع الذى كان مستثمراً في عام ١٩٥٠ . ولايعني هذا التركيز للموارد المالية في الصناعة غير تحديث موروث، باستخدام تكنولوجيا سبق استخدامها، وتدفع البلاد مقابلاً لها كما لو كانت أحدث تكنولوجيا . وقد نزحت صناعة السيارات بليون دولار من المكسيك بطريقة أو بأخرى، لكن قائداً لاتحاد عمال السيارات كتب بعد جولة تفقد فيها مصنع شركة جنرال موتورز الجديد في تولوكا: "إنه أسوأ من عتيق. أسوأ، لأنه عتيق بصورة مقصودة، حيث أنه مجهز بتجهيزات عتيقة موضوعة بعناية في صلب عمله ... إن مصانع المكسيك يجرى تجهيزها عمداً بآلات من شأنها تخفيض الإنتاج"[100]. فما الذي يجب علينا قوله من الجميل الذي تدين به أمريكا

www.ibtesama.com/vb

اللاتينية لشركتي كوكاكولا وبيبسي اللتين تجمعان رسوم ترخيص صناعي فلكية من أصحاب امتياز إنتاج منتوجاتهما مقابل تزويدهم بعجينة تذوب في الماء وتخلط بالسكر والكربون؟

■ تهميش البشر والأقاليم

"حققوا نموكم مع البرازيل". تستحث الاعلانات التي تحتل مساحات واسعة في صحف نيويورك رجال الاعمال الأمريكيين على الانضمام إلى النمو المتدفق لعمالق المناطق الاستوائية. إن مدينة ساو باولو تتام وعيناها مفتوحتان وضجيج النمو يخرق طبلتي أذنيها؛ فالمصانع وناطحات السحاب، والجسور والطرق الرئيسية، تنمو بالسرعة المفاجئة التي تنمو بها النباتات الاستوائية. إلا أنه لو كان للدقة مكان في عالم الاعلان، لوجب أن يكون الشعار هو: "حققوا نموكم على حساب البرازيل". فهذا النمو، برغم بريقه الخادع، عبارة عن مأدبة ليس مدعواً إليها غير عدد قليل من الناس وأطباقها الرئيسية مخصصة لمعدات أجنبية. إن عدد سكان البرازيل قد وصل بالفعل إلى تسعين مليون إنسان وسوف يصل إلى ضعف ذلك العدد بحلول نهاية هذا القرن، لكن مصانعها الحديثة توفر قوة العمل، وفي المناطق الداخلية، لم تعد المزارع الكبيرة التي ماتزال على حالها تشكل مصدراً للأعمال. ويحدق صبي صغير بعينين تلمعان ذهولاً في أطول نفق في العالم، أفتتح مؤخراً في ريو دي جانيرو، لكن الصبي يرتدي أسمالاً. ومن حق الصبي الذي يرتدي أسمالاً أن يفخر ببلاده، لكنه أمي ويسرق ليأكل.

وفي كافة أرجاء أمريكا اللاتينية، أدى غزو الرساميل الاجنبية المتجهة إلى الصناعة، والذي يقابل بكل هذا الحماس، إلى احتداد التباين بين "الأنماط الكلاسيكية" للتصنيع كما يصفها مؤرخو البلدان المتقدمة، والعملية المميزة للجزء الذي نحتله من العالم. إن النظام يتقيأ البشر، لكن الصناعة في أمريكا اللاتينية تضحي بالعمل أكثر من تضحيتها به في أوروبا[١٠١]. وليست هناك علاقة منسجمة بين العمل المتاح والتكنولوجيا المستخدمة. إلاَّ إذا أمكن وصف ميزة استخدام قوة من أرخص قوى العمل في العالم بأنها دليل على وجود مثل هذه العلاقة. أرض غنية، وثروات أغنى في باطن الأرض، وشعب هدّه البؤس، في مملكة الوفرة والتقصير هذه: إن جيش العُمال الذين يلقي بهم النظام على الرصيف يؤدي إلى احباط نمو السوق الداخلية وينزل بمستوى الأجور إلى

www.ibtesama.com/vb

أسفل سافلين. أما تخليد نظام ملكية الأرض القائم فهو لايؤدى وحسب إلى تفاقم المشكلة المزمنة المتمثلة في انخفاض الإنتاجية الزراعية من جراء تبوير الأرض والرساميل في مزارع كبيرة غير منتجة، وتبديد العمل في مزارع صغيرة متزايدة الانتشار؛ إنه يتضمن أيضا تدفقاً غزيراً ومتزايداً للعمال العاطلين صوب المدن. وهكذا يتحول نقص العمالة الزراعية إلى نقص عمالة مدينية. وتنمو البيروقراطية، وتنتشر الأحياء الفقيرة انتشار مجارى لاقعر لها يسكنها ناس محرومون من حق العمل، ولاتستطيع المصانع استيعاب فائض العمل، لكن وجود هذا الجيش الاحتياطي الهوائل المتوافر دائما، يجعل الأجور أدنى خمس عشرة مرة أو عشرين مرة من أجور العمال في الولايات المتحدة أو ألمانيا. ويمكن للأجور أن تظل منخفضة بينما تزيد الإنتاجية، وتزيد الإنتاجية على حساب عمليات اختزال القوى العاملة. إن طبيعة التصنيع "التابع" هي الاستبعاد: ففي هذه المنطقة التي تتميز بأعلى معدل في العالم لتزايد السكان، تتضاعف الجماهير بسرعة خارقة لكن نمو الرأسمالية التابعة - وهو رحلة غرقاها أكثر من مبحريها - يحقق "فائضاً" في عدد الناس يزيد كثيراً جداً عن العدد الذي يمكن لها استخدامه. والحال أن نسبة العمال في صناعة المنتجات الصناعية إلى إجمالي عدد السكان القادرين على العمل في أمريكا اللاتينية تقل بدلاً من أن تزيد: ففي الخمسينيات، كان عمال المصانع يمثلون نسبة ١٤,٥ في المائة، أما اليوم، فإنهم لايمثلون غير نسبة ١١,٥ في المائة[١٠٢]. ووفقا لدراسة أجريت مؤخراً، فإن العدد الاجمالي للوظائف التي يتوجب ايجادها في البرازيل سوف يصل إلى ١,٥ مليون في المتوسط سنوياً خلال العقد القادم[١٠٣]. ومع ذلك فإن العدد الإجمالي للعمال الذين تشغلهم المصانع في البرازيل، البلد الأكثر تقدماً من الناحية الصناعية في أمريكا اللاتينية، لايزيد عن ٢,٥ مليون.

والحال أن عمالاً لاحصر لهم يهجرون أفقر مناطق كل بلد: فالمدن تجتذب وتخدع أسراً كاملة بأماني العمل، بأماني فرصة في تحسين أحوالها، بأماني مكان في الدائرة السحرية للحضارة المدينية. لكن الفلوسات لاتملأ المعدة. فالمدينة تزيد الفقراء فقراً، وتواجههم مواجهة غادرة بسراب ثروة هيهات أن يصلوا إليها - سيارات، شقق سكنية في بنايات فاخرة، آلات قوية قوة الآلهة أو الشياطين - بينما تحرمهم من الأعمال المضمونة، ومن أسقف لائقة يحتمون بها، ومن أطباق مليئة على مائدة الغداء. ووفقاً لتقدير أجرته الأمم المتحدة، فإن نسبة لاتقل عن ٢٥ في المائة من سكان المدن الأمريكية

www.ibtesama.com/vb

اللاتينية تحيا في "أحياء لاتتمشى مع المعايير الحديثة للبناء الحضري"[١٠٤] - وهذا تعبير ملطف طويل صادر عن أحد الفنيين لوصف مدن الصفيح: فالفيلات ريو دي جانيرو، كاييامبات سانتياجو دي تشيلي، خاكالات المكسيك، باريوات كاراكاس، بارريادات ليما، والبياس ميزيرياس (المدن البائسة. - المترجم) في بوينوس أيريس، وكالنتيوريلات مونتفيديو. وكل ليلة تنمو اضافات جديدة في مستعمرات الأكواخ المبنية من الصفيح، والطين، وألواح الخشب على مشارف المدن: فالسكان المهمشون الذين دفعهم الفقر والأمل إلى المجيء يواصلون التزايد. إن كلمة هوايكو تعني سيلاً من الصخور المنهارة في اللغة الكيتشوا، وهكذا يسمى سكان بيرو الموج البشري المتدافع من الجبال إلى العاصمة الساحلية: إن حوالى ٧٠ في المائة من سكان ليما يجيئون من الأرياف. وهم يسمون في كاراكاس بالتوديروس، لأنهم على استعداد للعمل في أى شئ وكل شئ (تودو). فالمهمشون يحيون من أعمال تعد من قبيل السخرة، متشبثين بالعمل عن طريق دفع الرشاوى أو يعملون بصورة متقطعة أو يؤدون مهاماً حقيرة أو غير مشروعة: إنهم يصبحون خدماً، شاحذين للأحجار، بنائين، كهربائيين، سباكين أو نقاشين في أعمال عرضية، سياساً، أو باعة ليمون أو أى شئ آخر. وهم يصبحون أيضاً متسولين أو لصوصاً - إنهم أيدى جاهزة لكل آت. وحيث أن الفائض البشرى ينمو بدرجة أسرع من نمو العنصر "المستوعب"، فإن مسحاً أجرته الأمم المتحدة يتنبأ بأنه في غضون سنوات قلائل "سوف تشكل المخيمات مأوى لغالبية سكان المدن". إن المهزومين سوف يكونون الغالبية. ومن ناحية أخرى، يفضل النظام اخفاء القذارة تحت البساط. إنه يخلى الفافيلات من منطقة الخليج والبياس ميزيرياس من العاصمة القومية تحت تهديد السلاح، مشتتاً الفائض البشرى بالآلاف المؤلفة. إن ريو دي جانيرو وبوينوس أيريس تستبعدان منظر البؤس الذى ينتجه النظام: وسرعان ما لن يُرى غير مضخات الرفاهية دون برازها في هاتين المدينتين اللتين يجرى فيهما تهديد الثروة التي خلقتها البرازيل كلها والارجنتين كلها.

والحال أن نظام السيطرة الدولى الذى يكابده كل بلد يجد ترجمة له داخل كل بلد. فتركيز الصناعة في مناطق معينة يعكس التركيز السابق للطلب في الموانئ الكبرى أو مناطق التصدير. إن ثمانين في المائة من الصناعة البرازيلية تتركز في المثلث الجنوبى الشرقى - ساو باولو، ريو دي جانيرو، وبيلو هوريزونتي - بينما تتدهور بشكل متواصل مشاركة الشمال الشرقى الجائع في الناتج الصناعى القومى. ويتركز ثلثا الصناعة

www.ibtesama.com/vb

الأرجنتينية في بوينوس أيريس وروساريو، وتستوعب مونتفيديو ثلاثة أرباع صناعة أوروجواي، شأنها في ذلك شأن سانتياجو وبالباراييسو في تشيلي. وتتركز في ليما وميناتها نسبة ٦٠ في المائة من صناعة بيرو[١٠٥]. والحال أن التخلف النسبي المتزايد للمناطق الداخلية المترامية الأطراف، والغارقة في هوة البؤس والحرمان، لايعود، كما يزعم البعض، إلى عزلتها، بل يعود، على العكس من ذلك، إلى الاستغلال المباشر وغير المباشر من جانب المراكز الاستعمارية القديمة والتي تحولت الآن إلى مراكز صناعية، وكما قال زعيم نقابي أرجنتيني[١٠٦]: "لقد شهد قرن ونصف قرن من تاريخنا انتهاك كل مواثيق التضامن، وخيانة العهود المنظومة في الأناشيد والدساتير، وتسلط بوينوس أيريس على الأقاليم. إن الجيوش والجمارك، والقوانين التي فرضها قليلون وكابدها كثيرون، والحكومات التي كانت، باستثناء البعض، عميلة للقوى الأجنبية، قد شيدت هذه الحاضرة المزهوة التي تراكم الثروة والجبروت. لكننا لو تحرينا أسباب تلك العظمة وتبعة ذلك الزهو، فسوف نجدها في مزارع المتي التي أقامها المبشرون، وفي المجتمعات التي قتلتها شركات فورستال لاند، وتيمبو، والسكك الحديدية، وفي يأس مصانع السكر في توكومان ومناجم خوخوي، وفي موانئ بارانا المهجورة، وفي النزوح الجماعي عن بيريسو: خريطة كاملة للبؤس تحيط مركزاً للثروة تحميه ممارسة تسلط داخلي لم يعد بالإمكان اختلاقه أو قبوله". وقد لاحظ أندريه جوندر فرانك، في دراسته لتطور التخلف البرازيلي، أنه بينما تعد البرازيل بلداً يدور في فلك الولايات المتحدة، فإن الشمال الشرقي يلعب على الصعيد الداخلي دور تابع لـ "العواصم الداخلية" الموجودة في الجنوب الشرقي. ويظهر الاستقطاب في ظواهر عديدة: ليس فقط في تركيز الغالبية الساحقة من الاستثمارات الخاصة والعامة في ساو باولو، وإنما أيضاً في استحواذ المدينة المتحايل - من خلال التبادل التجاري الجائر، وسياسة أسعار تعسفية، ومستويات ضريبية داخلية مميزة، واستيلاء بالجملة على العقول واليد العاملة الماهرة - على الرساميل المنتجة في طول البلاد وعرضها"[١٠٧].

كما يزيد التصنيع التابع من تركيز الدخول على المستويين الاقليمي والاجتماعي. فالثروة التي ينتجها لاتنتشر عبر كل أرجاء البلاد أو عبر المجتمع كله، وإنما تعزز وتعمق التفاوتات القائمة. بل إن عماله "المستوعبين" أنفسهم - الأقل عدداً بكثير - لايستفيدون بنسبة مساوية من النمو الصناعي: فثمار الإنتاجية العالية، المرة بالنسبة إلى الكثيرين جداً، تذهب إلى الفئات العليا المتربعة على قمة الهرم الاجتماعي. إن الصناعات

www.ibtesama.com/vb

الميكانيكية، والكهربائية، والمواصلات، وصناعة السيارات في البرازيل قد زادت الإنتاجية بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٦٦ بنحو ١٣٠ في المائة، لكن أجور عمالها في الفترة نفسها لم تزد من حيث قيمتها الفعلية إلا بنسبة ٦ في المائة[١٠٨]. وتقدم أمريكا اللاتينية العمل الرخيص: ففي عام ١٩٦١، كان متوسط أجر العامل في الساعة دولارين في الولايات المتحدة؛ وكان في الأرجنتين ٣٢, ٠ من الدولار، وفي البرازيل ٢٨, ٠ من الدولار، وفي كولومبيا ١٧, ٠ من الدولار، وفي المكسيك ١٦, ٠ من الدولار[١٠٩]، وفي جواتيمالا مجرد ١٠, ٠ من الدولار. وقد اتسعت الهوة منذ ذلك الحين. فالعامل البرازيلي يجب عليه الآن أن يعمل يومين ونصف يوم ليكسب مايكسبه العامل الفرنسي في ساعة واحدة. ويحصل العامل الأمريكي من عمل يزيد قليلاً عن عشر ساعات على مايعادل ما يحصل عليه عامل برازيلي من عمل يدوم شهراً. ولكي يحصل العامل البريطاني أو الألماني على أكثر مما يحصل عليه عامل في ريو دي جانيرو لقاء يوم عمل من ثماني ساعات، فإنه لايحتاج إلا للعمل لأقل من نصف ساعة[١١٠]. وينعكس مستوى الأجور المنخفضة في أمريكا اللاتينية في الأسعار المنخفضة التي تتقاضاها المنطقة عن موادها الخام في السوق الدولية، لحساب المستهلكين في البلدان الغنية. وفي الأسواق الداخلية، حيث تبيع الصناعة منزوعة التأميم سلعاً مصنعة، تواصل الأسعار ارتفاعها للحفاظ على الأرباح المتضخمة للشركات الامبريالية.

ويتفق جميع الاقتصاديين على أهمية تزايد الطلب بالنسبة إلى دفع التنمية الصناعية. لكن الصناعة الأمريكية اللاتينية التي يهيمن عليها الأجانب لاتبدى اهتماماً بتوسيع وتعميق سوق استهلاك واسع، لأن هذا لايمكن تحقيقه إلاَّ على أساس خطوات عملية لتحويل الهيكل الاجتماعي الاقتصادي، لابد من أن تتضمن عواصف سياسية مزعجة. ومع اخضاع النقابات أو إبادتها أو تدجينها في المدن الأكثر تصنيعاً، فإن نمو القوة الشرائية للعامل نمو طفيف للغاية، كما أن أسعار السلع الصناعية لا تهبط. هذه، إذاً، منطقة واسعة ذات سوق ممكنة هائلة وسوق فعلية منكمشة من جراء فقر جماهيرها. إن المستهلكين الذين توجه مصانع السيارات والثلاجات الكبرى منتجاتها إليهم لايزيدون عن ٥ في المائة من سكان أمريكا اللاتينية[١١١]. ويمكن اعتبار واحد بالكاد

من كل أربعة برازيليين مستهلكاً من الناحية الفعلية. والحال أن الدخل الاجمالي لخمسة وأربعين مليون برازيلي يساوي الدخل الاجمالي لتسعمائة ألف مواطن مميزين على الطرف المقابل من السلم الاجتماعي(١١٢).

■ تكامل أمريكا اللاتينية في ظل العلم ذي الخطوط والنجوم

مازال بعض الأبرياء يعتقدون أن كافة البلدان تنتهي عند حدودها. وهم يقولون إن الولايات المتحدة لها دخل كبير أو ليس لها دخل على الإطلاق بتكامل أمريكا اللاتينية، وذلك لسبب بسيط، هو أن الولايات المتحدة ليست عضواً في منطقة التجارة الحرة الأمريكية اللاتينية (ALALC)، ولافي السوق المشتركة لأمريكا الوسطى. وهم يقولون إن التكامل موجود بالشكل الذي أراده المحرر سيمون بوليفار: فهو لايمضي إلى أبعد من الحدود التي تفصل المكسيك من جارتها الشمالية القوية. والحال أن أولئك الذين يتبنون هذه الفكرة الحارسة لعرش السيد الأمريكي يعانون من شكل ما من أشكال سقوط الذاكرة قد لايكون بريئاً تماماً. فهم ينسون أن جيشاً من القراصنة، والتجار، ورجال البنوك، ومشاة البحرية والتكنوقراطيين، وذوي البيريهات الخضراء، والسفراء، وقباطنة الصناعة قد استولوا، في صفحة سوداء طويلة من صفحات التاريخ، على حياة ومصائر معظم شعوب الجنوب وأن صناعة أمريكا اللاتينية ترقد الآن في قعر جهاز هضم الامبراطورية. إن اتحاد "نا" يخلق قوتنا "هم" بالدرجة التي تلجأ بها بلادنا، وقد عجزت عن الافلات من قوالب التخلف والتبعية، إلى تحقيق التكامل بين عبوديات كل منها.

وتمتدح وثائق "ALALC" الرسمية دور الرساميل الخاصة في نمو التكامل - وقد رأينا في فصول سابقة في أية أيدٍ تتركز هذه الرساميل الخاصة. لقد اجتمع المجلس الاستشاري المعني بشئون النشاط الاستثماري في منتصف أبريل ١٩٦٩ في أسونثيون، وبين أمور أخرى، أكد من جديد على "توجه الاقتصاد الأمريكي اللاتيني، الذي يتحقق التكامل الاقتصادي للمنطقة بالنسبة إليه عن طريق الاستناد بصورة أساسية إلى تطور المشروع الاستثماري الخاص". وقد أوصى بأن تدخل الحكومات تشريعاً مشتركاً لتكوين "مشاريع استثمارية متعددة القوميات، تتألف بصورة غالبة (كذا) من رساميل ومستثمرين من الدول الأعضاء". لقد سلَّمت كل المفاتيح إلى اللص. والحال أنه قبل ذلك بسنتين، في أبريل ١٩٦٧، في الاعلان الختامي لمؤتمر بونتا ديل ايستي -

www.ibtesama.com/vb

الذي ختمه ليندون جونسون نفسه بخاتمه الذهبي - كان قد وصل الأمر إلى حد اقتراح إنشاء سوق مشتركة للأسهم، وهي نوع من التكامل بين أسواق الأوراق المالية، بحيث يمكن شراء المشاريع الاستثمارية المتواجدة في أي مكان من أمريكا اللاتينية في أي مكان من أمريكا اللاتينية. وقد ذهبت الوثائق الرسمية إلى حد التوصية على المكشوف بنزع تأميم المشاريع العامة. فقد قرر المؤتمر الأول لصناعة تعليب اللحوم ضمن إطار (ALALC)، والمنعقد في مونتفيديو في أبريل ١٩٦٩ "دعوة الحكومات ... إلى دراسة السبل المناسبة للتحويل التدريجي لمصانع تعليب اللحوم المملوكة للدولة إلى القطاع الخاص". وفي الوقت نفسه، اتبعت حكومة أوروجواي، التي رأس أحد أعضائها المؤتمر، سياسة تخريب سافرة لمصنع فريجوريفيكو ناثيونال لتعليب اللحوم والذي تملكه الدولة وذلك لحساب المصانع التي يملكها الأجانب ملكية خاصة.

والحال أن المقصود من وراء نزع سلاح التعريفة الجمركية، والذي يؤدي تدريجياً إلى إطلاق انتشار السلع داخل منطقة ALALC، هو إعادة تنظيم توزيع مراكز الإنتاج والأسواق الأمريكية اللاتينية لحساب الشركات الكبرى متعددة القوميات. إن "اقتصاد التصاعد" يسود الآن: لقد شهدت المرحلة الأولى، التي جرت خلال هذه الأعوام الأخيرة، توطيد السيطرة الأجنبية على منصات الإطلاق - المدن الصناعية - والتي سوف تجري السيطرة منها على السوق الإقليمية ككل. وتعد المشاريع الاستثمارية المتواجدة في البرازيل والأعظم اهتماماً بالتكامل الأمريكي اللاتيني مشاريع أجنبية على وجه التحديد: وبالدرجة الأولى، المشاريع الأقوى[١١٣]. ومن بين الشركات المتعددة القوميات - المملوكة في معظمها للولايات المتحدة - التي أجابت على استبيان أمريكي لاتيني هام أرسله بنك التنمية الأمريكي المشترك، كان أكثر من نصفها يعتزم أو يقترح أن تكون أنشطته في النصف الثاني من الستينيات في سوق ALALC الآخذة بالاتساع، وذلك عن طريق إنشاء أو تعزيز فروع اقليمية[١١٤]. وفي سبتمبر ١٩٦٩، أعلن هنري فورد الثاني في مؤتمر صحفي في ريو دي جانيرو أنه يريد الانضمام إلى العملية الاقتصادية البرازيلية "لأن الموقف مناسب للغاية. وتتمثل مشاركتنا الأولية في شراء شركة ويليز أوفرلاند دو برازيل". وقال إنه سوف يصدر سيارات برازيلية إلى بلدان أمريكية لاتينية عديدة. وقد استفادت شركة كاتيربيلار تراكتورز - وهي "شركة تتعامل دائماً مع العالم باعتباره سوقاً واحدة "حسب تعبير بزنس انترناشيونال - من تخفيضات التعريفة الجمركية بمجرد التفاوض عليها، وكانت تزود بالفعل في عام ١٩٦٥ مختلف البلدان الأمريكية

www.ibtesama.com/vb

الجنوبية بالبولدوزرات وتطلع غيار الجرارات من مصنعها في ساو باولو. وبسرعة مساوية، بدأت شركة يونيون كاربايد في إمطار البلدان الأمريكية اللاتينية بالمنتجات التكتيكية الكهربائية من مصنعها في المكسيك، مستفيدة من الاعفاءات الجمركية، والضريبية، والتأمينية في منطقة ALALC[١١٠].

إن البلدان الأمريكية اللاتينية – المحكوم عليها بالفقر والعزل والتجريد من الرساميل، والتي تواجه مشكلات بنيوية خطيرة داخل حدودها هي نفسها – تنزع تدريجياً حواجزها الاقتصادية، والمالية، والأميرية(*) لحساب الاحتكارات. والنتيجة هي أن الاحتكارات، التي ماتزال تخنق كل بلد على حدة، يمكنها التحرك بحرية أوسع وترطيد تقسيم جديد للعمل على نطاق اقليمي عن طريق إضفاء طابع التخصص على أنشطتها حسب البلدان ومجالات النشاط، وتحديد الأحجام المثلى لمشاريعها الاستثمارية الفرعية، وخفض التكاليف، والقضاء على المنافسين خارج المنطقة، وتحقيق الاستقرار للأسواق. ويمكن لفروع الشركات متعددة القوميات أن تطمح إلى الاستيلاء على السوق الأمريكية اللاتينية في مجالات معينة وفي ظل شروط معينة لاتمس السياسات العالمية لمكاتبها الرئيسية. وكما رأينا في فصل سابق، فإن التقسيم الدولي للعمل يواصل العمل مثلما كان دائما بالنسبة إلى أمريكا اللاتينية: فالتغيرات تقع داخل المنطقة فقط. وقد أعلن الرؤساء في بونتا ديل ايستي أن "المبادرة الخاصة الأجنبية سوف تتمكن من القيام بدور مهم في ضمان تحقيق أهداف التكامل". وقد اتفقوا على ضرورة أن يزيد بنك التنمية الأمريكي المشترك "المبالغ المتاحة لقروض التصدير الائتمانية في التجارة فيما بين البلدان الأمريكية اللاتينية".

وقد قدرت مجلة "فورتشن" في عام ١٩٦٧ "الفرص الجديدة المغرية" التي تتيحها السوق المشتركة الأمريكية اللاتينية أمام الشركات الاستثمارية الأمريكية: "إن موضوع السوق المشتركة يتحول إلى عنصر جدي في تخطيط كثير من مجالس إدارات الشركات للمستقبل. فشركة فورد موتور دو برازيل، التي تنتج السيارات من طراز جالاكسي، تعتقد أن بوسعها التعاون على أحسن وجه مع شركة فورد الأرجنتين، التي تنتج السيارات من طراز فالكون، بما يمكنهما من أستنبات اقتصاديات كبرى عن طريق إنتاج كل من السيارتين لأجل أسواق أكبر وأوسع. أما شركة كوداك، التي تصنع الآن ورق التصوير الحساس في البرازيل، فسوف تكون مستعدة لصنع الأفلام للتصدير في

(*) الخاصة بخزانة الدولة. – المترجم.

www.ibtesama.com/vb

المكسيك وأصنع أجهزة التصوير وأجهزة عرض الأفلام في الأرجنتين[١١٦]. وقد أوردت المجلة أمثلة أخرى لـ "ترشيد" أو "توسيع" العمليات من جانب شركات مثل شركة التليفون والتلغراف الدولية، وشركات جنرال اليكتريك، ريمنجتون راند، أوتيس اليفيتور، ورثنجتون، فايرستون، دير، ويستنجهاوس، اير بريك واميركان ماشين أند فاوندري. وقد كتب رداول بريبيتش، وهو نصير متحمس، للاتحاد الامريكي للتجارة الحرة، قبل تسع سنوات: "تتمثل حجة أخرى أسمعها، من مكسيكو إلى بوينوس آيريس، مروراً بساو باولو وسانتياجو، في أن السوق المشتركة سوف تتيح للصناعة الأجنبية فرصاً للتوسع لا تتمتع بها الآن في أسواقنا المحدودة .... ويخشى من أن الفوائد التي تتيحها السوق المشتركة لن يستفيد بها من الناحية الرئيسية غير الصناعة الأجنبية، لا الصناعات القومية .... وقد تقاسمت ومازلت أتقاسم هذه الخشية، ليس على مستوى التصور وحده وإنما لأنني قد تحققت من واقع هذه الحقيقة في الممارسة العملية"[١١٧]. لكن هذا التحقق لم يمنع بريبيتش من أن يوقع بعد ذلك وثيقة خاصة بالتكامل الجاري جاء فيها أن "مما لاشك فيه أن رأس المال الأجنبي له دور مهم في تنمية اقتصادياتنا"[١١٨]، كما تقترح إنشاد شركات مختلطة "يمكن للمستثمر الأمريكي اللاتيني أن يشارك فيها بصورة فعالة ومتكافئة". بصورة متكافئة؟ أجل، فمن الطبيعي أنه يجب الحفاظ على "تكافؤ الفرص". لقد قال أناتول فرانس بشكل لائق أن القانون في مساواته المهيبة يمنع الأغنياء والفقراء سواء بسواء من النوم تحت الجسور، والتسول في الشوارع، وسرقة الخبز. إلا أنه يحدث أنه على هذا الكوكب و في هذا العصر تستثمر شركة استثمارية واحدة، هي، شركة جنرال موتورز، قوة عمل عدد من العمال المنتشرين في مختلف أرجاء العالم يساوي عدد كل سكان أوروجواي القادرين على العمل، وتكسب كل سنة من الأموال مايزيد أربع مرات عن كامل الناتج القومي الإجمالي لبوليفيا.

وتعرف الشركات، من تجربتها مع التكاملات السابقة، مزايا العمل "من الداخل" في التطور الرأسمالي للمناطق الأخرى، ويتميز واقع أن اجمالي مبيعات فروع الشركات الأمريكية في مختلف أرجاء العالم يزيد ست مرات عن قيمة الصادرات الأمريكية الشمالية بدلالة بليغة[١١٩]. وفي أمريكا اللاتينية كما في أماكن أخرى، فإن القوانين الأمريكية غير المناسبة والخاصة بمكافحة التروستات لايسري مفعولها. لهذا، وبصورة تامة، تصبح البلدان مجرد أسماء مستعارة للشركات الاحتكارية الأجنبية التي تهيمن عليها. وقد وقع أول اتفاق تكاملي ضمن إطار ALALC في أغسطس ١٩٦٢ من جانب

الأرجنتين، والبرازيل، و تشيلي، وأوروجواي، لكنه كان في واقع الأمر اتفاقاً بين شركة آي. بي. إم.، وشركة آي. بي. إم.، وشركة آي. بي. إم.، وشركة آي. بي. ام. لقد الغي رسوم الاستيراد في البلدان الأربعة على أجهزة الكومبيوتر ومكوناتها، بينما زاد الرسوم على هذه الأجهزة المستوردة من خارج المنطقة: إن شركة آي. بي. إم. قد "أبلغت الحكومات أنها لو ألغت الرسوم على التجارة فيما بينها، فسوف تبني مصانع في البرازيل والأرجنتين ...".[١٢٠] وقد أضافت المكسيك توقيعها على الاتفاق الثاني: في هذه المرة، كانت شركتا آر. سي. ايه. وفيليبس (هولندية) هما اللتان شجعتا على إعفاء معدات أجهزة الراديو والتليفزيون من الرسوم، وهلمجرا. أما الاتفاق التاسع، في أبريل ١٩٦٩، فقد قُسِّمَ السوق الأمريكية اللاتينية في مجال معدات توليد، وإرسال، وتوزيع الكهرباء بين شركات يونيون كاربايد، وجنرال اليكتريك، وسيمنز (المانية).

ومن ناحية أخرى، فإن السوق المشتركة لأمريكا الوسطى، وهي محاولة لتوحيد الاقتصاديات المتداعية والمشوهة لخمسة بلدان، قد ساعدت على القضاء بضربة واحدة على المنتجين القوميين الهزيلين للملابس، والصبغات والأدوية، ومستحضرات التجميل، والبسكويت، وعلى توسيع الأرباح والفلك التجاري لشركات جنرال تاير آند رابر، بروكتر آند جامبل، جريس، كولجيت - بالموليف، سترلنج برودكتس، وناشيونال بسكويت[١٢١].

وقد سار الاعفاء من الرسوم الجمركية في أمريكا الوسطى يداً بيد أيضاً مع تعلية الحواجز ضد المنافسة "الأجنبية الخارجية" (كما يجوز أن تسمى) حتى تتمكن الشركات "الأجنبية الداخلية" من البيع بأسعار أعلى ومن تحقيق أرباح أكبر: "إن الاعانة المتحصلة من خلال الحماية الجمركية تتجاوز القيمة الاجمالية المضافة عن طريق عملية الإنتاج المحلية" كما يستنتج روجر هانسن[١٢٢].

والحال أنه لا أحد يملك حساً بالتناسب أفضل من هذه الشركات الاستثمارية الأجنبية: تناسباتها الخاصة وتناسبات الشركات الاستثمارية الأخرى. فمثلاً، ما أهمية إنشاء مصنع كبير للسيارات، أو أفران لصهر الصلب عن طريق استخدام التيار الهوائي، أو مصنع كيميائي مهم في أوروجواي، أو بوليفيا، أو اكوادور، بأسواقها الهزيلة؟ إن مواقع الانطلاق تُخْتَارُ في أماكن أخرى على أساس حجم الأسواق الداخلية وإمكانيات نموها: إن مصنع فونسا لإطارات السيارات في أوروجواي يعتمد على شركة فايرستون بدرجة مهمة لكن فروع شركة فايرستون في البرازيل والأرجنتين هي التي تتوسع بهدف التكامل. فنمو المصنع الموجود في أوروجواي يجرى كبحه، باستخدام

www.ibtesama.com/vb

نفس المعيار الذي يقرر أن شركة أوليفتي، وهي شركة ايطالية غزتها شركة جنرال اليكتريك، سوف تصنع آلاتها الكاتبة في البرازيل وآلاتها الحاسبة في الأرجنتين. ويقول روزنشتاين - رودان إن "التوزيع الفعال للموارد يتطلب تطوراً غير متكافئ للأجزاء المختلفة لبلد من البلدان أو لمنطقة من المناطق"، وسوف يكون لأمريكا اللاتينية متكاملة جهاتها الشمالية الشرقية(*) وأقطاب نموها(١٢٣). وقد قال مندوب أوروجواي عند تقييمه للسنوات الثماني من عمر معاهدة مونتفيديو التي أدت إلى إنشاء ALALC، إن "الاختلافات في درجات النمو" بين مختلف البلدان " تميل إلى الاحتداد" لأن مجرد زيادة التجارة في تبادل التنازلات المتبادلة ليس من شأنه غير تعزيز انعدام التكافؤ القائم سلفاً بين أقطاب مميزة ومناطق غارقة. وقد قدم سفير باراجواي شكوى مماثلة، فقد قال إن مما يتنافى مع العقل أن البلدان الضعيفة تدعم التنمية الصناعية لأكثر بلدان منطقة التجارة الحرة تقدماً، مستوعبة تكاليفها الداخلية الباهظة من خلال الاعفاءات الجمركية. وقد أضاف أن تدهور شروط التجارة قد أثر تأثيراً بالغ السوء على بلاده أكان ذلك ضمن ALALC أم خارجها: "فمقابل كل طن من المنتجات تستورده باراجواي من المنطقة، تدفع طنين". وقال المتحدث بلسان اكوادور إن الواقع يتمثل في وجود "أحد عشر بلداً في مراحل تطور مختلفة، بما يعني قدرات أكبر أو أقل على الاستفادة من منطقة التجارة الحرة وبما يقود إلى استقطاب الغنائم والخسائر" وقد استنتج سفير كولومبيا "استنتاجاً واحداً فقط: إن برنامج الاعفاء يفيد البلدان الثلاثة الكبيرة أكثر كثيراً جداً من فائدته للبلدان الأخرى"(١٢٤). ومع استمرار التكامل سوف تتخلى البلدان الصغيرة عن الدخول التي كانت تحصل عليها من الرسوم الجمركية - والتي تمول في باراجواي قرابة نصف الميزانية القومية - في مقابل الميزة المشكوك فيها والخاصة بالحصول، مثلاً، على سيارات من سان باولو أو بوينوس أيريس، أو المكسيك تصنعها نفس الشركات التي تبيعها من ديترويت، أو لولفسبورج، أو ميلانو بنصف السعر(١٢٥). تلك هي الحقيقة الراسخة وراء النزاعات التي تثيرها عملية التكامل بشكل متزايد. ويعد الانبثاق الناجح لحلف الانديز، والذي يجمع أمم المحيط الهادئ، أحد نتائج الهيمنة الواضحة للبلدان الثلاثة الكبيرة في إطار ALALC الأوسع: إن البلدان الصغيرة تقترح الاتحاد على حدة.

إلا أنه برغم كافة المشاكل الشائكة كما قد تبدو، فإن الأسواق تتوسع مع

(*) شديدة التخلف - المترجم.

www.ibtesama.com/vb

اجتذاب التابعين لتابعين جدد إلى فلك قوتهم التابعة. وفي ظل ديكتاتورية كاستيلو برانكو، وقعت البرازيل اتفاقاً لضمان الاستثمارات الأجنبية يثقل كاهل الدولة بتبعات المخاطر والمعوقات التى تحف كل صفقة استثمارية. ومما له دلالته أن المسئول الذى رتب للاتفاق قد دافع عن الشروط المهينة التى يتضمنها أمام الكونجرس البرازيلى بقوله إن "البرازيل سوف تستثمر رساميل فى المستقبل القريب فى بوليفيا، أو باراجواى، أو تشيلى وسوف تكون ساحتها بحاجة إلى اتفاقات من هذا النوع"[١٣٦]. والواقع أنه قد تطور فى الحكومات البرازيلية إثر انقلاب ١٩٦٤ إتجاه يرمى إلى قيام البرازيل بدور "امبريالى من الباطن" تجاه جيرانها. والحال أن زمرة عسكرية واسعة النفوذ تصور البلاد على أنها المدير الكبير للمصالح الأمريكية فى المنطقة، وتدعو البرازيل إلى أن تكون سيدة الجنوب بالشكل نفسه الذى تعتبر به الولايات المتحدة سيدة للبرازيل. وفى هذا الاتجاه، استحضر الجنرال جوابيرى دو كوتو إى سيلفا "مصيراً جلياً"[١٣٧]. جديداً. فقد كتب ايديولوجى "الامبريالية من الباطن" هذا فى عام ١٩٥٢: "هذا هو ماسوف يحدث، خاصة وأن مصيرنا الجلى لايتعارض فى منطقة الكاريبى مع مصير أشقائنا الشماليين الكبار ....." والحال أن الجنرال يرأس الآن شركة داوكيميال فى البرازيل. ومن المؤكد أن بنية السيادة من الباطن والتى يسعون إلى خلقها لها سوابق تاريخية كثيرة، من إبادة باراجواى لحساب رجال البنوك البريطانيين بعد حرب ١٨٦٥ إلى ارسال جنود برازيليين، بعد قرن واحد بالضبط، لتزعم عملية التضامن عندما غزا مشاة البحرية الأمريكية سانتو دومينجو.

وقد شهدت السنوات الأخيرة أحياءً للمنافسة بين عملاء المصالح الامبريالية المتمركزين فى الحكومات البرازيلية والمتمركزين فى الحكومات الأرجنتينية فيما يتعلق بالمسألة المزعجة والخاصة بقيادة القارة. وتشير كل الدلائل إلى أن الأرجنتين ليست فى وضع يسمح لها بمقاومة التحدى البرازيلى القوى: فمساحة البرازيل ضعف مساحة الأرجنتين، وعدد سكان البرازيل يزيد أربع مرات عن عدد سكان الأرجنتين، وتنتج البرازيل من الصلب مايزيد نحو ثلاث مرات عما تنتجه الأرجنتين، وتنتج من الأسمنت ضعف ماتنتج الأرجنتين، وتنتج من الطاقة الكهربائية أكثر من ضعف ماتنتجه الأرجنتين، وتجدد أسطولها التجارى بمعدل يزيد خمس عشرة مرة عن معدل تجديد الأرجنتين لأسطولها التجارى. وعلاوة على ذلك، فإن معدل النمو الاقتصادى للبرازيل فى العقدين الماضيين، كان أعظم بدرجة ملحوظة من معدل النمو الاقتصادى للأرجنتين.

www.ibtesama.com/vb

وحتى وقت قريب، كانت الأرجنتين تنتج من السيارات والشاحنات أكثر مما تنتجه البرازيل، لكن صناعة السيارات البرازيلية بالمعدل الحالي سوف تكون أكبر ثلاث مرات من صناعة السيارات الأرجنتينية بحلول عام ١٩٧٥ أما أسطولها – الذي كان مساويا لأسطول الأرجنتين في عام ١٩٦٦ – فسوف يكون حجمه مماثلاً لمجموع أساطيل أمريكا اللاتينية كلها مجتمعة. وتقدم البرازيل للمستثمرين الأجانب سوقها الممكنة المترامية الأطراف، وثرواتها الطبيعية الخرافية، والأهمية الاستراتيجية لموقعها – حيث توجد لها حدود مشتركة مع كل البلدان الأمريكية الجنوبية باستثناء اكوادور وتشيلي – وكل الشروط المناسبة للمشاريع الاستثمارية الأمريكية على أرضها للتقدم بأحذية تجتاز سبعة فراسخ في خطوة واحدة، وهي تحوز قوة عمل أرخص وأوفر مما لدى منافسيها: فالمستوى المتوسط للأجور أدنى ثلاث مرات مما في الأرجنتين في حين أن العاطلين ملايين. وليس من قبيل المصادفات أن ثلث المنتجات المصنعة وشبه المصنعة المبيعة داخل منطقة ALALC يأتي من البرازيل. إنها البلد المدعو إلى أن يصبح محور تحرر كل أمريكا اللاتينية أو استعبادها. ولعل السناتور فولبرايت لم يكن يدرك المغزى الكامل لكلماته عندما نسب إلى البرازيل، في تصريحات علنية أدلى بها في عام ١٩٦٥، مهمة توجيه السوق المشتركة لأمريكا اللاتينية.

«أبداً لن نكون سعداء، أبداً» – هذا ماتنبأ به سيمون بوليفار

لكي تتمكن الامبريالية الأمريكية من "توحيد وحكم" أمريكا اللاتينية اليوم، كان من الضروري أن تساعد الامبراطورية البريطانية على تفرقتنا وحكمنا أمس. لقد ظهر إلى الوجود أرخبيل من البلدان المنفصلة نتيجة لاحباط وحدتنا القومية. وعندما كسبت الشعوب استقلالها بالسلاح، وقفت أمريكا اللاتينية على مسرح التاريخ وقد جمعت بين مختلف أقاليمها عرى تراث مشترك، ووحدة الأرض، والتكلم بلغتين أصلهما واحد، الاسبانية والبرتغالية. لكنها كانت تفتقر إلى شرط جوهري واحد لكي تشكل أمة عظيمة واحدة – الحياة الاقتصادية المشتركة.

إن أقطاب الازدهار التي ترعرعت لكي تلبي حاجة أوروبا إلى المعادن والمواد الغذائية لم تكن مترابطة فيما بينها: لقد كان مربط أجنحة المروحة عبر المحيط. وكان الناس ورأس المال يتحركون تبعاً للمصير الصاعد أو الهابط للذهب أو السكر، الفضة أو

www.ibtesama.com/vb

النيلة، ولم يكن الوجود الدائم المستقر من نصيب أحد غير الموانئ والعواصم، الطفيليات النامية على حساب المناطق المنتجة. لقد ولدت أمريكا اللاتينية كأرض واحدة في خيالات وآمال سيمون بوليفار، وخوسيه أرتيجاس، وخوسيه دى سان مارتين، لكنها تمزقت سلفاً من جراء التشوهات الأساسية للنظام الاستعماري. والحال أن أوليجاركيات موانئ التجارة الحرة قد وطدت بنية التجزئة هذه، والتي كانت مصدر ربح لها: فلم يكن بوسع هؤلاء التجار العقلاء حفز الوحدة القومية التي كانت جوهر البورجوازيات الأوروبية والأمريكية. وطوال القرن الماضي، حرص البريطانيون، ورثة اسبانيا والبرتغال منذ ما قبل الاستقلال، على بلورة هذه البنية عن طريق دسائس الديبلوماسيين الماكرة، وابتزازات رجال البنوك، واستعداد التجار للغواية. لقد أعلن بوليفار: "إن الوطن بالنسبة إلينا هو أمريكا" (اللاتينية. - المترجم)؛ لكن جران كولومبيا قد قسمت إلى خمسة بلدان ومات المحرر مهزوماً. وقد قال الجنرال موراثانا: "أبداً لن تكون سعداء، أبداً!". أمّا سان مارتين، الذى خانته بوينوس أيريس، فقد نزع شارة القيادة من على منكبيه في حين أن أرتيجاس، الذي كان يسمي جنوده امريكيين (لاتينيين. - المترجم)، قد ذهب ليموت موت منفي انفرادي في باراجواي؛ لقد قسمت ولاية ريو دي لابلاتا إلى أربع ولايات. أمّا فرانثيسكو دي موراثان، مؤسس جمهورية أمريكا الوسطى الاتحادية، فقد أعدم رمياً بالرصاص[١٢٨]. ومزقت خاصرة أمريكا إلى خمس قطع - وأضيفت إليها فيما بعد بنما، القناة التي تحمل رتبة جمهورية والتي ابتدعها تيدى روزفلت.

واليوم يرى العالم النتيجة: إن أية شركة من الشركات المتعددة القوميات تعمل بتماسك وحس بالوحدة أكبر مما لدى كومة الجزر التي تتألف منها أمريكا اللاتينية، الممزقة بكل هذه الحدود وبكل هذا الانعدام للاتصال. فما هو التكامل الذى يمكن أن تحققه فيما بينها بلدان عاجزة عن مجرد التكامل داخلياً، على صعيد كل منها؟ إن كل بلد يكابد إنشطارات في جسده هو، وانقسامات اجتماعية مريرة وتوترات غير محلولة بين صحاريه الهامشية الكبرى وواحاته المدينية. وتتكرر المأساة على الصعيد الاقليمى، فالسكك الحديدية والطرق الرئيسية، التي أنشئت لنقل المنتجات الأجنبية بأقصر الطرق، ماتزال تشهد بشكل دامغ على عجز أو عدم قدرة أمريكا اللاتينية على تحقيق الحلم القومي الذي راود أبطالها. إن البرازيل لاتملك طرقاً برية دائمة للارتباط بثلاث من جاراتها، كولومبيا، وبيرو، وفنزويلا، والمدن المطلة على شاطئ المحيط الأطلسي لاتملك اتصالات برقية مباشرة مع المدن المطلة على شاطئ المحيط الهادي، بحيث أن البرقيات

www.ibtesama.com/vb

المتبادلة بين بوينوس أيريس وليما، أو ريو دى جانييرو وبوجوتا، يجب أن تمر عبر نيويورك؛ والشئ نفسه فيما يتعلق بالاتصالات الهاتفية بين منطقة الكاريبى والجنوب. ومازال كل بلد أمريكي لاتيني متوحداً بميناته - مما يعد نفياً لجذوره وهويته الحقيقية - إلى درجة أن كافة المنتجات تقريباً يجرى تبادلها عن طريق البحر: فالنقل البرى غير موجود من الناحية العملية. وعلاوة على ذلك، يحدد كارتيل الشحن العالمي رسوماً وخطوط رحلات تناسب مصالحه، ولاتفعل أمريكا اللاتينية غير مكابدة الرسوم الباهظة وخطوط الرحلات المثيرة للعجب العجاب. فمن بين خطوط الملاحة المنتظمة الـ ١١٨ العاملة فى المنطقة لايرفع أعلاماً لبلدان من المنطقة غير سبعة عشر؛ وتستنزف رسوم الشحن من الاقتصاد الأمريكي اللاتيني ٢.٦ بليون دولار سنوياً[١٢٩]. وهكذا فإن السلع المشحونة من بورتو اليجرى إلى مونتفيديو تصل أسرع إذا ماذهبت عن طريق هامبورج، والشئ نفسه بالنسبة إلى صوف أوروجواى المتجه إلى الولايات المتحدة؛ وتقل رسوم الشحن من بوينوس ايريس إلى ميناء فى خليج المكسيك عن نسبة ٢٥ فى المائة إذا ماذهبت الشحنة عن طريق ساوثهامبتون[١٣٠]. ويكلف شحن ألواح الخشب من المكسيك إلى فنزويلا أكثر من ضعف تكاليف شحن ألواح الخشب من فنلندا إلى فنزويلا، مع أن الخرائط مازالت تصر على أن المكسيك أقرب. وتكلف شحنة مباشرة من المنتجات الكيميائية من بوينوس آيريس إلى تامبيكو فى المكسيك أكثر بكثير مما لوذهبت من طريق نيوأورليانز[١٣١].

إن ماشرعت الولايات المتحدة فى تحقيقه لنفسها، وحققته بالفعل، شئ مختلف بالتأكيد. فبعد سبع سنوات من استقلالها، كانت المستعمرات الثلاث عشرة قد ضاعفت أراضيها، الممتدة بالفعل وراء الأليجين إلى ضفاف الميسيسبى، وبعد ذلك بأربع سنوات صاغت وحدتها بخلق سوق مشتركة. ثم أدى شراء أرض ليوزيانا من فرنسا فى عام ١٨٠٣ إلى مضاعفة مساحة الأرض؛ وبعد ذلك جاءت فلوريدا و، فى منتصف القرن، غزو وبتر نصف المكسيك باسم "المصير الجلى". ثم شراء الاسكا واغتصاب هاواى، فبويرتو ريكو، والفلبين. لقد جعلت المستعمرات من نفسها أمة، وجعلت الأمة من نفسها امبراطورية، بتحقيقها لأهداف جرى الاعراب عنها والسعى إليها بشكل واضح منذ أيام "الآباء المؤسسين" البعيدة. وبينما نما شمال أمريكا، من خلال التطور داخلياً ضمن حدوده الآخذة فى الاتساع، فإن الجنوب قد تطور نحو الخارج وانفجر إلى شظايا كقنبلة.

www.ibtesama.com/vb

والحال أننا في عملية التكامل الراهنة لانتعرف من جديد على أصواتنا كما لاتصبح أكثر قرباً من أهدافنا. وقد تنبأ بوليفار نبوءة ثاقبة بأنه يبدو أن العناية الالهية قد كلفت الولايات المتحدة بابتلاء أمريكا اللاتينية بالكوارث باسم الحرية. إن شركة جنرال موتورز أو شركة آي. بي. إم. لن تتكرم علينا بلعب دورنا ورفع رايات الوحدة والتمرد القديمة التي سقطت في ساحات القتال، كما أن الأبطال الذين غُدِرَ بهم أمس لايمكن لخونة اليوم تبرير تضحياتهم. فالمسألة مسألة حمل ثقيل من العفونة يجب طمره في قعر البحر على طريق إعادة بناء أمريكا اللاتينية. والمهمة منوطة بالمحرومين، المهانين، الملعونين. فالقضية الأمريكية اللاتينية قضية اجتماعية بالدرجة الأولى: إن الميلاد الجديد لأمريكا اللاتينية يجب أن يبدأ بالاطاحة بسادتها، بلداً بلداً. إننا نلج أزمنة التمرد والتغيير. وهناك من يعتقدون أن المصير يتكئ على رُكَبِ الآلهة؛ لكن الحقيقة هي أنه يواجه ضمير الإنسان بوصفه تحدياً متقداً.

مونتفيديو، أواخر عام ١٩٧٠



www.ibtesama.com/vb

الهوامش

(١) قبل أربعين سنة، كانت الاستثمارات الأمريكية في الصناعات التحويلية لا تشكل غير نسبة ٦ في المائة إجمالي الرساميل الأمريكية المستثمرة في أمريكا اللاتينية. وفي عام ١٩٦٠، تجاوزت نسبة ٢٠ في المائة، وواصلت التزايد لتصبح ثلث الإجمالي.

(2) Secretaría General de la Organización de Estados Americanos, ***El financiamiento externo para el desarrollo de la América Latina***, Washington, 1969. Documento de distribución limitada; sextas reuniones anuales del CIES.

(3) Datos del Departmento de Comercio de los Estados Unidos y del Comité Interamericano de la Alianza para el progreso. Secretaría General de la OEA, ***Op. Cit.***

(4) Paul A. Baran y Paul M. Sweezy, ***El capital monopolista***, México, 1971.

(5) J. J. Servan-Schreiber, ***El desafío americano***, Santiago de Chile. 1968.

(6) Citado por Alfredo Parera Dennis, ***Naturaleza de las relaciones entre las clases dominantes argentinas y las metrópolis, en Fichas de investigación económica y social***, Buenos Aires, diciember de 1964.

(7) Ministério do Planejamento e Coordenacão Geral, ***A industrializacão brasileira: diagnóstico e perspectivas***, Río de Janeiro, 1969.

(8) Dardo Cúneo, ***Comportamiento y crisis de la clase empresaria***, Buenos Aires, 1967.

(٩) قامت شيلي وكولومبيا وأوروجواي أيضاً ببعض محاولات التصنيع كبديل للاستيراد في الفترات المشار اليها هنا. وكان رئيس أوروجواي خوسيه باتييه إي اوردونييث (١٩٠٣ - ١٩٠٧ و ١٩١١ - ١٩١٥) نبيا الثورة البورجوازية في أمريكا اللاتينية قبل ذلك. وقد سبقت أوروجواي الولايات المتحدة في تطبيق يوم عمل من ثماني ساعات بموجب قانون. ولم تكن تجربة دولة الرعاية الإجتماعية التي قام بها باتييه قاصرة على تنفيذ أكثر القوانين الإجتماعية تقدماً في ذلك الزمن: فقد قدمت أيضاً تشجيعاً قوياً للتطور الثقافي ولتربية الجماهير، وأممت الخدمات العامة ومختلف الأنشطة الإنتاجية

www.ibtesama.com/vb

المهمة من الناحية الإقتصادية. إلاّ أنها لم تمس قوة كبار ملاك الأراضي، كما لم تؤمم البنوك أو التجارة الخارجية، وتعاني أورجواى اليوم من تقصيرات النبي التي ربما كانت حتمية كما تعانى من خيانات خلفائه.

(١٠) «إن تحويل منتوج معين إلى الإنتاج الداخلي ليس من شأنه غير «تعويض» جزء من إجمالي القيمة المستخلصة سلفاً من خارج الاقتصاد ... وكلما توسع استهلاك هذا المنتوج «المعوض» بسرعة، كلما أمكن للطلب الناشئ عن ذلك على الورادات أن يتجاوز بسرعة اقتصاد العملة الأجنبية» (ماريا دي كونسيبسيان تاقاريس).

(11) Ismael Viñas y Eugenio Gastiazoro, ***Economía y dependencia (1900 - 1968)*** Buenos Aires, 1968.

(١٢) في ٢٧ نوفمبر ١٩٥٣، أجاب وزير الشئون الاقتصادية على سؤال مندوب لمجلة «فيزيون» على النحو التالي :

– باستثناء صناعة النفط، ما هي الصناعات الأخرى التي تريد الأرجنتين تنميتها بالتعاون مع رأس المال الأجنبي؟

«لكي نكون محددين، لنذكر حسب الأولوية النفط ... ثانياً، صناعة الصلب ... الصناعات الكيميائية الثقيلة ... صناعة وحدات النقل ... صناعة إطارات السيارات وعجلات السيارات ... وبناء محركات الديزل».

(13) Octavio Ianni, ***O colapso do populismo no Brasil***, Río de Janeiro, 1968.

(14) Luciano Martins, ***Industrialização, burguesia nacional e desenvolvimento***, Río de Janeiro, 1968.

(15) Fernando Henrique Cardoso, ***Ideologías de la burguesía industrial en sociedades dependientes*** (Argentina y Brasil), México, 1970.

(16) Fran cois Bourricaud, Jorge Bravo Bresañi, Henri Favre, Jean Piel, ***La oligarquía en el Perú***, Lima, 1969. El dato proviene del trabajo de Favre.

(17) Ricardo Lagos Escobar, ***La concentración del poder económico.***

www.ibtesama.com/vb

'*Su teoría. Realidad chilena* (Santiago de Chile, 1961) y Vivian Trías, Reforma agraria en el Uruguay (Montevideo, 1962).

(١٨) كما يقول الونسو اجيلار : «إن الرأسماليين المكسيكيين يزدادون براعة وطموحاً. وإذ يتخذون من حرية الاستثمار نقطة إنطلاق لهم للحصول على الثروة، فإنهم – أو أبرزهم على الأقل – يتمتعون بشبكة من القنوات التي يضاعفون من خلالها مصالحهم عن طريق الصداقات، والمشاركات الإستشارية، والمصاهرة، وتقديم الخدمات المتبادلة، والإنتماء إلى أندية أو تجمعات معينة، واللقاءات الإجتماعية المتكررة، و بالطبع، التقارب في مواقفهم السياسية».

(١٩) هو كارلوس بيبجريتي، وقد كرمه نادي الجوكي بنشر خطبه؛ لكن الخطب التي يزيد فيها آراء الصناعيين قد حذفت.

(20) Discurso del ministro Hélio Beltrão, en el almuerzo de la Asociación Comercial de Río de Janeiro, *Correio do Povo*, 24 de mayo de 1969.

(21) CEPAL-BNDE, *Quince años de política económica en el Brasil*, Santiago de Chile, 1965.

(٢٢) يقدر يوجينيو جودين، وهو اقتصادي يحبذ الاستثمارات الأجنبية كثيراً، أن البرازيل قد منحت الشركات الأمريكية والأوروبية، تحت هذا البند وحده ما لا يقل عن بليون دولار. ووفقاً لواسيير بايكساو فإن المزايا المقدمة الى صناعة السيارات في فترة إنشائها كانت تعادل الميزانية القومية من حيث حجمها المالي . ويلاحظ پاولو شيلينج أنه بينما كانت الدولة البرازيلية شخصية في المزايا التي قدمتها إلى الشركات الدولية، حيث سمحت لها بتحقيق أقصى الأرباح مقابل أدنى الإستثمارات، فإنها قد رفضت مساعدة المصنع القومي للسيارات، الذي أنشئ في عهد فارجاس. وفيما بعد، في ظل نظام كاستيلو برانكو، بيع هذا المشروع الذي تملكه الدولة لشركة الفا روميو.

(23) Maurício Vinhas de Queiroz, *Os grupos multibilionarios, en Revista do Instituto de Ciências Sociais*, Universidade Federal de Río de Janeiro, enero-diciembre de 1965.

(٢٤) وجدت اللجنة أن رأس المال الأجنبي قد سيطر في عام ١٩٦٨ على نسبة ٤٠ في المائة من سوق الرساميل في البرازيل، وعلى نسبة ٦٢ في المائة من التجارة الخارجية، وعلى نسبة ٨٢ في المائة

www.ibtesama.com/vb

من النقل عبر المحيط، وعلى نسبة ٦٧ فى المائة من النقل الجوى الخارجى، وعلى نسبة ١٠٠ فى المائة من إنتاج السيارات، وعلى نسبة ١٠٠ فى المائة من إنتاج إطارات السيارات، وعلى نسبة تزيد عن ٨٠ فى المائة من الصناعات الدوائية، وعلى نسبة تصل إلى نحو ٥٠ فى المائة من الصناعة الكيماوية، وعلى نسبة ٥٩ فى المائة من إنتاج الآلات ونسبة ٦٢ فى المائة من انتاج قطع غيار السيارات، وعلى نسبة ٤٨ فى المائة من أنتاج الألومينيوم ونسبة ٩٠ فى المائة من انتاج الأسمنت. وكان نصف الرساميل الأجنبية يخص الشركات الأمريكية تليها الشركات الألمانية، وتجدر الإشارة، بالمناسبة، إلى النقل المتزايد لإستثمارات جمهورية ألمانيا الاتحادية فى أمريكا اللاتينية، فمن كل سيارتين تصنعان فى البرازيل، تأتى واحدة من مصنع فولكسفاجن، أكبر مصنع فى المنطقة كلها. وكان أول مصنع للسيارات فى أمريكا الجنوبية ألمانياً – مرسيدس بنز الأرجنتين، الذى تأسس فى عام ١٩٥١. وتسيطر الشركات الألمانية، باير، هوكست، بى. ايه. اس. إف.، وشيرينغ على جانب مهم من الصناعات الكيميائية فى أمريكا اللاتينية.

(25) Suplemento especial del *New York Times*, 19 de enero de 1969.

(26) Sergio Nicolau, ***La inversión extranjera directa en los paíes de la ALALC***, México, 1968.

(27) Rogelio García Lupo, ***Contra la ocupación extranjera***, Buenos Aires, 1968.

(28) Citado por Naciones Unidas, CEPAL, ***Estudio económico de América Latina, 1968***, Nueva York-Santigo de Chile, 1969.

(29) Reportaje de la revista ***Visión***, 3 de febrero de 1967.

(30) José Luis Ceceña, ***Los monopolios en México***, México, 1962.

(31) José Luis Ceceña, ***México en la órbita imperial***, Mfxico, 1970, y Alonso Aguilar y Fernando Carmoa, México, riqueza y miseria, México, 1968.

(٣٢) ظهرت هذه الشهادة فى تقرير لجنة برلمانية معنية بالتحقيق فى المعاملات بين المشاريع القومية والأجنبية، مؤرخ فى ٦ سبتمبر ١٩٦٨. وقد نشر كامبوس بعد ذلك بيانات فسير تفسيراً غريباً

www.ibtesama.com/vb

للموقف القومي لحكومة بيرو. فوفقاً له، لم تكن مصادرة حكومة بيلاسكو البارادو لممتلكات شركة ستاندارد أويل أكثر من «استعراض فارغ للرجولة». وقد كتب يقول إن الهدف الوحيد للروح القومية هو إشباع حاجة الإنسان البدائية الى الكرامة. على أنه أضاف أن «الكرامة لا تحفز الاستثمارات كما أنه ليس من شأنها أن تعمل على زيادة الرساميل ...» (صحيفة أو جلوبو اليومية، ٢٥ فبراير ١٩٦٩).

(33) Samuel Lichtensztejn y Alberto Couriel, ***El FMI y la crisis económica nacional***, Montevideo, 1967; y Vivian Trías, ***La crisis del Imperio***, Montevideo, 1970.

(34) Fernando Gasparian, en ***Correio da Manhã***, 1. de mayo de 1968.

(35) Secretaría General de OEA, ***Op. Cit.***

(36) International Banking Survey, ***Journal of Commerce***, Nueva York, 25 de febrero de 1968.

(37) Robert A. Bennett y Karen Almonti, ***International Activities of United States Banks, en The American Banker***, Nueva York, 1969.

(٣٨) أكد كامبوس، خلال حديثه في ٢٢ ديسمبر ١٩٦٦ في جامعة ما كينزي في سان باولو: «ما دامت الاقتصاديات التي ما تزال في عملية التنظيم تفتقر إلى الموارد اللازمة لكي تتحول إلى اقتصاديات دينامية - لأنها، ببساطة، لو كانت تمتلكها لما كانت متخلفة - فمن الطبيعي قبول المساعدة من جانب كل من يود أن يغامر معنا في المغامرة الرائعة، مغامرة التقدم، لكي يحصل منها على جانب من الثمار».

(٣٩) وفقاً لجهاز وزارة التجارة بالولايات المتحدة، فإن «تدفق الفوائد والأرباح والأنصبة و العوائد والمدفوعات مقابل المساعدة التقنية والخارج من البرازيل قد شهد زيادة ملحوظة منذ عام ١٩٦٥ عندما أصبح القانون المعدل لقانون الاستثمار الأجنبي لعام ١٩٦٢ ساري المفعول».

(٤٠) كان الرئيس كيندي قد إعترف بأنه في عام ١٩٦٠، «أخذنا من العالم النامي، الذي يحتاج الى الرساميل، ١,٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار وأرسلنا رساميل للاستثمار يبلغ حجمها ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار». (كلمة أمام مؤتمر الـ AFL - CIO ، في ميامي، ٨ ديسمبر ١٩٦١).

www.ibtesama.com/vb

(٤١) بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٦٦، مثلاً، كلفت «الأخطاء والتقصيرات» الغامضة أكثر من بليون دولار في فنزويلا و ٧٤٢ مليون دولار في الأرجنتين و ٧١٤ مليون دولار في البرازيل و ٢١٠ مليون دولار في أوروجواي.

(42) ***Fichas de investigaación económica y social***, Buenos Aires, junio de 1965.

(43) V. A. Cheprakov, ***El capitalismo monopolista de Estado***, Moscú, s. f.; Paul A. Baran y Paul M. Sweezy, ***Op. Cit.***, y Vivan Trías, ***Op. Cit.***

(44) ***O Estado de São Paulo***, 24 de enero de 1963.

(45) ***International Commerce***, 4 febrero de 1963.

(46) ***Wall Street Journal***, 31 de enero de 1968.

(47) ***International Commerce***, 17 de julio de 1967.

(48) Secretaría General de la OEA, ***Op. Cit.***

(٤٩) مثال ذلك في أوروجواي، نصُّ العقد الموقع في ٢١ مايو ١٩٦٣ بين بنك التنمية الأمريكي المشترك ومحافظة مونتفيديو و الخاص بمد مواسير المياه الرئيسية.

(٥٠) مثال ذلك في بوليفيا، نصُّ العقد الموقع في أول ابريل ١٩٦٦ بين بنك التنمية الأمريكي المشترك وجامعة سان سيمون، كوتشابامبا، لتحسين تعليم العلوم الزراعية.

(51) Documento publicado por el diario Ya, Montevideo, 28 de mayo de 1970.

(52) ***Panorama***, Centro de Estudios y Documentación Sociales, México, noviember-diciember de 1965.

(٥٣) كما تلقت ديكتاتورية دوفالييه وعداً، إعترافاً بالجميل، بإنشاء طريق رئيسي إلى المطار. ويتفق كتاب عديدون على أن ذلك كان حالة من حالات الرشوة. لكن الولايات المتحدة لم تف بوعدها لهاييتي، وقد شعر «بابا دوك» دوفالييه، ممارس الفودو في ميثولوجيا الفودو [عقائد زنوج هاييتي القائمة على السحر- المترجم]، بأنه قد تعرض للخديعة. ويقال إن الساحر العجوز قد دعا الشيطان

www.ibtesama.com/vb

أن ينتقم له من الرئيس كينيدي، وإنه قد إبتسم إبتسامة راضية عندما قتلت الرصاصات الرئيس في دالاس.

(54) Reportaje por Georgie Anne Geyer, ***The Miami Herald***, 24 de diciember de 1966.

(55) Declaración ante la subcomisión de la Cámara de Representantes. Citado por Nelson Werneck Sodré, ***História militar do Brasil***, Río de Janeiro, 1965.

(56) Frederick B. Pike, ***The Modern History of Peru***, Nueva York, 1968.

(57) Amado Canelas, ***Radiografía de la Alianza para el Atraso***, La Paz, 1963; Mariano Baptista Gumucio y otros, ***Guerrilleros y generales sobre Bolivia***, Buenos Aires, 1968; y John Gunther, ***Inside South America***, Nueva York, 1967.

(٥٨) بعد ذلك بوقت قصير، قررت بيجي، إبنة رو كفيللير، الذهاب والعيش في فافيلا من فافيلات ريو دي جانيرو إسمها جاكاريزينهو. والمال أن والدها، وهو أحد أغنى الناس في العالم، قد ذهب إلى البرازيل لمتابعة أحوال إستثماراته التي يصل حجمها إلى ملايين عديدة من الدولارات وزار شخصياً منزل الأسرة المتواضعة التي اختارته بيجي للإقامة فيه مع ساكنيه؛ وقد جرّب تناول عشاء متواضع واكتشف منزعجاً أن المنزل ملئ بالشقوق وأن الفئران تدخل من عقب الباب. وعند مغادرته المنزل، ترك شيكاً بمبلغ هائل على المائدة. وقد أقامت بيجي هناك بضعة أشهر، حيث تعاونت مع فيلق السلام. ولم تتوقف الشيكات عن الوصول، وكان مبلغ كل واحد منها يساوي المبلغ الذي يمكن لرب البيت كسبه من خلال عمل متواصل على مدار عشر سنوات. وعندما رحلت بيجي في نهاية الأمر، كان قد حدث تحول للمنزل وأسرة جاكاريزينهو. إن الفافيلا لم تعرف قط ثروة كهذه، لقد هبطت بيجي عليها من السماء مباشرة. وكان الأمر أشبه ما يكون بالفوز بكل أوراق اليانصيب مرة واحدة. وعندئذ صار رب البيت بمثابة مصدر بركة للنظام. لقد انتقل مقال النشرات التليفزيونية والإذاعية ومقالات الصحف والمجلات: فالرجل نموذج يجب على جميع البرازيليين الإقتداء به. لقد خرج من الفقر بفضل إصراره الذي لايلين على العمل وقدرته على الإدخار

www.ibtesama.com/vb

انظروا، انظروا، إنه لا ينفق ما يكسبه على العربدة، وهو لديه الآن جهاز تليفزيون وثلاجة كهربائية وأثاث جديد وأحذية لأطفاله! على أن الدعاية قد أغفلت الإشارة إلى جزئية واحدة: زيارة بيبي، الأم الروحية المتون. والحال أن البرازيل تضم تسعين مليون إنسان ولم تحدث المعجزة إلاّ لواحد فقط منهم.

(٥٩) ليس من قبيل المصادفات أن هذا النص القانوني يشير بشكل محدد إلى التدابير المتخذة ضد المصالح الأمريكية على أول يناير ١٩٦٢ أو تاريخ لاحق. ففي ١٦ فبراير ١٩٦٢، أمم المحافظ ليونيل بريزولا شركة التليفونات، إحدى فروع شركة التليفون والتلغراف في ولاية ريو جراندي دو سول البرازيلية، وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقات بين واشنطن وبرازيليا. ولم تقبل الشركة التعويض الذي اقترحته الحكومة.

(60) ***International Commerce***, abril 10 de 1967.

(61) Citado por ***NACLA Newsletter***, mayo-junio de 1970.

(62) ADELA Annual Report, 1968. Citado por NACLA,***Op. Cit.***

(63) Banco Interamericano de Desarrollo, ***Décimo informe anual, 1969***, Washington, 1970.

(64) Harry Magdoff, ***La era del imperialismo, Monthly Review***, selecciones en castellano, enero-febrero de 1969.

(65) The World Bank, IFC and IDA, ***Policies and Operations***, Washington, 1962.

(66) The World Bank, IFC and IDA, ***Op. Cit.***

(٦٧) يرى بلاك أن "المساعدة الخارجية تحفز تطور أسواق خارجية جديدة للشركات الأمريكية، وتوجه الاقتصاديات القومية نحو نظام للإستثمار الحر يمكن للمؤسسات الخاصة الأمريكية أن تزدهر فيه" (كولومبيا جورنال أوف وورلد بيزنس، المجلد الأول، ١٩٦٥).

(68) Naciones Unidas, CEPAL, ***Op. Cit.***, y ***Estudio económico de América Latina***, 1969, Nueva York-Santiago de Chile, 1970.

(69) Según previsiones del Instituto Latinoamericano del Planificación

www.ibtesama.com/vb

Económica y Social, ***La brecha comercial y la integración latinoamericano***, México - Santiago de Chile, 1967.

(70) Pierre Jalée, ***Le pillage du Tiers Monde***, Paris, 1966.

(٧١) في سنوات ١٩٦٦ - ١٩٦٨ الثلاث، عاد البن على كولومبيا بنسبة ٦٤ في المائة من إجمالي دخل صادراتها، وعلى البرازيل بنسبة ٤٢ في المائة، وعلى السلفادور بنسبة ٤٨ في المائة، وعلى جواتيمالا بنسبة ٤٢ في المائة، وعلى كوستاريكا بنسبة ٣٦ في المائة. وعاد الموز على اكوادور بنسبة ٦١ في المائة من عملاتها الأجنبية، وعلى بنما بنسبة ٥٤ في المائة، وعلى هندوراس بنسبة ٤٧ في المائة. واعتمدت نيكاراجوا بنسبة ٤٢ في المائة على القطن، وجمهورية الدومينيكان بنسبة ٥٦ في المائة على السكر. وحققت اللحوم، والجلود والصوف لأوروجواي نسبة ٨٣ في المائة من عملاتها الأجنبية والأرجنتين نسبة ٣٨ في المائة. وكان النحاس مسئولاً عن نسبة ٧٤ في المائة من دخل تشيلي التجاري وعن نسبة ٢٦ في المائة من دخل بيرو التجاري؛ ومثل القصدير بالنسبة لبوليفيا نسبة ٥٤ في المائة من قيمة صادراتها، وجاءت نسبة ٩٢ في المائة من عملات فنزويلا الأجنبية من البترول.

أما فيما يتعلق بالمكسيك، فإنها "تعتمد بنسبة تزيد عن ٣٠ في المائة على ثلاثة منتجات، وبنسبة تزيد عن ٤٠ في المائة على خمسة منتجات، وبنسبة تزيد عن ٥٠ في المائة على عشرة منتجات، معظمها غير مصنعة وتصريفها الرئيسي في السوق الأمريكية الشمالية" (بابلو جونثالث كازانوفا، الديمقراطية في المكسيك، مكسيكو، ١٩٦٥).

(72) Marco D. Pollner en el volumen colectivo de INTAL - BID, ***Los empresarios y la integración de América Latina***, Buenos Aires, 1967.

(73) Central única de Trabajadores de Chile, ***América Latina, un Mundo que ganar***, Santiago de Chile, 1968.

(74) Instituto Latinoamericano de Planificación Económica y Social, ***Op. Cit.***

(75) A. Emmanul, ***El cambio designal***, México (próxima aparición).

(76) Citado por André Gunder Frank, ***Toward a Theory of Capitalist Underdevelopment***, introducción a la antología ***Underdevelopment***. Inédito.

www.ibtesama.com/vb

(77) L. Delwart (*The Future of Latin American Exports to the United States : 1965 and 1970*, Nueva York, 1970).

(78) Harry Magdoff, *Op. Cit.*

(79) *Revista Fator*, Río de Janeiro, noviembre - diciembre de 1968.

(80) Carlos Quijano, *Las victimas del sistema, en Marcha*, Montevideo, 23 octubre de 1970.

(81) *New York Times*, 3 de abril de 1968.

(٨٢) أظهر مسح شامل للشركات الفرعية الأمريكية في المكسيك، أجرى لحساب الناشيونال فاميلي فاونديشن في عام ١٩٦٩، أن نصف الشركات التي أجابت على أسئلة الإستبيان ممنوع من بيع منتجاته في الخارج بناءً على أوامر من مكاتبه الرئيسية الأمريكية. فالشركات الفرعية لم تتشكل لهذا الغرض.

ولم تتجاوز العلاقة بين صادرات المنتجات الصناعية والناتج الصناعي الإجمالي نسبة ٢ في المائة في عام ١٩٦٣ في الأرجنتين، والبرازيل، وبيرو، وكولومبيا، وإكوادور؛ وكانت ٢,٧ في المائة في المكسيك و ٣,٢ في المائة في تشيلي.

(83) Naciones Unidas, CEPAL, *Op. Cit.*

(84) *Jornal do Comercio*, Río de Janeiro, 23 de marzo de 1950.

(85) Celso Furtado, *Um projeto para o Brasil*, Río de Janeiro, 1968.

(86) *International Commerce*, 24 de abril de 1967.

(87) Ismael Viñas y Eugenio Gastiazoro, *Op. Cit.*

(88) Antonio García, *Las Constelaciones del poder y el desarrollo latinoamericano, en Comercio exterior*, México, noviembre de 1969.

(٨٩) من المؤكد أن هذه الآلية ليست جديدة. لقد حقق المصنع الإنجليزي لتعليب اللحوم على الدوام خسائر (فاتورية. - المترجم) في أوروجواي لكي يحصل على إعانات من الدولة ويزيد أرباح محال الجزارة التابعة له في لندن - التي يصل عددها إلى ستة آلاف محل - حيث يباع كيلو اللحم المصدر من أوروجواي بسعر يزيد أربع مرات عن السعر الذي تصدره أوروجواي به.

www.ibtesama.com/vb

(90) Declaraciones del presidente Salvador Allende, según cable de AFP del 12 de diciembre de 1970.

(91) Dato publicado en diario ***La Razón***, Buenos Aires, 2 de marzo de 1970.

(92) ***Resultados da indústria automobilística***, estudio especial de Conjentura económica, febrero de 1969.

(93) ***NACLA - Newsletter***, abril - mayo de 1969.

(94) Miguel S. Wionczek, ***La trasmisión de la tecnología a los países en desarrollo : proyecto de un estudio sobre México***, en Comercio exterior, México, mayo de 1968.

(95) Víctor L. Urquidi en ***Obstacles in Latin America***, de Claudio Véliz y otros, Londres, 1967.

(٩٦) في معرض تصويره لطبيعة الوهم التنموي، يستشهد سانويسكي بشهادة أحد أخصائي منظمة الدول الأمريكية: "يقول جورج لنداو" إن البلدان النامية تتمتع بمزايا معينة بالمقارنة مع البلدان المتقدمة لأنها حين تستخدم عملية أو تقنية جديدة معينة فإنها تختار عادةً أكثر أنماطها تقدماً، وهكذا تجني ثمار سنوات من البحث وثمار إستثمارات ملموسة كان على البلدان الأكثر تقدماً من الناحية الصناعية تكريسها لتحقيق تلك النتائج".

(97) Oscar J. Maggiolo en el volumen colectivo ***Hacia una política cultural autónoma para América Latina***, Montevideo, 1969.

(98) Gustavo Lagos y otros, ***Las inversiones multinacionales en el desarrollo y la integración América Latina***, Bogotá 1968.

(99) Raúl Prebisch, ***La cooperación internacional en el desarrollo latinoamericano***, en Desarrollo, Bogotá, enero de 1970. (El subrayado es mío).

(١٠٠) تعتبر الفروع الأجنبية، على أية حال، أحدث بكثير من المشاريع الإستثمارية القومية. ففي صناعة المنسوجات مثلاً – إحدى القلاع الأخيرة لرأس المال القومي – تعد درجة الأتمتة منخفضة بصورة مزرية. ووفقاً لتقارير اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية، فقد استثمرت أربعة بلدان

www.ibtesama.com/vb

أوروبية في عامي ١٩٦٢ و ١٩٦٣ في المعدات الجديدة لصناعات النسيج فيها مايزيد ست مرات عما استثمرته أمريكا اللاتينية كلها لذلك الغرض في عام ١٩٦٤.

(١٠١) في عام ١٩٥٧ – لاتوجد وثائق أحدث –، شغلت الفروع الأمريكية الشمالية في الصناعة الأوروبية، قياساً إلى رأس المال المستثمر، أيد عاملة أكثر بكثير مما فعلت في أمريكا اللاتينية.

(102) Naciones Unidas, CEPAL, *Op. Cit.*

(103) F. S. O'Brien, ***The Brazilian Population and Labor Force in 1968***, documento para discusión interna, Ministério do planejamento e Coordénasão Geral, Río de Janeiro, 1969.

(104) Naciones Unidas, CEPAL, ***Estudio económico de América Latina, 1967***, Nueva York - Santiago de Chile, 1968.

(105) Naciones Unidas, CEPAL, *Op. Cit.*

(106) Raimendo Ongaro, carta desde la prisión, ***De Frente***, Buenos Aires, 25 de septiembre de 1969.

(107) André Gunder Frank, ***Capitalism and Underdevelopment in Latin America***, Nueva York, 1967.

(108) Ministério do Planejamento e Coordenão Econômica, *Op. Cit.*

(109) Z. Romanova, ***La expansión económica de Estados Unidos en América Latina***, Moscú, s. f.

(110) Datos de Serge Bim, técnico norteamericano en organización del trabajo, según ***Jornal do Brasil***, Río de Janeiro, 5 de enero de 1969.

(111) André Gunder Frank, *Op. Cit.*

(١١٢) وفقاً لهذه الدراسة ذاتها التي أجرتها اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية، فإن "عملية هامة لإعادة توزيع الدخل بصورة تدريجية قد جرت في الأرجنتين في السنوات السابقة لسنة ١٩٥٣. ومن بين السنوات الثلاث التي تتوافر عنها معلومات أكثر تفصيلاً، فقد كانت هذه السنة على وجه التحديد هي السنة التي كان التفاوت فيها أقل مما في سواها، بينما كان التفاوت أعظم بكثير في سنة ١٩٥٩ ... وفي المكسيك في الفترة الأطول الممتدة من سنة ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٦٤ ... فإن

www.ibtesama.com/vb

هناك مؤشرات تدل على أن الخسائر لم تكن نسبية فقط بل ومطلقة أيضاً بالنسبة إلى ٢٠ فى المائة من الأسر ذات الدخول الأكثر انخفاضاً.

(113) Maurício Vinhas de Queiroz, *Op. Cit.*

(١١٤) كانت نسبة ٦٤ فى المائة من المشاريع الإستثمارية، مستفيدةً من التنازلات التي قدمتها ALALC، تصدر داخل المنطقة منتجات كيميائية وبتروكيميائية، والألياف الاصطناعية، والمواد الإليكترونية، والآلات الصناعية والزراعية ومعدات المكاتب والمركبات، وأدوات القياس، والمواسير المصنوعة من الصلب ومنتجات أخرى.

(115) ***Business International, LAFTA, Key America's 200 Million Consumers***, reportaje de investigación, junio de 1966.

(116) ***Fortune, A Latin American Common Market Makes Common Sense For U. S. Businessmen Too***, junio de 1967.

(117) Raúl Prebisch , ***Problemas de la integración económica, en Actualidades económicas financieras***, Montevideo, enero de 1962.

(118) Prebisch, Sanz de Santamaría, Mayobre y Herrera, ***Proposiciones para la creación del Mercado Común Latinoamericano***, documento presentado al presidente Frei, 1966.

(119) ***The Multinational Corporation***, Office of External Research, Washington, 1969.

(120) Business International, ***Op. Cit.***

(121) E. Lízano F., ***El problema de las inversiones extranjeras en Centro América***, en la Revista del Banco Central de Costa Rica, septiembre de 1966.

(122) En ***Columbia Journal of World Business***. Citado por ***NACLA Newsletter***, enero de 1970.

(123) Pual N. Rosenstein Rodan, ***Reflections on Regional Develop-***

ment. Citado en BID, varios autores, *Op. cit.*

(١٢٤) يرى مدير الأونكتاد أن التكامل بوصفه مجرد عملية لاختزال الحواجز التجارية سوف يحافظ على "جيوب متقدمة للغاية داخل قارة متدهورة تدهوراً عاماً".

(١٢٥) تعد صناعة السيارات أجنبية بنسبة ١٠٠٪ في المائة في البرازيل والأرجنتين، وأجنبية بصورة رئيسية في المكسيك.

(١٢٦) على سبيل المثال، وافقت أوروجواي على زيادة وارداتها من الآلات من البرازيل في مقابل مزايا كإمداد أوروجواي بطاقة كهربائية برازيلية. واليوم لاتستطيع محافظتا أرتيجاس ورييرا في أوروجواي زيادة استهلاكهما من الطاقة دون إذن من البرازيل.

(127) Golbery do Couto e Silva, ***Aspectos geopolíticos do Brasil***, Río de Janeiro, 1952.

(١٢٨) كتب جريجوريو بوستامانتي ماتيو يصف إعدام موراثان: "لقد أمر جلوه سرية الإعدام بوضع أسلحتهم موضع الإستعداد، وعَرّى رأسه، وأمرهم بالتصويب، وصحح التصويب، ثم أصدر الأمر بإطلاق النار، وسقط مضرجاً بدمه؛ ومع ذلك فقد رفع رأسه النازف وقال: إنني حي؛ وأنهى وابل آخر من الرصاص حياته".

وفي ساحة تيجوثيجالبا، تعزف الفرقة الموسيقية موسيقى خفيفة مساء كل يوم أحد حول قاعدة تمثال موراثان البرونزي لكن النقش المكتوب على قاعدة التمثال مغلوط: إن الهندوراسيين الذين ذهبوا إلى باريس إثر الإعدام لتكليف أحد النحاتين نيابة عن الحكومة بنحت تمثال لموراثان قد أنفقوا النقود على العربدة وانتهوا بشراء تمثال للمارشال ناي من سوق الروبابيكيا. وسرعان ما أصبحت مأساة أمريكا الوسطى مهزلة.

(129) Naciones Unidas, CEPAL, ***Los fletes Marítimos en el comercio exterior de América Latina***, Nueva York - Santiago de Chile, 1968.

(130) Enrique Angulo H. en el volumen colectivo ***Integración de América Latina, Experiencias y perspectivas***, México, 1964.

(131) Sidney Dell, ***Experiencias de la integración económica en América Latino***, México, 1966.

www.ibtesama.com/vb

بعد سبع سنوات

١- مضت سبع سنوات منذ نُشر الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية للمرة الأولى.

لقد كُتب هذا الكتاب من أجل النقاش مع الناس. ففيه يتوجّه مؤلف غير متخصص إلى جمهور غير متخصص، بغرض تعميم حقائق معيّنة يخفيها أو ينكرها التاريخ الرسمي، التاريخ الذي يرويه المنتصرون.

ولم تأت أكثر الاستجابات تشجيعاً من الصفحات الأدبية للصحف، بل من بعض المشاهد الواقعية التي جرت في الشارع. مثلاً، تلك الفتاة التي كانت تقرأ هذا الكتاب لجارتها في المقعد وانتهى بها الأمر إلى أن توقفت وأخذت تقرأه بصوت عالٍ لكل الركّاب بينما الأوتوبيس يعبر شوارع بوجوتا؛ أو المرأة التي هربت من سنتياجو دى تشيلى، أيام المذبحة، وهذا الكتاب ملفوف في أقمطة الرضيع؛ أو ذلك الطالب الذي ظل طوال أسبوع يجوب مكتبات شارع كورّنيتس، في بوينوس أيرس، ليقرأه شذرة شذرة، من مكتبة إلى مكتبة، لأنه لم يكن يملك نقوداً يشتريه بها.

وبنفس الطريقة، فإن أفضل التعليقات التي نالها هذا الكتاب لم تأت من أي ناقد مرموق بل من الدكتاتوريات العسكرية التي إمتدحته بأن منعته. وعلى سبيل المثال، فإن الشرايين لايمكن توزيعه في بلدي، أورجواي، ولا في تشيلي، وفي الأرجنتين شجبته السلطات، في التليفزيون وفي الصحف، بوصفه أداة لإفساد الشباب. وقد قال بلاس دى أوتيرو* Blas de Otero، "إنهم لايدعون الناس ترى ما أكتب، لأنني أكتب ما أرى".

أعتقد أنه ليس ثمة زهو في بهجة التأكد، بعد مرور هذا الزمن، من أن الشرايين لم يكن كتاباً أخرساً.

٢- أعرف أنه قد يبدو تدنيساً للمقدّسات أن يتحدث هذا المرجع الواسع الانتشار عن الإقتصاد السياسي بأسلوب رواية حب أو رواية عن القراصنة. لكنني أعترف بأنني أتكبد عناءً بالغاً حين أقرأ بعض الأعمال القيّمة لبعض علماء الاجتماع، والسياسة، والاقتصاديين، والمؤرخين، الذين يكتبون بلغة مُلغزة. فاللغة العسيرة ليست دائماً الثمن الذي لامفرّ منه للعمق. إذ يمكنها أن تخفي، ببساطة، في بعض الحالات، عجزاً عن

---

* شاعر إسباني معاصر.

www.ibtesama.com/vb

التواصل إرتقع إلى مرتبة فضيلة ذهنية. وأتوجس من أن الملل دائماً ما يخدم، على هذا النحو، في مباركة النظام القائم: إذ أنه يؤكد أن المعرفة هي إمتياز لمجموعات النخبة.

وبالمناسبة، فإن شيئاً مشابهاً يحدث بالنسبة لنوع معيّن من الأدب المناضل الموجّه إلى جمهور من المقتنعين. إن اللغة التي تكرر بصورة آلية، على نفس المسامع، نفس العبارات الجاهزة، ونفس النعوت، ونفس الصيغ الاستنكارية، تبدو لي مُمتثلةً، رغم كل رطانتها الثورية المحتملة. وربما كان أدب الأبرشية هذا بعيداً عن الثورة بعد الكتابات البذيئة عن الشبق.

٣ - يكتب المرء ليحاول الإجابة على الأسئلة التي تطنّ في رأسه، تلك النبابات العنيدة التي تقلق نومه، ويمكن لما يكتبه أن يكتسب معنىً جماعياً حين يتطابق، على نحو ما، مع الحاجة الاجتماعية إلى إجابة. وقد كتبت الشرايين من أجل تعميم أفكار غريبة عناو تجارب تخصنا ربما ساعدت قليلاً، بقدر واقعي، في توضيح التساؤلات التي تتعقبنا منذ الأزل: هل أمريكا اللاتينية إقليم من العالم محكوم عليه بالإذلال والفقر؟ ومن الذي حكم عليه؟ هل هو ذنب الرب، أو ذنب الطبيعة؟ هل هو المناخ الخانق، أو الأجناس المنحطة؟ هل هو الدين، أو العادات؟ ألا يكون الشقاء نتاجاً للتاريخ، صنعه البشر، ومن ثم يمكن للبشر أن ينتزعوه؟

لقد بدا لي توقير الماضي، على الدوام، أمراً رجعياً. فاليمين يختار الماضي لأنه يفضل الأموات: عالم ساكن، وزمن ساكن. وذوي النفوذ، الذين يُضفون الشرعية على إمتيازاتهم الموروثة، يزرعون الحنين إلى الماضي. تجري دراسة التاريخ مثلما تجري زيارة متحف؛ وهذه المجموعة من المومياوات خدعة. إنهم يزيّفون لنا الماضي مثلما يزوّرون لنا الحاضر: يضعون قناعاً على الواقع. ويُجبر المُضطهَد على إكتساب ذاكرة صنعها المضطهِد، ذاكرة غريبة عنه، ومُمزّقة، وعقيمة. وهكذا يرضى بأن يحيا حياةً ليست حياته وكأنها الحياة الممكنة الوحيدة.

وفي الشرايين، يبدو الماضي دائماً وقد إستحضره الحاضر، يبدو كذاكرة حيّة لزمننا. فهذا الكتاب هو بحثٌ عن مفاتيح للتاريخ الماضي تسهم في توضيح الزمن الحاضر، الذي يصنع التاريخ أيضاً، بدءاً من قاعدة أن الشرط الأول لتغيير الواقع هو معرفته. هنا، لايُقدّم سجل بأبطال يرتدون ثياب حفلة تنكرية، يتلوّمون، قبل أن يموتوا في المعركة، بعبارات مهيبة بالغة الطول، بل يجري التفتيش عن أصوات وآثار خطوات

www.ibtesama.com/vb

الجموع التي تنهبْ بمساراتنا الحالية. إن الشرايين يأتي من الواقع، لكنه كذلك يأتي من كتب أخرى، أفضل من هذا الكتاب، ساعدتنا على معرفة من نحن، لكي نعرف ماذا يمكننا أن نكون، وأتاحت لنا تمحيص من أين نأتي لكي نستشرف بصورة أفضل إلى أين نمضي. هذا الواقع وهذه الكتب يوضحان أن التخلف الأمريكي اللاتيني هو نتيجة لتقدم الآخرين، وأننا، نحن الأمريكيين اللاتين فقراء لأن الأرض التي نطأها غنية، وأن الأماكن التي حبتها الطبيعة قد لعنها التاريخ. ففي عالمنا، عالم المراكز القوية والأطراف الخاضعة، ليس هناك ثروة لاتثير الشك، على الأقل.

٤- خلال الزمن المنصرم منذ الطبعة الأولى لـ الشرايين، لم يكف التاريخ، بالنسبة لنا، عن أن يكون مُعلِّماً قاسية.

فقد ضاعف النظام الجوع والخوف: واصلت الثروة تركُّزها والفقر إنتشاره. وهذا ماتُقر به وثائق الهيئات الدولية المتخصِّصة، التي تصف لغتها المعقَّمة أقاليمنا المقهورة بأنها "بلدان على طريق النمو" وتنعت الإفقار الذي لاهوادة فيه الطبقة العاملة بأنه "إعادة توزيع تراجعية للدخل".

واصل الدولاب الدولي عمله: البلدان في خدمة السلع، والبشر في خدمة الأشياء.

مع مرور الزمن، تأخذ في الاكتمال طرق تصدير الأزمات. يبلغ رأس المال الاحتكاري أقصى درجات التركُّز والسيطرة الدولية على الأسواق، والقروض، والاستثمارات، ويتبع نقل التناقضات المنهجي والمتزايد: تدفع الأطراف ثمن رفاهية المراكز، دون مقاومة تذكر.

وتظل السوق الدولية أحد المفاتيح الأساسية لهذه العملية. فهناك تمارس الشركات العابرة للقومية دكتاتوريتها - وهي شركات عابرة للقومية، كما يقول سويزي، لأنها تعمل في بلدان عديدة، لكنها قومية، بالتأكيد، في ملكيتها والسيطرة عليها. والتنظيم الدولي للتفاوت لاتغيره حقيقة أن البرازيل تصدِّر الآن، على سبيل المثال، سيارات فولكس فاجن إلى غيرها من بلدان أمريكا الجنوبية وإلى الأسواق البعيدة في إفريقيا والشرق الأوسط. فشركة فولكس فاجن الألمانية هي التي تقرر، في نهاية المطاف، أن من الأنسب تصدير السيارات إلى أسواق معينة من فرعها البرازيلي: وتكاليف الإنتاج المنخفضة، والأيدي العاملة الرخيصة برازيليتان، أما الأرباح العالية فألمانية.

www.ibtesama.com/vb

كذلك لايتمزق قميص المجانين بفعل السحر حين تتجمع مادة أولية في الإفلات من لعنة الأسعار المنخفضة، وهذه هي حالة البترول بدءاً من عام ١٩٧٣. أليس البترول تجارة دولية؟ وهل ستاندارد أويل أوف نيوجرسي، التي تسمى الآن إكسون Exxon، أو الرويال داتش شل، أو جالف شركات عربية أم امريكية لاتينية؟ ومن الذي يفوز بنصيب الأسد؟ ومن ناحية أخرى، كانت موحية تلك الضجة التي ثارت ضد البلدان المنتجة للبترول، التي تجاسرت على الدفاع من الأسعار وتحولت فجأة إلى كبش فداء التضخم والبطالة العمالية في أوربا والولايات المتحدة. وهل استشارت البلدان المتقدمة أحداً، ذات مرة، قبل أن ترفع سعر أي منتج من منتجاتها؟ منذ عشرين عاماً وسعر البترول ينخفض المرة تلو المرة. وقد مثّل سعره الأساسي دعماً ضخماً للمراكز الصناعية العالمية الكبرى، التي أخذت منتجاتها، بالمقابل، ترتفع في السعر. وبالنسبة للإرتفاع المتواصل في أسعار المنتجات الأوربية ومنتجات الولايات المتحدة، لم يفعل السعر الجديد للبترول سوى العودة إلى مستويات عام ١٩٥٢. استعاد البترول الخام، ببساطة، قدرته الشرائية التي كان يتمتع بها منذ عقدين من الزمن.

٥ - كان أحد الفصول الهامة التي جرت خلال هذه السنوات السبع هو تأميم البترول في فنزويلا. لم يكسر التأميم تبعية فنزويلا فيما يتعلق بالتكرير والتسويق، لكنه فتح مجالاً جديداً للإستقلال. فبعد مولدها بقليل، إحتلت الشركة الحكومية، بترول فنزويلا، المرتبة الأولى بين أهم خمسمائة شركة في أمريكا اللاتينية. وشرعت في البحث عن أسواق جديدة بالإضافة إلى الأسواق التقليدية وسرعان ماكسبت بتروفن Petroven خمسين عميلاً جديداً.

إلا أنه، كالمعتاد، حين تصبح الدولة مالكة للثروة الأساسية في بلد من البلدان، فإنه يجدر بنا أن نتساءل من هو مالك الدولة. فتأميم الموارد الأساسية لايتضمن، في حد ذاته، إعادة توزيع الدخل لصالح الأغلبية، كذلك لايهدّد، بالضرورة، سلطة ولا إمتيازات الأقلية المسيطرة. وفي فنزويلا، يواصل إقتصاد التبديد عمله. وفي مركزه تتلألأ، بضوء غاز النيون، طبقة إجتماعية مبذّرة ومالكة للملايين. وفي عام ١٩٧٦، زادت الواردات بنسبة خمسة وعشرين بالمائة، لتمول بدرجة كبيرة المواد الترفيّة التي تتدفق على السوق الفنزويلية. إنها صنمية السلعة بإعتبارها رمزاً للسلطة، الوجود الإنساني وقد قلّص إلى علاقات منافسة واستهلاك: في وسط بحر التخلف تمارس الأقلية المحظوظة نمط حياة وموضات أغنى أعضاء المجتمعات الأكثر ازدهاراً في العالم: في ضجيج كاراكاس،

مثلما في نيويورك، تصبح السلع "الطبيعية" بلا منازع – الهواء، والضوء، والسكون – أغلى وأندر بإستمرار. ويحذّر خوان بابلو بيرث ألفونسو، بطريرك القومية الفنزويلية ونبّي إستعادة البترول قائلاً: "حذار، إذ يمكن الموت من عسر الهضم، مثلما يمكن الموت من الجوع"(١).

٦. فرغت من كتابة الشرايين في الأيام الأخيرة من عام ١٩٧٠.

وفي الأيام الأخيرة من عام ١٩٧٧، توفي خوان بيلاسكو ألبارادو Juan Velasco Alvarado على طاولة العمليات. وحمل نعشه على الأكتاف حتى المقبرة أكبر حشد شهدته شوارع ليما في تاريخها. كان الجنرال بيلاسكو ألبارادو، الذي ولد في بيت متواضع في الأراضي الجافة بشمالي البيرو، قد تزعم عملية إصلاحات إجتماعية وإقتصادية. وكانت هذه محاولة التغيير الأعمق والأوسع نطاقاً في تاريخ البلاد المعاصر. وبدءاً من إنتفاضة عام ١٩٦٨، نفذت الحكومة العسكرية إصلاحاً زراعياً حقيقياً وفتحت الطريق أمام إستعادة الموارد الطبيعية التي إغتصبها رأس المال الأجنبي. لكن عند وفاة بيلاسكو ألبارادو، كانت قد شيّعت، قبل زمن، جنازة الثورة. كانت العملية الضالّة قصيرة العمر؛ وانتهت بأن خنقها ابتزاز المقرضين والتجار والهشاشة الكامنة في كل مشروع أبوي وبدون قاعدة شعبية منّظمة.

عشية أعياد الميلاد عام ١٩٧٧، وبينما قلب بيلاسكو ألبارادو يخفق لآخر مرّة، ضرب جنرال آخر لايشبهه في شيء المكتب بقبضته، في بوليفيا. قال الجنرال أوجو بانثر Hugo Bánzer، دكتاتور بوليفيا، لا العفو عن السجناء، والمنفيين، والعمال المفصولين. قامت أربع نساء وأربعة عشر طفلاً وصلوا إلى لاباث من مناجم القصدير، قاموا حينئذ بإضراب عن الطعام.

قال العارفون– ليست هذه هي اللحظة المناسبة. ستبلغكن حين ... جلست النساء على الأرض.

– إننا لانستشيركم، إننا نبلغكم. فالقرار قد إتُّخذ. هناك في المنجم، ثمة إضراب دائم عن الطعام. فور أن نولد يبدأ الاضراب عن الطعام. هناك أيضاً، علينا أن نموت. ببطء أكثر، لكن علينا أن نموت كذلك.

ردّت الحكومة بالعقاب، والتهديد؛ لكن الإضراب عن الطعام أطلق عنان قوى مكبوتة من زمن طويل. تاهبت بوليفيا بأسرها وكشفت عن أسنانها. وبعد عشرة أيام، لم

يكن المضربون أربع نساء وأربعة عشر طفلاً؛ فقد بدأ ألف وأربعمائة عامل وطالب الإضراب عن الطعام. أحست الدكتاتورية أن الأرض تنشقّ تحت أقدامها. فأصدرت العفو العام.

كذلك عبر بلدان من بلدان الانديز السود بينهما فيما بين ١٩٧٧ و١٩٧٨. وإلى الشمال، في الكاريبي، كانت بنما تنتظر تحقيق الوعد بإنهاء الوضع الاستعماري للقناة، في ختام مفاوضات شاقة مع الحكومة الجديدة للولايات المتحدة. وفي كوبا، كان الشعب في عيد: كانت الثورة الاشتراكية تحتفل، وهي سليمة لم تمس، بأول تسعة عشر عاماً من حياتها. وبعد أيام قلائل، في نيكاراجوا، إندفعت الجماهير إلى الشوارع غاضبة. وأخذت الدكتاتور سوموثا، إبن الدكتاتور سوموثا، يتلصص من ثقب المفتاح. وأشعل الغضب الشعبي عدة شركات. وكانت إحداها، وتسمى بلازمافيرسيس Plasmaférsis، متخصصة في مص الدماء. كانت بلازمافيرسيس، التي أكلتها النيران في أوائل عام ١٩٧٨، مملوكة لمنفيين كوبيين ومكرّسة لبيع الدم النيكاراجوي إلى الولايات المتحدة. (في تجارة الدم، مثلما في كل ما عداها، لايتلقى المنتجون سوى البقشيش فشركة هيمو كاريبيان Hemo Caribbean، مثلاً، تدفع للهايتيين ثلاثة دولارات مقابل كل لتر تعيد بيعه بخمسة وعشرين دولاراً في سوق الولايات المتحدة).

٧. في أغسطس عام ٧٦، نشر أورلاندو ليتلير Orlando Letelier مقالاً يعلن فيه أن رعب دكتاتورية بينوشيه و"الحرية الاقتصادية" لمجموعات القلة المتميزة هما وجهان لعملة واحدة[٢]. كان ليتلير، الذي كان وزيراً في حكومة سلبادور الليندي، منفياً في الولايات المتحدة. وبعد وقت قصير تطاير أشلاءً هناك[٣]. في مقاله، أصر على أنه من العبث الحديث عن منافسة حرة في إقتصاد مثل إقتصاد تشيلي، خاضع للإحتكارات التي تتلاعب بالأسعار كما يحلو لها، وأن من المضحك ذكر حقوق العمال في بلدٍ تحرّم فيها القوانين النقابات الأصيلة وتحدّد فيها الأسعار مراسيم الطغمة العسكرية. ووصف ليتلير التفكيك الشامل للمنجزات التي حققها الشعب التشيلي خلال حكومة الوحدة الشعبية. فمن بين الاحتكارات والاحتكارات الأوليجاركية الصناعية التي أمّمها سلبادور الليندي، أعادت الدكتاتورية النصف إلى الملاك القدامى وباعت النصف الآخر. اشترت شركة فايرستون Firestone الشركة القومية للإطارات؛ واشترت بارسونز آندهويتمور Parsons & Whittemore شركة كبيرة للبّ الورق ... قال ليتلير، أن الاقتصاد التشيلي

www.ibtesama.com/vb

الآن أكثر تركُّزاً وإحتكاراً منه عشية حكومة الليندي[٤].

أعمال حرّة أكثر من أي وقت مضى، وبشر سجناء أكثر من أي وقت مضى: في أمريكا اللاتينية، نجد أن حرية الشركات لاتتماشى مع الحريات العامة.

حرية السوق؟ منذ أوائل عام ١٩٧٥، فإن سعر اللبن حر، في تشيلي. ولم تتأخر العواقب في الظهور. تسيطر شركتان على السوق. وارتفع سعر اللبن على الفور، بالنسبة للمستهلكين، بنسبة أربعين في المائة، بينما إنخفض السعر بالنسبة للمنتجين بنسبة ٢٢ في المائة.

أما وفيّات الأطفال، التي كانت قد إنخفضت بدرجة كبيرة في ظل حكومة الوحدة الشعبية، فقد تزايدت بصورة درامية بدءاً من حكم بينوشيه. وحين إغتيل ليتلير في أحد شوارع واشنطن، كان ربع سكان تشيلي لايتلقّون أي دخل على الاطلاق ويبقون على قيد الحياة بفضل إحسان الآخرين أو بفضل عنادهم وسرقتهم هم أنفسهم.

إن الهوّة التي تنفتح في أمريكا اللاتينية بين رفاهية القلة وشقاء الأكثرية تفوق بما لايقاس مثيلتها في أوربا أو في الولايات المتحدة. ومن ثم، فإن الوسائل الضرورية للحفاظ على هذه المسافة أشد وحشية بكثير. ففي البرازيل جيش ضخم وجيد التجهيز، لكن البرازيل تخصص لنفقات التعليم خمسة بالمائة من الميزانية القومية. وفي أورجواي، تمتص القوات المسلحة والشرطة الآن نصف الميزانية: وخُمس السكان مهمتها مراقبة، وتَعَقُّب، أو معاقبة الآخرين.

دون شك، فإن أحد أهم أحداث هذه السنوات من عقد السبعينات في بلادنا، كان مأساة: كان هو التمرد العسكري الذي أطاح بالحكومة الديمقراطية لسلبادور الليندي يوم ١١ سبتمبر عام ١٩٧٣، وأغرق تشيلي في حمام دمٍ.

وقبلها بقليل، في يونيو، حل انقلاب في أورجواي البرلمان، وأخرج من نطاق القانون كل النقابات وحظر كل النشاط السياسي[٥].

وفي مارس عام ١٩٧٦، عاد الجنرالات الأرجنتينيون إلى السلطة: إنهارت حكومة أرملة خوان دومينجو بيرون، التي كانت قد تعفنت، دون مجد أو جهد.

واليوم، فإن بلدان الجنوب الثلاثة هي قرحة في جسد العالم، هي نبأ سيئ متصل. تحولت التعذيبات، والاختطافات، والاغتيالات، والنفي إلى عادات يومية. هذه الدكتاتوريات، هل هي أورام يجب استئصالها من أجهزة عضوية صحيحة أم هي

www.ibtesama.com/vb

الصديد الذي يشي بتلوث النسق؟

أعتقد أنه توجد، على الدوام، علاقة وثيقة بين كثافة الخطر وبين وحشية الاستجابات. ولايمكن، على ما أعتقد، فهم مايجري اليوم في البرازيل وفي بوليفيا دون أن نضع في الاعتبار تجربة أنظمة جواو جولارت وخوان خوسيه تورّيس. فقبل سقوطهما، طبقت هاتان الحكومتان سلسلة من الإصلاحات الإجتماعية وطوّرتا سياسة إقتصادية وطنية، على طول عملية قُطعت في البرازيل عام ١٩٦٤ وفي بوليفيا عام ١٩٧١. وبنفس الطريقة، يمكن القول بأن تشيلي، والأرجنتين، والأورجواي تكلّ الآن من خطيئة الأمل. فثورة التحولات العميقة خلال حكومة الليندي، ورايات العدالة التي استثارت الجماهير العمالية الأرجنتينية وخفقت عالياً خلال الفترة القصيرة لحكم إكتوركامبورا Héctor Cámpora عام ١٩٧٣ و التسييس المتسارع لشبيبة أورجواي، كانت كلها تحديات لم يكن باستطاعة نظام عاجز في أزمة أن يتحملها. كان أوكسجين الحرية العنيف قاتلاً بالنسبة للأشباح فتم إستدعاء الحرس البريتوري لإنقاذ النظام. إن خطة التطهير هي خطة إبادة.

٨ـ عادةً ما تسجل محاضر جلسات كونجرس الولايات المتحدة شهادات لايمكن دحضدها حول التدخّلات في أمريكا اللاتينية. فالضمائر التي يعضّها الإحساس بالذنب، تحقق تطهّرها في سجلات اعترافات الامبراطورية. وخلال الفترة الأخيرة، على سبيل المثال، تضاعفت الإقرارات الرسمية بمسئولية الولايات المتحدة عن عدة كوارث. فقد أثبتت اعترافات علنية مسهبة، بين ما أثبتته، أن حكومة الولايات المتحدة قد شاركت بشكل مباشر، من خلال الرشوة، والتجسس، والابتزاز، في السياسة التشيلية. وفي واشنطن خُطّطت إستراتيجية الجريمة. فمنذ عام ١٩٧٠، أعد كيسنجر وإدارات المعلومات بعناية إسقاط الليندي. وتم توزيع ملايين الدولارات على أعداء الحكومة الشرعية للوحدة الشعبية. وهكذا، مثلاً، تمكن أصحاب عربات النقل من مواصلة إضرابهم الطويل، وتمكنوا، عام ١٩٧٣، من شل جزء كبير من إقتصاد البلاد. إن التفكك من الإفلات من العقاب يفك عقدة الألسنة. وفي وقت الإنقلاب ضد جولارت، كانت سفارة الولايات المتحدة في البرازيل هي أكبر سفاراتها في العالم. وقد اعترف لنيكولن جوردون Lincoln Gordon، الذي كان سفيراً، أمام أحد الصحفيين بعد ثلاثة عشر عاماً، بأن حكومته كانت، قبل الإنقلاب بزمن، تموّل القوى المعارضة للإصلاحات. قال

www.ibtesama.com/vb

جوردون:

"بالشياطين، كان ذلك عادةً، بدرجة أو بأخرى، في تلك الفترة .... فقد كان من عادة وكالة المخابرات المركزية أن تحصل على أرصدة سياسية"(٦). وفي نفس الحديث، أوضح جوردون أن البنتاجون قد أرسل في أيام الإنقلاب حاملة طائرات ضخمة وأربع مدمّرات تجاه سواحل البرازيل "قريما طلبت القوى المناهضة لجولارت عوننا". هذا العون، كما قال، "لن يكون معنوياً. بل سوف نعطي مساندة بالإمدادات وبالمؤن، والذخائر، والبترول".

ومنذ استهل الرئيس جيمي كارتر سياسة حقوق الإنسان، أصبح من المألوف أن تصدر الأنظمة الأمريكية اللاتينية المفروضة بفضل التدخل الأمريكي الشمالي، أن تصدر بيانات ملتهبة ضد التدخل الأمريكي الشمالي في شئونها الداخلية.

وقد قرر كونجرس الولايات المتحدة، عامي ١٩٧٦ و١٩٧٧، وقف المعونة الاقتصادية والعسكرية لعدة بلدان. إلاّ أن الجزء الأكبر من المساعدات الخارجية للولايات المتحدة لايمر من خلال مصفاة الكونجرس. وهكذا، ورغم البيانات والقرارات والاحتجاجات، تلقى نظام الجنرال بينوشيه، خلال عام ١٩٧٦، مبلغ ٢٩٠ مليون دولار من المساعدة المباشرة من الولايات المتحدة دون ترخيص من الكونجرس. وحين أتمت دكتاتورية الجنرال بيديلا في الارجنتين عامها الأول، كانت قد تلقت خمسمائة مليون دولار من بنوك أمريكية شمالية خاصة و٤١٥ مليوناً من مؤسستين (هما البنك الدولي وبنك التنمية الدولي) تتمتع فيهما الولايات المتحدة بنفوذ حاسم. أما حقوق السحب الخاصة للأرجنتين من صندوق النقد الدولي، والتي كانت ٦٤ مليون دولار عام ١٩٧٥، فقد إرتفعت إلى سبعمائة مليون بعد عامين.

يبدو قلق الرئيس كارتر بشأن المذبحة التي تعاني منها بعض البلدان الأمريكية اللاتينية أمراً جديراً بالترحيب، لكن الدكتاتوريين الحاليين لم يعلّموا أنفسهم: فقد تعلموا أساليب القمع وفن الحكم على مناهج البنتاجون في الولايات المتحدة وفي منطقة قناة بنما. وهذه المناهج مستمرة في أيامنا ولم تتغيّر، وليكن هذا معلوماً، محتواها قدر أنملة. والعسكريون الأمريكيون اللاتين الذين يشكلون أسباباً للفضيحة بالنسبة للولايات المتحدة اليوم، كانوا تلاميذاً جيدين. ومنذ بضع سنوات، حين كان روبرت مكنمارا Robert McNamara، الرئيس الحالي للبنك الدولي، وزيراً للدفاع، أعلنها بوضوح: "أنهم الزعماء الجدد. ولست بحاجة إلى الإسهاب في شرح قيمة أن يكون في مواقع القيادة رجال قد

www.ibtesama.com/vb

عرفوا مسبقاً من قرب كيف نفكر نحن الأمريكيين ونصنع الأشياء. إن صداقتنا مع هؤلاء الرجال لاتقدر بثمن[٧]. هل يستطيع من جعلونا مشلولين أن يقدموا لنا الكرسي ذا العجلات؟

٩- يتحدث أساقفة فرنسا عن نوع آخر من المسئولية، أشد عمقاً، وأقل وضوحاً[٨]: "إننا، نحن الذين ننتمي إلى الأمم التي تزعم أنها أكثر الأمم تقدماً في العالم، نشكل جزءاً من المستفيدين من استغلال البلدان النامية. ولانرى المعاناة التي يسببها ذلك في جسد وروح شعوب بأكملها. إننا نسهم في تدعيم إنقسام العالم الحالي، الذي يبرز فيه إخضاع الفقراء من جانب الأغنياء، والضعفاء من جانب الأقوياء. هل نعرف أن تهديدنا للموارد والمواد الأولية لن يكون ممكناً بدون السيطرة على التبادل التجاري من جانب البلدان الغربية؟ ألا نرى من الذي يستفيد من تجارة الأسلحة، التي ضربت فيها بلادنا أمثلة محزنة؟ هل ندرك، يا ترى، أن عسكرة أنظمة الدول الفقيرة هي إحدى عواقب السيطرة الاقتصادية والثقافية التي تمارسها الدول الصناعية، التي يحكم الحياة فيها السعي إلى المكاسب وسلطات المال؟".

دكتاتوراته، وجلادون، ومحللون: الرعب له موظفون، مثل البريد والبنوك. ويُطبَّق لأنه ضروري، وليس الأمر أمر مؤامرة المنحرفين. يمكن الجنرال بينوشيه أن يشبه إحدى شخصيات الرسوم السوداء لجويا، أو أن يمثل وليمة يسعد بها المحللون النفسيون، أو أن يبدو وريثاً لأحد التقاليد المرعبة لجمهوريات الموز. لكن السمات الإكلينيكية أو الفولكلورية لهذا الدكتاتور أو ذاك، والتي تفيد في إضافة التوابل إلى التاريخ، ليست هي التاريخ. من يجرؤ اليوم على تأكيد أن الحرب العالمية الأولى إندلعت بسبب عُقد القيصر غليوم، الذي كان أحد ذراعيه أطول من الآخر؟ "في البلدان الديمقراطية لايتكشف طابع العنف الكامن في الاقتصاد؛ وفي البلدان التسلطية، يحدث نفس الشئ بالنسبة للطابع الاقتصادي للعنف". هكذا كتب برتولت بريخت، في أواخر عام ١٩٤٠، في يوميات العمل.

في بلدان جنوبي امريكا اللاتينية، إحتل القواد العسكريون السلطة بسبب إحتياج النظام ويُطبّق إرهاب الدولة حين لاتعود الطبقات المسيطرة قادرة على إنجاز أعمالها بوسائل أخرى. في بلادنا لم يكن التعذيب ليوجد لو لم يكن فعالاً؛ وكان يمكن للديمقراطية الشكلية أن تستمر لو أمكن ضمان أنها لن

www.ibtesama.com/vb

تقلت من سيطرة أصحاب السلطة. وفي الأوقات الصعبة، تتحول الديمقراطية إلى جريمة ضد الأمن القومي - أو بالأحرى، ضد أمن الامتيازات الداخلية والاستثمارات الأجنبية. إن الاثنا لقرم اللحم البشري تتضمن صندوق تروس دولية. يصبغ الطابع العسكري المجتمع بأسره، وتصبح حالة الطوارئ حالة دائمة ويصبح جهاز القمع مهيمناً نتيجة ضغط على الأزرار في مراكز النظام الامبريالي. حين يخيّم شبح الأزمة، يصبح من الضروري مضاعفة نهب البلدان الفقيرة من أجل ضمان التشغيل الكامل لقوة العمل، والحريات العامة، ومعدلات النمو العالية في البلدان الغنية. إن علاقات الضحية والجلاد، هي جدل شرير: ثمة بنية من الإذلال المتّصل تبدأ في الأسواق الدولية وفي المراكز المصرفية وتنتهي في منزل كل مواطن.

١٠• هايتي هي أفقر بلدان نصف الكرة الغربي. وفيها حاسرو الأقدام أكثر من ماسحي الأحذية: وحاسرو الأقدام هم أطفال يغسلون، لقاء قطعة عملة أقدام الزبائن الحفاة، الذين ليس لديهم أحذية يلمّعونها. ومتوسط عمر الهايتيين أكثر قليلاً من ثلاثين سنة. وتسعة من كل عشرة هايتيين لايعرفون القراءة أو الكتابة. ومن أجل الاستهلاك الداخلي، يزرعون حواف الجبال القاحلة، ومن أجل التصدير، يزرعون السهول الخصبة: أفضل الأراضي تخصّص للبن، والسكر، والكاكاو والمنتجات الأخرى التي تتطلبها السوق الأمريكية الشمالية. وليس هناك من يلعب البيسبول في هايتي، لكن هايتي هي المنتج العالمي الأول لكرات البيسبول. وفي البلاد مصانعُ يعمل فيها الأطفال مقابل دولار واحد في اليوم في تركيب أجهزة الكاسيت والقطع الإلكترونية. وهي، بالطبع، منتجات للتصدير؛ وبالطبع، تصدّر الأرباح أيضاً، بعد خصم نصيب من ينشرون الرعب. إن أقل إشارة إحتجاج تتضمن، في هايتي، السجن أو الموت. ورغم ضآلة مايبدو ذلك فإن أجور العمال الهايتيين قد فقدت، فيما بين عام ١٩٧١ و ١٩٧٥، ربع قيمتها الفعلية البالغة الإنخفاض[٩]. ومما له دلالة كبيرة، إنه خلال تلك الفترة دخل إلى البلاد فيض من رؤوس الأموال الأمريكية الشمالية.

أتذكر مقالة إفتتاحية في إحدى صحف بوينوس آيرس، نشرت منذ عامين. كانت صحيفة عتيقة محافظة تزيد غضباً لأن الأرجنتين ظهرت في إحدى الوثائق الدولية بإعتبارها بلداً متخلفاً وتابعاً. كيف يمكن لمجتمع راق، أوربي، مزدهر، وأبيض أن يقاس بنفس معيار بلد فقير وزنجي مثل هايتي؟

www.ibtesama.com/vb

والفروق شاسعة، بلاشك - رغم أنها ضعيفة الصلة بمقولات تحليل الأوليجاركية المتغطرسة في بوينوس ايرس. لكن، برغم كل التنويعات والتناقضات مهما كانت، فإن الأرجنتين ليست بمأمن من الحلقة الشريرة التي تخنق الاقتصاد الأمريكي اللاتيني في مجمله وما من جهد تهنى لطرد الأشباح يمكن أن يخرجها من الواقع الذي تشارك فيه بقية بلدان الإقليم، بدرجة تزيد أو تنقص.

وفي نهاية الأمر، فإن مذابح الجنرال بيديلا ليست أكثر تحضرًا من مذابح بابا دوك دوفالييه Papa Doc Duvalier أو وريثه على العرش، رغم أن القمع في الأرجنتين، قد يتمتع بمستوى تكنولوجي أرفع، وبصدد ماهو جوهري، فإن كلتا الدكتاتوريتين تعملان في خدمة نفس الهدف: تقديم أذرع رخيصة لسوق دولية تتطلب منتجات رخيصة.

فور وصولها إلى السلطة، سارعت دكتاتورية بيديلا بمنع الإضرابات وأطلقت حرية الأسعار في نفس الوقت الذي سجنت فيه الأجور. وبعد خمسة أشهر من الانقلاب، فرض القانون الجديد للإستثمارات الأجنبية المساواة في الشروط بين الشركات الأجنبية والشركات القومية. وعلى هذا النحو، أنهت المنافسة الحرة الوضع الجائر الذي كانت بعض الشركات العابرة للقوميات تجد نفسها فيه مقابل الشركات المحلية. ومنها، شركة جنرال موتورز المسكينة، التي يساوي حجم مبيعاتها الدولية ما لايقل عن صافي الناتج القومي للأرجنتين بأكملها. كذلك فإن إعادة سحب الأرباح إلى الخارج واستعادة رأس المال المستثمر أمران حران، مع قيود هشة.

وحين أتمَّ النظام عامه الأول، كانت القيمة الفعلية للأجور قد إنخفضت إلى أربعين بالمائة. وتحققت المهمة بالإرهاب. "خمسة عشر ألف مفقود (مُختفٍ)، وعشرة آلاف سجين، وأربعة آلاف قتيل، وعشرات الآلاف من المنفيين هم الرقم العاري لذلك الإرهاب". هكذا شجب الكاتب رودولفو والش Rodolfo Walsh في خطاب مفتوح. وقد أرسل الخطاب يوم ٢٩ مارس عام ١٩٧٧ إلى الأعضاء الثلاثة في العصبة الحاكمة. وفي نفس اليوم، إختُطف والش وإختفى.

١١- تؤكد مصادر لاتقبل الشك أن جزءاً تافها من الاستثمارات الأجنبية المباشرة الجديدة في أمريكا اللاتينية يأتي فعلاً من بلد المنبع. فوفق إستقصاء نشرته وزارة التجارة بالولايات المتحدة(١٠)، يأتي اثني عشر بالمائة بالكاد من الأموال من المقار الرئيسية للشركات في الولايات المتحدة، وتمثل نسبة ٢٢ بالمائة الأرباح المتحصلة في

www.ibtesama.com/vb

امريكا اللاتينية وتأتي نسبة الـ ٦٦ بالمائة الباقية من مصادر الإقراض الداخلي، وبالدرجة الأولى، الإقراض الدولي. والنسبة متماثلة بالنسبة للإستثمارات ذات المصدر الأوربي أو اليباباني؛ ولابد أن نضع في الإعتبار أن هذه الإثنى عشر بالمائة من الاستثمار التي تأتي من الفروع الرئيسية عادةً ما تكون نتيجة نقل آلات مستعملة وتعكس ببساطة السعر التعسفي الذي تفرضه الشركات ثمناً لخبرتها الفنية الصناعية، وللماركات المسجلة، والتراخيص. إن الشركات العابرة للقوميات، إذن، لاتغتصب فحسب الإئتمان الداخلي للبلدان التي تعمل بها، مقابل إسهام رأسمالي قابل للجدل بدرجة كبيرة، بل إنها كذلك تضاعف لهذه البلدان دينها الخارجي.

وقد كان الدين الخارجي لأمريكا اللاتينية، عام ١٩٧٥، زهاء ثلاثة أضعاف هذا الدين عام ١٩٦٩[١١]. وخصصت البرازيل والمكسيك، وتشيلي، وأورجواي، عام ١٩٧٥، نحو نصف دخول التصدير لدفع أقساط وفوائد الدين ولدفع ارباح الشركات الأجنبية العاملة في تلك البلدان. وابتلعت خدمة الدين، ودفعات الفوائد في ذلك العام نسبة ٥٥ بالمائة من صادرات بتما و ٦٠ بالمائة من صادرات البيرو[١٢]. وفي عام ١٩٦٩، كان كل مواطن في بوليفيا مديناً بمبلغ ١٣٧ دولاراً للخارج. وفي عام ١٩٧٧، أصبح كل مواطن مديناً بمبلغ ٤٨٢ دولاراً. لم تتم إستشارة مواطني بوليفيا ولا رأوا سنتيماً واحداً من تلك القروض، التي وضعت رقابهم في المشنقة.

لايظهر سيتي بانك كمرشّح على أي قائمة، في البلدان الأمريكية اللاتينية القليلة التي مازالت تجري فيها إنتخابات؛ ولايحمل أي واحد من الجنرالات الذين يمارسون الدكتاتورية إسم صندوق النقد الدولي. لكن، أيّ يد تُنفّذ وأيّ ضمير هو الذي يأمر؟ من يُقرِّر، يأمر. في سبيل الدفع، يجب تصدير المزيد، ويجب تصدير المزيد لتمويل الواردات ولمواجهة نزيف الأرباح ورسوم التراخيص التي تستنزفها الشركات الأجنبية إلى فروعها الرئيسية، وزيادة الصادرات، التي تتناقص قدرتها الشرائية، يتضمن دفع أجور تجويع، والجوع الشامل، مفتاح النجاح لإقتصاد موجّه إلى الخارج، يمنع نمو سوق الاستهلاك الداخلية إلى الحد المطلوب لإتاحة تنمية داخلية متجانسة. تتحول بلداننا إلى إصداء وتأخذ في فقدان صوتها الخاص، لأنها تعتمد على الآخرين، وتوجد بقدر ماتكون إستجابة لإحتياجات الآخرين. وإعادة ترتيب الإقتصاد حسب الطلب الخارجي، بدوره، يعيدنا إلى الإختناق الأصلي: لأنه يفتح الأبواب أمام نهب الإحتكارات الأجنبية

www.ibtesama.com/vb

ويجبر على طلب قروض جديدة أكبر من البنوك الدولية. إن الحلقة الشريرة مغلقة: فالدين الخارجي والإستثمار الأجنبي يجبران على مضاعفة الصادرات التي يلتهمانها بدورهما. ولايمكن إنجاز المهمة إلا بحسن السلوك. وحتى يقوم العمال الأمريكيون اللاتين بوظيفتهم كرهائن لرفاهية الآخرين، عليهم أن يظلوا سجناء ـ داخل أو خارج قضبان السجن.

١٢. لايتعارض الإستغلال الوحشي للأيدي العاملة مع التكنولوجيا الكثيفة، ولم يتعارض أبداً، في بلداننا: وعلى سبيل المثال فإن أفواج العمال البوليفيين الذين تركوا رئاتهم في مناجم أورورو في زمن سيمون باتينيو كانوا يعملون بنظام عبودية مأجورة لكن بآلات حديثة جداً. فقد عرف بارون القصدير كيف يجمع بين أعلى مستويات التكنولوجيا في عصره وبين أدنى مستويات الأجور[١٣].

وفي أيامنا، علاوة على ذلك، يتطابق استيراد التكنولوجيا من الاقتصاديات المتقدمة مع عملية نزع ملكية الشركات الصناعية ذات رأس المال المحلي من جانب الشركات العابرة للقوميات القادرة على كل شئ. وتتحقق حركة تركيز رأس المال من خلال "تصفية لاترحم المستويات الصناعية العتيقة، والتي ليس من قبيل الصدفة أن تكون هي بالضبط تلك التابعة للملكية القومية"[١٤]. إن نزع القومية المتسارع عن الصناعة الأمريكية اللاتينية يجلب معه تبعية تكنولوجية متزايدة. فالتكنولوجيا، المفتاح الحاسم للسلطة، محتكرة، في العالم الرأسمالي، من جانب المراكز المتروبوليتانية. وتأتي التكنولوجيا مستعملة، لكن تلك المراكز تتقاضى ثمن النسخ وكأنها صور أصلية. وفي عام ١٩٧٠، دفعت المكسيك ضعف ما دفعته عام ١٩٦٨ مقابل استيراد تكنولوجيا أجنبية. وبين عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٩، ضاعفت البرازيل مدفوعاتها: وحدث نفس الشيء في نفس الفترة مع الأرجنتين.

إن نقل التكنولوجيا يزيد الديون المتضخمة للخارج وله عواقب مدمِّرة على سوق العمل. ففي نظام يقوم على أساس استنزاف الأرباح إلى الخارج، تأخذ الأيدي العاملة في الشركة "التقليدية" فرص عملها. ومقابل دافع ديناميكي مشكوك فيه لبقية الاقتصاد، تشمي جزر الصناعة الحديثة بالأيدي العاملة بتخفيض وقت العمل اللازم للإنتاج. ووجود جيش جرار ومتزايد من العاطلين يسهل، بدوره، إغتيال القيمة الفعلية للأجور.

www.ibtesama.com/vb

١٣• الآن، تتحدث حتى وثائق اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية عن إعادة تقسيم دولية للعمل. يخالج الأمل التقنيين في أن أمريكا اللاتينية ربما استطاعت، بعد بضع سنوات، تصدير مصنوعات بنفس القدر الذي تبيع به الآن المواد الأولية والأغذية للخارج، "إن فروق الأجور بين الدول المتطورة والدول النامية - بما في ذلك دول أمريكا اللاتينية - يمكن أن تحفز تقسيماً جديداً للأنشطة بين البلدان وتزيح، بسبب المنافسة، الصناعات التي تكون فيها تكلفة العمل بالغة الأهمية، من البلدان الأولى إلى الثانية. فتكاليف اليد العاملة اللازمة للصناعة المانيفاكتورية، مثلاً، هي على وجه العموم أقل في المكسيك أو البرازيل عنها في الولايات المتحدة"[١٥].

هل هذا دافع التقدم أم مغامرة كولونيالية جديدة؟ إن الآلات الكهربائية وغير الكهربائية تظهر فعلاً بين منتجات التصدير الأساسية للمكسيك، وفي البرازيل، تنمو مبيعات السيارات والأسلحة للخارج، وتعيش بعض البلدان الأمريكية اللاتينية مرحلة جديدة من التصنيع، تدفعها وتوجهها بدرجة كبيرة الاحتياجات الأجنبية والملاك الأجانب لوسائل الإنتاج. ألن يكون هذا فصلاً جديداً يضاف إلى تاريخنا الطويل من "النمو باتجاه الخارج"؟ في الأسواق الدولية، لاتعود الأسعار التي ترتفع بإستمرار أساساً إلى "المنتجات المصنعة"، بل إلى السلع الأكثر تطوراً وذات المركّب التكنولوجي، والتي هي حكر على الإقتصاديات الأشد تطوراً. **إن الناتج الأساسي للتصدير في أمريكا اللاتينية، مهما باعت من موادا أولية ومصنّعة، هو الأيدي العاملة الرخيصة.**

ألم تكن تجربتنا تجربة تاريخية متصلة من التمزيق والتفكك مقدّمة بقناع النمو؟ قبل قرون، حرق الفتح الأراضي حتى يزرع زراعات تصدير وأباد التجمعات الهندية في أنفاق المناجم وفي مصافي الذهب من أجل تلبية الطلب على الفضة والذهب فيما وراء البحار. أما تغذية السكان السابقين على كولومبس والذين استطاعوا البقاء بعد الإبادة فقد تدهورت مع التقدم الأجنبي. وفي أيامنا، ينتج شعب البيرو دقيق سمك، غني جداً بالبروتينات، من أجل أبقار الولايات المتحدة وأوربا، لكن البروتينات غائبة عن طعام أغلبية البيروانيين، وفرع فولكس فاجن في سويسرا يزرع شجرة مقابل كل سيارة يبيعها، مراعاةً للبيئة، وفي نفس الوقت يحرق فرع فولكس فاجن في البرازيل مئات الهكتارات من الغابات التي سيخصصها للإنتاج الكثيف من اللحوم للتصدير. وتزداد بإطراد مبيعات شعب البرازيل من اللحم للخارج - وهذا الشعب نادراً ما يأكل اللحم.

www.ibtesama.com/vb

ومنذ زمن ليس ببعيد، قال لي دارسي ريبيرو، في حوار، أن جمهورية لفولكس فاجن لاتختلف، من الناحية الجوهرية، عن جمهورية موز. ومن كل دولار ينتجه تصدير الموز، يبقى في البلد المنتج بالكاد أحد عشر سنتيما[١٦]، ومن هذه السنتيمات الأحد عشر، يمثل جزء لاينكر نصيب عمال المزارع. فهل تتغير النسب إذا صدَّر بلد أمريكي لاتيني السيارات؟

لم تعد سفن تجارة العبيد تعبر المحيط. الآن يعمل تجار العبيد من وزارة العمل. أجور افريقية، وأسعار أوربية. ماذا تكون الإنقلابات، في أمريكا اللاتينية، سوى فصول متتابعة من حرب سرقة؟ وعلى الفور تدعوا الدكتاتوريات الظافرة الشركات الأجنبية إلى إستغلال الأيدي العاملة المحلية، الرخيصة والمتوفِّرة، والقروض غير المحدودة، والإعفاءات الضريبية، والموارد الطبيعية الموجودة في متناول اليد.

١٤- يتقاضى مستخدمو خطة طوارئ الحكومة التشيلية أجوراً تعادل ثلاثين دولاراً شهرياً. وثمن كيلو الخبز نصف دولار. وهكذا، فإنهم ينالون كيلوجرامين من الخبز يومياً. أما الحد الأدنى للأجور في أورجواي والأرجنتين فيعادل حالياً ثمن ستة كيلو جرامات من البن. ويصل الحد الأدنى للأجور في البرازيل إلى ستين دولاراً في الشهر، لكن العوامات الباردة boias frias، أي عمال التراحيل الزراعيين، يتقاضون بين خمسين سنتاً ودولار واحد في اليوم بالعمل في مزارع البن، والصويا، وغيرهما من محاصيل التصدير. والعلف الذي تأكله أبقار المكسيك يحتوي على بروتين أكثر مما يحتوي طعام الفلاحين الذين يرعونها. ولحم هذه الأبقار يذهب إلى أفواه قليلة محظوظة داخل البلاد وإلى السوق الدولية بالدرجة الأولى. وفي حماية سياسة سخية للقروض والتسهيلات الرسمية، تزدهر في المكسيك زراعة التصدير، بينما إنخفضت، بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧٦ كمية البروتينات المتاحة لكل مواطن وفي المناطق الريفية تجد أن واحداً فقط من كل خمسة أطفال مكسيكيين يتمتع بوزن وقامة عاديين[١٧]. وفي جواتيمالا، يترك الأرز، والذرة، والفاصوليا الموجَّهون للإستهلاك الداخلي لمشيئة الرب، لكن البن، والقطن وغيرهما من منتجات التصدير تحتكر ٨٧ بالمائة من القروض. ومن بين كل عشرة عائلات جواتيمالية تعمل في زراعة وحصد البن، المصدر الرئيسي للعملات الأجنبية للبلاد، تتغذى واحدة بالكاد وفق مستويات الحد الأدنى التغذية[١٨]. وفي البرازيل، تتجه خمسة بالمائة فقط من الإقراض الزراعي إلى الأرز، والفاصوليا، والمنيهوت – التي

www.ibtesama.com/vb

تشكل الغذاء الرئيسي للبرازيليين، ويتجه الباقي إلى منتجات التصدير.

إن التدهور الأخير في السعر العالمي للسكر لم يبعث، مثلما حدث من قبل، موجة من الجوع بين فلاّحي كوبا. وفي كوبا لم يعد هناك وجود لسوء التغذية. وعلى العكس، فإن الارتفاع المتزامن مع ذلك تقريباً في السعر العالمي للبن لم يخفف في شيء من البؤس المزمن لعمال مزارع البن البرازيلية. إن ارتفاع أسعار البن عام ١٩٧٦ – وهو البهجة العارضة التي أثارتها موجات الصقيع التي اجتاحت المحاصيل البرازيلية – "لم ينعكس مباشرة" في الأجور"، حسب ما اعترف أحد كبار المديرين في المعهد البرازيلي للبن(١٩).

وفي الواقع، فإن زراعات التصدير ليست، في ذاتها، غير متمشّية مع رفاهية السكان ولاتتناقض، في ذاتها، مع التنمية الاقتصادية "باتجاه الداخل". ففي نهاية الأمر، أقامت مبيعات السكر الخارج، في كوبا، كمنطلق لخلق عالم جديد يصل فيه الجميع إلى ثمار التنمية وتكون فيه روح التضامن هي عصب العلاقات الإنسانية.

١٥- أصبح معروفاً من هم المحكوم عليهم بدفع ثمن أزمات إعادة تعديل النظام. إن أسعار غالبية المنتجات التي تبيعها أمريكا اللاتينية تنخفض بصورة لا ترحم بالنسبة لأسعار المنتجات التي تشتريها من البلدان التي تحتكر التكنولوجيا، والتجارة، والاستثمار، والقروض. ومن أجل موازنة الفرق، ومواجهة الإلتزامات تجاه رأس المال الأجنبي، فإن من الضروري أن تتم التغطية بالكم لما يُفقد في السعر. وداخل هذا الإطار، فإن دكتاتوريات المخروط الجنوبي للقارة قد اقتطعت بمقدار النصف أجور العمال وحولت كل مركز إنتاجي إلى معسكر للأشغال الشاقة. كذلك فإن على العمال أن يعوّضوا إنخفاض قيمة قوة عملهم، التي هي الناتج الذي يبيعونه للسوق. والعمال مضطرون أن يغطوا بالكم، بكم ساعات العمل، ما يفقدونه في القدرة الشرائية للأجر. هكذا، يعاد إنتاج قوانين السوق الدولية في العالم المصغّر لحياة كل عامل أمريكي لاتيني. وبالنسبة للعمال الذين أسعدهم "الحظ" بالاعتماد على عمل ثابت، فإن يوم العمل ذي الثماني ساعات لايوجد سوى في الحروف الميتة للقوانين. فمن المألوف أن يعمل المرء عشر، أو إثني عشر، أو حتى أربع عشر ساعات، ويفقد أكثر من واحد إجازة يوم الأحد.

www.ibtesama.com/vb

وفي نفس الوقت، تضاعفت حوادث العمل، هذا الدم البشري المقدّم على مذبح الإنتاجية. وهاكم ثلاثة أمثلة من أواخر عام ١٩٧٧ في أورجواي:

– تضاعف محاجر السكك الحديدية، التي تنتج الأحجار والحصى، تضاعف الإنتاج. وفي بداية الربيع، يموت خمسة عشر عاملاً في إنفجار ديناميت.

– طوابير من العاطلين أمام شركة لإنتاج صواريخ الألعاب النارية. وأطفال عديدون يعملون في الإنتاج، ويسجلون أرقاماً قياسية. وفي يوم ٢٠ ديسمبر، يقع إنفجار: والحصيلة خمسة عمال موتى وعشرات من الجرحى.

– يوم ٢٨ ديسمبر، في السابعة صباحاً، يرفض العمال دخول مصنع لحفظ الأسماك لأنهم يشمون رائحة غاز قوية. يهدّدونهم: إذ لم يدخلوا فسوف يفقدون عملهم. يظلون على رفضهم. يهدّدونهم: سوف تستدعي الجنود. وكانت الشركة قد استدعت الجيش عدة مرات، بحظ العمال. والنتيجة أربعة موتى وعدد من المحتجزين في المستشفى. كان هناك تسرّب لغاز الأمونيوم[٢٠].

وفي هذه الأثناء، تعلن الدكتاتورية بفخر: باستطاعة الأورجوايين أن يشتروي أرخص من أي وقت مضى، الويسكي الإسكتلندي، والمربات الانجليزية، والجامبو الدنماركي، والنبيذ الفرنسي، وسمك التونة الأسباني، والبذلات التايوانية.

١٦• ولدت ماريّا كارولينا دي خيسوس María Carolina de Jesus وسط القمامة والطيور الجارحة.

كبرت، وماتت، وعملت بإجتهاد؛ أحبّت رجالاً، وأنجبت أبناءً. وفي كراسة صغيرة، كانت تسجل، بخط سيئ، عناءها وأيامها.

وقرأ صحفي، بالصدفة تلك الكراسات وتحولت ماريا كارولينا دي خيسوس إلى كاتبة مشهورة. فكتابها "بيت الراحة Quarto de despejo" أو "الفافيلا"*، وهو يوميات خمس سنوات من الحياة في ضاحية بائسة من ضواحي مدينة سان پاولو، قرئ في اربعين بلداً وترجم إلى ثلاث عشرة لغة.

خرجت من الفافيلا ماريا كارولينا دي خيسوس، سندريلا البرازيل، وناتج الاستهلاك العالمي، ولفّت العالم، وأجريت معها الأحاديث وجرى تصويرها، ونالت جوائز النقّاد، ورحب بها السادة واستقبلها الرؤساء.

* الفافيلا: هي عشش الصفيح التي تشكل مدن البؤس في ضواحي مدن البرازيل – م.

www.ibtesama.com/vb

ومرت الأعوام. وفي أوائل عام ١٩٧٧، ذات صباح باكر ليوم أحد، ماتت ماريا كارولينا دي خيسوس وسط القمامة والطيور الجارحة. لم يعد أحد يتذكر المرأة التي كتبت: "الجوع هو ديناميت الجسم الإنساني".

إنها، هي التي عاشت على الفضلات، استطاعت أن تكون متميزة، بصورة عابرة. سُمح لها بالجلوس على المائدة، وبعد تناول الحلوى إنتهى المهرجان. لكن، بينما استمر حلمها، واصلت البرازيل كونها بلداً يصبح فيه مائة عامل كل يوم جرحى نتيجة حوادث العمل وحيث يولد أربعة، من كل عشرة أطفال، وهم مضطرون لأن يتحولوا إلى متسولين، أو لصوص، أو سحرة.

مهما إيتسمت الإحصائيات، فإن البشر يكال لهم الشقاء. ففي نظم مرتبة بالمقلوب، حين ينمو الاقتصاد، ينمو معه الظلم الاجتماعي، وخلال أكثر فترات "المعجزة" البرازيلية نجاحاً، ارتفع معدل وفيات الأطفال في ضواحي أغنى مدن البلاد. والازدهار المفاجئ للبترول في إكوادور جلب التليفزيون الملون بدل المدارس والمستشفيات.

تظل المدن تتضخم حتى الانفجار. ففي عام ١٩٥٠، كان في أمريكا اللاتينية ست مدن يفوق تعداد سكانها المليون نسمة. وفي عام ١٩٨٠، سيكون بها خمس وعشرين مدينة من هذا الحجم[٢١]. وفيالق العمال الضخمة التي يلفظها الريف تشارك، على حواف المراكز الحضرية الضخمة، نفس المصير الذي يسّخره النظام للمواطنين الشباب "الراشدين". وتصل إلى حد الكمال، وبا السخرية الأمريكية اللاتينية، أشكال البقاء الباحثين عن لقمة العيش. "إن النظام الإنتاجي قد أظهر عدم كفاءة ملحوظة في خلق أعمال منتجة تمتص قوة العمل المتزايدة في الإقليم، وبالأخص الفيالق الضخمة من الأيدي العاملة في المدن.."[٢٢].

منذ وقت قريب، أظهرت دراسة لمنظمة العمل الدولية أن في أمريكا اللاتينية ١١٠ مليون شخص في ظروف فقر مدقع". ومن بين هؤلاء، هناك سبعون مليوناً يمكنهم اعتبار أنفسهم "معوزين"[٢٣]. ما هي نسبة السكان الذين يأكلون أقل من القدر الضروري؟ بلغة التقنيين، يتلقى "دخولا أقل من تكاليف التغذية الدنيا المتوازنة"، ٤٢ بالمائة من سكان البرازيل، و ٤٣٪ من الكولومبيين، و ٤٩٪ من الهندوراسيين، و٣١٪ من المكسيكيين، و ٤٥٪ من البيروانيين، و ٢٩٪ من التشيليين، و ٣٥٪ من الاكوادوريين[٢٤]

كيف يمكن خنق إنفجارات الثورة للأغلبيات الساحقة الشقية؟ كيف يمكن التنبؤ بهذه الانفجارات؟ وكيف يمكن تجنب تزايد هذه الأغلبيات باستمرار إذا كان النظام

www.ibtesama.com/vb

لايعمل من أجلها؟ إذا استبعدنا الإحسان، لايبقى سوى الشرطة.

١٧- في بلادنا، تدفع صناعة الرعب ثمناً عالياً، مثل أي مكان آخر، مقابل الخبرة الفنية الأجنبية. ويجري شراء وتطبيق تكنولوجيا القمع الأمريكية الشمالية، بدرجة كبيرة، تلك التكنولوجيا التي تُجرِّب في أركان الكوكب الأربعة. لكن سيكون من الجور عدم الاعتراف للطبقات الحاكمة الأمريكية اللاتينية بقدرة خلاقة معينة، في هذا المجال.

لم تكن برجوازياتنا قادرة على عمل تنمية اقتصادية مستقلة وكان لمحاولاتها لخلق صناعة قومية تحليق أشبه بتحليق الدجاج، أي تحليق قصير المدى ومنخفض، وعلى طول عمليتنا التاريخية، أعطى سادة السلطة، كذلك، براهين ضافية على إفتقارهم إلى الخيال السياسي وعلى عقمهم الثقافي، وبالمقابل، عرفوا كيف يقيمون آلة ضخمة للرعب وأضافوا إضافات خاصة إلى تقنية إبادة الأشخاص والأفكار. والتجربة الحديثة، بهذا المعنى، لبلدان الريودي لابلاتا، تجربة موحية.

إن مهمة التطهير ستستغرق منا وقتاً طويلاً، هكذا أعلن العسكريون الأرجنتينيون منذ البداية. وقد تم إستدعاء القوات المسلحة من جانب الطبقات المسيطرة في أورجواي والأرجنتين على التوالي لسحق قوى التغيير، وانتزاعها من جذورها، وتأبيد نظام الامتيازات الداخلي، وخلق ظروف اقتصادية وسياسية مغرية لرأس المال الأجنبي: أرض محروقة، بلد يسوده النظام، عمال نحيلون ورخيصون. ليس ثمة ما هو أكثر نظاماً من جبّانة. تحول السكان على الفور إلى العدو الداخلي. وكل بادرة حياة، أو احتجاج، أو مجرد شك، تمثل تحدياً خطيراً للأمن القومي من وجهة نظر النظام العسكري.

ومن ثم، تم تطوير آليات بالغة التعقيد للوقاية والعقاب.

وثمة عقلانية عميقة تختفي تحت المظاهر. فلكي يعمل القمع بكفاءة، يجب أن يبدو تعسفياً. وباستثناء التنفس، يمكن لكل نشاط إنساني أن يكون جناية. وفي أورجواي، يطبق التعذيب كنظام عادي للإستجواب: وكل فرد يمكن أن يكون ضحية له، وليس فقط المشتبه فيهم والمذنبين بارتكاب أفعال معارضة. على هذا النحو ينتشر الرعب من التعذيب بين كل المواطنين، مثل غاز يسبب الشلل يغزو كل منزل ويستقر في روح كل مواطن.

وفي تشيلي، كانت محصلة المذبحة ثلاثين ألف قتيل، لكن في الأرجنتين، لايتم الإعدام بالرصاص، بل يجري الإختطاف. والضحايا يختفون. وتنجز جيوش الليل

www.ibtesama.com/vb

الخفية هذه المهمة. ما من جثث، ولامسئولين. هكذا تتحقق المذبحة - الدائرة على قدم وساق دائماً، وغير الرسمية على الاطلاق - دون عقاب، وهكذا يُمحي بقوة أكبر الكرب الجماعي، فلا أحد يقدم حساباً، ولا أحد يقدم تفسيرات، وكل جريمة هي عدم يقين معذب بالنسبة للقريبين من الضحية وكذلك تحذيراً الآخرين جميعاً. إن إرهاب الدولة يطرح شلّ السكان عن طريق الخوف.

من أجل الحصول على عمل أو الحفاظ عليه، في أورجواي، لابد من الاعتماد على موافقة العسكريين. في بلدٍ من أصعب الأمور فيه الحصول على عمل خارج معسكرات الجيش ومراكز الشرطة، يفيد هذا الشرط فيما هو أكثر من مجرد دفع جزء كبير من الثلاثمائة ألف مواطن المسجلين بوصفهم يساريين إلى الخروج من البلاد. فهو مفيد كذلك في تهديد الباقين. وعادة ماتنشر صحف مونتفيديو بيانات وإعلانات توبة علنية لمواطنين يضربون صدورهم من باب الحيطة: "لم أكن أبداً، ولست الآن، ولن أكون ....".

وفي الأرجنتين، لم يعد من الضروري حظر أي كتاب بمرسوم. فقانون العقوبات الجديد يعاقب، مثلما هي الحال دوماً، كاتب وناشر الكتاب الذي يُعدّ تخريبياً. لكنه يعاقب أيضاً من يطبعه، حتى لايجرؤ أحد على طبع نص موضع شك ببساطة، كما يعاقب الموزّع وصاحب المكتبة، حتى لايجرؤ أحد على بيعه. كما يعاقب، وكأن كل ذلك قليل، القارئ، حتى لايجرؤ أحد على قراءته ناهيك عن الإحتفاظ به. وهكذا ينال مستهلك الكتاب المعاملة التي تخصصها القوانين لمستهلك العقاقير المخدّرة[٣٥]. في مشروع مجتمع الصمّ البكم، يجب أن يتحول كل مواطن إلى توركيمادا* خاص على نفسه.

في أورجواي، يُعدّ عدم الوشاية بالجيران جريمة. وعند الالتحاق بالجامعة، يقسم الطلبة، كتابةً، على أنهم سيُبلغون عن كل من يقوم، في الحرم الجامعي، "بأي نشاط خارج عن أعمال الدراسة". يجعل الطالب من نفسه مشاركاً في مسئولية أي مشهد يحدث في وجوده. ففي مشروع مجتمع من السائرين نياماً، يجب على كل مواطن أن يكون شرطياً على نفسه وعلى الآخرين. ورغم ذلك لايثق النظام بأحد، وله كل الحق في ذلك. ومجموع الشرطة والجنود مائة ألف، لكن مجموع المخبرين مائة ألف كذلك. ويعمل الجواسيس في الشوارع وفي المقاهي وفي الأتوبيسات، وفي المصانع والمدارس، وفي المكاتب والجامعة. ومن يحتج بصوتٍ مرتفع على غلاء الحياة وقسوتها، ينتهي به الأمر

---

* توركيمادا: المحقق العام بمحاكم التفتيش الإسبانية (١٤٢٠ - ١٤٩٨) والمشهور بقسوته البالغة - م.

www.ibtesama.com/vb

في السجن: فقد إقترف "هجوماً ضد الروح المعنوية للقوات المسلحة"، يدفع ثمنه بثلاث إلى ست سنوات في السجن.

١٨. في استفتاء يناير عام ١٩٧٨، كان التصويت بنعم على دكتاتورية بينوشيه يتم برسم صليب تحت علم تشيلي، وكان التصويت بلا، بالمقابل، يتم بوضع علامة تحت مربع أسود.

يريد النظام أن يخلط بين نفسه وبين البلاد. النظام هو البلاد، هكذا تقول الدعاية الرسمية التي تقصف المواطنين صباح مساء، وعدو النظام هو خائن الوطن، والقدرة على الاحساس بالمهانة تجاه الظلم والرغبة في التغيير تشكلان البراهين على الخيانة. في كثير من بلدان أمريكا اللاتينية، نجد أن من لم يصبح منفياً خارج الحدود، يحيا منفاه في بلاده ذاتها.

لكن في نفس الوقت الذي كان بينوشيه يحتفل فيه بإنتصاره، أطلقت الدكتاتورية على الإضرابات التي إندلعت في كل أرجاء تشيلي رغم الإرهاب إسم "غياب العمال الجماعي". والغالبية العظمى من المختطفين والمختفين في الأرجنتين تتشكل من عمال شاركوا في نوع من أنواع النشاط النقابي، وبدون توقف، تندرج في الخيال الشعبي الذي ليس له حدود أشكال جديدة من النضال، مثل العمل بحزن، والعمل بإضطراب، ويبلغ التضامن أبعاداً جديدة لتجنّب الخوف. وقد جرت عدة إضرابات إجماعية في الأرجنتين طوال عام ١٩٧٧، حين كان خطر فقدان الحياة أكيداً مثل خطر فقدان العمل. لايمكن، بجرّة قلم، تدمير القدرة على الرد لدى طبقة عاملة منظمة وذات تقاليد كفاحية طويلة. وفي شهر مايو من نفس العام، حين أجرت دكتاتورية أوروجواي تقييماً لبرنامجها لإفراغ الضمائر والإخصاء الجماعي، وجدت نفسها مضطرة للإعتراف بأنه "مازال في البلاد سبعة وثلاثون بالمائة من المواطنين مهتمّون بالسياسة"[٢٦].

إننا، في هذه البلاد، لانشهد الطفولة الوحشية للرأسمالية، بل شيخوختها الدموية. إن التخلف ليس مرحلة من مراحل التقدم، بل هو نتيجته. وتخلّف أمريكا اللاتينية ينبع من تقدم الآخرين ويواصل تغذيته. النظام مازال من الطين نتيجة قيامه بدور الخضوع في المجال الدولي، ونتيجة سلمه منذ مولده. إنه يطرح نفسه بإعتباره قدراً ويود أن يخلط بين نفسه وبين الأبدية. وكل ذاكرة مخرّبة، لأنها مختلفة، وكذلك كل مشروع المستقبل. يتم إجبار الزومبي Zumbi على تناول طعامه بدون ملح:

www.ibtesama.com/vb

والملح، الخطر، يمكن أن يوقظه. يجد النظام مثاله فى مجتمع النمل الذى لايقبل التغيير. ولهذا لايستريح لتاريخ البشر، لأن أموراً كثيرة تتغير، ولأن كل فعل تدمير، فى تاريخ البشر، يجد الردّ عليه، إن عاجلاً أو آجلاً، فى فعل خلق.

إدواردو جاليانو

كاليا، برشلونة، فى أبريل عام ١٩٧٨.

www.ibtesama.com/vb

الهوامـــش

(١) حوار مع جان - بيير كليرك Jean - Pierre Clerc فى صحيفة لوموند، باريس فى ٨ - ٩ مايو ١٩٧٧.

(2) the Nation, 28 de agosto.

(٣) وقعت الجريمة فى واشنطن، يوم ٢١ سبتمبر ١٩٧٦، وكان عدد من القليين السياسيين من أورجواى وتشيلى وبوليفيا قد إغتيلوا، قبلها، فى الأرجنتين. وكان من أشهرهم الجنرال كارلوس براتس، الشخصية المحورية فى الهيكل العسكرى لحكومة الليندى، الذى انفجرت سيارته فى أحد جراجات بوينوس أيرس يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٧٤؛ والجنرال خوان خوسيه توريس، الذى كان قد تزعم حكومة مناهضة للامبريالية لوقت قصير فى بوليفيا، الذى إخترقته الرصاصات يوم ١٥ يونيو ١٩٧٦؛ والمشرعان الأورجوايان ثيلمار ميشيليني وإكتور جوتييريث رويث، اللذان إختطفا، وعُذّبا، واغتيلا، فى بوينوس ايرس كذلك، بين ٨ و ٢١ مارس ١٩٧٦.

(٤) كذلك هُدم الإصلاح الزراعى الذى كان قد بدأ تحت حكم الديمقراطية المسيحية وتعمق من جانب الوحدة الشعبية. انظر:

María Beatriz de Albuquerque. W., "*La agriculturachilena: ; moderiza- ción capitalista o regresión a formas tradicionales?* Comentarios sobre la contra - reforma agraria en Chile", I beroamericana, vol. VI: 2, 1976, Institute of Latin American Studies, Estocolmo.

(٥) بعد ثلاثة أشهر، جرت انتخابات فى الجامعة، كانت هى الانتخابات الوحيدة الباقية. وحصل مرشحو الدكتاتورية على ٢,٥ بالمائة من أصوات الجامعة. وبالتالى، دفاعاً عن الديمقراطية، سجنت الدكتاتورية حشوداً كبيرة وسلمت الجامعة إلى تلكم الإثنين ونصف بالمائة.

(6) Veja, núm. 444, San Pablo, 9 de marzo de 1977.

(٧) مجلس نواب الولايات المتحدة، لجنة المخصصات، مخصصات العمليات الخارجية لعام ١٩٦٣، جلسات الكونجرس رقم ٨٧، الجلسة الثانية، الجزء الأول.

(8) Declaración de Lourdes, octubre de 1976.

(9) Le nouvelliste, Puerto Príncipe, Haití. 19 - 20 de marzo de 1977. Dato citado por Agustín Cueva en ***El desarrollo del capitalismo en América Latina***, Siglo XXI, México, 1977.

(10) Ida May Mantel, "*Sources and uses of funds for a sample of majority -*

www.ibtesama.com/vb

owned foreign affiliates of U. S. companies, 1966 - 1972", U. S. Department of Commerce, Survey of Current Business juliode 1975.

(11) Naciones Unidas, Comisióna Económica para América Latina (CEPAL) *El desarrollo económico y social ylasrelaciones externas de América Latina*, Santo Domingo, República Dominicana, febrereo de 1977.

(١٢) إن النقود، التي تملك أجنحة، تسافر دون جواز سفر. وجزء كبير من الأرباح المتولدة من إستغلال مواردنا يهرب إلى الولايات المتحدة، وسويسرا، وألمانيا الاتحادية، أو إلى غيرها من البلاد حيث تقفز قفزة بهلوان لتعود إلى أقاليمنا وقد تحولت إلى قروض.

(13) Agustín Cueva, *Op. Cit.*

(14) *Idem.*

(15) Naciones Unidas, CEPAL, *Op. Cit.*

(16) UNCTAD, *The Marketing and distribution system for banana*, diciembre de 1974.

(17) "Reflexiones sobre la desnutricion en México", Comercio exterior, Banco Nacional de Comercio Exterior, S. A., vol. 28, núm. 2, México, febrero de 1978.

(18) Roger Burbachy Patricia Flynn, *"Agribusiness Tergets Latin America"*, NACLA, volumen XII, núm. 1, Nueva York, enero- febrero de 1978.

(19) Idem.

(٢٠) معلومات من مصادر نقابية وصحفية، نشرته في Uruguay Informations، الأعداد ٢١ و ٢٥، باريس.

(21) Naciones Unidas, CEPAL, *Op. Cit.*

(22) *Idem.*

(23) OIT, *Empleo, crecimiento, necesidades esenciales*, Ginebra, 1976.

(24) Naciones Unidas, CEPAL., *Op. Cit.*

(٢٥) في أوروجواي، اكتسب المحققون ملامح حديثة، في مزيج غريب من البربرية والحس الرأسمالي. فلم يعد العسكريون يحرقون الكتب إلا يبيعونها الآن إلى شركات الورق، وشركات الورق تفرمها وتحولها إلى لب الورق وتعيدها إلى السوق الاستهلاكية. ليس صحيحاً أن ماركس ليس في متناول

www.ibtesama.com/vb

الجمهور، إنه في متناول الجمهور، ليس في شكل كتب، بل على شكل مناديل ورقية.

(٢٦) مؤتمر صحفي للرئيس أباريثيو ميندث، يوم ٢١ مايو ١٩٧٧، في باياساندو. قال الرئيس "إننا نجنّب البلاد مأساة الحماس السياسي، فالرجال الطيبون لايتحدثون عن الدكتاتوريات، ولايفكرون في الديكتاتوريات، ولايطالبون بحقوق الإنسان".



www.ibtesama.com/vb

المعالجة وتخفيض الحجم
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

بقيادة
** معرفتي **

www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة



هذا الكتاب سيرةٌ ذاتية لقارّة بأسرها، صندوق ذكرياتها التي تُفسّر ملامحها وتشير إلى آفاق مستقبلها. لذا فإنه كتابٌ في التاريخ، والإقتصاد، والاجتماع، والسياسة. مكتوب بلغة سهلة وعاطفة جياشة.

إنه تاريخ المقهورين الذى لايكتبه أحد. تاريخ حيّ في الحاضر، يستدعى كلٌّ منهما الآخر. وهو كتاب في الإقتصاد، يوضح أن التخلف ليس مرحلة من مراحل التقدم، بل نتيجة له. تخلفنا كثمن لتقدم المراكز الاستعمارية. ويكشف عن طابع العنف الكامن في الإقتصاد، وعن الطابع الإقتصادى للعنف. وهو كتاب فى الاجتماع يعلن أن علاقة الضحيّة والجلاد هي جدل شرير. ويرفض سلسلة الإخضاع التى تبدأ فى المراكز المصرفية العالمية لتنتهى فى منزل كل مواطن. وهو كتاب فى السياسة، لأن من يُقرض يأمر. وشعوبنا غارقة فى الديون.

لكنه، أولاً وأخيراً، كتاب إحتجاج وأمل. يجعلنا نرى ملامحنا فى وجوه الشقاء الماثلة أمامنا، ونتعرف على قيودنا فى معاصم أشقاء لنا. ويؤكد أن الذاكرة ثورية، لأنها تعلمنا أن كل شئ يتغير.

ولد ادواردو جاليانو فى مونتفيديو، عاصمة أورجواى، عام ١٩٤٠. إستهل عمله فى الصحافة برسوم وكاريكاتورات سياسية فى الأسبوعية الاشتراكية *إل سول*. فيما بعد، تولى رئاسة تحرير الأسبوعية *مارشا* وإدارة تحرير الصحيفة اليومية *إيبوكا*. فى ١٩٧٣، إختار المنفى إلى الأرجنتين، حيث أسّس وأدار مجلة *كريسيس*. وعاش منذ ١٩٧٧ فى إسبانيا حتى عاد إلى بلاده عام ١٩٨٥.

النيل

www.ibtesama.com/vb

روائع مجلة
الابتسامة
من الكتب
المعالجة
والصفحات الفردية

www.ibtesama.com/vb